

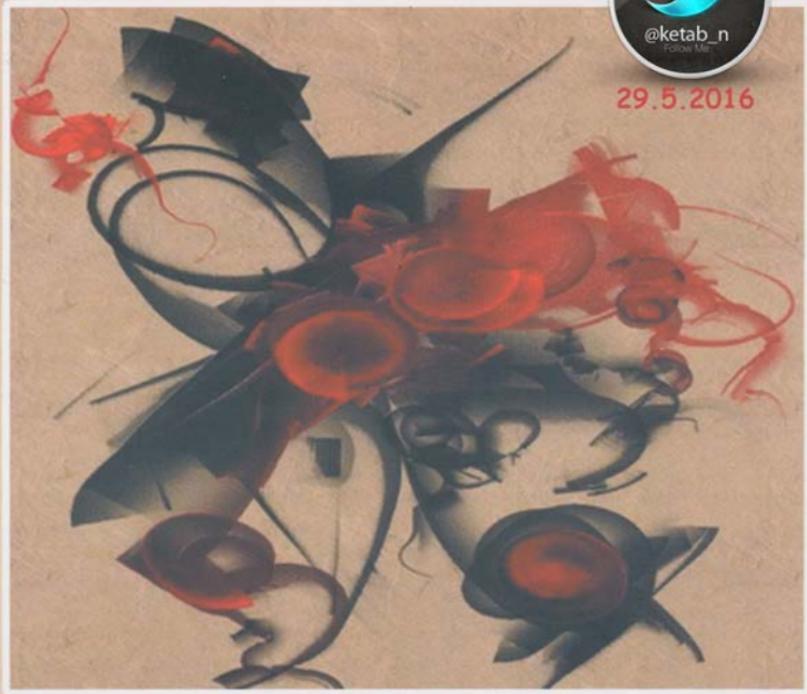
ماريو باراغاس يوسا

# البطل المكتوم

رواية



29.5.2016



ترجمة: صالح علمااني



ماريو بارغاس يوسا

# المُبْلِلُ الْمُتَكَبِّرُ

ترجمة: صالح علماني

دار الحوار

# البطل المتكتم

الكتاب: البطل المكتوم

المؤلف: ماريو باراغاس يوسا

الطبعة الأولى: 2016/4

ترجمة: صالح علمني

حقوق الطبعة العربية محفوظة © دار العوار للنشر والتوزيع.

هذه هي الترجمة الأصلية للنص الإسباني:

Mario Vargas Llosa

El héroe discreto



**ISBN: 978-9933-528-58-9**



تم تنفيذ التنضيد والاخراج الضوئي في القسم الفني بدار العوار

دار العوار للنشر والتوزيع [www.daralhiwar.com](http://www.daralhiwar.com)

ص. ب 1018 اللاذقية، سوريا.

هاتف وفاكس: +963 41 422 33

البريد الإلكتروني [daralhiwar@gmail.com](mailto:daralhiwar@gmail.com)

[info@daralhiwar.com](mailto:info@daralhiwar.com)



يمنع نسخ أو تصوير هذا الكتاب أو أجزاء منه بأي وسيلة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو تصوير ضوئي أو تسجيل على أشرطة أو أقراص مقرورة أو أية وسيلة نشر أخرى دون إذن خطى مسبق من دار العوار للنشر والتوزيع.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the written permission of Dar Al Hiwar Publishing Company



إلى ذكرى صديقي  
خابير سيلفا روبي



«واجبنا الجميل هو أن نتخيل أن هنالك متاهة وخيطاً»

خورخي لويس بورخيس  
«الخيط والمتاهة»



## II

خرج فيليثيتو ياناكيه، صاحب شركة ناريهوala للنقل، من بيته في ذلك الصباح كما في كل يوم، من الاثنين إلى السبت، في الساعة السابعة والنصف بالضبط، بعد أن مارس تمارين الكي- جونغ لمدة نصف ساعة، واستحم تحت دوش ماء بارد، ثم أعدَّ فطوره العتاد: قهوة بحليب الماعز وخبز محمص مع الزبد قطرة صغيرة من عسل التشانكاكا. كان يعيش في مركز مدينة بيورا، وكان صخباً المدينة قد انفجر في شارع اريكيبيا، وغصت الأرصفة بأناس يتوجهون إلى مكاتب عملهم أو إلى السوق، أو يوصلون أطفالهم إلى المدرسة. بعض المتدينات كنْ يتوجهن إلى الكاتدرائية من أجل قداس الساعة الثامنة. وكان الباعة المتجولون يعلنون بأعلى صوت عن بضاعتهم من حلوي الميلوكوتشا ورقائق الموز المجففة، وفطائر وكل أنواع الترهات. وكان الأعمى لوثيندو قد استقر في موقعه عند الناصية، تحت شرفة البيت الكولونيالي، وعلبة جمِّع الصدقات عند قدميه. كل شيء كما في كل يوم بالضبط، ومنذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة.

ثمة استثناء وحيد. ففي هذا الصباح، وعلى بوابة بيته القديمة المصنوعة من خشب مزین بمسامير حديدية كبيرة، أصلق أحدهم، عند مستوى المقرعة البرونزية، مغلقاً أزرق يُقرأ عليه بوضوح، وبحرروف كبيرة، اسم صاحب البيت: دون فيليثيتو ياناكيه. وعلى ما يذكره هو

نفسه، كانت تلك هي أول مرة يتركُ له فيها أحدهم رسالةً معلقةً بهذه الطريقة، كأنها إشعار قضائي أو قسيمة غرامة. فمن المعهود أن يَدْسَ ساعي البريد الرسائل من فتحة في الباب إلى الداخل. انتزع الرسالة المعلقة. فتح الملف وقرأها وهو يحرك شفتيه مع تقدمه في القراءة.

السيد بيانكيه

أن تسير أمور شركة ناريهوala للنقل التي تملكها على ما يرام يُشكّل مصدر فخر لبيورا وأهالي بيورا. ولكنه يشكل خطراً أيضاً، فكل شركة ناجحة معرضة للسطو والتخييب على يد الحاذدين والحسدين وغيرهم من الأشخاص الذين يوجد كثيرون منهم مثلما تعرف حضرتك. ولكن لا تقلق. فمنظمنا ستتولى حماية شركة ناريهوala للنقل، وحماية حضرتك بالذات وأسرتك الموقرة من أي أذى أو مضائق أو تهديد من الأشخاص. ستكون مكافأتنا عن هذا العمل مبلغ 500 دولار شهرياً (وهو مبلغ متواضع بالنسبة لثرؤتك كما ترى). سوف نتصل بك في الوقت المناسب بشأن طريقة الدفع.

لسنا بحاجة للتاكيد لك على ضرورة الحفاظ على أعلى قدر من التكتم حول هذا الموضوع. فالامر كله يجب أن يظل بيننا. ولليحفظ الله حضرتك.

وبدلاً من التوقيع، كانت الرسالة تحمل رسمًا فظًا لما يشبه عنكبوتًا. قرأها دون فيليثيتو مرتين آخرين. الرسالة مكتوبة بخطٍ متراقص مع لطخات حبر. شعر بالمفاجأة والمتعة، مع إحساس غامض بأن المسألة لا تعود أن تكون مزحة سمجة. جعد الورقة والم ملف و كان على وشك أن يرمي بهما إلى سلة القمامنة عند الناصية، حيث يقف الأعمى لوثيرندو. لكنه ندم على ذلك، فأعاد تمسيد الرسالة ووضعها في جيده.

هناك حوالي عشرة شوارع بين بيته في شارع اريكيبيا ومكتبه في  
جادة سانتشيث سيرو. لم يجتزها هذه المرة وهو يهيء في ذهنه أجندة  
عمل اليوم، مثلاً يفعل دوماً، بل كان يقلب في عقله مسألة رسالة  
العنكبوت. هل عليه أن يأخذ الأمر على محمل الجد؟ أيذهب إلى  
الشرطة لتقديم شكوى؟ المبتزون يقولون إنهم سيتصلون به من أجل  
«طريقة الدفع». أيكون من الأفضل الانتظار إلى أن يفعلوا ذلك قبل  
توجهه إلى مفوضية الشرطة؟ ربما لا يكون الموضوع أكثر من ظرافات بطال  
متعلّل يريد له أن يمر بلحظة عصيبة. صحيح أن الجرائم قد تزايدت  
في بيورا منذ بعض الوقت: سرقات من البيوت، أعمال نشل في  
الشارع، وحتى عمليات اختطاف تقوم بتسويتها تحت المنضدة، كما  
يقال، عائلات البيض في حبيبي التشيبة ولوس إخيدوس. كان يشعر  
بالحيرة والتردد، ولكنه واثق على الأقل من أمر واحد: لن يقدم، تحت  
أية ذريعة أو أي ظرف، سنتاً واحداً لأولئك اللصوص. وتذكر فيليثيتو  
مرة أخرى، مثلاً حدث له في مرات كثيرة في حياته، الكلمات التي  
قالها له أبوه قبل أن يموت: «لا تسمح لأحد بأن يُذلك يابني. هذه  
النصيحة هي الإرث الوحيد الذي ستحصل عليه مني». وقد عمل  
بنصيحته، ولم يسمح لأحد بأن يُذلك. وبعد ما يزيد على نصف قرن  
يحملها على كاهله، صار عجوزاً لا يمكن له تغيير عاداته. كان  
مستغرقاً في هذه الأفكار إلى حد لم يكدر يحيي الشاعر خواكين راموس  
بأكثر من انحناءة سريعة، وغذ الخطى قدمًا، مع أنه كان يتوقف في  
مرات سابقة أخرى، لتبادل بعض الكلمات مع ذلك البوهيمي المتمادي  
الذي يكون قد أمضى الليل في أحد البارات الصغيرة، ويقف في هذا  
الوقت عائداً إلى بيته بعينين زجاجيتين، وعدسة المونوكل الدائمة وهو  
يجر خلفه العزة التي يسميها غزالته.

حين وصل إلى مكاتب شركة ناريهاولا كانت الحافلات قد خرجت في مواعيدها إلى سويانا وتالارا وتومباس، وإلى تشولوكاناس وموروبون، وإلى كاتاكاوس ولأونيون وسيتشورا وبابويبار، وجميعها بعدد جيد من الركاب، وكذلك الفانات الصغيرة إلى تشيكلايو، والشاحنات إلى بايتا. وكان هناك عدد من الأشخاص يُحررون معاملات إرسال طرود أو يتحررون عن مواعيد حافلات وفانات بعد الظهر. وكانت سكرتيرته خوسيفيتا ذات الوركين الكبيرين والعينين الحبيتين والبلوزات واسعة فتحة الصدر، قد وضعت على مكتبه قائمة مواعيده والتزاماته لهذا اليوم، وحافظة القهوة التي يأخذ بتناولها خلال فترة الصباح وحتى موعد الغداء.

- ماذا جرى لك أيها الرئيس؟ - حيئه سكرتيرته - لماذا هذا الوجه؟  
هل رأيت كابوساً الليلة؟

- مشاكل صغيرة - أجابها بينما هو يخلع القبعة والسترة ويعلّقهما على المشجب ويجلس. لكنه نهض من فوره وأعاد ارتداء السترة ووضع القبعة على رأسه من جديد، كما لو أنه تذكر أمراً مستعجلًا جداً.  
- سأرجع بسرعة - قال لسكرتيرته وهو يتوجه نحو الباب - إنني ذاهب إلى مفوضية الشرطة لتقديم شكوى.

- هل داهم لصوص بيتك؟ - فتحت خوسيفيتا عينيها المتيقظتين والتفافرتين - هذا ما صار يحدث كل يوم في بيورا الآن.  
- لا، لا، سوف أُخبرك لاحقاً بما جرى.

توجه فيليثيتو بخطوات حازمة إلى المفوضية القائمة على بعد كواردات قليلة من مكتبه، في جادة سانتيشيث سيرو نفسها. كان الوقت لا يزال مبكراً والحر يبدو محتملاً، ولكنه يعرف أن هذه الشوارع التي تفص بوكالات السفر وشركات النقل ستبدأ خلال أقل من ساعة بالتأجج

وسيرجع متعرقاً إلى المكتب. لقد قال له ابنه، ميفيل وتيبورثيو، مرات ومرات، إنه من الجنون ارتداء جاكيت وصدر وقبعة على الدوام في مدينة جميع من فيها، فقراء وأغنياء، يقضون السنة كلها بقمصان قصيرة الأكمام أو سترات الغوايابيرا الخفيفة. ولكنه لم يكن يخلع تلك الملابس، كي يحافظ على المظهر، منذ افتتاحه شركة ناريهمولا، فخر حياته؛ ففي الشتاء والصيف يرتدي على الدوام القبعة والجاكيت والصدر، وربطة العنق بعقتها الصغيرة جداً. إنه رجل قصير القامة ونحيل جداً، قليل الكلام وشغيل. لم ينتعل حذاء قط هناك في ياباتира، حيث ولد، أو في تشلوكانايس، حيث درس الابتدائية، ولم يبدأ بانتعال الأحذية إلا حين جاء به أبوه إلى بيورا. إنه الآن في الخامسة والخمسين، يحتفظ ببنية سليمة، وبلياقة بدنية وحب للعمل. وهو يظن أن الفضل في حالته البدنية الجيدة يعود إلى تمارين الكي جونغ الصباحية التي علمه إياها صديقه، البقال المتوفى لاو. وهذه هي الرياضة الوحيدة التي مارسها في حياته، إضافة إلى المشي، إن كان بالإمكان إطلاق تسمية رياضة على حركات الكاميرا البطيئة تلك التي هي أولاً، وقبل أن تكون تمارين للعضلات، مجرد طريقة مختلفة وحكيمة للتنفس. وصل إلى مفوضية الشرطة متقللاً بالحر وغاضباً. فسواء أكان الأمر مزاحاً أم غير مزاح، فقد جعله من كتب تلك الرسالة يضيع الصباح.

كانت المفوضية في الداخل فرناً، وبدا المكان شبه مظلم لأن النوافذ كلها مغلقة. كانت هنالك مروحة عند المدخل، ولكنها متوقفة. الشرطي الذي يجلس إلى منضدة الاستعلامات، وهو شاب فتى أمرد، سأله عما يريد.

- أريد التحدث إلى الرئيس من فضلك - قال فيليثيت و هو يقدم إليه بطاقته.

- المفوض في إجازة ليومين - أوضح له الشرطي - إذا رغبتَ يمكن للرقيب ليتوما أن يستقبلك، فهو المسؤول عن الموقع حالياً.  
- سأتحدث إليه إذاً، أشكرك.

كان عليه أن ينتظر ربع ساعة إلى أن تنازل الرقيب واستقبله. وعندما أدخله الشرطي إلى المقصورة الضيقة، كان منديل فيليثيتو مبللاً بالعرق لكترة ما مسح به جبهته. لم ينهض الرقيب لمصافحته. مدّ إليه يداً سميكة ورطبة، ثم أشار إلى الكرسي الفارغ قبالتها. إنه رجل معتلى، يميل إلى البدانة، له عينان ضيقتان لطيفتان، وببداية لغدٍ يتلمسه بين حين وأخر بتحبيب. يرتدي قميص الخدمة الخاكي مفتوح الأزرار، مع بقعتي عرق تحت الإبطين. وهناك على المنضدة الصغيرة مروحة كهربائية، وقد كانت الروحة تعمل. شعر فيليثيتو بالامتنان لهبة الهواء الباردة التي داعبت وجهه.

- بماذا يمكنني أن أخدمك يا سيد ياناكى.  
- لقد تلقيتُ للتو هذه الرسالة. أسلقوها على باب بيتي.  
رأى الرقيب ليتوما يضع نظارة تمنحه هيئة كثيبة. وبملامح هادئة راح يقرأ الرسالة بدقة.

- حسنٌ حسن - قال أخيراً وهو يتصنّع تكشيرة لم يتمكن فيليثيتو من تفسيرها - هذه هي نتائج التقدم أيها السيد.  
وحيث انتبه إلى ارتباك صاحب شركة النقل، أوضح وهو يهز الرسالة التي مازالت في يده:

- عندما كانت بيورا لا تزال مدينة فقيرة، لم تكن تحدث هذه الأمور. فمن ذا الذي كان يخطر له آذاك أن يطلب إتاوة من تاجر؟ أما اليوم، فالآموال كثيرة، والمحталون يُشهرون مخالبهم ويريدون التصرف على هواهم. المسؤولية يتحملها الإكوادوريون يا سidi. فهم لا يثقون

بحكومتهم، ويُخرجون رؤوس أموالهم من هناك ويأتون للاستثمار هنا.  
إنهم يملؤون جيوبهم منا نحن أهالي بيورا.

- هذا الكلام لا يمنعني أي عزاء أيها الرقيب. أسف إلى ذلك أنه يخيل إليّ وأنا أسمعك أن كارثة حلّت ببيورا الآن لأن أمورها تمضي على ما يرام.

- لم أقل هذا - قاطعه الرقيب باقتضاب -. ما عنите فقط هو أن لكل شيء ثمنه في هذه الحياة. وثمن التقدم هو هذا الذي يحدث.

وهر مجدداً رسالة العنكبوت في الهواء، فبذا لفيليسيتيو ياناكيه أن ذلك الوجه الأسمر البدين يسخر منه. كان يلمع في عيني الرقيب ويمض بين الأصفر والضارب إلى الخضراء، مثل أعين الضبوب. وسمع من عمق المفوضية صوتٌ زاعق: «أفضل مؤخرات البيبرو موجودة هنا، في بيورا!» أؤكد ذلك، يا للعنة». ابتسم الرقيب ورفع إصبعه إلى صدغه. بينما اكتسى فيليسيتيو بعلامات جدية جداً وهو يشعر برهاب الحبس. إذ يكاد لا يوجد أي فراغ بينهما وسط تلك الجدران الخشبية الملطخة بإشعارات ومذكرة وصور وقصاصاتِ صحف مثبتة بدبابيس. لقد كان يعبق برائحة العرق والشيخوخة.

- العاهر الذي كتب هذه الرسالة لديه معارف إملائية جيدة - أكد الرقيب وهو يتصفح الرسالة -. فأنا، على الأقل، لا أجد لديه أخطاء نحوية.

أحس فيليسيتيو بدمائه تغور.

- لستُ جيداً في النحو ولا أظن أن هذا يفيد كثيراً - دمدم بنبرة احتجاج -. ما الذي سيحدث الآن برأيك؟

- الأن فوراً لن يحدث أي شيء - أجابه الرقيب دون تردد -. سأسجل المعلومات من باب الاحتياط. ربما لن يتعدى الأمر هذه

الرسالة. ربما وضعك أحدهم نصب عينيه ويريد إزعاجك. أو قد يكون الأمر جدياً. الرسالة تقول إنهم سيتصلون بك من أجل الدفع. إذا فعلوا ذلك عد إلى هنا وسنرى ماذا نفعل.

- يبدو لي أنك لا تولي الأمر أهمية. احتج فيليثيتو.

- ليس للأمر أهمية حتى الآن - أكد الرقيب وهو يهز كتفيه -. فهذه ليست سوى قصاصة ورق مجعدة يا سيد ياناكيه. يمكن أن تكون دعاية سمعية. ولكن إذا صار الأمر جداً، فسوف تتصرف الشرطة، أؤكد لك. وباختصار، فلنبدأ العمل.

وخلال وقت لا بأس به، كان على فيليثيتو أن يقدم معلوماته الشخصية والمهنية، بينما راح الرقيب ليتوما يدونها في دفتر ذي غلاف أخضر بقلم رصاص يبلله بفمه بين حين وآخر. كان صاحب شركة النقل يرد على الأسئلة التي تبدو له غير مجدية بتهدب متزايد. مجئه لتقديم هذه الشكوى لم يكن إلا إضاعة للوقت. فهذا الشرطي لن يفعل شيئاً. أضف إلى ذلك، ألا يقال إن الشرطة هي الأكثر فساداً بين المؤسسات العامة؟ ربما تكون رسالة العنكبوت آتية من هذا الجحر كريه الرائحة بالذات. وحين قال له ليتوما إنه يجب إبقاء الرسالة في المفوضية كدليل

اتهام، رد عليه فيليثيتو بنفور:

- أريد نسخة مصورة عنها أولاً.

- لا توجد لدينا آلة تصوير فوتوكبي هنا - أوضح الرقيب مشيراً بيديه إلى تكشف المكان الشبيه بتكشف الكهنة الفرنسيسكان - هناك في الشارع العام متاجر كثيرة تقوم بالتصوير. اذهب وصورها ثم ارجع أيها السيد. إنني هنا بانتظارك.

خرج فيليثيتو إلى جادة سانتشيث سيرو، وبالقرب من سوق التموين وجد ما يبحث عنه. اضطر للانتظار لوقت لا بأس به إلى أن انتهى

بعض المهندسين من تصوير كومة مخطوطات، وقرر ألا يعود للخضوع مجدداً لاستجواب الرقيب؛ فسلم النسخة المchorة من الرسالة لشريطي منضدة الاستعلامات، وبدل أن يرجع إلى مكتبه عاد للتغل في مركز المدينة المعتلى بالناس وصخب السيارات، والحر ومكبرات الصوت، والمتوتكسي وضجيج العربات. اجتاز شارع غراو، وظل أشجار التمر الهندي في ساحة السلاح، وقاوم إغواء رغبته في الدخول لتناول مثلجات فواكه في محل تشالان، توجه نحو حي المسْلَخ القديم، حي أيام مراهقته، لا غالينيرا، المجاور للنهر. وكان يتضرع إلى الرب أن تكون آديلايدا في دكانها. فالتحدث إليها سيكون مفيداً له. سيُحسن من مزاجه، ومن يدرى كذلك إن كان بإمكان تلك التقيقة أن تقدم إليه نصيحة جيدة. كان الحر قد بلغ أوجه دون أن تكون الساعة قد بلغت العاشرة بعد. بدأ يشعر ببرطوبة في جبهته وبصفحة متاججة عند مستوى قذاله. مشى بسرعة، بخطوات قصيرة ومتجلة، مصطدماً بالناس الذين يملؤون الأرصفة الضيقة العابقة بروائح البول والمقالي. بينما مذيع يعزف بأعلى صوت موسيقى أغنية ميركومبri.

فيليثيتو يقول أحياناً، وقد قال ذلك لزوجته خيرتروديس ولابنيه، إن الله كافأ جهوده طوال حياته بأن وضع في طريقه شخصين: البقال لا والتقيقة آديلايدا. فمن دونهما ما كان يمكن لأعماله أن تمضي على ما يرام، وما كان ليتمكن من المضي قُدُّماً بشركته للنقل، ولما استطاع تكوين أسرة محترمة. ومنذ أن أودت التهابات معوية بالمسكين لا ونقلته إلى العالم الآخر، لم يبق له سوى آديلايدا. وهاهي هناك لحسن الحظ، تتصفح إحدى المجالات، وراء منضدة دكانها الصغير، حيث تتبع أعشاباً وصور قديسين ومشغولات تطريز وتوافة أخرى.

- مرحباً يا آديلايدا - حياها وهو يمد يده لمصافحتها - صافحي هذه الخمس. يا لحسن حظي بالعثور عليك.

إنها خلاسية بلا سن محددة، قصيرة القامة، ضخمة المؤخرة والصدر، تمشي حافية على أرضية دكانها الترابية، لها شعر طويل وممجد ينسدل على كتفيها، وترتدي ذلك الجلباب أو المسوح الأزلي الذي له لون الطين النيء ويصل حتى كاحليها. عيناها واسعتان ولها نظرتان تبدو أنها تثقب أكثر من كونها ترى، تخفف منها ملامحها اللطيفة التي تمنح الناس طمأنينة.

- مجيئك لزيارتني يعني أن ضرراً قد أصابك أو سيحل بك - ضحكت آديلايدا وهي تربت على ظهره - ما هي مشكلتك يا فيليثيت؟  
قدم إليها الرسالة.

- لقد تركوها على باب بيتي صباح اليوم. لا أدرى ماذا أفعل. قدمتُ شكوى في مفوضية الشرطة، ولكنني أظن أنها لن تجدي أي نفع.  
فالشرطي الذي استقبلني لم يُبِدَّ كبير اهتمام.  
تلمست آديلايدا الرسالة وشمتها بعمق كما لو أنها عطر. ثم رفعتها إلى فمهما وبدا لفيليثيت أنها تمص حافة الورقة.

- اقرأها لي يا فيليثيت - قالت وهي تعينها إليه -. أرى أنها ليست رسالة حب، تشي غوا<sup>(1)</sup>.

استمعت بجدية بالغة بينما صاحب شركة النقل يقرأ. وعندما انتهى، زمت شفتتها بحركة سخرية وفتحت ذراعيها:  
- ماذا تريدين أن أقول لك يا فيليثيت؟

<sup>(1)</sup> تشي غوا che: تعبير شعبي شائع الاستخدام في مدينة بيورا البيروفية، وهو تعبير متعدد الدلالات والاستخدامات، وغالباً ما يكون للإشارة إلى الاعجاب أو الاستثناء، ولأن هذا التعبير يتكرر مراراً في الرواية التي تدور معظم أحداثها في مدينة بيورا، وجدنا أنه من الأفضل الحفاظ عليه، بدلاً من استخدام كلمة «عجبًا» أو سواها.

- أخبريني إن كان هذا الأمر جدياً يا آديلايدا. وإن كان علي أن أفلق أم لا. أم أنها مجرد مزحة يلعبونها معي مثلاً. أوضحني لي هذا الأمر، أرجوك.

أفلتت التقية قهقهة هزت كامل جسدها المتين المخبا تحت الجلباب الواسع ذي اللون الطيني.

- أنا لستُ أرب لأعرف هذه الأمور - هتفت وهي ترفع كتفيها وتنزلهما وتحرك يديها.

- ألا يقول لكِ الوحي شيئاً يا آديلايدا؟ إبني أعرفك منذ خمسة وعشرين عاماً ولم تقدمي لي نصيحة سيئة قط. نصائحك كلها كانت مفيدة. لا أدرى ما الذي يمكن لحياتي أن تكون عليه من دونك يا صديقي. ألا يمكنك أن تقدمي لي نصيحة الآن؟

- لا يا بابيتو، لا نصيحة لدى - أجابت آديلايدا متظاهرة بالحزن - لم يأتني أي وحي. متأسفة يا فيليثيتو.

- حسن، لا يمكننا عمل شيء - وافق صاحب شركة النقل وهو يمد يده إلى محفظته - إذا لم يأتك أي وحي فهذا يعني أنه غير موجود.

- لماذا تدفع لي نقوداً ما دمتُ غير قادرة على نصحك - احتجت آديلايدا. ولكنها انتهت إلى أن دست في جيبها العشرين سولاً التي أصر فيليثيتو على أن تتقبلها منه.

- أيمكنني الجلوس قليلاً هنا في الظل؟ لقد أنهكت من كثرة الحركة يا آديلايدا.

- اجلس واسترخ يا بابيتو. سأريك بكأس ماء بارد، أخرجته للتو من حجر التقطرير. استرخ وحسب.

خلال ذهاب آديلايدا إلى داخل الدكان وعودتها، تفحص فيليثيتو في عتمة المحل الخفيفة شياكة العنكبوت الفضية المتسلية من السقف،

والرفوف القديمة وما عليها من أكياس صغيرة تحتوي بقدونس، وإكليل الجبل، وكزبرة، ونعنع، وعلب المسامير والبراغي والحبوب والعرى والأزار، وسط رسوم وتصاوير للعذراء والمسيح وقديسين وقديسات، ورعين وورعات، مقطعة من مجلات وصحف، يتزين بعضها بشموع صغيرة مشتعلة وغيرها بزینات أخرى تتضمن مسابح وقلادات القلب المقدس وأزهاراً من الشمع أو الورق. بسبب تلك الصور يدعونها في بيرو «التنية»، ولكن آديلايدا لم تكن تبدو لفيليثيو شديدة التدين خلال ربع قرن من معرفته لها. فهو لم يرها قط في القدس مثلاً. أضف إلى ذلك أن كهنة الأحياء يعتبرونها ساحرة كما يقال. وهذا ما يناديها به الصبية في الشوارع أحياناً: «ساحرة! ساحرة!». لم يكن ذلك صحيحاً، فهي لا تمارس الشعوذة مثل كثيرات من الخلاسيات المحتالات في كاتاكاووس وفي لاليغوا من يبعن عقاقير للحب أو البغض أو جلب سوء الطالع، أو مثل أولئك الشامانات في هواناكاباما الذين يُمررون قوارض الكوي<sup>(١)</sup> على أبدان المرضى الذين يدفعون لهم أو يُقطّسونهم في بحيرة هوارينغاس لتخليصهم من العلل. لم تكن آديلايدا ولو مجرد عرافية محترفة. فهي تمارس هذه المهنة في أحيان متباude، ومع الأصدقاء والمعارف فقط، دون أن تتقاضى منهم سنتاً واحداً. وإذا ما ألح عليها هؤلاء ينتهي بها الأمر إلى أخذ الرايمية التي يرغبون في تقديمها إليها. وقد كانت زوجة فيليثيو وابناه (وكذلك مابيل) يسخرون منه لإيمانه الأعمى بوحي آديلايدا ونصائحها. أما هو فلم يكن يصدقها وحسب، بل إنه يتعاطف معها. يُحزنه فقرها ووحدتها. لا يُعرف لها زوج ولا أقارب؛ إنها وحيدة دوماً، ولكنها تبدو سعيدة بحياة الناسك التي تعيشها.

(١) : حيوان من فصيلة القوارض، بحجم الأرنب تقريباً، موطنها مناطق الأنديز، وبصورة خاصة في بيرو.

لقد رآها أول مرة قبل ربع قرن، حين كان سائق شاحنة عبر المقاطعات، ولم تكن لديه بعد شركة النقل الصغيرة، وإن كان يحلم ليلاً ونهاراً في امتلاكها. وحدث عند الكيلومتر الخمسين على أوتوستراد بان أميركانا، حيث تلك الاستراحات التي تتوقف فيها الحافلات والشاحنات والفنانات دواماً لتناول مرق دجاج أو قهوة، وملء قرعةٍ من شراب التشيتشا وأكل سندويتش قبل مواجهة طريق صحراء أولوس الطويل والممتد، المترع بالغبار والأحجار، الخالي من القرى ولا وجود فيه لأية محطة وقود أو ورشة ميكانيك لحالات الحوادث. كانت آديلايدا ترتدي منذ ذلك الحين هذا الجلباب الذي بلون الطين، والذي سيكون لباسها الوحيد على الدوام، وكانت تملك أحد أكشاك بيع اللحم المقدد والمرطبات. وكان فيليشيتو يومذاك يقود شاحنة تعود ملكيتها لشركة روميرو، محملة حتى الذروة ببلاطات قطن، ويتجه بها إلى مدينة تروخيبيو. كان يمضي وحيداً، إذ تخلف معاونه عن الرحلة في اللحظة الأخيرة لأن المستشفى العمالي أخبره أن حالة أمه صارت حرجة جداً، ويمكن أن تموت في أية لحظة. كان فيليشيتو يأكل تاماً وهو يجلس على مقعد إلى منضدة كونتوار كشك آديلايدا حين انتبه إلى أن المرأة تنظر إليه بطريقة غريبة بتينك العينين العميقتين والمتقصيتين اللتين لها. أي ذبابة لسعت هذه السيدة، تشي غوا؟ لقد امتع وجهها. وبدت شبه مرتعبة.

- ماذا أصابك يا سيدة آديلايدا؟ لماذا تنظرين إلى هكذا، كالمربابة بشيء ما؟

لم تقل شيئاً. وواصلت تصويب عينيها السوداويتين الواسعتين والعميقتين إليه مظهرة تصعيرة اشمئزاز وخوف تُقْعَر خديها وتُجَعَّد جبينها.

- هل أنت مريضة؟ ألحَ فيليثيتو بقلق.

- خير لكَ ألا تصعد إلى هذه الشاحنة. قالت المرأة أخيراً بصوت مبحوح، كما لو أنها تبذل جهداً كبيراً لينصاع لها لسانها وحنجرتها. وكانت تشير بيدها إلى الشاحنة الحمراء التي أوقفها فيليثيتو إلى جانب الطريق.

- أتريدينني ألا أصعد إلى شاحنتي؟ - ردّ مشوشًا - ولماذا، إن كان يمكن لي أن أعرف؟

رفعت آديلايدا عينيها عنه لحظة لتنظر في ما حولها، كما لو أنها تخشى أن يسمعها السائقون والزبائن الآخرون، أو أصحاب محلات والبارات في الاستراحة.

- لدي وحي - قالت له مخفضة صوتها، بوجهها المتفتح كالسابق - لا يمكنني أن أفسر لك الأمر. صدق ما أقوله وحسب، أرجوك. من الأفضل ألا تصعد إلى هذه الشاحنة.

- أشكُ لك نصيحتك يا سيدتي، وأنا واثق من أنها نصيحة بنية طيبة. ولكن عليَ أن أكسب قوتي. إنني سائق، وأكسب لقمة العيش من سيارة الشاحنات يا سيدة آديلايدا. وإلا كيف سأوفر الطعام لزوجتي وابني؟

- كن حذرا إذاً على الأقل - طلبت منه المرأة وهي تخفض نظرها - صدقني.

- هذا أمر يمكنني أن أعدك به يا سيدتي. فأنا حذر على الدوام. بعد ساعة ونصف من ذلك، وعند منعطف على الطريق غير المعبد، وسط زوبعة غبار بين رمادية وصفراء، ظهرت حافلة لشركة كروث دي تشايلبون وهي تصدر صريراً وزمجاً وتتجه للاصطدام بالشاحنة بصلب مدو من الصفيح والمكافحة والصراخ وصريف العجلات. تمكن فيليثيتو

الذي يتمتع بردود فعل انعكاسية سريعة من الانحراف بالشاحنة وإخراج الجزء الأمامي منها عن الطريق، وهكذا اصطدمت الحافلة بصدوق الشاحنة وحملتها مما أنقذ حياته. ولكنه ظل عاجزاً عن الحركة تحت جبائر من الجبس إلى أن التحتمت عظام ظهره وكتفه وساقه اليمنى، فضلاً عن الآلام التي تسببها له حكة تبعث على الجنون. وعندما تمكن أخيراً من العودة إلى سيادة الشاحنة، كان أول ما فعله الذهاب إلى الكيلومتر خمسين. وقد تعرفت السيدة آديلايدا عليه فوراً.

- يسعدني أنكَ على ما يرام - قالت له على سبيل التحية - هل آتيك بوجبة تامال ومياه غازية كالعادة؟

- أتوسل إليك بأعز ما لديك أن تخبريني كيف عرفت أن حافلة كروث دي تشارلبون ستصطدم بي يا سيدة آديلايدا. إنني لا أتوقف عن التفكير في الأمر منذ ذلك اليوم. هل أنت ساحرة، أم قديسة، أم ماذ؟ رأى السيدة تكتسي بالشحوب ولم تعد تدري ما تفعله بيديها. وكانت قد أطربت رأسها مرتبكة.

- أنا لم أعرف شيئاً من هذا - تلعمت دون النظر إليه، كمن هي متهمة بأمر خطير -. لقد كان وحياً، ولا شيء أكثر من هذا. وهو ما يحدث لي أحياناً، دون أن أعرف السبب. لست أسعى إلى ذلك.. تشي غوا. أقسم لك. إنها لعنة نزلت بي. أنا لا أرغب في أن يجعلني الرب المقدس هكذا. إنني أصلى له كل يوم كي ينتزع مني هذه الهبة التي منحني إياها. إنها مسألة رهيبة، صدقني. تجعلني أشعر بالذنب لكل الأمور الخبيثة التي تحدث للناس.

- ولكن ما الذيرأيته يا سيدتي؟ لماذا قلت لي في ذلك الصباح إنه من الأفضل لي ألا أصعد إلى شاحتني؟

— لم أر شيئاً، فأنا لا أرى الأمور التي ستحدث أبداً. ألم أخبرك بذلك؟ إنه وحي وحسب. إلهام بأنك إذا ما صعدت إلى تلك الشاحنة فسوف يحدث لك شيء. لم أدر ما هو. فأنا لا أعرف أبداً ما الذي سيحدث. ما أعرفه فقط هو أن هناك أمور يُفضل عدم فعلها لأن نتائجها ستكون وخيمة. هل ستتناول وجبة التامال مع زجاجة إنكاولا؟

لقد تحولا إلى صديقين منذ ذلك الحين، وسرعان ما صارا يتبادلان الحديث دون كلفة. وعندما تركت السيدة آديلايدا الاستراحة عند الكيلومتر خمسين وفتحت دكانها للأعشاب والمطرزات والترهات والصور الدينية بالقرب من منطقة الملح القديم، صار فيليثيو يأتي مرة كل أسبوع على الأقل ليسلم عليها ويتبادل الحديث معها لبعض الوقت. وفي كل مرة تقريباً يأتيها بهدية ما: بعض الحلوي أو كعكة أو صندلأ، وحين يودعها يترك ورقة نقدية في يديها القاسيتين والخشنتين كيديّ رجل. جميع القرارات المهمة التي اتخاذها خلال تلك البعثة والعشرين عاماً استشارها فيها، ولاسيما منذ تأسيسه شركة نارهوا للنقل: القروض التي استدانها، والشاحنات والحافلات والسيارات التي راح يشتريها، وال محلات التي استأجرها، والسائقون والموظفوون الذين يتعاقد معهم أو يصرفهم من العمل. وفي معظم الأحيان كانت آديلايدا تضحك من استشاراته لها. «وما أدراني أنا بهذه الأمور يا فيليثيو، تشي غوا. كيف تريدينني أن أقول لك إن كانت الشيفروليه أفضل أم الفورد، وما أدراني أنا بماركات السيارات إذا كنت لم أملك أيّاً منها قطّ». ولكن بين حين وآخر، حتى لو كانت لا تعرف شيئاً عن الموضوع، يأتيها وحي وتقدم له نصيحة: «أجل، ادخل في هذه الصفة يا فيليثيو، ستكون جيدة كما يبدو لي». أو تقول له: «لا يا فيليثيو، هذا الأمر لا يناسبك، لا أدرى السبب ولكنني أشم رائحة كريهة في

الموضوع». كلمات التقية كانت حقائق كُشف عنها الحجاب في نظر صاحب شركة النقل، وكان ينصلع لأقوالها بحذافيرها مهما بدت غير مفهومة أو سخيفة.

- لقد غفت يا بابتيو. سمعها تقول له.

وبالفعل، كان قد غفا بعد أن شرب كأس الماء البارد الذي أحضرته له آديلايدا. لكم من الوقت غفا على ذلك الكرسي الهزاز الذي تسبب له بتشنج في مؤخرته؟ نظر إلى ساعته. حسن، إنها بضع دقائق وحسب.

- السبب هو توترات هذا الصباح ومشاغله - قال وهو ينهض واقفاً -

إلى اللقاء يا آديلايدا. يا لهذا الهدوء هنا في دكانك. إنني أشعر بالتحسن كلما زرتك، حتى لو لم يأتيك الوحي.

وفي اللحظة التي تلفظ فيها بكلمة السر، وهي، التي تحدد بها آديلايدا القدرة الغامضة التي تمتلكها، وتكهنها الأمور الطيبة أو الخبيثة التي ستحدث لشخص ما، لاحظ فيليثيتو أن التقية لم تعد هي نفسها المرأة التي استقبلته، والتي استمتعت إلى قراءته لرسالة العنكبوت، وأكدت له أن ذلك كله لا يوحى لها بأي ردة فعل. كانت تبدو الآن جدية جداً، تسيطر عليها ملامح الوقار، جبينها مجعد بينما هي تقضم أحد أظفارها. يمكن القول إنها كانت تكبح الغم الذي بدأ يستحوذ عليها. كانت عيناهما الواسعتان مصوبيتين إليه. أحس فيليثيتو بتسرع في نبضات قلبه.

- ماذا أصابك يا آديلايدا؟ - سألها مذعوراً - لا تقولي لي الآن إنه...

أمسكت به يد المرأة المتصلبة من ذراعه وغرست فيه أصابعها.

- أعطهم ما يطلبوه منك يا فيليثيتو - دمدمت - من الأفضل أن تعطiem ذلك.

- أعطي خمسة دولار في الشهر لأولئك المبزبين كيلا يسببا لي الأذى؟ - قال صاحب شركة النقل مستهجنًا - أهذا ما ي قوله لك الوحي يا آديلايدا؟

أفلتت التقية ذراعه وربقت عليه بحنان.

- أعرف أن عمل ذلك سين، وأعرف أن المبلغ كبير - أكدت - ولكن ما أهمية المال في نهاية المطاف، ألا ترى ذلك؟ الأهم منه صحتك، طمأنينتك، عملك، حبك في كاستيّا. أعرف أنه لا يروق لك أن أقول هذا. وأنا أيضًا لا يروق لي قوله، فأنت صديق جيد يا بابيتو. أضف إلى ذلك أنني قد أكون مخطئة وأنني أقدم إليك نصيحة سيئة. ليس هناك ما يدعوك لأن تصدقني يا فيليثيتو.

- ليست المسألة هي النقود يا آديلايدا - قال بحزن - يجب على الرجل ألا يسمح لأحد بأن يُذله في هذه الحياة. هذا هو الموضوع وليس شيئاً آخر يا صديقتي.

## II

حين مر دون إسماعيل كاريرا، صاحب شركة التأمين، على مكتب ريفوبيرتو واقتصر عليه أن يتناول الغداء معاً، فكر ريفوبيرتو: «سوف يطلب مني مرة أخرى أن أتراجع عن قراري»، لأن إسماعيل قد فوجئ كثيراً، مثلما هي حال جميع زملائه ومرؤوسيه، بإعلانه المفاجئ عن أنه سيقدم موعد تقاعده ثلاث سنوات. لذا التقاعد في سن الثانية والستين، قال له الجميع، في الوقت الذي يمكنه فيه البقاء ثلاث سنوات أخرى في هذه الإدارة التي يديرها وسط احترام إجماعي من قرابة ثلاثة موظف في الشركة.

«بالفعل، لماذا، لماذا؟»، فكر. لم يكن الأمر واضحاً جيداً حتى له هو نفسه بالذات. ولكن المؤكد أن قراره كان حاسماً. لن يتراجع عنه على الرغم من أن تقاعده، قبل بلوغه الخامسة والستين، سيجعله يخرج دون الحصول على الراتب الكامل، ولن يكون له الحق بكلفة تعويضات وزيادات من يحالون إلى المعاش بعد بلوغهم سن التقاعد.

حاول تشجيع نفسه بالتفكير في وقت الفراغ الذي سيتوفّر له. وقضاء الساعات في حيزه الحضاري، محمياً من البربرية، ومتاماً لوحاته المحببة، وكتب الفن التي تملأ مكتبه، ومستمعاً إلى موسيقى جيدة، واستمتع برحلته السنوية إلى أوروبا مع لوكريثيا في الربيع أو الخريف، حيث يحضر مهرجانات فنون، ويزور متاحف ومؤسسات

ثقافية، ومعارض فنية، ويعود لرؤية تلك اللوحات والمنحوتات المحببة إليه، ويكتشف أعمالاً أخرى غيرها يضمها إلى متحف لوحاته السري. كان قد أجرى حساباته، وهو جيد جداً في الرياضيات. فبالإنفاق بصورة عقلانية، وإدارته بحذر مدخلاته البالغة قرابة المليون دولار إضافة إلى راتبه التقاعدي، سيتمكن من التمتع، هو ولوكريثيا، بشيخوخة مريحة جداً، ويمكن لهما توفير مستقبل مضمون لفونتشيتو.

وفكراً: «أجل، أجل، شيخوخة مديدة، ثقافية وسعيدة». لماذا تراه إذاً، على الرغم من هذا المستقبل الواعد، يشعر بكل هذا القلق؟ أيكون السبب هو إديلبيرتو توريس أم تراها كآبة مسبقة؟ لا سيما وأنه، مثلما هو عليه الآن، يمر بنظره على الصور والشهادات المعلقة على جدران مكتبه، والكتب المصفوفة على رفين، ومنضدته المرتبة بدقة مليمترية وعليها دفاتر ملاحظاته، وأقلامه ومقالمه، وآلتة الحاسبة، والتقارير، والكمبيوتر المشغل، وجهاز التلفاز المثبت دوماً على قناة بلومبرغ وما تعرضه من أسعار البورصات. كيف يمكن له الشعور بحنين مسبق إلى هذا كله؟ الشيء الوحيد المهم في هذا المكتب هو صور لوكريثيا وصور فوتتشيتو – صوره وهو حديث الولادة، وطفل، ومراهق – وسيحمل هذه الصور معه يوم ينتقل. وما سوى ذلك فإن هذا البناء القديم في منطقة كارابايا، وسط ليما، لن يعود عما قريب مقراً لشركة التأمين. فمبني المقر الجديد، في سان إيسيدرو، على حافة جادة الثانخون، يوشك على الانتهاء. أما هذا البناء القبيح الذي عمل فيه طوال ثلاثة عاماً من حياته، فمن المحتمل أن يُهدم.

ظن أن إسماعيل سيأخذذه، مثلما يفعل كلما دعاه لتناول الغداء، إلى النادي الوطني، وسيكون هو بدوره غير قادر، مرة أخرى، على مقاومة إغراء شريحة اللحم التي تقدم هناك مغطاة بصلصة تاكو- تاكو ويسمونها «يلادة»، وتناول كأسين من النبيذ، ما يبقيه يشعر، طيلة

فترة العصر، بالانتفاخ مع ت خمة ودون رغبة في العمل. ولكنه فوجئ، فور صعودهما إلى سيارة الميرسيديس بنز في كراج المبني، بأن رئيسه أمر السائق: «إلى ميرافلوريس يا نرسيس، إلى مطعم روسا ناوتيكا». ثم التفت إلى ريفوبيرتو وقال موضحاً: «سنشعر هناك بشيء من التحسن باستنشاق قليل من هواء البحر وسماع زعيق النوارس».

- إذا كنت تظن أنك سترشوني بهذا الغداء فأنت مجنون يا إسماعيل - حذرة -. سأقاعد على أي حال، حتى لو وجّهت مسدساً إلى صدري.  
- لن أوجهه إليك - قال إسماعيل بإيماءة ساخرة -. أعرف أنك عنيد مثل بغل. وأعرف أيضاً أنك ستندم حين تشعر بأنك عديم الفائدة وضَجر في بيتك، تُفْقِد لوكريثيا صبرها طيلة اليوم. ستعود سريعاً لطلب مني جائياً أن أعيدك إلى الإدارة. ولسوف أفعل بالطبع. ولكنني سأجعلك تتذمّر لبعض الوقت، إنني أحذرك.

حاول أن يتذكر منذ متى يعرف إسماعيل. منذ سنوات طويلة. لقد كان إسماعيل شاباً جيداً جداً، أنيقاً، متميزاً، اجتماعياً. حتى إنه تزوج من كلوتيلدي، فهو مفو. يجعل العازبات والمتزوجات، العجائز والشابات يتنهدن. لقد فقد شعره الآن، لديه قليل من خصل الشعر البيضاء على صلعته، وقد تجعدت بشرته، وصار سميناً ويجرجر قدميه. وتلاحظ أسنانه الاصطناعية التي ركبها له طبيب أسنان في ميامي. فالسنوات، والتؤمنان قبل كل شيء، قد دمرته بدنياً. تعارفاً منذ اليوم الأول لدخول ريفوبيرتو إلى العمل في شركة التأمين، في الإدارة القانونية. منذ أكثر من ثلاثين عاماً! يا للعنة، حياة كاملة. تذكر أبا إسماعيل، دون أليخاندرو كاريرا، مؤسس الشركة. كان رجلاً قوياً، لا يكل، رجل صعب لكنه نزيه، مجرد حضوره يفرض نظاماً وجدية مُعدية. وكان إسماعيل يحترم أباه، على الرغم من أنه لم يحبه قط. لأن

دون أليخاندرو جعل ابنه الوحيد يعمل فور عودته من إنكلترا – حيث تخرج من جامعة لندن في الاقتصاد وتدرس لمدة سنة في شركة لويدز – في كافة أقسام الشركة التي كانت قد بدأت باكتساب مكانة مهمة. وكان إسماعيل قد تجاوز الأربعين، ويشعر بالمهانة من ذلك التدريب الذي أوصله حتى إلى العمل في تصنيف بريد الشركة، وإدارة المصنف فيها، والإشراف على محركات مولد الكهرباء، وعلى حراسة مقر الشركة ونظافتها. قد يكون دون أليخاندرو مستبداً بعض الشيء، ولكن ريفوبيرتو يتذكره بتقدير: إنه قائد شركة. لقد صنع هذه الشركة من العدم، بادئاً برأس مال تافه وقروض سدها حتى آخر سنتيم. ولكن إسماعيل كان، في الحقيقة، مواصلاً مرموقاً لعمل أبيه. لا يكمل من العمل أيضاً ويعرف ممارسة موهبته القيادية حين يتطلب الأمر ذلك. غير أن سلالة آل كاريلا، بوجود التوأميين على رأسها، ستمضي في الفشل إلى القمامنة. فأي من الابنين لم يرث فضائل الأب والجد الإدارية. يا للتعasse التي ستحل بشركة التأمين حين يختفي إسماعيل من الوجود! ولحسن الحظ أنه هو نفسه لن يكون مديرًا في الشركة ولن يشهد الكارثة. لماذا دعاه رئيسه يا ترى إلى الغداء إن لم يكن من أجل التحدث إليه عن تقاعده المبكر؟

كان مطعم «روسيا ناوتيكا» يغص بالناس. سائحون كثيرون ممن يتتكلمون الإنكليزية والفرنسية. وكانوا قد حجزوا لدون إسماعيل منضدة إلى جانب النافذة. تناولا كأس كامبرى وهما يتأملان بعض ممتلكي الواح التزلج ي gioيون الأمواج محشورين ببدلاتهم المطاطية. كان يوماً شتائياً رمادياً، مع غيوم رصاصية منخفضة تخفي جروف الوهاد وأسراب النوارس التي تطلق الزعيق. وكان هناك سرب من طيور القطرس يمضي طافياً فوق سطح البحر. وبدا دوي مد الأمواج الإيقاعي ورجعوا لطيفاً. «الشتاء على شيء من الكآبة في ليما، إنني أفضل الصيف ألف مرة»، فكر ريفوبيرتو. طلب سمكة غراب

بحر مشوية مع سلطة، ونبأه رئيسه إلى أنه لا يستطيع شرب قطرة نبيذ واحدة؛ فلديه عمل في المكتب ولا يريد قضاء فترة العمل المسائية في التثاؤب مثل تمساح مع الشعور بأنه يتحرك نائماً. بدا له أن إسماعيل، المتنع عن الشراب، لم يسمعه. أي ذبابة لسعته يا ترى؟

- أنت وأنا صديقان حميمان، نعم أم لا؟ توجه إليه رئيسه فجأة كما لو أنه قد استيقظ للتو.

- هذا ما أعتقده يا إسماعيل - أجاية ريفوربيرتوا - إن كان بالإمكان وجود صدقة حقاً بين رب عمل وموظفة. فهنالك ما يسمى صراع الطبقات كما تعلم.

- لقد كانت لنا مواجهاتنا أحياناً - واصل إسماعيل بجدية كبيرة -. ولكننا، على الرغم من كل شيء، أمضينا هذه السنوات الثلاثين على ما يرام. ألا ترى ذلك؟

- هل كل هذا اللف والدوران العاطفي من أجل أن تطلب مني ألا أتقاعد؟ - استفزه ريفوربيرتوا - هل ستقول لي إن الشركة ستنهار إذا ما غادرتُها؟

لم تكن لدى إسماعيل رغبة في المزاح. كان يتأمل أصداف البرميزانة التي أحضروها له للتو كما لو أنها يمكن أن تكون مسممة. يحرك فمه مصدرأ صوتاً بأسنانه الاصطناعية. كان هناك قلق في عينيه شبه المغمضتين. أهي البروستات؟ إصابة بسرطان؟ ما الذي أصابه؟

- أريد أن أطلب منك معرفة - دمم بصوت خفيض جداً، دون أن ينظر إليه. وعندما رفع عينيه، رأى ريفوربيرتوا أنهما زائفتان - ليس معروفاً عادياً، إنه معروف كبير يا ريفوربيرتوا.

- إن كان باستطاعتي، فجوابي نعم بالطبع - وافق مأخذواً - . ماذا جرى لك يا إسماعيل؟ يا لهذا الوجه الذي تبديه!

- بما أنك صديقي - قال إسماعيل وهو يعيد النظر إلى الواقع - سوف أتزوج.

ظللتُ الشوكهُ، مع الفم نصف المفتوح، معلقة للحظة في الهواء. وأخيراً، بدل أن يوصلها إلى فمه، أعادتها ريفوبيرتو إلى الطبق. «كم عمره؟»، راح يفكّر. «ليس أقل من خمسة وسبعين أو ثمانية وسبعين عاماً، بل ربما هو في الثمانين». لم يدر ما يمكنه قوله. لقد أصابته المفاجأة بالبلبل.

- أحتاج إلى شاهدين - أضاف إسماعيل، وكان ينظر إليه الآن وهو أكثر تحكماً بنفسه -. لقد استعرضت في ذهني جميع أصدقائي ومعارفي. وتوصلت في النتيجة إلى أن الشخصين الأكثر وفاء، بين من أثق بهم، هما نرسيس وأنت. وقد وافق سائقي. فهل توافق أنت؟

ولعجزه حتى تلك اللحظة عن النطق بكلمة أو قول عبارة مازحة، لم يستطع ريفوبيرتو إلا الموافقة بهز رأسه.

- طبعاً يا إسماعيل - تلعم أخيراً - ولكن أكـد لي أن هذا الكلام جديّ، وليس أول عوارض خـرف الشـيخوخـي.

ابتسم إسماعيل هذه المرة، وإن يكن دون أية ذرة من السعادة، فاتحاً فمه كثيراً ومظهراً البياض الفاقع لأسنانه المزيفة. هنالك سبعينيون وثمانيون يحتفظون ببنية قوية، قال ريفوبيرتو لنفسه، ولكنها ليست حال رئيسه بكل تأكيد. ففي الججمعة المتطاولة، تحت خصل الشعر البيضاء، تكثر الشامات، كما أن جبهته ورقبته مثلثة بالتجاعيد، وفي ملامحه كلها هنالك شيء مهزوم. إنه يلبـسـ بـأنـاقـةـ كالـعاـدةـ، بـدـلـةـ زـرـقـاءـ، وـقـميـصـ يـبـدوـ مـكـوـيـاـ لـلـتوـ، وـرـبـطـةـ عـنـقـ مـثـبـتـةـ بـمـشـبـكـ ذـهـبـيـ، وـمـنـدـيلـ بـارـزـ فـيـ الجـيـبـ.

- هل أصبت بالجنون يا إسماعيل؟ - هتف ريفوبيرتو فجأة، في رد فعل متاخر على الخبر - هل ستتزوج حقاً؟ وأنت في هذه السن؟

- إنه قرار متعقل تماماً - سمعه يقول بتصميم - وقد اتخذته وأنا أعرف جيداً ما سيتسبب به. ولا حاجة للقول لك، إذا ما كنت شاهداً على زفافي، فسوف تواجه المشاكل أيضاً. وباختصار، لماذا الحديث عما تعرفه جيداً.

- وهل هما على علم بالأمر؟

- لا تسألني: أسئلة بلهاء، أرجوك - فقد رئيسه صبره -. سيصل صراغ التوأمرين إلى السماء، سيحركان الأرض والجحيم كي يبطلوا زواجي، وسيسعين لإعلاني فقد الأهلية، ويحاولان إدخالي إلى مستشفى المجانين وألف شيء آخر. بل إنهم سيفعّل قاتلاً مأجوراً إلى قتلي إذا تمكنا. وستكون أنت ونرسيس أيضاً ضحيتين لحقدهما طبعاً. أنت تعرف هذا كله، وعلى الرغم من ذلك قلتَ لي نعم. لم أخطئ إذاً. إنك الشخص النظيف، الكريم والنبيل، مثلما كنت أظن على الدوام. شكراً أيها العجوز.

مذ يده، وأمسك ريفوبيرتو من ذراعه وأبقاها هناك للحظة، مع ضغطة تأثر.

- أخبرني على الأقل من هي العروس المحظوظة. سأله ريفوبيرتو محاولاً ابتلاء لقمة من سمكة غراب البحر. لقد فقد كل رغبة في الأكل. ابتسם إسماعيل هذه المرة ابتسامة حقيقة وهو ينظر إليه بسخرية.

ضوء خبيث كان يتلألأ في بؤبؤي عينيه وهو يقترح عليه:

- تناول رشفة من النبيذ أولاً يا ريفوبيرتو. إذا كنت قد أصبحت بكل هذا الشحوب لمجرد أنني أخبرتك بأنني سأتزوج، فقد تصاب بسكتة قلبية إذا ما أخبرتك من سأتزوج.

- أهي قبيحة إلى هذا الحد متصيدة الثروة هذه؟ تلعنهم ريفوبيرتو. فبعد ذلك التمهيد صار فضوله هائلاً.

- سأتزوج من آرميدا. قال إسماعيل متهجياً الاسم حرفأً حرفأً. وكان ينتظر رد فعله مثلما ينتظر عالم حشرات رد فعل حشرة يدرسها.

آرميدا، آرميدا؟ راح ريفوبيرتو يستعرض كل من يعرفهن، ولكن أياً منها لم تكن تتواافق مع هذا الاسم.

- هل أعرفها؟ سأله أخيراً.

- آرميدا - كرر إسماعيل وهو يتفحصه وينظر إليه بابتسامة متكتمة - أنت تعرفها جيداً. لقد رأيتها ألف مرة هنا في بيتي. كل ما هنا لك لأنك لم تنتبه إليها قط. لأن أحداً لا ينتبه أبداً إلى العاملات المنزليات.

الشوكة التي غرس فيها قطعة أخرى من سمكة غراب البحر انزلقت من بين أصابعه وسقطت على الأرض. وبينما هو ينحني ليلتقطها أحس بأن قلبه بدأ ينبض بقوة. سمع رئيسه يضحك. أيكون ممكناً؟ هل سيتزوج من خادمته؟ لا تحدث مثل هذه الأمور في المسلسلات التلفزيونية وحدها؟ هل يتكلم إسماعيل بجد أم أنه يسخر منه؟ تخيل التقولات، والاختلاقات، والتخيّلات، والدعابات التي ستتشعل ليمان الناس النمامين: سيكون لديهم ما يتسلون به لوقت طويل.

- هنا لك شخص مجذون هنا - قال مؤكداً من بين أسنانه - إما أنت أو أنا. ألم ترانا مجذونين كلينا يا إسماعيل؟

- إنها امرأة طيبة، ونحن متحابان - قال رئيسه، دون أدنى تشوش الآن - إنني أعرفها منذ زمن طويل. ستكون رفيقة جيدة لي في شيخوختي، ولوسوف ترى ذلك.

أجل... لقد رآها ريفوبيرتو، تعرف إليها، اختلقها. إنها سمراء، شعرها طويل جداً، ولها عينان متقدتان. إنها خلاصية، ساحلية ذات أساليب لعوبة، نحيلة، وليس قصيرة القامة جداً. تشوليتا حسنة المظهر. وفكرة: «لا بد أنه يكبرها بأربعين عاماً، وربما أكثر. لقد أصيب إسماعيل بالجنون».

- إذا كنت قد نويت ، في شيخوختك ، أن تكون بطل أكبر فضيحة مدوية في تاريخ ليما ، فسوف تتوصل إلى ذلك - قال متنهداً - ستكون جوكر النميمة لسنوات لا يعلم عددها إلا الله ، وربما لقرون.

ضحك إسماعيل موافقاً ، وكان ضحكه هذه المرة بطيب مزاج صريح .  
لقد أخبرتك بالأمر أخيراً يا ريفوبيرتو - هتف براحة - الحقيقة أن إخباري لك كلفني مشقة كبيرة . وأعترف لك أن بحراً من الشكوك كان يراودني . كنت أموت خجلاً . عندما أخبرتُ نرسيس ، فتح الزنجي عينيه كصحنин وكاد أن يبتلع لسانه . حسن . ها أنت تعلم ما سيحدث . ستكون فضيحة مدوية ولا يهمني ذلك مقدار ذرة . هل ستظل موافقاً على أن تكون شاهداً على زفافي؟

هز ريفوبيرتو رأسه : أجل ، أجل يا إسماعيل ، فكيف يمكنه أن يرفض ما دام إسماعيل هو من يطلب ذلك منه . ولكن ، ولكن ...  
بالطبع ، لم يعد يدرى أية لعنة يمكنه قولها .

- أهو زواج لا بد منه؟ - تحمس أخيراً - أعني أنك ستغامر بتحمل ما سيجلبه عليك . أنا لا أفك في الفضيحة وحدها يا إسماعيل . يمكن لك أن تخيل ما أعنيه . أهناك ما يستحق الوقع في المشكلة الهائلة مع ابنيك التي سيتسبب بها هذا الزواج؟ فللزواج مفاعيل اقتصادية قانونية . وباختصار ، يخيل إليَّ أنك قد فكرت بهذا كله وأن ما أقوله لك مجرد تأملات بلهاء . أليس كذلك يا إسماعيل؟

رأى رئيسه يشرب نصف كأس من النبيذ الأبيض في جرعة واحدة . رآه يهز كتفيه ويؤكد :

- سيعاولان اعتباري عاجزاً وفقد الأهلية - أوضح بنبرة ساخرة وهو يقوم بتكتشيرة ازدراء - لا بد من دفع رشى وأموال كثيرة لقضاة ومحامين طبعاً . وأنا أملك نقوداً أكثر منهم ، وهذا يعني أنهما لن يكسبا القضية ضدي إذا ما تقدما بالشكوى .

كان يتكلم دون أن ينظر إلى ريفوبيرتو، ودون أن يرفع صوته كيلا يسمعه من هم على الموائد المجاورة، وبعيدين متوجهين نحو البحر. ولكنه لم يكن يرى، دون شك، ممتنع الواح التزلج، ولا النوارس، ولا الأمواج التي تندفع نحو الشاطئ مطلقة شرر زبد أبيض، ولا رتل السيارات التي تمر على الشاطئ الأخضر. وراح صوته يمتلئ بالغضب.

- وهل يستحق الأمر هذا كله يا إسماعيل؟ - ألح ريفوبيرتو.

محامون، وكتاب بالعدل، وقضاة، وممثلو في المحاكم، والقذارة الصحفية وهي تنبش في حياتك الخاصة إلى حد الغثيان. كل هذه الفظاعة، فضلاً عن الأموال التي ستتكلفك إياها مثل هذه النزوة. وأوجاع الرأس والتکدر. هل يستحق الأمر هذا كله؟

وبدلاً من أن يجيبه، فاجأه إسماعيل بسؤال آخر:

- أتتذكر عندما أصابتني النوبة القلبية، في شهر أيلول/سبتمبر؟

ريفوبيرتو يتذكر ذلك جيداً. الجميع ظنوا يومها أن إسماعيل سيموت. فاجأته النوبة وهو في السيارة، في طريق عودته إلى ليما من غداء في أنكون. حمله سائقه نرسيس مغمى عليه إلى مستشفى سان فيليب. استيقوه في العناية المركزة عدة أيام، مع أوكسجين، وكان ضعيفاً إلى حد لا يقدر معه على الكلام.

- ظننا يومذاك أنك لن تتجاوز المحنّة، ويا للرعب الذي سببته لنا.

لماذا تتذكر ذلك الآن؟

- في ذلك الحين قررتُ الزواج من آرميدا - كان وجه إسماعيل قد تعكر وصار صوته مشحوناً بالمرارة. وبدا في تلك اللحظة أكثر هرماً -.

كنتُ على شفا الموت، طبعاً.رأيته قريباً مني، لسته، شمعته. لم يكن الضعف يسمح لي بالكلام، أجل. ولكنني كنت قادرًا على السماع. وهذا ما لم يعلمه ابني الوغدان يا ريفوبيرتو. وسوف أخبرك أنت بما

حدث. أنت وحدك فقط. ولا أريد لهذا الأمر أن يخرج من فمك، ولا حتى للوكربيثيا. أقسم لي إنك لن تبوح به، أرجوك.

- الدكتور غاميرو كان واضحًا جداً - أكد ميكى بحماسة ودون أن يخفض صوته -. سيفارق الحياة هذه الليلة بالذات يا أخي. نوبة قلبية حادة. إنها نوبة قاتلة، هذا ما قاله الدكتور. واحتمالات النجاة والمعافاة في أدنى الحدود.

- تكلم بصوت أخفض - طلب منه إسکوبیتا. وكان هذا يتكلّم بصوت خافت، في تلك الإضاءة الخافتة التي تشوّه شكل الظلال، في تلك الحجرة الغريبة العابقة برائحة الفورمول - فليسمع الربُّ كلامك يا صاحبي. ألم تستطع تحري أي شيء بشأن الوصية في مكتب المحامي أرنبياس؟ لأنّه إذا رغب في استبعادنا، فسوف يستبعدنا. عجوز البراز هذا يعرف كل شيء.

- أرنبياس لا يبوج بشيء لأن العجوز اشتراه - قال ميكى وهو يخفض صوته أيضًا -. لقد ذهبتُ في المساء لاستدارجه كي يقول شيئاً، ولكن لم تكن ثمة وسيلة. وقد قمتُ على كل حال ببعض التحريرات. لن يتمكن من استبعادنا حتى لو أراد ذلك. فما أعطانا إيه حين طردنا من الشركة لا يحسب. القانون واضح. إننا الورثان الإجباريان. هكذا هي التسمية: الورثة الإجباريون. لا يمكنه حرماننا من التركة يا أخي.

- لا تثق كثيراً يا صاح. فهو يعرف الحيل القانونية كلها. وقدر على عمل أي شيء لخوزقتنا.

- فلنأمل ألا ينقضي عليه هذا اليوم - قال ميكى - لأن هذا العجوز القذر قد يجعلنا نقضي ليلة أخرى دون نوم.

- عجوز البراز هذا، ولينتهي بأسع ما يمكن... على بعد أقل من متر عنّي، كانا سعيدين بكوني أحضر - تذكر إسماعيل متكلماً ببطء، ونظره مصوب إلى الفراغ -. أتدرى يا ريجوبيرتو؟ لقد أنقذاني من الموت. أجل،

- كنت أعرف أن ابني لم يحباني قط - واصل رئيسه الكلام، دون أن يغير ما قاله أدنى اهتمام - . ولكنني لم أكن أعرف أنهما يكرهانني إلى ذلك الحد، وأنهما توصلتا إلى تمني موتي كي يرثاني دفعة واحدة. وكيف يبددا، بالطبع، ما بنيةانا وأبي على امتداد سنوات طويلة ونحن نعمل بجهد لا سيبقى الضبعان منتوفين، أؤكد لك.

صفة الضبعين تليق تماماً بابني إسماعيل، هذا ما فكر فيه ريغوبيرتو. إنهم شخصان لا مثيل لهما في السوء. فهما بطalan، عربيدان، مستغلان، طفيلييان يُلحقان العار باسم أبيهما وجدهما. لماذا خرجا على هذا النحو؟ ليس السبب قلة حنان أبوهما ورعايتهما بكل تأكيد. فالواقع عكس ذلك تماماً، لأن إسماعيل وكلوتيدي كانوا يضحيان على الدوام مع أجلهما، وفعلا المستحيل من أجل توفير أفضل تعليم لهما. كانوا يحلمان بأن يجعلوا منها رجلين محترمين. أية شياطين حولتهما إلى الوغدين اللذين صارا إليهما؟ لا غرابة في أنهما تبادلا تلك

المحادثة المشؤومة إلى جانب سرير أبيهما الذي كان يحضر. فهما فوق ذلك غبيان، لم يفكرا في أنه قد يسمعهما. لا يتورعان بكل تأكيد عن تبادل مثل ذلك الحديث وما هو أسوأ منه. ريفوبيرو يعرف ذلك جيداً، فخلال تلك السنوات كلها كان في مرات كثيرة منديل دموع رئيسه ومتلقي أسراره بشأن عربدات ابنيه. لكم عانى إسماعيل وكلوتيلدي من الفضائح التي استثارها ابناهما منذ شبابهما المبكر.

لقد ذهبا إلى أفضل مدرسة في ليما، وكان لهما أستاذة خصوصيون لواحد يبدوان ضعيفين بها، وذهبا في دورات تعليمية إلى الولايات المتحدة وإنكلترا. تعلما الإنكليزية ولكنهما كانا يتكلمان إسبانية أميين، تتخللها كل تلك العبارات العامية والمستهترة التي يتداولها شبان ليما، ولم يقرأا كتاباً واحداً ولا حتى جريدة في حياتيهما كلها، وربما لا يعرفان عواصم نصف البلدان الأمريكية اللاتينية، ولم يتمكن أي منهما من تجاوز السنة الأولى في الجامعة. وقد دشنا ممارساتهما المشينة وهما لا يزالان مراهقين باغتصابهما تلك **البنية** التي أخذاهما من حفلة غير محترمة في بوكوسانا. كان اسم الفتاة فلوراليسا روكا، اسم يبدو خارجاً من إحدى روايات الفروسية. نحيلة وعلى قدر لا بأس به من الجمال، لها عينان متأهبتان وبكاءتان، وجسد يرتعش خوفاً. ريفوبيرو يتذكرها جيداً. إنها في ضميره وما زالت تتناثبه نوبات من تأنيب الضمير على الدور القبيح الذي كان عليه أن يلعبه في تلك القضية. استعاد ذكري تلك المشكلة: محامون، أطباء، محاضر شرطية، ومساعيائسة للحيلولة دون أن تأتي جريدة **لابرنسا** أو مجلة **الكوميسيون** على ذكر اسم التوأم تقاريرهما الإخبارية عن الحادثة. كان عليه هو نفسه أن يتحدث إلى أبي الفتاة، وهو زوجان من مدينة إكا، متقدمين في العمر، تكلف أمر تهدئتهما وإسكاتهما قرابة خمسين ألف دولار، وهو مبلغ كان يشكل ثروة في ذلك الحين. وما زال حاضراً في ذاكرته ذلك الحديث بينه وبين إسماعيل في

أحد تلك الأيام. كان رئيسه يعصر رأسه، يكبح دموعه، ويتهجد صوته: «بماذا أخطأنا يا ريفوبيرتو؟ ما الذي فعلناه أنا وكلوتيلدي كي يعاقبنا الرب على هذا النحو؟ كيف يمكن أن تكون قد أنجبنا مثل هذين الابنين قاطعي الطريق! حتى إنهم لا يشعرون بالندم على الفطاعة التي اقترفها. إنهم يلقيان الذنب على الفتاة المسكينة، تصوراً لم يغتصباها وحسب، بل ضرباها وأساءاً معاملتها». إنهم قاطعوا طريق، هذه هي التسمية المناسبة بالضبط. ربما لم يتاحا لهم قط الإحساس بقليل من المسؤولية. ما كان عليهم أن يغفرا لهما ممارسة ظرافاتهم دوماً... ظرافات التوأميين! تصادم بالسيارات لقيادتهم لها وهذا مخمورين ومخدرين، ديون مستحقة يستخدمون فيها اسم الأب، إيصالات مزورة في المكتب حين خطر لإسماعيل، في ساعة نحس، أن يدخلهما إلى الشركة كي يتمننا. وقد كانوا كابوساً بالنسبة إلى ريفوبيرتو. إذ كان عليه أن يذهب بنفسه ليخبر رئيسه بما ثار الأخرين. لقد وصل بهما الأمر إلى إفراغ صندوق مكتبه حيث تُحفظ نقود النفقات الجارية. وكانت هذه، لحسن الحظ، هي النقطة التي جعلت الكأس يطفح. فقد طردهما إسماعيل من العمل، وفضل أن يقدم لهما مبلغاً شهرياً، ويمول كسلهما. لقد كانت سيرة كل منها بلا حدود. فقد دخلا، على سبيل المثال إلى جامعة بوسطن وكان أبواهما سعيدين. بعد شهور من ذلك اكتشف إسماعيل إنهم لم يطأ حرم تلك الجامعة قط، بل وضعوا في جيوبهما رسوم التسجيل والإقامة الجامعية، وزوراً سجل درجات وتقارير دوام. صدَّم أحدهما - أكان ميكى أم إسكونبيتا؟ - عابر طريق في ميامي، وكان ملاحقاً في الولايات المتحدة لأنه استغل الحرية المؤقتة المنوحة له وهرب إلى ليما. إذا ما رجع إلى هناك سيُقتاد إلى السجن.

بعد وفاة كلوتيلدي استسلم إسماعيل. فليفعلوا ما يحلو لهم. أعطاهم مقدماً جزءاً من الميراث، من أجل أن يستثمره إذا رغباً أو فلبيداه،

وهذا هو بالطبع ما فعله بالسفر إلى أوروبا وعيش حياة ملوك هناك. لقد صارا رجلين كاملين مكملين، يقتربان من الأربعين من العمر. ولم يكن رئيسه راغباً بمزيد من وجع الرأس مع هذين الابنين اللذين لا سبيل إلى إصلاحهما. وتأتي الآن هذه المسألة! سيحاولان بالطبع إبطال ذلك الزواج إذا ما تحقق. لن يسمحا أبداً بأن يُنتزع منها ميراث ينتظرانه، طبعاً، بشرارة آكلة لحوم بشر. تخيل ريفوبيرتو الفضيحة التي سيفتعلانها. أبوهما يتزوج من آرميدا! من الخادمة! من الخلاسية التشولا! وضحك في أعماقه: أجل، يا للوجهين اللذين سيبديانهما. ستكون الفضيحة هائلة. يمكن له منذ الآن أن يسمع، ويرى، ويشم النمائم والتكهنات والأقويل والاختلاقات التي سيجري تداولها عبر هواتف ليما. إنه يتلهف إلى الساعة التي سيخبر فيها لوكريثيا بهذه المستجدات.

- هل أنت على علاقة جيدة بفونتشيتو؟ - أخرجه صوت رئيسه من تأملاته -. كم صار عمر ابنك الآن؟ أربعة عشر أم خمسة عشر عاماً؟ اقشعر بدن ريفوبيرتو متخيلاً أنه يمكن لفونتشيتو أن يتحول إلى شخص شبيه ببني إسماعيل. لحسن الحظ أنه غير ميال إلى اللهو.

- علاقتي به على ما يرام - أجاب -. وعلاقته بلوكريثيا أفضل. ففونتشيتو يحبها كما لو أنها أمه لا أكثر ولا أقل.

- إنك محظوظ، فعلاقة الطفل بزوجة الأب ليست سهلة على الدوام.

- إنه ولد طيب - اعترف دون ريفوبيرتو -. محب للدراسة، ووديع. لكنه متوحد جداً. إنه في هذه الفترة الصعبة من المراهقة. يشتد بكثرة. أحب أن أراه مصادقاً لآخرين، أن يخرج، أن يُغمر بفتاة، أن يذهب إلى حفلات.

- هذا ما كان يفعله الضبعان حين كانوا في مثل عمره - قال إسماعيل بتسر - . الذهاب إلى الحفلات، اللهو. من الأفضل أن يظل كما هو أيها العجوز. الصداقات الخبيثة هي التي خربت ابني.

كان ريغوبيرتو على وشك أن يروي لإسماعيل حماقة فونتشيتو مع الظهور المتكرر لشخصية إديلبرتو توريس الذي يدعوه هو ولوكريثيا «الشيطان»، ولكنه كبح نفسه. ما جدوى ذلك، ومن يدرى كيف سيفهم الأمر. في البدء استمتع هو ولوكريثيا بالظهور المزعوم لذلك النذل، واحتفيا بمخيلة الفتى المتألق، مقتعنين بأنها مجرد لعبة أخرى من الألعاب التي يحب مفاجأتها بها بين حين وآخر. أما الآن فإنهما قلقان ويقلبان فكرة أخذه إلى طبيب نفساني. الحقيقة أنه بحاجة إلى أن يعيد قراءة ذلك الفصل عن الشيطان في رواية «دكتور فاوست» لتوماس مان.

- مازلتُ غير مصدق هذا الأمر كله يا إسماعيل. هتف من جديد وهو يرتفع فنجان القهوة. هل أنت متأكد حقاً من أنك ستفعل ذلك، ستتزوج؟  
- مثل ثقتي بأن الأرض مكورة - أكد رئيسه -. ليس لتلقين ذلك الثنائي درساً فقط. فأنا أشعر بحب شديد نحو آرميدا. لا أدرى ما الذي كان سيحل بي من دونها. فمنذ موت كلوتيدى كانت مساعدتها لي لا تعوض بثمن.  
- إن آرميدا، إذا لم تخني الذاكرة، امرأة فتية جداً - تلعم دون

ريغوبيرتو -. كم عاماً تكبرها، إن كان يمكن لي معرفة ذلك؟  
- ثمانية وثلاثون عاماً فقط - ضحك إسماعيل -. أجل، إنها شابة، وأمل أن تبعث في الحيوة، مثلاً فعلت فتاة العهد القديم بسليمان. كانت تدعى شوليت، أليس كذلك؟

ـ حسن، حسن، أنت حرّ بحياتك - قال ريغوبيرتو مستسلماً -. أنا لا أنفع في تقديم النصح. تزوج من آرميدا ولينهار العالم بعد ذلك فوق رؤوسنا، لا فرق أيها العجوز.

- إذا كنت ترغب في أن تعرف، فإننا نكون على ما يرام في الفراش - تبήج إسماعيل ضاحكاً بينما هو يشير بيده إلى النادل كي يأتيه بالحساب -. ومن أجل مزيد من الدقة، لا أستخدم الفياغرا إلا نادراً، لأنني أكاد لا أحتاج إليها. ولا تسألني أين ستفقضي شهر العسل، لأنني لن أخبرك بذلك.

### III

بعد أيام قليلة من تلقيه الرسالة الأولى ، تلقى فيليثيتو ياناكيه رسالة العنكبوت الثانية ، يوم الجمعة ليلاً ، وهو اليوم الذي يذهب فيه كل أسبوع لزيارة مابيل . وبعد أن هيأ لها ، قبل ثمانية أعوام ، البيت الصغير في حي كاستيبيا ، غير بعيد عن الجسر القديم الذي انهار واختفى بفعل الأضرار التي تسبب بها إعصار النينيو ، صار يذهب لزياراتها مرتين ، وحتى ثلاثة مرات ، في الأسبوع؛ لكن عاطفته راحت تخفت مع مرور السنوات ، واقتصر منذ بعض الوقت على زيارتها مرة واحدة كل أسبوع ، في أيام الجمعة فقط ، بعد خروجه من المكتب . ويبقى معها بعض ساعات ، ويتناولان الغداء معاً في معظم الأحيان ، في إحدى حانات الحي أو في مطعم كريولي في مركز المدينة . وبين حين وآخر كانت مابيل تطهو له سمة شابيل مجففة - وهذا اختصاصها - يلتئمها فيليثيتو بسعادة مع زجاجة بيرة كوسكية مُبردة جيداً.

ما زالت مابيل تحتفظ بقوعه جيد جداً . وفي هذه الأعوام الثمانية لم تزدد سمنة ، ويبدو مجمل جسدها كرياضية على حاله؛ فخصرها نحيل ، ونهادها صلبان منتصبان ، ومؤخرتها المكورة والمعالية ما زالت تهتز بمرح حين تمشي . إنها سمراء ، لها شعر سبط ، وشفتان ممتلئتان ، وأسنان ناصعة البياض ، وابتسامة مشرقة وقهقهات تبعث عدوى السعادة في ما حولها . وكانت لا تزال في نظر فيليثيتو جميلة جداً وجذابة مثلما كانت حين رآها أول مرة .

حدث ذلك في stadion القديم، في حي بوينس آيريس، خلال مباراة تاريخية. وفي تلك المناسبة، وكانت قد مضت سنوات على فريق أتلاتيكو غراو دون أن يتمكن من الصعود إلى فرق الدرجة الأولى، ولكنه لم يواجه في تلك المباراة فريق أليانثا ليما وحسب وإنما هزمه أيضاً. ما رأه صاحب شركة النقل يومذاك كان ضربة سهم. «إنك ذاهل يا صاحبي»، سخر منه الكولورادو بيفنولو، صديقه وزميله ومنافسه – فهو يملك شركة النقل «دُرّة تشيرا» – وكان معتاداً على الذهاب معه إلى مباريات كرة القدم حين تأتي فرق من ليما ومن أقاليم أخرى للعب في بيورا. بسبب نظرك المتواصل إلى تلك السمراء، ضيَّعت على نفسك رؤية جميع الأهداف». «لم أر في حياتي شيئاً بمثل هذه الروعة»، ددم فيليسيتو وهو يفرقع بلسانه؛ ثم أضاف: «إنها باهرة الجمال!». كانا على بعد أمتار قليلة منها، وكان يرافقها شاب يضع ذراعه على كتفيها ويداعب شعرها بين وقت وآخر. بعد قليل همس الكولورادو بيفنولو في أذنه: «إنني أعرفها. اسمها مابيل. لقد وقعتَ يا صاحبي. إنها تُضاجع». جفل فيليسيتو: «أتعني يا صاحبي أن هذه البهجة عاهرة؟». – ليست هكذا بالضبط – صاح الكولورادو وهو يوكزه بمرفقه – قلت إنها تُتيح أن تُضاجع، وليس أن تتعمر. المضاجعة والتعمر أمران مختلفان يا زميل. ومابيل هي نوع من الخليلة أو شيء من هذا القبيل. تفعل ذلك مع بعض المتميزين، وفي بيتها. وهي تحصل من كل واحد منهم على ما يساوي عيناً من وجهه على ما أقدر. أتريدينني أن أحصل لك على رقم هاتفها؟

تحرى له عن رقم هاتفها، وقام فيليسيتو بالاتصال بها وهو شبه ميت من الخجل، لأنـه – خلافاً للكولورادو بيفنولو العربيـ الداعر منذ صغره – يعيش حياة شديدة التقشف مكرساً نفسه لعمله وأسرته. وبعد كثير من

اللُّفْ والدُورَانْ، حَدَّدَ موعداً مَعَ امْرَأَةِ الْسْتَادِ الجَمِيلَةِ. حَدَّدَ لَهُ الْمَوْعِدُ أولاً فِي مَقْمَهِ بِجَادَةِ غَرَاؤِ، مَقْمَهِ بِالْلَّالِيَّكِيِّ، الْقَرِيبُ مِنْ تِلْكَ الْمَقَاعِدِ الَّتِي يَجْتَمِعُ عَلَيْهَا، لِلْإِسْمَتِعَ بِبِرُودَةِ الْغَرَوبِ، أَوْلَئِكَ النَّمَامُونَ الْمَسْنُونُ مَؤْسِسُو م. ت. ح. ا. (مَرْكَزُ تَحْرِي حَيَّوْاتِ الْآخَرِينَ). تَنَاوِلاً وَجْهَةَ خَفِيفَةَ، وَتَبَادِلَا الْحَدِيثَ لَوْقَتَ لَا بَأْسَ بِهِ. كَانَ يَشْعُرُ بِالرَّهْبَةِ حِيَالِ ذَلِكَ الْجَمَالِ وَالشَّبَابِ، وَيَتْسَاءِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فِي بَعْضِ الْلَّهَظَاتِ، عَمَّا سَيَفْعُلُهُ إِذَا مَا ظَهَرَتْ زَوْجَتِهِ خِيرَتْرُودِيُّسْ فَجَأَةً فِي الْمَقْمَهِ أَوْ ابْنَاهِ تِيَّبُورُثِيُّو وَمِيَغِيلِيَّتو. كَيْفَ سَيَقْدِمُ لَهُمْ مَابِيل؟ أَمَا هِيَ فَكَانَتْ تَلْعَبُ مَعَهُ لَعْبَةَ الْقَطِّ وَالْفَأْرِ: «أَنْتَ عَجُوزٌ جَدًا، مُسْتَهْلِكٌ وَغَيْرُ مَنْاسِبٍ لِلوقوعِ فِي حُبِّ امْرَأَةٍ مُثْلِيِّ. أَضْفِ إِلَى ذَلِكَ أَنْكَ طَرْحُ ضَئِيلٍ، وَإِذَا كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَمْشِي مَعَكَ فَسَوْفَ أُضْطَرُ إِلَى المُضِيِّ دَائِمًا بِحَذَاءِ بِلَا كَعْبٍ». كَانَتْ تَتَنَجِّحُ مَعَ صَاحِبِ شَرْكَةِ النَّقلِ عَلَى هَوَاهَا، وَتَقْرَبُ مِنْهُ وَجْهَهَا الْبَاسِمُ وَعَيْنِيهَا الْمَرْتَعِتِينَ بِالشَّرِّ، وَتَمْسِكُ بِيَدِهِ أَوْ بِذِرْاعِهِ، وَهِيَ مَلَامِسَاتٌ تَهْزِيْكَيَانِ فِيلِيَّيِّتُو مِنْ رَأْسِهِ حَتَّى أَخْمَصَ قَدَمِيهِ. كَانَ عَلَيْهِ الْخُرُوجُ مَعَ مَابِيلِ قِرَابَةِ ثَلَاثَةِ شَهُورٍ، يَأْخُذُهَا إِلَى السَّيِّنَمَا، يَدْعُوهَا لِلْقَدَاءِ، لِلْعَشَاءِ، لِلتَّنَزِّهِ عَلَى شَاطِئِ يَائِيَّلا، إِلَى حَانَاتِ كَاتَاكَاوَسْ، وَيَقْدِمُ لَهَا الْكَثِيرُ مِنْ الْهَدَایَا إِلَيْهَا، ابْتِدَاءً مَنْ عَقُودٍ وَأَسَاوِرٍ وَحَتَّى أَحْذِيَّةٍ وَأَثُوابٍ تَخْتَارُهَا بِنَفْسِهَا، قَبْلَ أَنْ تَسْمَحْ لَهُ بِزِيَارَتِهِ فِي الْبَيْتِ الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ، شَمَالِيَّةِ الْمَدِينَةِ، بِالْقَرْبِ مِنْ مَقْبَرَةِ سَانْ تِيُودُورُو الْقَدِيمَةِ، عَنْدِ نَاصِيَّةِ فِي مَتَاهَةِ تِلْكَ الْأَزْقَةِ ذَاتِ الْكَلَابِ الشَّارِدَةِ وَالرَّمَالِ الَّتِي هِيَ آخِرُ مَا تَبْقَى مِنْ حِيِّ لَامَانْفَاتِشِيرِيَا. يَوْمَ نَامَ مَعَهَا فِيلِيَّيِّتُو يَانَاكيِهِ أَوْلَ مَرَّة، بَكَى لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَّةِ فِي حَيَاتِهَا (الْمَرَّةِ الْأُولَى كَانَتْ يَوْمَ وَفَاتِهِ أَبِيهِ).

- لِمَاذَا تَبْكِي أَيْهَا الْعَجُوزُ؟ أَمْ أَعْجَبُكَ؟

- لم أكن في حياتي سعيداً مثلما أنا الآن - اعترف لها فيليثيتو وهو جاثٍ يقبل يديها - حتى الآن لم أكن أعرف ما هي المتعة، أقسم لك. أنت من علمتني السعادة يا مابيليتا.

بعد وقت قصير من ذلك عرض عليها، دون مزيد من المقدمات، أن يوفر لها ما يسمونه في البيرو «البيت الصغير» وأن يقدم لها مبلغاً شهرياً كي تتمكن من العيش بطمأنينة، دون قلق بشأن المال، في مكان أفضل من ذلك الحي الذي يغص باللauerz وبالمانغاتشريين حملة السكاكيين. فوجئت المرأة، ولم تجد ما تقوله سوى: «أقسم لي إنك لن تسألني أبداً عن ماضيّ، وإنك لن تواجهني بأية نوبة غيرة طوال حياتك». «أقسم لك يا مابيل». بحثت بنفسها عن البيت الصغير في حي كاستييا، بجوار مدرسة سان خوان بوسكو التابعة للآباء السالسيانيين، وأثنثه وفق ذوقها. وقع فيليثيتو عقود الإيجار ودفع كافة الحسابات، دون أن يعترض على السعر. وصار يقدم إليها المبلغ الشهري بدقة، ونقداً، في اليوم الأخير من كل شهر، مثلما يدفع لموظفي وعمال شركة نارييهوالا للنقل. كان يتلقى معها دوماً على الأيام التي سيزورها فيها. وطوال ثمانية أعوام لم يذهب بصورة مفاجئة ودون إخبار مسبق إلى البيت الصغير في كاستييا. لم يكن يرغب في تعريض نفسه لحرج اللقاء مع بنطال رجالي في غرفة عشيقته. ولم يكن يتحرى كذلك عما تفعله في بقية أيام الأسبوع التي لا يلتقيان فيها. ولكنه كان يحدس، وهذا صحيح، أنها تأخذ راحتها ويشكرها بصمت لأنها تفعل ذلك بتكتم، دون أن تُذلة. وكيف بإمكانه الاعتراض على ذلك؟ فما بيل شابة، مرحة، ولها الحق بأن تستمتع بحياتها. لاسيما وأن قبولها بأن تكون عشيقـة لرجل عجوز، قصير القامة وقبـيع مثلـه هو أمر أكثر من كبير. ليست المسـألـة في أنه لم يكن يهـتمـ، لا شيءـ منـ هـذاـ. فـعـنـدـمـاـ كانـ يـلمـحـ

ما بيل من بعيد، أحياناً، وهي تخرج من متجر أو من صالة سينما برفقة رجل، كانت معدته تتلوى من الغيرة. وفي بعض الأحيان كانت تأتيه كوابيس تعلن له ما بيل فيها، بكل جدية: «سوف أتزوج، وستكون هذه هي المرة الأخيرة التي تلتقي فيها يا عجوزي». لو كان بإمكان فيليثيتو الزواج بها لفعل ذلك. ولكنه لا يستطيع. ليس لأنه متزوج، وإنما لأنه لا يريد أن يتخلّى عن خيرتوديس، مثلما فعلت أمه، تلك المرأة غير الطبيعية التي لم يعرفها قط، إذ تركته هو وأباء مهجورين، هناك في ياباتира، حين كان فيليثيتو لا يزال طفلاً رضيعاً. ما بيل هي المرأة الوحيدة التي أحبها حقاً. فهو لم يحب خيرتوديس قط، وقد تزوج منها مكرهاً، بسبب تلك الخطوة السيئة في شبابه، وربما، ربما، لأنها هي وأمها الآمرة قد أعدتا له شركاً محكماً (وهذه قضية يحاول عدم تذكرها، لأنها تسبب له المراة، إلا أنها تعود إلى ذهنه دائمًا مثل إسطوانة مشروخة). ولكنه كان زوجاً صالحًا على الرغم من ذلك. قدم لزوجته وابنيه أكثر مما يمكنهم انتظاره من البائس الذي كان عليه عند زواجه. فمن أجل ذلك عمل طيلة حياته كعبد، دون أن يأخذ إجازة قط. هذا ما كانت عليه حياته إلى أن تعرف على ما بيل: عمل، عمل، عمل، وتحطيم ظهره نهاراً وليلاً من أجل جمع رأس مال صغير إلى أن تتمكن من فتح شركته للنقل التي طالما حلم بها. لقد جعلته هذه الفتاة يكتشف أن النوم مع امرأة هو أمر جميل، زخم، مؤثر، وهو ما لم يتخيله قط في المرات النادرة التي ذهب فيها إلى الفراش مع عاهرات المواخير القائمة على الطريق العام إلى سويانا، أو مع «ترتيبية» تخرج له - عند موت مطران - في احتفال ما، ولا تستمر إلا أقل من ليلة. لقد كانت ممارسة الحب مع خيرتوديس أمراً سريعاً، مجرد حاجة بدنية، إجراء لتهيئة الجزء. وقد تخليا عن النوم معاً منذ ولادة تيبورثيو، أي

منذ بضعة وعشرين عاماً. وحين يسمع الكولورادو بيفنولو يتحدث عن مساجعاته ذات اليمين وذات الشمال، يصاب فيليثيتو بالانبهار. فقد عاش كراهب بالمقارنة مع صاحبه.

كانت مابيل تستقبله برداء بيتي، وبالتودد وعبارات الغزل. تكون قد انتهت من مشاهدة حلقة مسلسل أيام الجمعة التلفزيوني، وتعلق له عليه بينما هي تقتاده من يده إلى المخدع. وتكون قد أسدلت الستائر وشغلت المروحة. ووضعت خرقة حمراء حول المصباح، لأن فيليثيتو يحب تأملها عارية في ذلك الجو الضارب إلى الحمرة. كانت تساعده على خلع ملابسه والاستلقاء على ظهره فوق السرير. ولكن خلافاً لمرات أخرى، لكل المرات الأخرى، لم يُيد عضو فيليثيتو أدنى مؤشر على التصلب. ظل ضئيلاً ومختلفاً، ملتفاً بطياته، غير عابئ بما تغدقه عليه من ملاحظات أصابع مابيل الحامية.

- وهذا، ما الذي أصابه اليوم يا عجوزي؟ - فوجئت وهي تضغط على عضو عشيقها المتهدر.

- لا بد أن السبب هو شعوري بأنني لست على ما يرام - اعتذر فيليثيتو بضيق - وربما سأصاب برشح. لقد آلمني رأسى طيلة النهار، وتنتابني قشعريرة بين حين وآخر.

- سأحضر لك شيئاً ساخناً مع الليمون، وبعد ذلك سأداعبك ببعض الملاحظات لنرى إن كنا سنوقظ هذا النؤوم - قفزت مابيل عن السرير ولبست رداءها البيتي من جديد - لا تنم أنت أيضاً يا عجوزي.

ولكنها حين رجعت حاملة فنجان الشاي الذي يتتصاعد منه البخار وقرص البنادول في يدها كان فيليثيتو قد ارتدى ملابسه. وكان ينتظرها في الصالة الصغيرة ذات الأثاث البهيج رماني اللون، منكمشاً على نفسه وفي حالة حرجة تحت لوحة قلب يسوع المنير.

- ما أصابك شيء أكثر من الرشح - قالت مابيل وهي تجثو إلى جانبه وتتفحصه بنظرات مهيبة - لا يكون الأمر أنني لم أعد أروق لك؟ لا تكون قد وقعت في غرام واحدة من نساء بيورا؟

نفي فيليثيتو بحركة من رأسه، ثم أمسك يدها وقبلها.

- أنا أحبك أكثر من أي شيء في هذا العالم يا مابيليتا - أكد بعذوبة

- لن أعود للوقوع أبداً في حب أحد. أعرف أنني لن أجده في أي مكان امرأة مثلك.

تنهد وأخرج من جيبه رسالة العنكبوت.

- لقد تلقيت هذه الرسالة وأنا قلق جداً - قال وهو يقدمها إليها -

إنني أثق بك يا مابيل. أقرئيها ولنر ما هورأيك.

قرأت مابيل وأعادت القراءة ببطء شديد. الابتسامة التي تطفو على وجهها دوماً بدأت بالخسوف، وامتلأت عينها بالقلق.

- عليك أن تذهب إلى الشرطة، أليس كذلك؟ - قالت أخيراً متربدة. وكان التشوّش بادياً عليها - هذه عملية ابتزاز عليك أن تتقدم بشكوى على ما أعتقد.

- لقد ذهبت إلى مفوضية الشرطة. ولكنهم لم يعيروا الأمر اهتماماً. الحقيقة أنني لا أعرف ما على عمله يا حبي. رقيب الشرطة الذي تكلمت إليه قال شيئاً يبدو للوهلة الأولى صحيحاً. قال إنه مع التقدم الكبير الذي يحدث الآن في بيورا، تتزايد الجرائم أيضاً. تظهر عصابات أشرار تطلب إتاوة من التجار والشركات. لقد سمعت بذلك. ولكنني لم أفك قط في أنه يمكن للأمر أن يصل إلى. أعترف لك بأنني مشوش بعض الشيء يا مابيليتا. لا أدرى ماذا أفعل.

- لا تقل إنك ستقدم النقود التي يطلبها منك هؤلاء، لا يا عجوزي؟

- لن أدفع سنتاً واحداً، لن أدفع طبعاً. أنا لا أسمح بأن أذل من أي كان، هذا أمر يمكنني أن تكوني واثقة منه.  
أخبرها أن آديلايدا نصحته بأن يرخص للمبتدئين.  
- أظن أنها ستكون المرة الأولى في حياتي التي لن أتبع وحي صديقتي التالية.

- كم أنت ساذج يا فيليثيتو - ردت مابيل بانزعاج -. كيف تستشير الساحرة في مثل هذا الموضوع الحساس. لا أدرى كيف يمكنك ابتلاء الحكايات الكاذبة التي تقدمها لك تلك الماكرا.

- لم تخطئ معي قط - ندم فيليثيتو لأنه حدثها عن آديلايدا وهو يعرف أن مابيل تمقتها -. لا تقلقي، فهذه المرة لن أتبع نصيتها. يبدو لي أن كارثة توشك أن تحل بي.

بدت مابيل جدية جداً. ورأى فيليثيتو كيف راحت شفتاها الجميلتان الحمراوان تتبعدان بعصبية. رفعت إحدى يديها وسُرت شعره بتمهل.

- أود أن أتمكن من مساعدتك يا عجوزي، ولكنني لا أعرف كيف.  
ابتسم لها فيليثيتو موافقاً. نهض واقفاً، مشيراً بذلك إلى أنه قرر الانصراف.

- لا تريدينني أن أرتدي ملابسي ونذهب معاً إلى السينما؟ سوف يلهيك ذلك قليلاً، هيا تشجع.

- لا يا حبي، لا أجده لدى حماسة لمشاهدة أفلام. سنذهب في يوم آخر. اعتذرني. من الأفضل أن أذهب لأرقد في الفراش. لأن مسألة الرشح حقيقة.

رافقته مابيل حتى الباب وفتحته، لتيح له الخروج. وعندئذ رأى فيليثيتو، مجفلاً، المغلق الملحق إلى جانب جرس البيت. كان أبيض،

وليس أزرق كالملف الساق، وأصغر منه حجماً. خمن مضمونه على الفور. كان هناك بعض الصبية يلعبون بدوامات خشبية في الشارع، على بعد خطوات قليلة. اقترب منهم فيليثيتو قبل أن يفتح الملف ليسألهم إن كانوا قد رأوا من وضعه هناك. تبادل الصبيان النظرات في ما بينهم متفاجئين، ثم هزوا أكتافهم. لم ير أيّ منهم شيئاً بالطبع. حين رجع إلى البيت كانت مابيل شاحبة جداً ووميض كآبة يلمع في عمق عينيها.

- أتظن أن... تلعمت وهي تعض شفتيها. كانت تنظر إلى الملف الذي في يده دون أن يفتح بعد وكأنه يمكن له أن يعضها.

دخل فيليثيتو، أشعل ضوء الممر الصغير، وبينما مابيل تتعلق بذراعه وتقرب وجهها لتقرأ ما كان يقرأه، تعرّف على الحروف الكبيرة المكتوبة دوماً باللون الأزرق:

السيد ماناكيه:

لقد اقترفت خطأً بذهابك إلى مفوضية الشرطة، على الرغم من التوصية التي قدّمتها إليك المنظمة. كنا نريد لهذه المسألة أن تُحل بصورة سرية، من خلال الحوار. ولكنك تعلن علينا الحرب. سيكون لك ما أردته إن كان هذا ما تفضله. وفي هذه الحالة يمكن لنا أن نخبرك بأنك ستخرج خاسراً. ونأسف لذلك. قريباً ستجد الدليل على أننا قادرون على الرد على استفزازك. لا تكن عنيداً، نقول لك هذا من أجل مصلحتك. لا تُعرض للخطر ما توصلت إليه بسنوات طويلة من العمل الشاق يا سيد ماناكيه. ولا تَعدُ، بصورة خاصة، إلى تقديم شكاوى إلى الشرطة لأن ذلك سيُحزنك. فلتتحمل العواقب.

ليحفظ الله حضرتك.

رسم العنكبوت الذي يَرد بدل التوقيع كان مطابقاً تماماً للرسالة الأولى.

- ولكن، لماذا وضعوها هنا، في بيتي – تلعمت مابيل وهي تضغط بقوة على ذراعه. كان يشعر بها ترتجف من رأسها حتى قدميها. وكانت شاحبة.

- يريدونني أن أعرف أنهم يعرفون حياتي الخاصة، وما من سبب آخر - أحاط فيليثيتو كتفيها بذراعه وضمها إليه. أحس بها ترتجف، فأحزنه ذلك. قبلها من شعرها - أنت لا تعلمين كم أنا متأسف لأنك ستتورطين بسبيبي في هذه القضية يا مابيليتا. كوني حذرة جداً يا حبي. لا تفتحي الباب دون النظر قبل ذلك من الكوة. ومن الأفضل ألا تخرجي وحدك في الليل إلى أن تتضح هذه المسألة. من يدري ما هم مستعدون لفعلة أولئك الأشخاص.

قبلها مجدداً من شعرها وهمس في أذنها قبل أن ينصرف: «أقسم لك بذكرى أبي، وهي أقدس ما لدى، أن أحداً لن يُلحق بك أي أذى أبداً يا حبي».

خلال الدقائق القليلة التي انقضت منذ خروجه للتحدث مع الصبية الذين يلعبون بالدوامات، كان الظلام قد خيم. وكانت الأنوار الخافتة في ما حوله تكاد لا تضيء الدروب المتلئه بالحفر والمطبات. سمع نباحاً وموسيقى لجوحة، كما لو أن أحدهم يضبط وزان جيتار. اللحن نفسه يتكرر مرة بعد أخرى. وعلى الرغم من أنه كان يتغثر إلا أنه غز الخطى مستعجلأً. اجتاز الجسر المعلق بما يشبه الركض، هذا الجسر الذي صار الآن مخصصاً للمشاة، وتذكر أن ذلك التلاؤ الليلي الذي يتبدى في مياه نهر ببورا كان يسبب له الخوف في صغره، يجعله يفكر في عالم متكامل من الشياطين والأشباح في أعماق المياه. لم يرَ على تحية زوجين آتيبين من الاتجاه المعاكس. واحتاج لما يقارب نصف ساعة كي يصل إلى مفوضية الشرطة في جادة سانتشيث سيرو. كان يتعرق ويكاند الاختلاط لا يسمح له بالكلام.

- لا يمكن استقبال المراجعين في هذا الوقت - قال له الحراس الشاب عند المدخل -. اللهم إلا إذا كان هناك موضوع مستعجل يا سيدى.

- الأمر مستعجل، ومستعجل جداً - قال فليثيتو باندفاعة -. أيمكنني التحدث إلى الرقيب ليتوما؟

- من أقول له؟

- فيليثيتو ياناكىه، من شركة ناريهوالا للنقل. كنتُ هنا منذ بضعة أيام لتقديم شكوى. قل له إن أمراً خطيراً جداً قد حدث.

كان عليه أن ينتظر وقت لا بأس به، في عرض الشارع، يستمع إلى رجع أصوات ذكرية تتكلم بوضوح داخل المكان.رأى ظهور قمر متناقص فوق سطوح الأبنية المحيطة. كان جسده كله يتاجج، كما لو أن الحمى تتآكله. تذكر ارتجاف أبيه حين كان يصاب بالحمى الثلاثية، هناك في تشولوكانايس، وكيف كان يعالجها بالتعرق متداولاً بكومة من الجلود. ولكن ليست الحمى هي ما يجعله يرتجف الآن وإنما الغضب. أخيراً رجع الحراس الشاب الأمرد وأدخله. كان الضوء في الداخل شحيحاً وكئيباً مثلما هو في شوارع حي كاستيا. لم يقده الحراس هذه المرة إلى مقصورة الرقيب ليتوما الضيق، وإنما إلى حجرة مكتب أكثر اتساعاً. هناك كان الرقيب ومعه ضابط - برتبة نقيب، عرف ذلك من الشرائط الثلاث على كتفه قميصه -. بدین، قصير، وله شارب. نظر إلى فيليثيتو بلا سعادة. كان فمه المفتوح يكشف عن أسنان ضاربة إلى الصفرة. يبدو أنه قطع على الشرطيين لعبه داما. أراد صاحب شركة النقل أن يتكلم، ولكن النقيب أوقفه بإيماءة:

- أعرف قضيتك يا سيد ياناكىه، لقد أطلعني الرقيب عليها. وقد قرأت رسالة العكبوت تلك التي أرسلت إليك. أنت لا تتذكر، ولكننا

تعارفنا خلال غداء في الروتاري كلوب، في المركز البيوراني، منذ بعض الوقت. كانت هناك بعض كوكتيلات الخروب الجيدة كما يبدو لي. ودون أن يقول له شيئاً، وضع فيليثيتو الرسالة فوق رقعة الداما مشوشاً ترتيب أحجارها. كان يشعر بأن الغضب قد صعد حتى دماغه ويقاد لا يسمح له بالتفكير.

- اجلس قبل أن تصيبك سكتة قلبية يا سيد ياناكيه - قال النقيب ساخراً وهو يشير إلى كرسي. كان يغضّ أطراف شاربه، وبدت نبرة صوته متعالية واستفزازية - آه، بالنسبة، لقد نسيت أن تقول لنا مساء الخير. أنا النقيب سيلفيا، المفوض، في خدمتك.

- مساء الخير - ركب فيليثيتو الكلمتين بصوت يختنق من الغيط - لقد أرسلوا إليّ للتو رسالة أخرى. أطالب بتفسير أيها السيدان الشرطيان.

قرأ النقيب مُقرّباً الورقة من مصباح منضدته. وقدمها بعد ذلك إلى الرقيب ليتوما مدمداً من بين أسنانه: «ياه، المسألة تزداد سخونة».

- أطالب بتفسير - كرر فيليثيتو مختنقاً - كيف يعرف اللصوص أنني جئت إلى مفوضية الشرطة لأقدم شكوى بشأن الرسالة المغفلة؟

- عرفوا ذلك بطرق عديدة أيها السيد ياناكيه - هز النقيب سيلفا كتفيه وهو ينظر إليه بأسى - لأنهم لحقوا بك إلى هنا، على سبيل المثال. لأنهم يعرفونك ويعلمون أنك رجل غير قابل للابتزاز، وأنك ستذهب إلى الشرطة وتقدم شكوى ضد المبتزين. أو لأن أحداً منكم أخبرتهم بأنك تقدمت بشكوى. أو لأننا نحن، هكذا فجأة، دبرنا هذه الرسائل المغفلة، نحن التعباء نريد ابتزازك. لقد خطرت لك هذه الفكرة، أليس كذلك؟ ولهذا أنت تبدو سيء المزاج، تشي غوا، مثلما يقول أبناء مدینتك.

كبح فيليسيتو رغبته في أن يقول له أجل. وكان يشعر في تلك اللحظة بغضب على الشرطيين أشد من غضبه على مدبري رسالتي العنكبوت.

- هل وجدتها معلقة أيضاً على باب بيتك؟

توقد وجهه بينما هو يجيب موارياً اضطرابه:

- علقوها على باب بيت شخص كنت أزوره.

تبادل النقيب والرقيب النظارات.

- هذا يعني أنهم يعرفون حياتك بعمق إذاً يا سيد ياناكيه - علق النقيب سيلفا ببطء خبيث - هؤلاء الأندال يعرفون حتى من تزورهم. لقد قاموا بعمل استخباراتي جيد كما يبدو. من هنا يمكننا أن نستنتج أنهم محترفون وليسوا هواة.

- وماذا سيحدث الآن؟ قال صاحب شركة النقل. وقد تبدل غضبه الذي كان عليه قبل لحظة إلى شعور بالحزن والعجز. فما يجري له جائز وقاسٍ. على أي شيء.. ولماذا يعاقبونه من هم هناك في الأعلى؟ أي شر اقترفه أيها رب المقدس؟

- سيحاولون الآن تخويفك، كي تلين - أكد النقيب كما لو أنه يتكلم عن كم هي باردة هذه الليلة - كي يجعلوك تعتقد أنهم أقوياء ولا يمكن المس بهم. وبهذا سيقترون خطأهم الأول. عندئذ سنبدأ بتتبع أثرهم. عليك بالصبر يا سيد ياناكيه. فالآمور تمضي في طريق جيد، حتى لو لم تصدق ذلك.

- من السهل قول هذا عند مراقبة الأمر من الشرفة - تفلسف صاحب شركة النقل - وليس عندما تتلقى تهديداتٍ تشوش حياة أحدنا وتقلبها رأساً على عقب. أتريدني أن أعتصم بالصبر بينما أولئك اللصوص يخططون لعمل خبيث ضدّي أو ضدّ أسرتي كي أرضخ لهم؟

- أحضر كأس ماء للسيد ياناكيه يا ليتوما - أمر النقيب سيلفيا الرقيب بتهكمه المعهود - لا أريد أن تأتيه جلطة، لأنهم سيتهموننا عندئذ بخرق حقوق الإنسان مع رجل أعمال محترم من بيورا.

ليس مزاحاً ما قاله ذلك الشرطي، فكر فيليثيانو. أجل، يمكن له أن يصاب بجلطة ويبقى متيبساً هنا بالذات، على هذه الأرضية القدرة المثلثة بأعقاب السجائر. إنها ميّة كثيبة، في مفوضية للشرطة، بينما هو مريض ومحبط بسبب أبناء عاهرة بلا وجود ولا أسماء، يلعبون معه لعبة راسmi عناكب. تذكر أباه وتتأثر وهو يستحضر وجه أبيه القاسي، المشق كذا بضربات سكين، وجه صارم دوماً، الشعر منتصب والفم بلا أسنان. «ماذا عليّ أن أفعل يا أبي؟ أعرف، يجب ألا أسمح بأن أذل، ألا أعطiem سنتاً واحداً مما كسبته بصورة نظيفة. ولكن أي نصيحة أخرى كان يمكن لك أن تقدمها إليّ لو كنت حياً؟ أن أقضي الساعات منتظرًا الرسالة المغفلة التالية؟ لقد صار ذلك يحطم أعصابي يا أبي». لماذا كان يدعوه دوماً بأبي وليس ببابا؟ حتى في هذه الحوارات السرية التي يُجريها معه لا يتجرأ على رفع الكلفة معه. وهو ما يفعله أبناء الآن معه. لماذا لم يتعامل تيبورثيو وميغيل معه دون كلفة قط. وكلاهما بالمقابل يرفعان الكلفة مع أمهما.

- هل تشعر بتحسن يا سيد ياناكيه؟

- أجل، شكرًا - تناول رشفة أخرى من كأس الماء الذي جاءه به الرقيب ونهض واقفاً.

- أخبرنا بأية مستجدات فور وقوعها - شجعه النقيب على سبيل الوداع - ثق بنا. قضيتك الآن هي قضيتنا يا سيد ياناكيه.

بدت له كلمات الضابط ساخرة. خرج من المفوضية مكتئباً بعمق. مشى كامل المسيرة إلى بيته في شارع اريكيبيا ببطء، ملتصقاً بالجدران.

كان يخامره إحساس مزعج بأن هنالك من يتبعه، أحد يستمتع في التفكير بأنه يدمره قليلاً قليلاً؛ يُعرقه في انعدام الأمان والريبة، وابن العاهرة ذاك واثق من أنه سيهزمه عاجلاً أو آجلاً. فدمدم: «إنك مخطئ يا ابن العاهرة».

وفي بيته، فوجئت خيرتروديس بعودته مبكراً على ذلك النحو. سألته عما إذا كانت الهيئة الإدارية لجمعية العاملين في النقل في بيورا، وكان فيليثيتو عضواً فيها، قد ألغت عشاء أيام الجمعة ليلاً في نادي غراو. أتعرف خيرتروديس بأمر مابيل يا ترى؟ من الصعب ألا تكون عارفة بالأمر. ولكنها خلال تلك الأعوام الثمانية لم تعطه أية إشارة تدل على أنها عارفة: لا تبدي أية شكوى، ولا تفتعل أي مشهد غيره، ولا تبدي أي تلميح. لا يمكن ألا تكون قد وصلتها إشاعات، تقولات، بأن له عشيقة. أليست بيورا منديلاً مفتوحاً؟ الجميع فيها يعرفون كل شيء عن الجميع، وخاصة شؤون الفراش قبل أي شيء آخر. ربما كانت تعرف وتفضل المداراة كي تتجنب المشاكل وتحمل الأمر بهدوء. لكن فيليثيتو يقول لنفسه أحياناً إنها غير عارفة بالأمر؛ فالحياة المغلقة التي تعيشها امرأته، بلا أقارب، واقتصار خروجها إلى الشارع من أجل الذهاب إلى القدس أو صلوات التاسوع أو المسيرة في الكاتدرائية، لابد أن تسمح باستبعاد احتمال أنها تعرف أي شيء.

- جئت مبكراً لشعوري بأنني لست على ما يرام. أظن أنني سأصاب برشح.

- لم تأكل إذاً. أتريدني أن أعد لك شيئاً تأكله. سأفعل ذلك بنفسي، لأن ساتورنينا قد غادرت.

- لا، لست جائعاً. سأشاهد التلفاز قليلاً ثم أذهب إلى الفراش. هل من جديد؟

- تلقيتُ رسالة من أختي آرميدا، من ليما. يبدو أنها ستتزوج.  
- آه، جيد، يجب أن نرسل إليها هدية إذاً - لم يكن فيليثيتو يعلم أن لخيرتروديس اختاً في العاصمة. إنه الخبر الأول عنها. حاول أن يتذكر. أتراها تكون تلك الطفلة الحافية ذات السنوات القليلة التي كانت تتنقل في بنسيون «شجرة الخروب»، حيث تعرف على زوجته؟ لا، تلك الصغيرة هي ابنة سائق شاحنة ترمل يدعى أرخيميرو تريبيس. هزت خيرتروديس رأسها موافقة وابتعدت باتجاه حجرتها. فمنذ أن ذهب ميغيل وتبيورثيو ليعيشان وحدهما بعيداً عن البيت، صارت لكل من فيليثيتو وزوجته غرفة منفصلة.رأى كتلة زوجته التي لا تقاطع لها تختفي في البهو الصغير المظلم حيث توجد غرفتا النوم وغرفة الطعام والصالة الصغيرة والمطبخ. لم يحبها قط مثلماً ثحب امرأة، ولكنه يشعر نحوها بتعاطف ممزوج بالشفقة، لأن خيرتروديس، وإن كانت لا تشو، تشعر دون ريب بالإحباط مع زوج بذلك البرود وعدم الاتكراش. لا يمكن لحاله أن تكون غير ذلك في زواج لم يكن حصيلة حب وإنما نتيجة سكرة ومضاجعة شبه غير واعية. أو من يدري. فهذا موضوع يعود إلى ذاكرة فيليثيتو بين حين وآخر ويسبب له مرارة طيلة اليوم، مع أنه يفعل كل ما بوسعه لتجنبه. كانت خيرتروديس ابنة صاحبة نُزل «شجرة الخروب»، وهو بنسيون رخيص في شارع رامون كاستيا، المنطقة الأشد بؤساً آنذاك في التشيبة، يأوي إليه سائقو شاحنات كثيرون. وقد نام فيليثيتو معها مرتين، دون أن يكون بوعيه تقريباً، في ليلتي شرب وسكر. فعل ذلك لأنه فعله، لأنها كانت هناك ولأنها امرأة، ليس لأن الفتاة أعجبته. لم تكن تعجب أحداً، ومن يمكنه أن يعجب بتلك الأنثى شبه الحولاء، التافهة التي تفوح منها على الدوام رائحة الثوم والبصل. ونتيجة واحدة من تينك المضاجعتين بلا حب، وبلا رغبة تقريباً، حبت

خيرتروديس. كان هذا على الأقل ما قالته فيليثيتو هي وأمها. السيدة لوتميل، صاحبة النزل، من اعتاد السائقون تسميتها بالأمرة، تقدمت بشكوى ضده لدى الشرطة. وكان عليه أن يذهب ليقدم إفادته، واعترف أمام مفوض الشرطة بأنه ضاجع تلك البنت القاصر. ووافق على الزواج منها لشعوره بتأنيب الضمير من أن يولد له ابن دون أن يُعترف به، ولأنه صدق القصة. في ما بعد، عندما ولد ميغيل الصغير، بدأت الشكوك. أهو ابنه حقاً؟ لم يستجوب خيرتروديس قط بالطبع، ولم يتحدث في هذا الأمر مع آديلايدا أو مع أي شخص آخر. ولكنه عاش طيلة كل تلك السنوات وهو يشك في أنه ليس ابنه. لأنه لم يكن هو الوحيد الذي يضاجع ابنة الآمرة في تلك الحفلات التي كانت تقام أيام السبت في نزل شجرة الخروب. لم يكن ميغيل يشبهه في أي شيء، فهو ولد أبيض البشرة وأزرق العينين. لماذا حملته خيرتروديس وأمها المسئولية؟ ربما لأنه كان أعزب، وشخصاً طيباً، وشغيلاً، ولأن الآمرة تريد تزويج ابنتها بأي حال. وربما لأن أبو ميغيل الحقيقي كان متزوجاً، أو شخصاً أبيض سيئ السمعة. لقد كانت هذه القضية تعود لتعكر مزاجه بين فترة وأخرى. لم يسمح لأحد قط بأن يلاحظ ذلك، بدءاً من ميغيل نفسه. فقد تصرف معه على الدوام على أنه ابنه، مثله مثل تبيوريثيو. وإذا كان قد أدخله إلى الجيش، فإنما فعل ذلك من أجل مصلحته، لأنه كان آخذاً بالضلال. ولم يبد قط أي تفضيل لابنه الأصغر. وهذا الابن الثاني كان صورة حية عنه بالفعل: خلاسي تشولو من رأسه حتى قدميه، دون أثر من البياض في وجهه أو جسده.

كانت خيرتروديس امرأة نشيطة ومضحية في السنوات الصعبة. وبعد ذلك أيضاً، حين تمكن فيليثيتو من افتتاح شركة نارييهوالا للنقل وتحسن أحواله. ومع أن لديهما الآن بيتاً جيداً وخادمة ودخلأً

مضمناً، إلا أنها مازالت تعيش بتقشف السنوات التي كانا فيها فقيرين. فهي لا تطلب منه نقوداً لاحتياجتها الخاصة أبداً، وإنما نقود الطعام والنفقات المنزلية الأخرى. فكان يلح عليها، بين حين وآخر، كي تشتري أحذية أو ثوباً جديداً. ولكنها حتى لو اشتريت شيئاً من ذلك، تظل دوماً بخف عادي وبذلك الرداء البيتي الذي يبدو أشبه بجلباب كاهن. متى تحولت إلى متدينة جداً؟ لم تكن هكذا في البدء. بدا له أن خيرترودис قد تحولت مع مرور السنين إلى جزء من الأثاث، وأنها لم تعد شخصاً حياً. كانا يقضيان أياماً بكاملها دون أن يتبادلا كلمة واحدة، باستثناء صباح الخير ومساء الخير. لم يكن لزوجته صديقات، وهي لا تقوم بزيارات ولا تستقبل زائرات، بل إنها لا تذهب لزيارة أبنائهما عندما تنقضي الأيام دون أن يأتوا لزيارتها. كان تيبورثيو وميجيل يأتيان إلى البيت بين وقت وآخر، ودائماً بمناسبة عيد ميلاد أحد أفراد الأسرة، وليلة عيد الميلاد، وهي تبدو عندهن حنونة معهما. وباستثناء هذه المناسبات، لم تكن تبدو شديدة الاهتمام بابنيها. في بعض الأحيان يعرض عليها فيليثيتو أن يذهبا إلى السينما، أو للتنزه على الكورنيش أو للاستماع إلى عزف الفرقة الموسيقية العسكرية أيام الأحد في ساحة السلاح، بعد قداس الثانية عشرة. فتوافق بانصياع، ولكنها نزهات قلما يتبادلان خلالها الكلام، ويبدو له أن خيرتروديس تكون متلهفة للعودة إلى البيت، والجلوس على كرسيها الهزار في أقصى البهو، بجانب المذيع أو التلفزيون اللذين تبحث فيهما دوماً عن برامج دينية. ولا يتذكر فيليثيتو حدوث أي شجار أو خلاف مع هذه المرأة التي تنساع دوماً لمشيئته بإذعان كامل.

ظل لبعض الوقت في الصالة الصغيرة يستمع إلى الأخبار. الجرائم وأعمال السطو وعمليات الاختطاف المعهودة. وبين الأخبار سمع خبراً

جعل شعر رأسه ينتصب. روى المذيع أن أسلوباً جديداً في السطو على السيارات آخذ بالانتشار بين لصوص السيارات في ليما. استغلال إشارة المرور الحمراء لرمي فار حي داخل السيارة التي تقودها سيدة. فتفلت المرأة المقود وهي تكاد تموت من الفزع والقرف، وتخرج من السيارة مطلقة الصرخات وراكضة. عندئذ يأخذ اللصوص السيارة بكل اطمئنان. فار حي على التنورة، يا للقذارة! التلفزيون يسم الناس بكثرة الدماء والقذارات. وقد كان من عادة فيليثيتو، بدل الاستماع إلى الأخبار، أن يضع أسطوانة للمغنية سيسليا باراسا. ولكن في هذه المرة تابع تعليق مقدم الأخبار في برنامج 24 ساعة الذي يؤكد على أن الجرائم تتزايد في البلاد. «فليسألوني أنا»، فكر فيليثيتو.

ذهب للنوم في حوالي الساعة الحادية عشرة، ومع أنه غفا على الفور بسبب انفعالات هذا اليوم القوية دون شك، إلا أنه استيقظ في الثانية فجراً. ولم يعد يكاد يغمض عينيه بعدها. كانت تتنتابه مخاوف، إحساس بالقشعريرة، فوق ذلك كله مرارة الشعور بأنه غير قادر، وعجز في مواجهة ما يحدث له. ما إن يغفو قليلاً حتى يعج رأسه بصور أمراض وحوادث ونكبات. وجاءه كابوس فيه عناكب.

نهض في الساعة السادسة. وقام بممارسة تمارين الكي جونغ إلى جانب السرير وهو ينظر في المرأة، ويتذكر كالعادة معلمه البقال لاو. وضعية الشجرة التي تهتز إلى الأمام والخلف، إلى اليسار واليمين وبصورة دائرية، تحركها الرياح. يقف بقدمين راسختين تماماً على الأرض، وبينما هو يحاول إفراغ ذهنه، يهتز باحثاً عن المنتصف. البحث عن المركز. عدم فقدان المركز. رفع الذراعين وإنزالهما ببطء شديد، مثل مطر خفيف يهطل من السماء يربط جسده وروحه، يهدئ أعصابه وعضلاته. استبقاء السماء والأرض في مكانيهما والحيولة دون

أن تلتقيا، بواسطة الذراعين - ذراع مرفوع إلى أعلى ليسند السماء والآخر يتوجه إلى أسفل ليثبت الأرض - وبعد ذلك تمسيد الذراعين، والوجه، والكليتين، والساقيين في جسده. فتح الماء بيديه وضمها. تسخين المنطقة القطنية من العمود الفقري بتدليك ناعم ومتواصل. فتح الذراعين كفراشة تفتح جناحيها. في البدء، كان ذلك البطء الاستثنائي في الحركات، وذلك التنفس بكاميرا بطيئة لتمرير الهواء إلى كافة أجزاء البدن، يُفقده صبره، ولكنه اعتاد عليه مع مرور السنوات. وهو يدرك الآن أنه في ذلك تكمن الفائدة التي يأتي بها إلى جسده وروحه ذلك الشهيق والزفير العميقان، وتلك الحركات، برفع يد إلى أعلى ومد الأخرى نحو الأرض، مع ضم الركبتين بخفة، إنما يثبت كواكب القبة السماوية في أماكنتها ويحول دون القيامة. وحين يغمض عينيه أخيراً، ويبقى ثابتاً دون حراك للحظات، بينما اليدان مضمومتان كما في صلاة، يكون نصف الساعة قد انقضى.وها قد بدأ يطل من النافذة ضوء صباح بيورا الصافي والأبيض.

ضربات قوية على الباب الخارجي قطعت عليه تمرينات الكي جونغ. ذهب ليفتح الباب معتقداً أن ساتورنينا قد جاءت مبكرة هذا الصباح، متقدمة عن موعدها، لأنها لا تصل أبداً قبل الساعة السابعة. ولكن من وجده عند العتبة حين فتح الباب هو لوثيانو.  
- أركض، أركض يا دون فيليثيتو - كان أعمى الناصية متوتراً جداً -  
لقد قال لي أحدهم إن مكتبك في جادة سانتشيث سيررو يحترق، اتصل بالطافئ واذهب إلى هناك.

## IV

زفاف إسماعيل وآرميدا كان الأقصر والأقل رواداً بين جميع حفلات الزفاف التي يتذكرها ريفوبيرتو ولوكريثيا، على الرغم من أنه قدم لهما أكثر من مفاجأة. فقد أقيمت المراسم في وقت مبكر جداً، في بلدية تشوربيوس، حين كان لا يزال يُرى مشهد تلاميذ بالزي المدرسي يتدفعون نحو المدارس، وكان موظفو بارنوكو وميرافلوريس وتشوربيوس يتوجهون متوجلين إلى أعمالهم في الفانات والحافلات والأمنبوسات. وقد اتخذ إسماعيل الاحتياطات المتوقعة كيلا يعلم ابناه بالخبر مسبقاً، فأخبر ريفوبيرتو في العشية فقط، أنه عليه أن يمثل في مقر عدمة تشوربيوس، ترافقه زوجته إن كانت ترغب في ذلك، في الساعة التاسعة صباحاً بالضبط، وأن يأتيا معهما بوثائقهما الشخصية. وحين وصلا إلى مبنى البلدية، وجدا العروسين هناك ومعهما أيضاً نرسيس الذي ارتدى للمناسبة بدلة سوداء وقميصاً أبيض، ووضع ربطة عنق زرقاء مزينة بنحوم صغيرة مذهبة.

أما إسماعيل فكان يرتدي بدلة رمادية، مع تأنقه المعهود. وارتدى آرميدا بدلة مفصلة خصيصاً للمناسبة، وحذاه جديداً، وكانت تبدو مثبطة ومضطربة. وراحت تتوجه بالحديث إلى لوكريثيا بالقول لها «يا سيدتي» على الرغم من أن هذه الأخيرة طلبت منها، حين عانقتها، أن تكلمها برفع الكلفة - «أنت وأنا سنكون صديقتين جيدتين منذ الآن يا

آرميدا» -، ولكن بدا صعباً على العاملة المنزلية السابقة، إن لم نقل مستحيلاً، أن تلبي رغبة لوكريثيا.

جرت المراسم بسرعة كبيرة. قرأ العمدة، بتعثر، واجبات الزوجين وحقوقهما؛ وما كادت القراءة تنتهي حتى وقع الشاهدان على السجل. جرت المعانقات والمصافحات المعمودة. لكن كل شيء كان بارداً، هكذا فكر ريفوبيرتو، ومتكلفاً ومتصنعاً. المفاجأة جاءت لدى الخروج من مقر العمدة، حين توجه إسماعيل إلى ريفوبيرتو ولوكريثيا بابتسامة ماكرة: «والآن أيها الصديقان، إذا كان لديكم متسع من الوقت، فإنني أدعوكما إلى الطقوس الدينية». سيتزوجان في الكنيسة أيضاً! «الأمر أكثر جدية مما يبدو عليه»، علقت لوكريثيا بينما هم يتوجهون نحو كنيسة «نويسترا سينيورا دل كارمن ديلا ليغوا» القديمة، على ضفاف نهر كايابو، حيث أقيمت طقوس الزواج الكاثوليكية.

- التفسير الوحيد هو أن صديقك إسماعيل قد صار أزرق، وقد وقع في الحب حقاً - أضافت لوكريثيا - ألا يكون مختلاً؟ الحقيقة أنه لا يبدو كذلك. رباه! من يستطيع فهم هذا؟ أنا على الأقل لا أفهمه.

كان كل شيء جاهزاً كذلك في الكنيسة التي يقال إن المسافرين من كايابو إلى ليما، في زمن المستعمرة، كانوا يتوقفون فيها دوماً ليطلبوا من عذراء الكارمن أن تحميهم من عصابات السطوا التي كانت تعج بها الأرضي الخلاء الفاصلة آنذاك بين الميناء ومدينة ليما، مقر نائب الملك. لم يتأخر الكاهن أكثر من عشرين دقيقة في عقد قران الزوجين الجديدين ومنحهما المباركة. ولم يجر أي احتفال أو تبادل أنخاب، اللهم إلا تهنئة ومعانقة كل من نرسيس وريفوبيرتو ولوكريثيا للزوجين. وفي تلك اللحظة فقط كشف لهم إسماعيل أنه هو وآرميدا سيتوجهان إلى المطار فوراً للانطلاق إلى شهر عسلهما. وأن أمتعتهما موجودة في حقيبة السيارة. «ولكن لا تسألاني إلى أين

سندهب ، لأنني لن أخبركما. آه ، وقبل أن أنسى. لا تختلفا غداً عن قراءة صفحة الأخبار الاجتماعية في جريدة الكوميثريو. ستجدان فيها إعلاناً يطلع مجتمع ليما على زواجنا». أفلت ضحكة وغمزهما بخبث؛ ثم انطلق هو وأرميدا على الفور، يقود السيارة بهما نرسيس الذي كان شاهداً، عاد من جديد الآن ليكون سائق إسماعيل كاريرا.

- مازلتُ غير مصدقة أن هذا كله يحدث - قالت لوكريثيا مرة أخرى بينما هي وريغوبيرتو يعودان إلى بيتهما في بارانكو على الطريق الساحلي - لا يبدو لك لعباً، مسرحاً، تهريجاً؟ باختصار، لا أدرى كيف أصفه ، ولكنه ليس شيئاً يحدث حقاً في الحياة الواقعية.

- أجل ، أجل ، معك حق - وافقها زوجها -. فمشهد هذا الصباح يعطي إحساساً باللاواقعية. حسن ، إسماعيل وأرميدا مضيا لقضاء وقت ممتع . وللتحرر مما هو آتٍ. أعني مما سيقع على رؤوسنا نحن المتبقين هنا. من الأفضل لنا أن نغادر نحن أيضاً بأسرع ما يمكن إلى أوروبا. لماذا لا نقدم موعد سفرنا يا لوكريثيا.

- لا ، لا نستطيع ، لا يمكننا الذهاب مادامت مشكلة فونتشيتو تلك موجودة - قالت لوكريثيا -. لا يشعرك ذهابنا في هذا الوقت بتأنيب الضمير لتركنا الفتى وحيداً مع المشكلة التي في رأسه؟

- أشعر بذلك طبعاً - صرح دون ريجوبيرتو -. لو لا تلك الرؤى اللعينة لكنت قد اشتريت تذاكر السفر. أنت لا تدررين أية بهجة تسببها لي هذه الرحلة يا لوكريثيا. لقد درست الطريق الذي سنسلكه بعدسة كبيرة ، حتى في أدق التفاصيل. سوف يفتنك ذلك ، وسترين.

- لن يعلم التوأمان بالأمر حتى الغد ، من خلال الإعلان في الجريدة - قدرت لوكريثيا -. وحين يعلمان ستكون أنت من سيطلبان منه تفسيرات ، إنني واثقة من ذلك.

- سيطلبونها مني طبعاً - وافقها ريفوبيرتو - ولكن، بما أن ذلك لن يحدث إلا غداً، فسوف يكون لدينا اليوم يوم أمان وهدوء مطلقين. لا أريد العودة إلى الحديث عن الضبعين، أرجوك.

حاولا الالتزام بذلك. ولم يأتيا على ذكر أي شيء عن ابني إسماعيل كاريلا خلال الغداء، ولا في فترة بعد الظهر، ولا على العشاء. وحين رجع فونتشيتو من المدرسة أخبراه بأمر الزواج. إلا أن الصبي الذي كان يمضي ساهياً، كمن يركز على مخاوف حميمة منذ لقائه بـإديليبيرتو توريس، لم يبدُ عليه أنه أولى أدنى اهتمام للموضوع. استمع إليهما وابتسم تأديباً، ثم ذهب لينزو في غرفته قائلاً إن لديه واجبات مدرسية كثيرة عليه إنجازها. ولكن على الرغم من أن ريفوبيرتو ولوكريثيا لم يذكرا التوأمين طوال بقية اليوم، إلا أنهما كانا يعلمان أنه مهما كان ما يفعلنه، ومهما كان ما يتحدثان فيه، فإن هنالك في أعماق ذهنيهما ذلك السؤال المقلق: كيف سيكون رد فعل التوأميين حين يعلمان بزواج أبيهما؟ لن يكون رد فعل متحضر وعقلاني، هذا أمر مفروغ منه. لأن الأخرين ليسوا متحضرين ولا عقلانيين، فلسبب ما يسمونهما الضبعين، لقب ثابت اكتسباه في حيّهما مذ كانوا يرتديان بناطيل قصيرة.

بعد العشاء، انزو ريفوبيرتو في مكتبه وتهياً، مرّة أخرى، للقيام بواحدة من تلك المقارنات المشغوف بها، لأنها تستحوذ على اهتمامه وتنسيه كل ما عداتها. استمع في هذه المرة لتسجيلين يملكلهما لواحدة من مقطوعاته الموسيقية المفضلة: الكونشيرتو رقم 2 للبيانو والأوركسترا 83 لجوهانز براهمز، بعزف فيلهلمونيكا برلين، يقودها في الحالة الأولى كلود آباد مع ماوريز بوليني كمنفرد، وفي الحالة الثانية بقيادة السير سيمونراتيل للأوركسترا ويفين برونفمان منفرداً على البيانو. النسختان كلتاها كانتا رائعتين. لم يتمكن قطّ من حسم أمر تفضيل إحداهما دون

خطأً، ففي كل مرة يجد أنهما، رغم اختلافهما، متماثلتان بحيث لا يمكن المفاضلة بينهما. ولكن حدث له شيء في هذه الليلة مع عزف برونفمان، عند بدء الحركة الثانية – سعادة مؤثرة – حسم اختياره: أحس بعينيه تدمعن. قلما بكى وهو يستمع إلى كونشيرتو: أيكون السبب هو براهمز، أيكون البيانو، تكون الحالة عالية الحساسية التي أوصلته إليها أحداث هذا اليوم؟

عندما حان موعد النوم أحس بضيق في النفس: كان متعباً جداً، وهادئاً تماماً. وبدا كما لو أن إسماعيل وآرميدا والضبعين وإديليبيرتو توريس قد صاروا بعيدين، إلى الوراء جداً، قد أبطل وجودهم. هل سينام إذاً بسرعة؟ يا للأمل. بعد قليل من التقلب في الفراش، في المخدع شبه المظلم، بوجود المصباح الذي إلى جانب السرير من جهة لوكريثيا مضاء، سأل زوجته فجأة وهو مؤرق، ضحية حماسة مbagata:

- ألم يخطر لك التفكير في كيف ستكون قصة إسماعيل مع آرميدا يا قلبي؟ متى وكيف سيبدأن. من سيأخذ زمام المبادرة. أي نوع من الألعاب أو المصادفات أو الملامسات أو المزاح شرعاً به.

- بالضبط. دمدمت لوكريثيا وهي تستدير كمن تذكرت شيئاً. قربت وجهها وجسدها كثيراً من زوجها وهمست في أذنه: هذا ما كنت أفكر فيه طيلة الوقت يا حبي. منذ اللحظة الأولى التي رويت لي فيها هذه القصة.

- آه، حقاً؟ وما الذي فكرت فيه؟ ماذا خطر لك على سبيل المثال؟ - استدار ريفوبيرتو جانبياً نحوها ومر بيديه على خصرها -. لماذا لا تخبريني.

خارج الغرفة، في شوارع حي بارانكو، ساد ذلك الصمت الليلي الذي يقطعه، بين حين وآخر، هدير البحر البعيد. تكون هنالك نجوم؟ لا،

إنها لا تظهر أبداً في مثل هذه الفترة من السنة. أما هناك في أوروبا فيرونها تلمع وتتلاألأ في كل ليلة. ولوكريثيا، بصوت مرخم وبطيء كما في أفضل المناسبات، ذلك الصوت الذي هو موسيقى لريغوبيرتو، قالت بتمهل، كما لو أنها ترتل قصيدة:

«مهما بدا لك الأمر غير معقول، يمكن لي أن أعيد لك بناء قصة حب إسماعيل وآرميدا بكل تفاصيلها. أعرف أن ذلك سيزبح عنك الناس، وسيملؤك بأفكار خبيثة، منذ أن أخبرك صديقك في مطعم «روسا ناوتيكا» أنه سيتزوج. كيف أعرف كل هذا؟ فلتهو مرميأ على ظهرك... أعرفه بفضل خوستينيانا. فهي وآرميدا صديقتان حميمتان منذ زمن. أو بعبارة أدق، منذ بدأ مرض كلوتيلدي وأرسلناها بضعة أيام كي تساعد آرميدا في أعمال المنزل. إنها تلك الأيام الكثيبة، حين انهار العالم على رأس المسكين إسماعيل وهو يفكّر في أن رفيقته مدى الحياة وأم ابنيه يمكن أن تموت. ألا تذكر؟

- إنني أتذكر طبعاً - كذب ريجوبيرتو متھجياً في أذن زوجته كما لو أن الأمر يتعلق بسر لا يمكن البوح به - كيف لن أتذكر يا لوكريثيا... وما الذي حدث حينئذ؟

«حسن، صارت صديقتين وبدأتا تخرجان معاً. ومنذ ذلك الحين، كما يبدو، كانت آرميدا قد وضعت في رأسها الخطة التي انتهت بها إلى نجاح باهر. فمن عاملة منزلية ترتّب الأسرة وتنظف الغرف، تحولت ليس إلى أقل من زوجة إسماعيل كاريوا، السيد الكبير المحترم والثري في ليما. وهو فوق ذلك سبعيني أو ربما ثمانيني».

- تجاهلي التعليقات وما تعرفي - أنّها ريجوبيرتو لاعباً الآن لعبة الأسى - . فلنذهب مباشرة إلى ما هو مهم حقاً يا حبي. وأنت تعرفي تماماً ما أعنيه. الواقع، الواقع.

«هذا ما أتوجه إليه. لقد خططتْ آرميدا لكل شيء، وبدهاء. وطبعاً، لو لم يكن لدى هذه البيورانية بعض المفاتن الجسدية لما أفادها ذكاًؤها ودهاؤها في أي شيء. لقد رأتها خوستينيانا عارية طبعاً. فإذا ما سألتني كيف ولماذا، فإبني لا أعرف. من المؤكد أنهما استحثمتا معاً ذات مرة. أو نامتا معاً في الفراش نفسه ذات ليلة، من يدري. إنها تقول إننا سنُفاجأ بكم هي آرميدا متناسقة التكوين حين ثُرى عارية، وهو أمر لا يُلحظ بسبب رداءة ما تلبسه من أثواب البدينات الفضفاضة تلك. خوستينيانا تقول إنها ليست بدينة، وإن وركيها متينان ونهديها منتصبان، وإن حلمتيها صلبتان، وساقيها مسکوبان جيداً، وترى أن لها بطنًا أملس مثل طبل. وعانتها بلا شعر تقريباً، مثل يابانية».

- أيكون ممكناً أن آرميدا وجوستينيانا قد استثثرتا حين رأت كل منها الأخرى عارية؟ - قاطعها ريفوبيرتو العاري - . أيكون ممكناً أنهاهما بدأتا اللعب، واللامس، والتودد وانتهت بهما الأمر إلى ممارسة الحب؟ - كل شيء ممكن في هذه الحياة يا صغيري - ألمحت دونيا لوكريثيا بحكمتها المعهودة. وكان الزوجان قد التصقا الآن أحدهما بالآخر - ما يمكنني تقديمك إليك هو أن خوستينيانا، حين رأت آرميدا عارية، بلغ بها الأمر حد الإحساس بدغدغة في ذلك الجزء من جسدها، وأنت تعرف ما أعنيه. خوستينيانا نفسها من اعترفت لي بذلك وهي متوردة من الخجلوضاحكة. إنها تمزح كثيراً في هذه الأمور، أنت تعرف ذلك، ولكنني أظن أن رؤية آرميدا عارية قد استثارتها. وهكذا... من يدري، يمكن لأي شيء أن يكون قد حدث بينهما. على كل حال، ما كان يمكن لأحد أن يتخيّل كيف هو، في الحقيقة، جسد آرميدا المخبأ تحت وزارة المطبخ والتناول العاديّة التي تلبسها. ومع أننا أنا وأنت لم ننتبه، فإن خوستينيانا تعتقد أنه منذ دخول المسكينة كلوتيلايي المرحلة

الأخيرة من مرضها، حين صار موتها أمراً لا مناص منه، بدأت آرميدا تهتم أكثر من السابق بمظاهرها.

- ما الذي كانت تفعله مثلاً؟ - عاد ريفوبيرتو إلى مقاطعتها. كان صوته بطيئاً وقلبه متسرعاً - أكانت تلمح بشيء إسماعيل؟ ما الذي فعلته؟ وكيف؟

«كانت تظهر كل صباح وهي أفضل مظهراً مما كانت عليه في اليوم السابق. مسرحة الشعر مع لسات تفنج صغيرة، يكاد لا ينتبه أحد إليها. وبحركات جديدة باليدين، بالصدر، بالوركين. لكن إسماعيل العجوز كان ينتبه إلى ذلك؛ على الرغم من الحال التي صار إليها بعد موت كلوتيلدي، حال الذهول، السرقة، التمزق حزناً. إذ أضاع البوصلة، ولم يعد يعرف من يكون أو أين هو. ولكنه انتبه مع ذلك إلى أن شيئاً ما يجري حوله. لقد لاحظ ذلك بالطبع».

- ها أنت تبتعدين مرة أخرى عما هو أساسي يا لوكريثيا - تذمر ريفوبيرتو وهو يشدها إليه - ليس هذا هو الوقت المناسب للتحدث عن الموت يا حبي.

«عندئذ، ويا للعجب، تحولت آرميدا إلى الأشد إخلاصاً واهتمامًا وتذللأ. فهي موجودة على الدوام رهن إشارة سيدها كي تحضر له مشروب مئة مع البابونج، فنجان شاي، كأساً من ال威士كي، تكوي قبصيه، تخيط له زرأ، تقوم بلمسات لترتب له وضع البدلة، تعطى الحذاء ل الكبير الخدم كي يلمعه، تستعجل نرسيس بإخراج السيارة في الحال لأن دون إسماعيل يتاهم بخروج ولا يحب الانتظار».

- ما أهمية هذا كله - غصب ريفوبيرتو وهو يغض إحدى أذني امرأته - أريد معرفة أشياء أكثر حميمية يا حبي.

«في الوقت نفسه، وبحكمة لا يملكها أحد سوانا نحن النساء، حكمة أنت إلينا من حواء شخصياً، وتكمن في أرواحنا، في دمائنا، ويخيل إليّ أنها موجودة في قلوبنا وفي أرحامنا أيضاً، بدأت آرميدا بحياكة ذلك الفخ الذي سيسقط فيه الأرمل، المحطم بموت زوجته، كملأك وديع». - أي أشياء كانت تفعلها له - توسل ريفوبيرتو متعجلاً - أخبريني بدقة أكبر في التفاصيل يا حبي.

«في ليالي الشتاء، حين يكون إسماعيل منزويًا في مكتبه، ينفجر في البكاء. وكما في أعمال السحر، تظهر إلى جانبه هناك آرميدا، مخلصة، محترمة، متأثرة، متلفظة بعبارات تدليل بتلك النبرة الغنائية الشمالية التي لها رنة موسيقى. وتسكب هي أيضاً بعض الدموع، قريباً جداً من سيد البيت. يستطيع هو الشعور بها وسماعها، لأن جسديهما يتلامسان. وبينما آرميدا تمسح جبهة سيدها وعينيه، دون أن تتنبه، كما يقال، في سعيها لمواساته وتهدئته والحنو عليه، تنزلق فتحة صدر ثوبها، ولا تستطيع عينا إسماعيل التخلص عن ملاحظة تينك النهدين الطازجين، الأسمرين، الفتبيين وهما يلامسان صدره ووجهه؛ نهدا امرأة لا بد أنهما، من وجهة نظر سينه، لا يبدوان نهدا شابة وإنما طفلة. عندئذ تبدأ المزور في ذهنه فكرة أن آرميدا ليست مجرد زوج من الأيدي التي لا تكل في ترتيب الأسرة، ونفض الغبار عن الجدران، وتلميع الأرضيات، وغسل الثياب، وإنما هي كذلك جسد ممتنئ، طري، نابض، دافئ، وإنها حميمية شذية، ندية، مثيرة. عندئذ يبدأ إسماعيل المسكين، خلال مظاهر الوفاء والتأثر الحانية تلك التي تبديها عاملته المنزليّة، يبدأ بالشعور بأن ذلك الشيء المنكمش والمغطى بين ساقيه، والأقل قليلاً من يائس بسبب عدم الاستعمال، قد بدأ يبدي إشارات حياة، بدأ ينبئ. وهذا ما لم تكن خوستينيانا تعرفه طبعاً، ولكنها

تتكهن به. وأنا أيضاً لا أعرفه، ولكنني متأكدة من أن كل شيء بدأ على هذا النحو. ألا ترى ذلك أنت أيضاً يا حبي؟» .

- عندما روت لكِ خوستينيانا هذا كله، هل كنت أنت وهي عاريتين يا حبي؟ - كان ريفوبيرتو يتكلم بينما هو يغضض بخفة رقبة زوجته، وأذنيها، وشفتيها، وتداعب يداه ظهرها وإليتها وما بين ساقيها.

- كنت أضمها مثلما تضمني أنت الآن - ردت لوكريشيا وهي تداعبه، تعغضضه، تقبله، تتكلم داخل فمه - كنا شبه عاجزتين عن التنفس، لأننا كنا نختنق، كنت أرشف لعابها وهي ترشف لعابي. وتظن خوستينيانا أن آرميدا هي من أقدمت على الخطوة الأولى، وليس هو. فهي من لست إسماعيل أولاً. هنا، أجل. هكذا.

- أجل، أجل، بالطبع، واصلي، واصلي - كان ريفوبيرتو يخر خر، يبذل جهداً، ويقاد صوته لا يخرج منه - هكذا حدث الأمر بالتأكيد، هكذا حدث.

ظلا لبعض الوقت صامتين، متعانقين، يتبدلان القبلات، ولكن ريفوبيرتو توقف فجأة، باذلاً في ذلك جهداً عظيماً. وابتعد بخفة عن زوجته.

- لا أريد أن أنهي بعد يا حبي - همس - إنني أستمتع كثيراً. أرغبُ فيك، أحبك.

- فلنأخذ فاصلاً إذاً - قالت لوكريشيا وهي تبتعد عنه أيضاً - لنتحدث عن آرميدا. لقد كان ما فعلتهُ وتوصلتْ إليه أمراً جديراً بالإعجاب، ألا ترى ذلك؟

- بكل المعاني - قال ريفوبيرتو - ما قامت به عمل فني حقيقي. تستحق عليه� الاحترام والتقدير. إنها امرأة عظيمة.

- وبين قوسين - قالت زوجته، مستبدلة صوتها -، إذا ما متُ أنا قبلك، لن يزعجني مطلقاً أن تتزوج من خوستينيانا. فأنت تعرف كل

نزواتها، سواء الجيدة منها أو الخبيثة، ولاسيما هذه الأخيرة. وهكذا  
ضع هذا الأمر في اعتبارك.

- وتصرين على الحديث عن الموت - توسل إليها ريفوبيرتو -  
فلنرجع إلى آرميدا ولا تشردي عن الموضوع كثيراً، أحلفك بأعز ما  
لديك.

تنهدت لوكريثيا، التصقت بزوجها، بحث فمها عن أذنه وكلمته  
بتمهل شديد:

«مثلاً كنت أقول لك، لقد كانت هناك طيلة الوقت في متناول يده،  
قريبة جداً من إسماعيل على الدوام. وعندما كانت تنحنن في بعض  
الأحيان، لتمسح تلك اللطخة عن الأريكة، تنزلق تدورتها وتطل، دون  
أن تلحظ هي ذلك - ولكن إسماعيل كان يلاحظه - تلك الركبة المكورة،  
ذلك الفخذ الناعم والمرن، ذلك الكاحل النحيل، أو جزء من الكتف،  
من الذراع، من الرقبة، أو انهدام الصدر بين النهدين. لم يكن، وما كان  
ممكناً أن يكون هناك أدنى أثر من الفجاجة في حركات السهو تلك.  
كل شيء كان يبدو طبيعياً، مصادفة، وغير متعمد على الإطلاق. وكان  
القدر يرتب الأمور بطريقة أن الأرمل، المجرب، صديقنا، الأب  
المرعوب من ابنيه، قد اكتشف من خلال تلك الأحداث الصغيرة أنه لا  
يزال رجلاً، وأن لديه عصفور حي، بالغ الحيوية. مثل هذا الذي  
أمسك به يا حبي. صلب، رطب، راعش».

- يستثيرني تخيل السعادة التي لا بد أن إسماعيل شعر بها حين  
علم أنه ما زال لديه ذلك العصفور، وأن عصفوره على الرغم من توقفه  
عن التغريد لوقت طويل، بدأ يغدو من جديد - هذى ريفوبيرتو وهو  
يتحرك تحت الملاءات - أشعر بالتأثير يا حبي لدى ما كان عليه  
الموقف من جمال حين بدأ، بعد غرقه في مرارة شيخوخته، بالتوصل إلى

تخيلات غرامية، وشهوة، وانتصابات وهو يفكر في عاملته المنزلية. من  
منهما لس الآخر أولاً، فلنحضر.

«لم تفك آرميدا قط في أن الأمور ستصل بعيداً إلى ذلك الحد. كانت  
تأمل أن يعتاد إسماعيل على قربها منه، ويكتشف بفضلها أنه ليس  
ذلك الحطام البشري الذي يشي به مظهره، وأنه تحت هيئته  
المهزومة، ومشيته المزعزة، وأسنانه المخلخلة وضعف بصره، ما زال  
عضوه متاهياً. وأنه قادر على امتلاك رغبات. وأنه، إذا ما تغلب على  
حسه بأنه شخص مضحك، سيتجراً أخيراً ذات يوم على اتخاذ  
خطوة جريئة. وهكذا يقوم بينهما تواطؤ سري، حميم، في بيته، تلك  
الدارة الكولونيالية الكبيرة التي حولها موت كلوتيلدي إلى ليمبوس.  
ربما تكون آرميدا قد فكرت في أن ذلك كله قد يؤدي إلى أن ينقلها  
إسماعيل من مرتبة خادمة إلى عشيقة. وأن يوفر لها بيقاً صغيراً،  
ويقدم لها راتباً شهرياً متواضعاً. هذا ما كانت تحلم به، وأنها واثقة  
من ذلك. لم تكن تحلم بأكثر من هذا. لم تتخيل قط الثورة التي  
راحـت تُحدـثـها في إسماعيل الطيب ولا الظروف التي ستحولها إلى  
أداة انتقام الأـبـ المـتأـلمـ والـساـخـطـ».

- ولكن ما هذا؟ من هو هذا الدخيل الذي هنا تحت الملاءات؟ قطعت  
لوكريشيا حكايتها، متقلبة، مبالغة، ممسكة به.

- واصلـيـ، واصلـيـ يا حـبـيـ، أحـلـفـ بـأـعـزـ ما لـدـيـكـ - توسلـ إـلـيـهاـ  
ريـغـوبـيرـتوـ، اختـنـقـ، وبـلـهـفـةـ أـكـبـرـ فـأـكـبـرـ - لا تصـمـتـيـ الآـنـ بعدـ أـنـ صـارـ  
كلـ شـيـءـ عـلـىـ ما يـرـامـ.

- أـرـىـ ذـلـكـ - ضـحـكتـ لوـكـريـشـياـ وهيـ تـتـحرـكـ لـتـنـزـعـ عـنـهاـ قـمـيـصـ  
الـنـوـمـ، وـتـسـاعـدـ زـوـجـهاـ لـلـتـخـلـصـ مـنـ الـبـيـجاـمـةـ، وـتـشـابـكـ كـلـ مـنـهـماـ  
بـالـآـخـرـ، مـفـسـدـيـنـ تـرـتـيـبـ السـرـيرـ، مـتـعـانـقـيـنـ وـمـتـبـادـلـيـنـ الـقـبـلـاتـ.

- إنني بحاجة لأن أعرف كيف كانت مضاجعتهما أول مرة - أمر ريغوبيرتو وهو يحتفظ بزوجته مشدودة جداً إلى جسده ويتكلم إليها وشقتين ملتصقتين بشفتيها.

- سأخبرك بذلك، ولكن دعني أتنفس قليلاً على الأقل - ردت لوكريثيا بهدوء، آخذة وقتاً لتمر بلسانها على فم زوجها وتلتقي لسانه بلسانها - بدأ ذلك بكاء.

- بكاء من؟ - ارتبك ريغوبيرتو وتبييس - من؟ أكانت آرميدا عذراء؟  
أهذا ما تقصدينه؟ هل افتضها؟ أجعلها تبكي؟

- بكاء من ذلك الذي ينتاب إسماعيل في الليل أحياناً أيها الأبله - وبخته دونيا لوكريثيا وهي تقرص إلittiته، تربت عليهما، وترك يديها تنزلقان حتى الخصيتيين لتحتضنهما برفق - لأنه كان يتذكر كلوتيلي. بكاء قوي، مع إجهاشات تجاوزت الباب والجدران.

- إجهاشات وصلت إلى حجرة آرميدا طبعاً - تحمس ريغوبيرتو. تكلم وهو يدير لوكريثيا حول نفسها ويضعها تحته.

- إجهاشات أيقظتها، أخرجتها من الفراش، دفعتها للخروج راكضة لواسته - قالت منزلقة بسهولة تحت جسد زوجها، مباعدة ما بين ساقيها، ومعانقة إيات.

- لم يُفتح لها الوقت لترتدي الروب والخف - تولى ريغوبيرتو الكلام بدلًا منها - ولا لتسرح شعرها ولا أي شيء آخر. ودخلت راكضة إلى حجرة إسماعيل وهي على تلك الحال، شبه عارية. إنني أراها يا حبي.

- تذكر أن الظلام كان يخيم على كل شيء؛ وقد مضت متغيرة بالأثاث، مستدلة بصوت نحيب المسكين إلى سريره. وحين وصلت احتضنته و... .

- واحتضنها هو أيضاً وبحركتين قويتين انتزع عنها قميص النوم الذي عليها. تظاهرت بأنها تقاوم، ولكن ليس لوقت طويل. فما إن بدأت ذلك الجهد حتى عانقته هي نفسها. وقد فوجئت أعظم مفاجأة حين اكتشفت أن إسماعيل كان في تلك اللحظة وحيد قرن، اخترقها، جعلها تصرخ... .

- جعلها تصرخ - كررت لوكريثا العبارة بدورها وصرخت متضرعة -. انتظر، لا تجيء بعد، لا تكن شريراً، لا تفعل بي هذا. - أحبك، أحبك - انفجر مقبلاً زوجته من عنقها وهو يشعر أنها تتبيس، ثم تئن بعد ثوان، راخية جسدها لتبقى ثابتة، متصلبة.

ظلا على تلك الحال، ساكنين وساكتين، بضع دقائق، يستعيدان قواهما. بعد ذلك تمازحا، نهضا، اغتسلا، رتبوا الملاءات، وأعادا ارتداء البيجاما وقميص النوم، أطفأا ضوء مصباح القراءة وحاولا النوم. لكن ريغوبيرتو ظل مؤرقاً، يسمع كيف راحت أنفاس لوكريثيا تهدأ وتبتعد مع استغراقها في النوم وثبات جسدها. لقد نامت. أتراها تحلم؟

في تلك اللحظة، وبصورة مرتجلة تماماً وجد سبب ذلك الترابط الذي راح ذهنه ينسجه بطريقة مضطربة ومشوشة منذ بعض الوقت، وبعبارة أدق، منذ بدأ فونتشيتو يخبرهما بتلك اللقاءات المستحيلة، تلك المصادفات غير المحتملة مع ذلك الشخص الغريب المدعو إدilibيرتو توريس. لا بد له من أن يعيد قراءة هذا الفصل من «دكتور فاوست» لتوماس مان. لقدقرأ الرواية منذ سنوات طويلة، ولكنه يتذكر بوضوح تلك الواقعة، فوهة بركان القصة.

نهض دون إحداث ضجة، وذهب حافياً في العتمة إلى حجرة مكتبه، حيزه الصغير الحضاري، متلمساً الجدران في الطريق. أشعل مصباح الكرسي حيث اعتاد الجلوس للقراءة وسماع الموسيقى. كان هناك

صمت مطبق في ليل بارانكو. البحر رجع بعيد جداً. لم يكلفه شيئاً العثور على الكتاب في رف الروايات. إنه هناك. وكان الفصل الخامس والعشرون هو المطلوب: لقد أشر عليه بصليب وإشارتي تعجب. إنه فوهة بركان الرواية، حدث تركيز المعايشات القصوى، والذي يبدل طبيعة القصة بالكامل، بإدخاله إلى العالم الواقعي بعدها خارقاً للطبيعة. إنها الواقعية التي يُرى فيها ظهور الشيطان وتتبادله الحديث مع المؤلف الموسيقي الشاب أدريان ليفركون، في عزلته الإيطالية ببالستينا، ويعرض عليه الاتفاق المشهور. ما إن بدأ بإعادة القراءة حتى وجد نفسه مأخوذاً ببراعة الاستراتيجية السردية. فالشيطان يظهر لأدريان كرجل عادي وطبيعي؛ العارض الوحيد الفريد هو، في البداية، البرد الذي ينبعث منه و يجعل الموسيقي الشاب يشعر بقشعريرة. لا بد له من أن يسأل فونتشيتو، كمن يوجه سؤالاً فضولياً على شيء من البلاهة، والمصادفة، «أيحدث أنك تشعر بالبرد في كل مرة يظهر لك فيها ذلك الشخص؟». آه، وكان أدريان يعاني أيضاً من حالات صداع وغثيان إنذارية قبل اللقاء الذي سيبدل حياته. «قل لي يا فونتشيتو هل صادف وأنتك آلام رأس، أو اضطراب معموي، أو توух بدني من أي نوع في كل مرة يظهر لك فيها ذلك الشخص؟».

وفق رواية ابنه، كان إديلبيرتو توريس شخصاً عادياً أيضاً. أصيب ريفوبيرتو بجفلة هلع مع وصف تلك الصحكة الساخرة التي تطلقها شخصية الرواية، والتي تنفجر فجأة في عتمة البيت الظليل بالجبال الإيطالية، حيث تدور المحادثة المثيرة للقلق. ولكن... ولكن لماذا ربط لاوعيه كل هذا الذي يقرأه بفونتشيتو وإديلبيرتو توريس؟ ليس لهذا الرابط من معنى. فالشيطان في رواية توماس مان يشير إلى السفلس وإلى الموسيقى باعتبارهما مظهرين لسلطته الخبيثة في الحياة، بينما لم يسمع

ابنه ذلك المدعو إديلبيرتو تورييس يتكلم قط عن أمراض أو عن موسيقى كلاسيكية. أيمكن التساؤل عما إذا كان ظهور الإيدز الذي يتسبب بأضرار كبيرة في عالم اليوم مثل تلك التي كان السفلس يتسبب بها، هو مؤشر على الهيمنة الآخذه ببلوغ حضور جهنمي في الحياة المعاصرة؟ من الغباء تصور هذا؛ ومع ذلك، فإنه هو نفسه، غير المؤمن، واللاأدري الراسخ، يشعر في هذه اللحظة، بينما هو يقرأ، أن هذه العتمة الظليلية من الكتب واللوحات المحيطة به، والظلمات التي في الخارج، مضمخة في هذه اللحظات بروح قاسية، عنيفة وخبثة. «هل لاحظت يا فونتشيتو أن ضحكة إديلبيرتو تورييس لا تبدو بشريّة؟ أعني، هل هي لا تشبه الصخب الذي يُحدثه صوت صادر عن حنجرة إنسان، وإنما هي أقرب إلى ولولة مجنون، أو نعيق غراب، أو صفير ثعبان؟». سينفجر الصبي في الضحك مقهقاً وسيظن أن أباه مجنون. وداهمه القلق مرة أخرى. لقد محا التشاوُم في ثوان قليلة تلك السعادة الزخرمة التي تقاسمها للتو مع لوكريثيا، والمتعة التي أمدته بها إعادة قراءة هذا الفصل من دكتور فاواست. أطفأ النور ورجع إلى حجرة النوم مجرجاً قديمه. لا يمكن لهذا الأمر أن يستمر على هذا النحو، عليه أن يستجوب فونتشيتو بحذر ومكر، وإزاحة القناع عما هنالك من حقيقة في تلك اللقاءات، وتبديد الأشباح التي صاغتها مخيّلة ابنه المحمومة مرة واحدة وإلى الأبد. رياه، ليست الأزمنة مواتية لأن يبدي الشيطان مجدداً ما يشير إلى أنه حي ويظهر مرة أخرى للناس.

الإعلان الذي دفع فيليثيتو ياناكيه أجره من جيبه، ونشره في جريدة «التييمبو»، جعله مشهوراً بين ليلة وضحاها في بيورا كلها. صار الناس يوقفونه في الشارع لتهنئته والإعراب عن التضامن معه، ويطلبون منع توقيع أو توغرافات، وينصحونه بصورة خاصة أن يتلوى الحذر: «ما فعلته حضرتك مرعب يا دون فيليثيتو. تشي غوا! حياتك الآن معرضة للخطر حقاً».

لم يدفع شيءٌ من ذلك صاحب شركة النقل إلى الزهو أو الخوف. أكثر ما أثار ذهوله هو ملاحظة التبدل الذي أحدثه الإعلان المقتضب، المنشور في جريدة بيورا الرئيسة، بالرقيب ليتوما وكذلك بالنقيب سيلفيا بصورة خاصة. فهذا المفوض المبتذل الذي يستغل أية ذريعة كي يملأ فمه بالحديث عن مؤخرات نساء بيورا، لم يستطعه فيليثيتو قط، وهو يظن أن النفور بينهما متبدال. ولكن موقف المفوض صار منذ تلك اللحظة أقل عجرفة. وبعد ظهر يوم نشر الإعلان بالذات، ظهر الشرطيان كلاهما في بيته بشارع اريكيبيا، وكانا لطيفين ومتملقين. جاءا ليعرجا له عن قلقهما مما يحدث يا سيد ياناكيه. لم يبديا مثل هذا الاهتمام حتى عندما أودى الحرائق الذي افتعله لصوص العنكبوت بنصف مقر ناريهوala للنقل. أي ذبابية لسعت الآن هذين الشرطيين؟ إنهم يبدوان متأثرين حقاً بوضعه ومتلهفين لرمي القفاز في وجه المترzin.

أخيراً أخرج النقيب سيلفا من جيبيه قصاصة «التييمبو» وفيها الإعلان.  
- هل جننت حضرتك لتنشر هذا يا دون فيليثيتو - قال نصف مازح  
ونصف جاد - ألم يخطر لك أنه يمكن لهذه النزوة أن تؤدي بك إلى  
طعنة سكين أو رصاصة في العنق؟

- لم تكن نزوه، لقد فكرتُ في الأمر كثيراً قبل الإقدام عليه - أوضح  
صاحب شركة النقل بعذوبة - أردتُ أن يعلم ملعونو فرج أمهاتهم  
هؤلاء، مرة واحدة وإلى الأبد، أنهم لن يتزعزوا مني سنتاً واحداً. يمكن  
لهم أن يحرقوا هذا البيت، وجميع شاحناتي وحافلاتي وفناتي.  
ويمكن لهم حتى أن يقتلوا زوجتي وأبني إذا شاؤوا. ولكنني لن أدفع  
لهم سنتاً عاهراً واحداً!

لقد كان ضئيلاً وراسخاً، وكان يقول ذلك دون تصنّع، دون غضب،  
بينما يداه ساكتتان ونظرته حازمة، وبتصميم هادئ.

- أنا أصدقك يا دون فيليثيتو. وافقه النقيب منزعجاً، وتوجه إلى  
جوهر الموضوع: المسألة أنك دون أن ترغب في ذلك، ودون أن تنتبه،  
قد أدخلتنا نحن في مشكلة عويصة. فالكولونييل رسكاتشوتشا، قائدنا  
الم المحلي في المنطقة، اتصل صباح اليوم بالغوضية بسبب هذا الإعلان  
الصغير. أتدري لماذا؟ أخبره أنت يا ليتوما.

- كي يوجه إلينا اللعنات ويسمينا بغير النافعين والفالشلين يا دون -  
أوضح الرقيب بأسف.

ضحك فيليثيتو ياناكيه. فللمرة الأولى مذ بدأ بتلقي رسائل العنكبوت  
يشعر أنه في مزاج طيب.

- هذا هو ما أنتما عليه أيها النقيب - دمم مبتسمًا - . كم يسعدني  
أن قائدكما قد وبخهما. أهكذا هو اسمه، بكل هذا الوضوح?  
رسكاتشوتشا؟

ضحك الرقيب ليتوما والنقيب سيلفا أيضاً، ولكن بضيق.

- بالطبع لا، ما هذا إلا لقب - أوضح المفوض - فهو يدعى الكولونيال أسووندينو ريوس باردو. لا أدرى لماذا أطلقت عليه تلك البذاءة ولا من الذي أطلقها عليه كلقب. إنه ضابط جيد، ولكنه شخص عصبي جداً. لا يتحمل برغوثاً، يوجه اللعنات لنصف العالم لأي سبب.

- إنك مخطيء في ظنك بأننا لم نأخذ شکواك على محمل الجد يا سيد ياناكيه - تدخل الرقيب ليتوما.

- كان لابد لنا من انتظار ظهور اللصوص كي تقوم بعملنا - واصل النقيب بحماسة مفاجئة - وبما أنهم قد فعلوا ذلك الآن، فإننا في أوج العمل.

- مواساة ضعيفة لي - قال فيليثيتو ياناكيه بتकشيرة استحياء - لا أدرى ما الذي تفعلانه حضرتكما، ولكن في ما يخصني لن يعيده لي أحد مقرى الذي أحرقوه.

- لا يتولى التأمين تعويض الأضرار والخسائر؟

- هذا ما يجب عليهم عمله، ولكنهم بدؤوا يتذاكون. يتعللون بأن التأمين يشمل المركبات وحدها، وليس المنشآت. الدكتور كاسترو بوسو، محامي، يقول إننا قد نضطر إلى الذهاب إلى محكمة. وهو ما يعني أنني سأخرج خاسراً بأي حال. وها أنتم ترون.

- لا تقلق يا دون فيليثيتو - طمأنه النقيب وهو يربت على ظهره - سوف يقعون. عاجلاً أو آجلاً سيقعون. كلمة شرف. سنطلعك على التطورات. إلى اللقاء. وتحياتي إلى السيدة خوسيفيتا، تلك السكرتيرة باهرة الجمال التي لديك، أرجوك.

وكان صحيحاً حقاً أن الشرطيين قد بدأوا منذ ذلك اليوم بإظهار أدلة على اهتمامهما بالقضية. فقد استجعوا جميع سائقي وموظفي نارييه والا

للنقل. واستبقيا ميغيل وتيبورثيو، ابني فيليثيتو، عدة ساعات في المفوضية خاضعين لوابل من الأسئلة، لم يكن الشابان يعرفان دوماً بماذا يرددان عليهما. بل إن الشرطيين أنهكا لوثيندو الأعمى كي يتعرف على صوت الشخص الذي جاء ليطلب منه إخبار دون فيليثيتو بأن المحل يحترق. فكان الأعمى يحلفُ أنه لم يسمع من قبل صوت من كلّمه. ولكن صاحب شركة النقل، وعلى الرغم من كل هذا الانكباب الذي أبداه الشرطيان، ظل يشعر بالقنوط والريبة. كان لديه إحساس داخلي بأنهما لن يقپضا على الفاعلين أبداً. وسيواصل المبتسرون محاصرته، وأن ذلك كله سينتهي، فجأة، بمسافة. ومع ذلك لم تجعله هذه الأفكار القاتمة يتراجع قيد أنملة عن قراره بعدم الاستسلام لتهديداتهم وأعتدآءاتهم.

أكثر ما أحبطه هو حديثه مع صاحبه، وزميله، ومنافسه الكولورادو فيغنولو. فقد جاء إليه ذات صباح في مقر ناريهم والا للنقل، وكان فيليثيتو قد استقر وراء منضدة عمل مرتجلة - لوح خشبي عريض فوق برميلي زيت - في أحد أركان المرآب. ومن هناك كان بإمكانه أن يرى ركام ألواح الصفيح المختلط، والجدران والأثاث المحروق في الوضع الذي خلفت فيه النيران مكتبه القديم. بل إن اللهب أتلف جزءاً من السقف. ومن خلال الفتاحة التي حدثت فيه، ثُرى قطعة من السماء العالية والزرقاء. لحسن الحظ أن الأمطار نادراً ما تهطل في بيورا، اللهم إلا في سنوات هبوب إعصار النينيو. كان الكولورادو فيغنولو قلقاً جداً.

- ما كان عليك أن تفعل هذا يا صاحبي - قال له بينما هو يعانقه ويعرض عليه قصاصة «القيميبو» - كيف خطرك أن تقامر بحياتك على هذا النحو! أنت المعروف بهدوئك في كل أمر يا فيليثيتو، أية حشرة

لسعتك هذه المرة. لماذا وجد الأصدقاء، تشي غوا. لو أنك استشرتني لما تركتك تُقدم على مثل هذه الفظاعة.

- لهذا السبب لم أستشرك يا صاحبي. كنت أشم أنك ستنصحني بعدم نشر الإعلان - وأشار فيليثيتو إلى أنقاض مكتبه القديم - كان لا بد لي من الرد بطريقة ما على من فعلوا هذا بي.

خرجا لتناول فنجان قهوة في حانة افتتحت حديثاً، عند ناصية ساحة بلازا مايور مع شارع تاكانا، بجوار مطعم صيني. كان المكان مظلماً، تحوم في عتمته الظليله أسراب من الذباب. ومن هناك تظهر أشجار اللوز المعفرة بالغبار في الساحة الضيقة، وواجهة كنيسة دل كارمن حائلة اللون. لم يكن هناك زبائن واستطاعا تبادل الحديث بهدوء.

- ألم يحدث لك مثل هذا من قبل قطّ يا صاحبي - سأله فيليثيتو - ألم تصلك قطّ واحدة من هذه الرسائل تبتزك؟

وتفاجأ بروية تبدل غريب في ملامح الكولورادو بيفغولو، بدا متربداً للحظات، لا يدرى بماذا يجيبه. كان هناك وميض إحساس بالذنب في عينيه العائمتين؛ وكان يرمش دون توقف ويتجنب النظر إليه.

- لا تقل لي يا صاحبي إنك... تلعم فيليثيتو وهو يشد على ذراع صديقه.

- لست بطلأ ولا أريد أن أكون بطلأ - أكد الكولورادو فيغنو لو بصوت خافت - أجل، سأقول لك. إنني أدفع لهم إتاوة كل شهر. ومع أن الأمر لا يعنيني، فإنني أقول إن جميع شركات النقل في بيورا، أو جميعها تقريباً، تدفع هذه الإتاوات. وهذا ما كان عليك أن تفعله بدل التهور بمواجهتهم. جمعينا كنا نظن أنك أنت أيضاً تدفع لهم يا فيليثيتو. أي تهور هذا الذي أقدمت عليه، لا أنا ولا أحد من زملائنا

يفهمه. هل أُصبت بالجنون؟ لا يمكن لأحدنا خوض معركة غير قادر على كسبها يا رجل.

- لا أستطيع أن أصدق أنكم تُنزلون سراويلكم هكذا في مواجهة أبناء العاهرة هؤلاء - تحسر فيليثيتو -. عقلي لا يتقبل ذلك، أقسم لك. أنت الذي تبدو على الدوام ديكاً يا صاحبي.

- ليس الأمر عظيماً، إنه مبلغ صغير يضاف إلى النفقات العامة - هز الكولورادو كتفيه خجلاً دون أن يدرى ما يفعله بيديه وهو يحركهما كما لو أنهاهما فائضتان عن حاجته - ليس هناك ما يستحق المجازفة بالحياة من أجل تفاهة يا فيليثيتو. كان يمكن تخفيض هذه الخمسة المائة التي طلبوها منك إلى النصف لو أنك تفاوضت معهم بالحسنى، أؤكد لك. ألا ترى ما الذي فعلوه بمقرك؟ وتأتي فوق ذلك لتنشر هذا الإعلان في «التميمبو». إنك تغامر بحياتك وبحياة أسرتك. وحتى بحياة مابيل المسكينة، ألا ترى ذلك؟ لن تستطيع مواجهتهم أبداً، أؤكد هذا، مثل الواقع ولا تحاول تقويم اعوجاج العالم الذي نعيش فيه. المافيا قوية جداً، ومتغلغلة في كل مكان، بدءاً من الحكومة والقضاء. ومن السذاجة العظيمة الوثوق بالشرطة. لا أستغرب أن يكون الشرطيون مشاركين كذلك في الوليمة. ألا تدري في أي بلاد نعيش يا صاحبي؟

كان فيليثيتو لا يكاد يسمعه. الحقيقة أنه يجد صعوبة في تصديق ما سمعه: الكولورادو بيتغولو يدفع إتاوة شهرية للmafia. إنه يعرفه منذ عشرين عاماً، وكان يظن على الدوام أنه شخص شديد الاستقامة، يا للأم العاهرة، أي عالم هذا.

- أأنت متأكد من أن جميع شركات النقل تدفع الإتاوات؟ - ألح وهو يبحث عن عيني صديقه - ألا تبالغ؟

- إذا كنتَ لا تصدقني، اسألهم. إنني متأكد مثل تأكدي من أنني أدعى فيغنولو. إذا لم يكن الجميع، فإن الجميع تقريباً يدفعون. ليست الأزمنة مناسبة للعب دور البطل يا صديقي فيليثيتو. المهم أن نتمكن من العمل وأن تسير أعمالنا. إذا لم يكن هناك مفر من دفع الإتاوة، فلتُدفع وانتهى الأمر. افعل مثلي ولا تدس يدك في النار يا صاحبي. يمكن لك أن تندم. لا تقامر بما شِيدْته بكثير من التضحية. ولا يروقني أن أحضر قداس جنازتك.

منذ تلك المحادثة ما عاد فيليثيتو قادرًا على رفع رأسه. كان يشعر بالأسى، بالشفقة، بالغضب، بالدهشة. وحتى في وحدته الليلية، في صالة بيته الصغيرة، وهو يضع أغانيات لسيسيليا باراسا، لم يتوصّل إلى إلهاء نفسه. كيف يمكن لزملائه أن يسمحوا بأن يُذلّوا بهذه الطريقة؟ لا يدركون أنهم، بتلبّيتهم رغبات المبتسرين، إنما يقيدون أيديهم وأقدامهم ويرهنون مستقبلهم. فالمبتسرون سيطلبون منهم أكثر في كل يوم، إلى أن يُفلسونهم. بدا له كما لو أن بيورا بأسرها قد توافقت على إلحاق الأذى به، بمن في ذلك أولئك الذين كانوا يوقفونه في الشارع لمعانقته وتهنئته. ليسوا سوى منافقين داخلين في المؤامرة لينتزعوا منه ما جناه خلال سنوات طويلة من العرق. «مهما يكن ما سيحدث، كن مطمئناً يا أبي. فابنك لن يسمح بأن يُذلّه أولئك الجبناء أو أي أحد سواهم».

الشهرة التي أكسبه إياها الإعلان في «التييمبو» لم تبدل حياة فيليثيتو ياناكيه العادية والمُجدة، على الرغم من أنه لم يكن معتاداً على أن يتعرّف إليه الناس في الشارع. فهو يرتبك ولا يدرّي كيف يردد على عبارات المديح وإشارات التضامن التي يوجهها إليه العابرون. كان ينهض مبكراً جداً كل صباح، يمارس تمارين الكي جونغ، ويصل إلى ناريهوala للنقل في الثامنة. أقلقه انخفاض شراء التذاكر؛ وبعد الحريق

لم يكن مستغرباً أن يكون بعض الزبائن قد خافوا، خشية أن يتخذ اللصوص إجراءات انتقامية ضد مركبات الشركة، بمهاجمتها وإحرارها على الطرق العامة. الحافلات الذاهبة إلى أيا باكا، وعليها أن تصعد مئتي كيلومتر في طريق ضيق ومتعرج على حواف هاويات أنديزية عميقة، فقدت قرابة نصف زبائنهما. ولا يمكنه إعادة بناء المكتب مادامت المشكلة مع شركة التأمين لم تُحل. ولكن فيليثيتو لا يهمه أن يواصل العمل على اللوح الخشبي والبرميلين في ركن المستودع. ظل ساعات وساعات مع السيدة خوسيفيتا يراجع ما تبقى من دفاتر الحسابات، والفواتير، والعقود، والإصالات والراسلات. لحسن الحظ أنه لم يفقد الكثير من الأوراق المهمة. ولكن سكرتيرته هي من لم تجد مواساة. كانت خوسيفيتا تحاول المداراة، ولكن فيليثيتو كان يلحظ مدى توترها واستيائتها من اضطرارها إلى العمل في الهواء الطلق، على مرأى من السائقين والميكانيكيين، والركاب الوافدين والمغادرين، والناس الذين يصططون في الدور من أجل معاملات إرسال طرود. وقد اعترفت وهي تمطر شفتيها كطفلة في وجهها كثير النمش:

- هذا العمل أمام كل الناس يسبب لي ما لا أدريه، يبدو لي كأنني أقدم عرض ستريتنيز. لا تشعر أنت بذلك يا دون فيليثيتو؟
- كثيرون من هؤلاء سيكونون سعداء لو قدمت لهم عرض ستريتنيز يا خوسيفيتا. فقد سمعت عبارات التودد التي يوجهها إليك النقيب سيلفا كلما رآك.

- لا تروق لي بأي حال ظرافات ذلك الشرطي - أحمر وجه خوسيفيتا، وأضافت مفتونة - وأقل من ذلك إعجابي بنظراته تلك التي يوجهها إلى حيث تعرف حضرتك يا دون فيليثيتو. هل تظن أنه منحرف؟ هذا ما يقولونه عنه. يقولون إن النقيب لا ينظر إلا إلى

هذا الجزء في النساء، كما لو أنه ليس لدينا أشياء أخرى في جسدنَا،  
تشي غوا.

في اليوم نفسه الذي ظهر فيه الإعلان في «التييمبو»، طلب منه ميغيل وتيبورثيو أن يحدد لهما موعداً. كان ابناء يعلمان سائقين ومقتلين في حافلات وشاحنات وفانات الشركة. أخذهما فيليثيو لتناول وجبة سيفيتسي الواقع بحرية سوداء وسمكة شابل مجففة، في مطعم فندق الذهب الأخضر، بمنطقة إلتشيبيه. كان هناك مذيع مفتوح، فاضطرتهم الموسيقى إلى التكلم برفع أصواتهم كثيراً. ومن منضدتهم كانوا يرون عائلة تسبح في المسبح، تحت أشجار النخيل. وبدلأ من البيرة طلب فيليثيو مياهاً غازية. ومن خلال وجهي ابنيه، تنبأ شرّاً مما لديهما. تكلم أولاً ابنه الكبير، ميغيل. وهو شاب متين البنية، رياضي، أبيض البشرة، له عينان زرقاء وشعر أشقر، يلبس على الدوام بشيء من الاهتمام، على العكس من تيبورثيو الذي نادراً ما يستبدل البلوجنز والقمصان الخفيفة وحذاء الرياضة. كان ميغيل ينتعل حذاء موکاسين وبينطال كوردورى وقميصاً أزرق فاتحاً ومطبعاً برسوم سيارات سباق. لقد كان متأناً لا علاج له، لديه استعداد طبيعي لذلك وأساليب راقية. حين أجبره فيليثيو على أداء الخدمة العسكرية، كان يفكر في أنهم سيخلصونه في الجيش من أساليب الطفل المنعم التي هو عليها؛ ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد خرج من الثكنة مثلما دخلها. وفكر صاحب شركة النقل مرة أخرى في حياته: «أيكون ابني؟». كان الفتى يضع ساعة بسوار جلدي يداعبة بينما هو يقول:

- لقد فكرت أنا وتيبورثيو في الأمر يا أبي، وقد استشرنا ماماً أيضاً -

كان متوتراً بعض الشيء، مثلاً يكون دوماً حين يتوجه بالكلام إلى أبيه.

- هذا يعني أنكما تفكران - مازحه فيليثيتو - تسعدني معرفة ذلك، هذا خبر طيب. أيمكنني أن أعرف الفكرة اللامعة التي خطرت لكم؟ آمل ألا يكون ما فكرتما فيه هو الذهاب لاستشارة سحرة هواناكاباما الهندود بشأن مبتنزي العنكبوب. فقد قمت باستشارة آديلايدا ولم تستطع هي نفسها التكهن بأي شيء، بل ليس لديها أدنى فكرة عنم يمكن أن يكونوا.

- الأمر جدّي يا أبي - تدخل تيبورثيو. في شرایین ابني هذا تجري دماءه هو، لا وجود لأدنى شك في ذلك. إنه يشبهه كثيراً ببشرته المحروقة، وشعره السبط والأسود، وبجسده الضعيف - لا تسخر يا أبي، أرجوك. استمع إلينا. فهذا من أجل مصلحتك.

- حسنُ، موافق، إنني أستمع إليكم. ما هو الموضوع أيها الشابان؟ - بعد هذا الإعلان الذي نشرته في «القيمبو» أصبحت معرضاً لخطر كبير - قال ميفيل.

- لا أدرى إن كنت مدركأً مدى الخطر يا أبي - أضاف تيبورثيو - .  
يبدو الأمر كما لو أنك قد وضعت الحبل حول عننك.

- إنني في خطر منذ ما قبل الإعلان - صحق لهما فيليثيتو - . بل نحن جميعنا في خطر. خيرتريوديس وأنتما أيضاً. مذ وصلت الرسالة الأولى من أبناء العاهرة هؤلاء الذين يريدون ابتزازي. أتراكم لا تعرفان ذلك؟ فهذا الأمر ليس موجهاً إليّ فقط، وإنما إلى أسرتي كلها. أم أنكم لستم أنتم من ستثونوني ناريهوالا للنقل؟

- ولكنك الآن معرض للخطر أكثر من السابق، لأنك تحديتهم عليناً يا أبي - قال ميفيل - . سوف يقومون بالردّ، لا يمكنهم البقاء صامتين حيال مثل هذا التحدي. سيحاولون الانتقام، لأنك وضعتهم في وضع مضحك. بيورا بأسراها تقول ذلك.

- الناس يوقفوننا في الشارع لتحذيرنا - أخذ منه تيبيورثيو الكلام - «انتبهوا لأبيكم أيها الشابان، لأنهم لن يغفروا له هذه النزوة». هذا ما يقولونه لنا في الشوارع والساحات.

- أي إنني أنا من يستفز أولئك المساكين - قاطعه فيليثيتو غاضباً -  
يهددونني ، يحرقون مكتبي ، وأكون أنا المستفز لأنني قلت لهم إنني لن  
أخضع للابتزاز مثل زملائي المسلمين.

- لسنا ننتقدك يا أبي ، بالعكس - ألح ميفيل - إننا ندعمك ، نشعر  
بالفخر لنشرك هذا الإعلان في «التييمبو». لقد رفعت اسم العائلة عالياً  
جداً.

- ولكننا لا نريد أن يقتلوك ، افهمنا ، أرجوك - سانده تيبيورثيو -  
سيكون من المناسب أن تتعاقد مع حارس شخصي. لقد تحرينا الأمر ،  
هناك شركة جدية جداً. تقدم خدمات لجميع الأشخاص المهمين في  
بيورا: المصرفيون ، الزراعيون ، النجميون. وليس غالبية جداً ، لدينا  
هنا الأسعار.

- حارس شخصي؟ - انفجر فيليثيتو في الضحك ، ضحكة مفعولة  
واسخرة . ويتبعني شخص مثل ظلي ومسديه في جيبيه؟ إذا ما  
تعاقدتُ مع حماية ، فسيعني ذلك أنني أمنح أولئك اللصوص أكبر  
بهجة. هل في رأسيكما دماغ أم نشارة خشب؟ سيكون ذلك اعترافاً  
بأنني خائف ، وأنني أنفق نقودي على هذا الأمر لأنني مذعور. سيكون  
ذلك مثال لدفع الإتاوة التي يطلبونها مني. لن نتكلم أكثر في هذا  
الموضوع. تناولا طعامكما ، تناولا طعامكما ، سوف تبرد سمكة الشابل.  
ولنتحدث في أمر آخر.

- ولكننا نفعل هذا من أجل مصلحتك يا أبي - واصل ميفيل محاولة  
إقناعه - كيلا يحدث لك شيء. استمع إلينا ، إننا أبناءك.

- ولا كلمة أخرى في هذا الموضوع - أمرهما فيليثيتو - إذا ما جرى شيء لي، ستكونان على رأس ناريهوala للنقل، ويمكن لكما عندئذ أن تفعلا ما تريدان. بما في ذلك التعاقد مع حراس شخصيين إن رغبتما. أما أنا فلن أفعل ذلك حتى لو مت.

رأى ابنيه يخوضان رأسهما ويبداآن الأكل، دون رغبة. لقد كانا وديعين جداً على الدوام، حتى في مرحلة المراهقة التي يتمرد فيها الفتىان على السلطة الأبوية. لا يتذكر أنهما سببا له الكثير من أوجاع الرأس، باستثناء بعض الشيطانات المتفرقة التي تتخض عن نتائج كبيرة. مثل ذلك الحادث الذي وقع لميغيل وأدى إلى قتل عابر سبيل على الطريق العام إلى كاتاكاوس، أثناء تعلمه سياقة السيارة، حين تصادف مرور ذلك الحمار على الطريق. ومازلا مطيعين إلى حد كبير على الرغم من أنهما صارا رجلين كاملين بالرجلة. وحتى عندما أمر ميغيل بأن يتقدم متظوعاً إلى الجيش لمدة عام من أجل أن يتصلب، انساع ابنه له دون أن ينبع ببنبت شفة. وقد كانا يقومان بعملهما على أحسن وجه، فالحقيقة هي الحقيقة. لم يكن قاسياً معهما قط، ولكنه لم يكن كذلك واحداً من أولئك الآباء المولعين بأبنائهم، يدللونهم ويحولونهم إلى كسالي ومحنتين. لقد سعى إلى إكسابهما المهارات كي يعرفا كيف يواجهان المصاعب ويكونان قادرين على المضي قدما بالشركة عندما يصير عاجزاً عن العمل. جعلهما ينهيان المدرسة، ويتعلمان الميكانيك، ويستحصلان على رخص قيادة حافلات وشاحنات. وعمل كلها بكافة المهن في ناريهوala للنقل وتدرجا فيها: حراس، كناس، مساعد محاسب، معاون سائق، مفتش، سائق... الخ، الخ. يمكن له أن يموت مطمئناً، فالاثنان مهيأان للحلول محله. وعلاقتهما في ما بينهما جيدة، إنهم متهدان جداً لحسن الحظ.

- أنا لاأشعر بالخوف من أبناء العاهرة أولئك - هتف فجأة وهو يضرب المنضدة. توقف ابني عن الأكل .- أسوأ ما يمكن أن يفعله بي هو قتلي. ولكنني لا أخاف الموت أيضاً . لقد عشتُ خمساً وخمسين عاماً وهذا يكفي. ما يطمئنني أنني سأترك ناريهاولا للنقل بين أيدي أمينة حين أغادر لأنتحق بأبي.

حدس أن الشابين يحاولان الابتسام ولكنه لاحظ أنهما مرتبكان وعصبيان.

- لا نريدك أن تموت بعد يا أبي - تلعم ميغيل.

- إذا ما ألحق بك هؤلاء أي أذى سنجعلهم يدفعون الثمن غالياً - أكد تيبورثيو.

- لا أظن أنهم يتجرؤون على قتلي - طمأنهم فيليثيتو - إنهم لصوص ومبتزون، ليس أكثر. من أجل القتل يجب أن تكون لهم خصي أكثر من مجرد إرسال رسائل عليها رسوم عناكب.

- اشتري مسدساً على الأقل وتسلح به يا أبي - عاد تيبورثيو إلى الهجوم - كي تتمكن من الدفاع عن نفسك في حالة...

- سأفك في الأمر، سوف نرى - أبدى فيليثيتو اللين - والآن، أريد منكما أن تعاهداني، حين أغادر هذا العالم وتصير ناريهاولا بين أيديكم، ألا ترضاخا لابتزاز أبناء العاهرات هؤلاء.

رأى ابنيه يتبادلان النظارات وهما بين المتقاجئين والمذعورين.

- أقسم بالله على ذلك، الآن بالذات - طلب منها - أريد أن أكون مطمئناً من هذه الناحية، تحسباً لحدوث أي شيء لي.

وافق كلاهما، ودمداً وهما يرسمان إشارة الصليب: «نقسم لك بالله يا أبي».

أمضوا بقية وقت الغداء في الحديث عن أمور مختلفة. وبدأت تدور في ذهن فيليثيتو فكرة قديمة أخرى. فمنذ أن ذهبا ليعيش كل منهما على طريقته، صار لا يعرف إلا القليل عما يفعله تيبورثيو وميفيل حين لا يكونان في العمل. إنهم لا يعيشان معاً. الكبير أقام في بنسيون بضاحية ميرافلوريس، وهو حي للبيض بالكامل طبعاً. وتيبورثيو استأجر شقة مع صديق في حي كاستيا، بالقرب من стاد الجديد. الديهما حبيبستان، عشيقتان؟ أهما عربidan، محبان للنساء؟ أيسكران مع الأصدقاء أيام السبت ليلاً؟ أيرتادان حانات ومطاعم اللهو، أيبحثان عن عاهرات؟ كيف يقضيان أوقات فراغهما؟ خلال أيام الآحاد التي يأتيان فيها أحياناً لتناول الغداء في البيت بشارع اريكيبا لا يتحدثان كثيراً عن حياتهما الخاصتين، ولا يوجه إليهما هو أو خيرترودис أسئلة بهذا الشأن. ربما من المناسب أن يتبادل الحديث معهما قليلاً ذات مرة، وأن يعرف المزيد عن حياة الشابين الحميمة.

أسوأ ما في تلك الأيام هي المقابلات التي كان عليه إجراؤها على إثر الإعلان في «التييمبو». مقابلات مع عدة إذاعات محلية، مع كتبة تحقيقات صحفية بجريدة «الكوريو»، وجريدة «لاريبوبليكا»، ومع مراسل أخبار إذاعة بيورا. كانت أسئلة الصحفيين توترة. تبتل يداه بالعرق، ويشعر بحيّات تنسل على ظهره. كان يجib على الأسئلة مع وقوفات صمت طويلة، يبحث عن الكلمات، ينكر بحزم كونه بطلاً مدنياً أو نموذجاً يحتذى لأحد. لا شيء من هذا، يا لهذه الأفكار، إنه لا يفعل شيئاً أكثر من تنفيذ فلسفة أبيه التي تركها له في هذه النصيحة كميراث: «لا تسمح أبداً لأحد بأن يُذلك يابني». فيبتسمون وينظر إليه بعضهم بوجوه متسامحة. لم يكن يفهم ذلك. بل كان يجعل من أحشائه قلباً، ويواصل. فهو رجل محب للعمل، رجل عادي، ولا شيء

أكثر. لقد ولد فقيراً، بل شديد الفقر، على مقربة من تشلوكاناس، في ياباتира، وكل ما يملكه إنما كسبه بالعمل. يدفع ضرائبها، يتقييد بالقوانين. فلماذا سيسمح لبعض اللصوص بأن ينتزعوا منه ما يملكه بإرسالهم تهديدات إليه دون أن يُظهروا له وجوههم؟ إذا لم يستجب أحد لهذه الابتزازات، فسوف يتلاشى المبتزون.

وهو لا يحب كذلك أن يتلقى تمييزاً أو تكريماً، لأنه يتعرق جليداً إذا ما اضطر إلى إلقاء خطابات. إنه يفتخر في أعماقه طبعاً وهو يفكر في مقدار السعادة التي سيشعر بها أبوه، ألينيو ياناكيه، لنيله مدالية المواطن النموذجي التي علقها على صدره نادي الروترى كلوب خلال غداء في المركز البيوراني. ولكن، حين كان عليه الاقتراب من المايكريفون ليقدم الشكر، انعقدت حنجرته واحتفى صوته. وقد حدث له الشيء نفسه عندما أعلنته جمعية إنريكي لوبيث ألبوخار المدنية - الثقافية - الرياضية شخصية العام في بيورا.

في تلك الأيام وصلت إلى بيته في شارع اريكيبيا رسالة من نادي غراو، تحمل توقيع رئيسها، الكيميائي - الصيدلاني المميز، الدكتور غارابيتو ليون سيميناري، تخبره بأن مجلس الإدارة قد وافق بالإجماع على طلبه لنيل عضوية الجمعية. لم يستطع فيليثيتو أن يصدق عينيه. لقد قدم الطلب منذ سنتين أو ثلاثة سنوات، وبما أنهم لم يردوا عليه قط، فقد فكر في أن طلبه قد أهمل لأنه ليس أبيض، مثلما يعتقد أنهم كذلك أولئك السادة الذين يذهبون إلى نادي غراو للعب التنس، والبينغ بونغ، والسابو، والكاتشو، والسباحة في المسبح والرقص في أيام السبت مع أفضل فرقة أوركسترا في بيورا. وقد تجرا على التقدم بذلك الطلب منذ رأى سيسيليا بارأسا تغني في حفلة لنادي غراو، تلك الفنانة الكريولية التي يقدرها أكثر من أي شيء. ذهب يومذاك مع مابيل وجلس إلى

منضدة الكولورادو بيعنلو الذي كان عضواً في النادي. ولو أنه سُئل عن أسعد يوم في حياته، لاختار فيليثيو ياناكيه تلك الليلة.

لقد كانت سيسيليا باراسا حبه السري، حتى قبل أن يراها في صورة أو شخصياً. أغرم بها بسبب صوتها. لم يخبر أحداً بذلك، لأنه أمر خاص وحيم. فذات يوم، في مطعم الملكة الذي احتفى، والذي كان يقوم عند ناصية كورنيش إغويغويرا وجادة سانتيشيث سيرو، حيث كان يجتمع للعشاء هناك، في أول سبت من كل شهر، مجلس إدارة جمعية السائرين عبر المحافظات في بيورا، وكان عضواً فيه. وبينما هم يرفعون نخبأً بكؤوس من شراب الخروب سمع فجأة، من مذياع المحل، غناءً أحد أح恨 الفالسات إلى نفسه «روح وقلب وحياة» بظرف وتأثير وإخلاص لم يسمعه بمثله من قبل. فلا خيسوس باسكيف، ولا فريق موروتشوكوس، ولا لوتشا ريس، ولا أي مغنٍ كريولي آخر من يعرفهم، غنى ذلك الفالس البديع بهذا الإحساس والظرف الذي تؤديه به المغنية التي يسمعها أول مرة. كانت تطبع كل كلمة، كل مقطع صوتي، كل حرف بكثير من الحقيقة والانسجام، بكثير من الحساسية والعذوبة، مما يمنع الرغبة في الرقص... وحتى البكاء. سأل عن اسمها فقالوا له: سيسيليا باراسا. سمع صوت تلك الفتاة جعله يفهم كما يبدو بصورة كاملة، أول مرة، الكثير من كلمات الفالسات الكريولية التي كانت تبدو له من قبل غامضة وغير مفهومة:

روح لفزوك  
قلب لحبك  
حياة لعيشها  
إلى جانبك!

أحس بأنه قد غُزِيَ، تأثر، افتتن، أحب. منذ ذلك الحين، في الليل، قبل أن ينام، أو في الفجر قبل أن ينهض، يتخيّل نفسه أحياناً أنه يعيش إلى جانب تلك المغنية المدعوة سيسيليا باراثا. دون أن يخبر أحداً، وبخاصة مابيل طبعاً، عاش بصورة أفلاطونية متعلقاً بذلك الوجه الباسم، ذي العينين بالغتي التعبير والابتسمة شديدة الغواية. لقد جمع مجموعة لا بأس بها من صورها التي كانت تظهر في الصحف والمجلات، واحتفظ بها بغيره وراء قفل في أحد دروح مكتبه. لقد ذهب الحريق بجزء لا بأس به من تلك الصور، ولكن ليس بمجموعة أسطوانات سيسيليا باراسا التي يمتلكها موزعة ما بين بيته في شارع اريكيبيا وبيت مابيل في كاستيا. يظن أنه يملك جميع الأسطوانات التي سجلتها تلك الفنانة التي رفعت، حسب طريقته في الفهم، الموسيقى الكريولية إلى مستويات جديدة، بما فيها الفالسات والماريئيريات والتنوير والبريفون. كان يستمع، بصورة عامة، إلى تلك الأسطوانات في الليل، بعد العشاء، حين تذهب خيرتروديس للنوم، في الصالة الصغيرة حيث يوجد التلفاز وجهاز الموسيقى. الأغانيات تجعل مخيلته تحلق؛ وكان يتأثر في بعض الأحيان إلى حد يشعر معه بأن عينيه تدمعن مع الصوت العذب والمداعب الذي يضمغ الليل. ولهذا، حين أعلن أنها ستأتي إلى بيورا لتقنفي في نادي غراو، وستكون الحفلة مفتوحة للجمهور، كان أحد أول من اشتروا تذاكر الدخول. دعا مابيل، وأجلسهما الكولورادو بيفنولو إلى منضدته، حيث تناولوا، قبل الحفلة،وجبة فاخرة مع نبيذ أبيض وأحمر. رؤية الفنانة شخصياً، وإن لم يكن عن قرب كبير، أدخل فيليثيتو في حالة من النشوة. بدت له أكثر جمالاً وظرافة وأناقة مما هي عليه في الصور. كان يصفق بحماسة شديدة بعد

كل أغنية، حتى إن مابيل قالت لبيغنولو مشيرة إليه : «انظر كيف صار هذا العجوز المتصابي يا كولورادو».

- لا تكوني سيئة الظن يا مابيليتا - قال لها مدارياً -، ما أصفق له هو فن سيسيليا باراتسا، فنها فقط.

وصلت رسالة العنكبوت الثالثة بعد وقت لا يأس به من الرسالة الثانية، حين كان فيليثيتو يتساءل عما إذا كان المافيويون قد أصيروا بالذعر بعد الحريق، والإعلان في «التييمبو» والضجة التي أحدثها، واستسلموا لتركه بسلام. كانت قد انقضت ثلاثة أسابيع على الحريق ولم يكن الخلاف مع شركة التأمين قد حلّ بعد، حين حدث ذات صباح، على منضدة المكتب المرتجلة في الكراج، أن هتفت السيدة خوسيفيتا التي كانت تفتح المراسلات :

- يا للغرابة يا دون فيليثيتو، رسالة لا تحمل اسم المرسل.

انتزعها صاحب شركة النقل من يديها بشدّة واحدة. وكانت ما خشي منه.

عزيزي السيد ياناكيه :

يسعدنا أنك صرت الآن رجلاً مشهوراً ومعتبراً في مدینتنا المحبوبة بيورا. ونتمنى أن تضاعف هذه الشهرة من أرباح نارييهولا للنقل، وخاصة بعد الضرر الذي تعرضت له الشركة بسبب شدة عنادك. غير أنه من المناسب لك أن تتقبل دروس الواقع وتكون برغماتياً بدلاً من اعتماد العناد كبغل. لسنا راغبين في أن تتعرض لضرر آخر أخطر من السابق. لهذا ندعوك لأن تكون مرناً، وأن تستجيب لمطالبنا.

لقد أطلعنا، مثل جميع أهالي بيورا، على الإعلان الذي نشرته في «التييمبو». لسنا حاقدين عليك. بل أكثر من هذا، إننا نتفهم قرارك بنشر

هذا الإعلان نتيجة نوبة انزعاج من الحرير الذي دمر المكتب. لقد نسينا ذلك، فأنسأه أنت أيضاً ولنبدأ من الصفر.

إننا نمنحك مهلة أسبوعين - أربعة عشر يوماً بدءاً من هذا اليوم - كي تفكّر، وتعود إلى العقل وننهي المسألة التي تهمنا. في حالة عدم موافقتك، عليك أن تتحمل النتائج. وستكون أشد خطورة من كل ما عانيته حتى الآن. وخير الكلام ما قل ودل، كما يقول المثل يا سيد ياناكيه.

وليحفظك الله.

الرسالة كانت مكتوبة على آلة كاتبة هذه المرة، ولكن التوقيع هو الرسم نفسه بحبر أزرق كما في الرسائلتين السابقتين: رسم عنكبوت بخمس قوائم طويلة مع نقطة في المنتصف تمثل الرأس.

- هل تشعر بتوعك يا دون فيليثيتو؟ لا تقل لي إنها واحدة أخرى من تلك الرسائل - ألحـت السكريـتـيرـة.

كان رئيسها قد أنزل ذراعيه، ويبعدوا أنه قد باعد بين ساقيه وهو جالس على كرسيه. وجهه شاحب، وعيناه مصوّبتان إلى قطعة الورق. وأخيراً هز رأسه موافقاً ورفع يده إلى فمه، في إشارة لها للاحتفاظ بالصمت. الناس الذين يملؤون المحل لم ينتبهوا. طلب منها كأس ماء شربه ببطء، باذلاً الجهد للتحكم بالاضطراب الذي سيطر عليه. كان يشعر بقلبه مضطرباً وبأنه يتنفس بصعوبة. لم يتراجع أولئك القوادون طبعاً، وسيسترون بالطبع في موضوعهم. ولكنهم يخطئون إذا كانوا يظنون أن فيليثيتو ياناكيه سيسمح لهم بلي ذراعه. كان يشعر بغضب، بحقد، بسخط يجعله يرتجف. ربما كان ميغيل وتبيوريتو على حق. ليس في مسألة الحارس الشخصي طبعاً، فهو لن يهدى نقوده في هذا الشأن. ولكنهما ربما كانوا على حق في موضوع المدرس. فليس هنالك ما

يسعده في هذه الحياة أكثر من تصفية أولئك البراز إذا ما صاروا في متناول يده. خرقدتهم بالرصاص، بل والبصاق على جثثهم.

عندما هداً قليلاً، ذهب ماشياً بسرعة إلى مفوضية الشرطة، ولكن النقيب سيلفا والرقيب ليتوما لم يكونا هناك. لقد خرجا لتناول الغداء وسيرجعان في حوالي الرابعة عصراً. جلس في أحد مقاهي جادة سانتشيث سيرو، وطلب مشروباً غازياً بارداً. اقتربت منه سيدتان لمصافحته. إنهما تقدرانه، فهو نموذج ولهم الجميع أهالي بيورا. وودعتاه وهما تباركانه. شكرهما بابتسامة. وفكرة: «الحقيقة أنني لا أشعر الآن بأنني بطل أو أي شيء أقل من ذلك بكثير». بل أقرب إلى أن أكون أبلهاً، تافهاً في مهب الريح، هذا هو ما أنا عليه. فهم يلعبون بي على هواهم بينما أنا لا أحل ولا أربط شيئاً في المسألة المعقّدة».

في طريق عودته إلى المكتب ماشياً ببطء على أرصفة الشارع العالية، وسط صخب المتوكسي والدراجات النارية والمشاة، ووسط قنوطه، أحسن برغبة مفاجئة وهائلة في رؤية مابيل. رؤيتها، تبادل الحديث معها، وربما سيشعر شيئاً فشيئاً بالرغبات تأتيه، فيفرق لدقائق في تهيج يدوخه و يجعله ينسى الحريق، والمشاكل مع التأمين التي يتولاها المحامي كاسترو بوسو، ورسالة العنكبوب الجديدة. وربما يتمكن، بعد أن يستمتع، من النوم قليلاً بهدوء، وسعادة. لا يتذكر أنه، خلال هذه السنوات الثمانية الفائتة، قد انقض فجأة وفي منتصف النهار على بيت مابيل الصغير، فدائماً يذهب عند الغروب وفي الأيام المتفق عليها مسبقاً معها. ولكنه يعيش أزمنة استثنائية، ويمكن له أن يكسر العادات. كان متعباً، وكان الجو حاراً، فذهب في سيارة أجرة بدل الذهاب ماشياً. حين ترجل، في شارع كاستيا، رأى مابيل عند باب بيتها. أهي خارجة أم عائدة؟ ظلت تنظر إليه مفاجئة.

- أنتَ في هذه الأنهاء؟ - قالت له على سبيل التحية - واليوم؟ وفي  
هذا الوقت؟

- لم أشا إزعاجك - اعتذر فيليثيتو - إذا كان لديك أي التزام فسوف  
أذهب.

- لدى التزام واحد، ولكنني أستطيع إلغاءه - ابتسمت له مابيل وهي  
تخرج من وقع المفاجأة - ادخل، ادخل. انتظرني لحظة، سأرتّب الأمر  
وأرجع.

لاحظ فيليثيتو أنها منزعجة على الرغم من كلماتها اللطيفة. أيكون قد  
وصل في لحظة غير مناسبة. ربما كانت ستخرج من أجل المشتريات. لا،  
لا. على الأغلب أنها كانت خارجة للقاء صديقة، والتمشي معها قليلاً  
وتناول الغداء معاً. أو ربما كان ينتظراها رجل شاب، مثلها، يرroc لها  
وتلتقي به خفية. أحس بوخزة غيرة وهو يتخيل مابيل ذاهبة للقاء مع  
عشيق. شخص يعرinya ويجعلها تصرخ. لقد أحبط خطتها. أحس بتيار  
شهوة، بدغدغة بين ساقيه، ببداية انتصاب. هيا، بعد كم من الأيام؟  
كانت مابيل جميلة هذا الصباح، بذلك الثوب الأبيض الذي يكشف عن  
ذراعيها وكتفيها، وذلك الحذاء ذي الكعب الرفيع، وهي مسرحة الشعر  
جيداً، عيناهَا وشفتاهَا ممكِّحة. أيكون لديها صديق؟ كان قد دخل إلى  
البيت وخلع عنه الجاكيت وربطة العنق. حين رجعت مابيل وجدته  
يعيد مرة أخرى قراءة رسالة العنكبوات. لقد غادرها الإنزعاج . فهي تبدو  
الآن باسمة ومحبة مثلما اعتادت أن تبدو معه دوماً.

- تلقيتُ رسالة أخرى هذا الصباح - اعتذر فيليثيتو وهو يقدمها إليها -  
أحسستُ بنبوة غضب عارمة. وفجأة راودتني رغبة في رؤيتك. لهذا أنا هنا  
يا حبي. اعتذرني لأنقضاضي عليك هكذا، دون إشعار مسبق. آمل ألا  
أكون قد عطلت لك أي مشروع.

- إنك في بيتك يا عجوزي - ابتسمت له مابيل مجدداً - يمكنك المجيء متى تشاء. ولم تعطل لي أي مشروع. كنت ذاهبة إلى الصيدلية لشراء بعض الأدوية.

تناولت الرسالة، جلست إلى جانبه، ومع تقدمها في القراءة كانت ملامحها تكتسي بالمرارة. غطت وجهها سحابة.

- أي إن العينين لا يتوقفون - هتفت بجدية كبيرة - ماذا ستفعل الآن؟

- ذهبت إلى مفوضية الشرطة ولكن الشرطيين غير موجودين. سيعودان عصراً. لست أدرى لماذا لا يفعل هذان البليدان شيئاً. إنهم يهدهداكي، هذا هو الشيء الوحيد الذي يفعلانه. يهدهداكي بالكلام الفارغ.

- أي إنك جئت لأهيجك قليلاً - رفعت مابيل من معنوياته مبتسمة - أليس صحيحاً يا عجوزي؟

مررت بيدها على وجهه وأمسكته وقبلته.

- فلنذهب إلى الغرفة يا مابيل - همس في أذنها - لدى رغبة كبيرة، الآن بالذات.

- حسن، حسن، هذا ما لم أكن أنتظره - عادت تضحك متصنعة حركات - في مثل هذا الوقت؟ أكاد لا أتعرف إليك يا عجوزي.

- سترين - قال وهو يعانقها ويقبلها من عنقها، ويشمها - يا لرائحتك الزكية يا حبي. إنني أبدل عاداتي، أستعيد الشباب، تشي غوا.

انتقلإلى غرفة النوم، تعرضاً ومارساً الحب. كان فيليبتيتو متاهيجاً إلى حد أنه بلغ النشوة فور دخوله فيها. ظل معانقاً إياها، يداعبها بصمت، يلعب بشعرها، يقبل رقبتها وجسدها، يعضض حلمتها، يدغدغها، يتلمسها.

- كم أنت حنون يا عجوزي - أمسكته مابيل من أذنيه، ونظرت إلى عينيه عن قرب - سوف تقول لي في أي يوم من هذه الأيام إنك تحبني.
- أولم أقل لك هذا مرات كثيرة يا مجنونتي الصغيرة؟
- تقوله لي وأنت متهميج، وهذا لا نفع فيه - عاتبته مابيل مداعبة - ولكنك لم تقله لي قبل أو بعد قط.
- سأقوله لك الآن إذاً بعدياً لم أعد متهميجاً. أنا أحبك كثيراً يا مابيليتا. أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها حقاً.
- أتحبني أكثر من سيسيليا باراسا؟
- هي مجرد حلم وحسب، إنها حكايتها عن الحوريات - قال فيليثيو ضاحكاً - أما أنتِ فحبي الوحيد في دنيا الواقع.
- سأصدق كلامك يا عجوزي. بعثرت شعره وهي تكاد تموت من الضحك.

تبادلا الحديث لبعض الوقت وهما مستلقيان على السرير، بعد ذلك نهض فيليثيو، اغتسل وارتدى ملابسه. رجع إلى نارييهوا لا للنقل وظل يدير شؤون المكتب لفترة لا بأس بها من بعد الظهر. وعند خروجه، مرّ مجدداً على المفوضية. كان المفوض والرقيب هناك، استقبلاه في مكتب أولهما. ودون أن يقول لهما كلمة واحدة، قدم إليهما رسالة العنكبوت الثالثة. قرأها النقيب سيلفا بصوت عالٍ، متوجهياً الكلمات، أمام نظرات الرقيب ليتوما المتيقظة الذي كان يستمع وهو يداعب دفترًا بيده المثلثة.

- حسنُ، كل شيء يجري مثلما هو متوقع - أكد النقيب سيلفا حين انتهى من القراءة. كان يبدو راضياً عن توقعه لكل ما يجري - إنهم لا يسمحون بلي ذراعهم، كما هو متوقع. إصرارهم هذا سيكون سبب دمارهم، لقد قلت ذلك من قبل.

- أ يجب علىَّ أن أبدي السعادة إذاً؟ - سأله فيليثيتو ساخراً - لم يكتفوا بإحرق مكتبي، بل يلاحقوني بإرسال رسائل مغفلة، ويقدمون لي الآن إنذاراً ل أسبوعين، ويهدونني بما هو أعظم من الحريق. أجيء إلى هنا فتقولون لي إن كل شيء يجري في مساره المتوقع. الحقيقة أنكم لم تتقىموا ميليمتراً واحداً في تحرياتكم بينما أبناء العاهرة هؤلاء يفعلون بي ما يحلو لهم.

- من يقول إننا لم نتقدم؟ - احتج النقيب سيلفا وهو يومئ بيديه ويرفع صوته - لقد تقدمنا كثيراً. فحتى الآن توصلنا إلى استبعاد أن يكون هؤلاء من إحدى العصابات الثلاث المعروفة في بيورا بمتطلباتها بإتاوات من التجار. ثم إن الرقيب ليتوما وجده شيئاً يمكن أن يكون طرف خيط جيداً.

قال ذلك بطريقة صدقها فيليثيتو على الرغم من حسه الارتياحي.  
- طرف خيط؟ حقاً؟ أين؟ ما هو؟

- مازال الوقت مبكراً لإطلاعك عليه. ولكن التوصل إلى شيء صغير يُعد إنجازاً. ستعلم بالأمر فور تأكيناً من تحديده. صدقني يا سيد ياناكيه. إننا مستغرقان في قضيتك جسداً وروحًا. نكرس لها وقتاً أكثر من كل ما عدتها. إنك أول أولوياتنا.

أخبرهما فيليثيتو أن ابنيه، بسبب قلقهما، اقترحاه عليه أن يتعاقد مع حارس شخصي وأنه رفض ذلك. واقترحا عليه كذلك أن يشتري مسدساً. ما رأيكما؟

- لا أنصح بذلك - أجابه النقيب سيلفا على الفور - يجب حمل المسدس فقط عندما يكون المرء مستعداً لاستخدامه، ولا يبدو لي أن حضرتك قادر على قتل أحد. ستعرض نفسك للخطر دونفائدة يا سيد ياناكيه. والأمر لك في نهاية المطاف. وإذا كنت، بالرغم من نصيحتي،

تريد ترخيصاً بحمل سلاح، فسوف نسهل لك الإجراءات. خذ وقتاً للتفكير، إنني أنبهك. سيكون عليك أن تجتاز اختباراً سيكولوجيًّا. وباختصار، ناقش الأمر مع وسادتك.

وصل فيليثيتو إلى بيته بعد أن خيم الظلام وبدأت الجداجد تغبني وضفادع الحديقة تنق. تناول على الفور طبقاً من مرق الدجاج، وسلطة، وهلاماً قدمته إليه ساتورنينا. وبينما هو متوجه إلى الصالة الصغيرة لمشاهدة الأخبار في التلفزيون، لاحظ أن تلك الهيئة الصامتة والمحركة التي هي خيرتروديس تقترب منه. وكانت تحمل جريدة في يدها.

- المدينة بأسرها تتحدث عن هذا الإعلان الذي نشرته في «التييمبو» - قالت امرأته وهي تجلس على المهد المجاور لمهدده - حتى الكاهن، في قداس الصباح، أتى على ذكره في عظه. ببورة بأسرها قرأته. باستثنائي أنا.

- لم أشا أن أسبب لك القلق، لهذا لم أقل لك شيئاً - اعتذر فيليثيتو - ولكن هاهو معك. لماذا لم تقرئيه إذاً؟

لاحظ أنها تتململ في المهد بضيق، وتشيح بصرها عنه. - لقد نسيت - سمعها تقول من بين أسنانها - لأنني لا أقرأ أبداً، بسبب نظري، لم أعد أميز ما أقرأه. الحروف تترافق أمام نظري. - عليك أن تذهب إلى طبيب العيون كي يفحص بصرك إذاً - نبهها - وكيف يمكن أن تكوني قد نسيت القراءة، لا أظن أن هذا يحدث لأحد يا خيرتروديس.

- ولكنه يحدث لي - قالت - أجل، سأذهب لفحص بصري في أحد هذه الأيام. لا يمكنك أن تقرأ لي ما نشرته في «التييمبو»؟ طلبت ذلك من ساتورنينا ولكنها لا تعرف القراءة أيضاً.

قدمت إليه الجريدة، وبعد أن وضع فيليثيتو النظارة، قرأ:

السادة مبتزو العنكبوت :

على الرغم من أنكم أحرقتم مكتب ناريهولا للنقل، الشركة التي أقمتها بالجهد الشريف طوال حياتي، فإنني أخبركم أمام الملأ بأنني لن أدفع لكم الإتاوة التي تطلبونها لتوفروا لي الحماية. أفضل أن تقتلوني قبل أن أفعل ذلك. لن تتلقوا مني سنتاً واحداً، لأنني أرى أننا نحن الأشخاص الشرفاء، العاملون والمحترمون، يجب علينا ألا نخاف أمثالكم من قطاع الطرق واللصوص، وإنما علينا مواجهتهم بحزم إلى أن نرسلهم إلى السجن، حيث يستحقون أن يكونوا.

أقول هذا وعليه أوقع :

فيليسيتو ياناكيه (وليس لي اسم عائلي من جهة الأم).  
ظلت الحزمة الأنثوية ثابتة لبعض الوقت، تجتر ما انتهت من سماعه. وأخيراً دمدمت :

- صحيح ما قاله الكاهن في عظه إذا. أنت رجل شجاع يا فيليسيتو.  
فليشملنا شفيعنا السيد الكاوتيبو برحمته. إذا ما خرجنا من هذه المحنّة، سوف أذهب إلى أياباكا لأصلّي له في عيده، في الثاني عشر من تشرين الأول / أكتوبر القادم.

## VI

- لا توجد أية قصة هذه الليلة يا ريفوبيرتو - قالت لوكريثيا عندما اضطجعا وأطفأا النور. وكان في صوت زوجته رنة قلق.
- وأنا أيضاً لست مستعداً للتخيلات هذه الليلة يا حبي.
- هل حصلت أخيراً على أخبار عنهم؟

هذا ريفوبيرتو رأسه مؤكداً. وبعد سبعة أيام من زواج إسماعيل وآرميدا، أمضى هو ولوكريثيا الأسبوع كله في قلق، ينتظران رد فعل الضبعين على ما حدث. ولكن كل يوم كان ينقضى دون حدوث أي شيء. إلى أن حدث واتصل محامي إسماعيل، الدكتور كلاوديو أرنبياس، بريفوبيرتو قبل يومين ليحذره. لقد تحري التوeman وتوصلا إلى أن مراسم الزواج المدني قد أقيمت في مقر عمدة تشوريبوس، وصارا يعرفان وبالتالي أنه أحد الشاهدين على الزواج. يجب أن يكون مستعداً، فقد يتصلان به في أي لحظة.

فعلا ذلك بعد بعض ساعات.

- طلب ميكى واسكوبيتا موعداً، واضطررت إلى تحديد موعد لهما - ثم أضاف - سياتيان غداً. لم أخبرك بالأمر فوراً كيلا أمرر يومك يا لوكريثيا. ستتفوض علينا المشكلة. آمل أن نخرج من هذا القضية وكل عظامنا سليمة على الأقل.

- أتدرى يا ريفوبيرتو؟ لست مهتمة كثيراً بأمرهما، فنحن نعرف

مبقاً أن هذا سيحدث. وكنا ننتظره، أليس صحيحاً؟ لا بد لنا من تجرب تلك الكأس المرة، لا مهرب – ثم غيّرت زوجته الموضوع – زواج إسماعيل وهياج قاطعيّ الطريق لا يهمني مقدار ذرة الآن، فما يقلقني ويعنعني من النوم هو موضوع فونتشيتتو.

– أهو ذلك الشخص مرة أخرى – دُعْر ريفوبيرتو – هل عادت إليه الرؤى؟

– لم تتوقف قط يا بني – ذكرته لوكريثيا بصوت منكسر – ما يحدث، على ما أعتقد، أن الصبي لم يعد يخبرنا شيئاً لأنه صار لا يثق بنا. وهذا هو أكثر ما يقلقني. ألا ترى كيف هي حال المسكين؟ إنه كثيّب، ساه، منغلق على نفسه. لقد كان يخبرنا بكل شيء من قبل، ولكنني الآن أخشى من أنه يخفي الأمور عنا. ولهذا ينهشه الفم حياً. ألا تلاحظ ذلك؟ من كثرة تفكيرك في الضبعين، لم تلحظكم تبدل ابنك خلال هذه الشهور. إذا لم نتصرف بسرعة، قد يصيّبه مكروره، فنندم طيلة ما تبقى من حياتنا. ألا ترى ذلك؟

– إنني أراه جيداً – تقلب ريفوبيرتو تحت ملاءات الفراش – المسألة هي أنني لا أعرف ما الذي يمكننا عمله أكثر مما فعلناه. إذا كنت تعرفيين، أخبريني به وسنفعله. أنا لم أعد أعرف المزيد. لقد أخذناه إلى أفضل طيبة نفسية في ليما. وتحديث مع أساتذته، وفي كل يوم أحاول تبادل الحديث معه وكسب ثقته من جديد. أخبريني ما الذي تريدينني أن أفعله وسأفعله. إنني قلق مثلث على فونتشيتتو يا لوكريثيا. أتظنين أنني غير مهم بأمر ابني؟

– أعرف، أعرف – وافقته – لقد خطر لي... في نهاية الأمر... لا أعرف... لا تضحك مني... إنني مشوشة جداً لما يحدث له، باختصار... حسن، إنها فكرة... لا شيء سوى مجرد فكرة.

- أخبريني بما يخطر لك وسنفعله يا لوكريثيا. أي شيء، وسأ فعله، أقسم لك.

- لماذا لا نتحدث مع صديقك... الأب أودونوفان. أخيراً... لا تضحك، لستُ أدرى.

- أتريدينني أن أذهب للتحدث مع كاهن في هذه القضية؟ - فوجئ ريفوبيرتو. وأطلق قهقة قصيرة - لماذا؟ كي يخرج الشياطين من فونتشيتو؟ أتأخذين مزحة الشيطان على محمل الجد؟

لقد بدأ ذلك منذ عدة شهور، ربما منذ سنة مضت، وبأشد الطرق ابتدالاً. خلال عشاء نهاية الأسبوع. روى فونتشيتو لأبيه وزوجة أبيه، كمن هو غير راغب، وكما لو أن الأمر ليس مهمًا، عن لقائه الأول مع ذلك الشخص.

- أنا أعرف ما اسمك - قال له ذلك السيد مبتسمًا بلطف من المنضدة الجانبية - اسمك إبليس.

ظل الصبي ينظر إليه متفاجئاً، دون أن يدرى ما يمكنه أن يقول. كان يتناول زجاجة إنكاولا من فم القارورة مباشرة، وحقيقة المدرسية على ركبتيه، وقد انتبه في تلك اللحظة إلى حضور ذلك السيد في المقهى الصغير المنعزل في متنه بارانكو، غير بعيد عن البيت. كان سيداً ذا صدغين فضيين، وعيينين باسمتين، نحيلًا جدًا، يلبس بتواضع، ولكن بتناسق شديد. فهو يرتدي كنزة بنفسجية تتخللها أشكال مُعينات بيضاء، تحت سترة رمادية. وكان يتناول فنجان قهوة في رشفات صغيرة.

- لقد منعتك منعاً حاسماً من التكلم مع الغرباء في الشارع يا فونتشيتو - ذكره دون ريفوبيرتو - هل نسيت ذلك؟

- أسمي ألفونسو، وليس إبليس؛ أجا به، وأصدقائي ينادونني فونتشو.

- أبوك يقول لك هذا من أجل مصلحتك يا صغيري - تدخلت زوجة أبيه -. فلا أحد يدرى أبداً من هم أولئك الأشخاص الذين يتربون للتحدث مع التلاميذ عند أبواب المدارس.

- إما أنهم يبيعون مخدرات، أو أنهم خاطفون أو مغتصبو قاصرين. لهذا يجب عليك أن تتوكخي الحذر.

- يجب أن تغير اسمك إلى إبليس إذاً - ابتسם له ذلك السيد. وكان صوته البطيء والمذهب ينطق كل كلمة بدقة أستاذ في النحو. وجهه الطويل وبارز العظام يبدو أنه قد حلق للتو. «أقسم لك إنه كان يبدو شخصاً شديداً الاستقامة يا بابا». - أتعرف ما الذي يعنيه إبليس؟ نفي فونتشيتو بحركة من رأسه. «إبليس، أقال لك هذا؟»، أبدى رينغوبيرتو اهتماماً. «أقلت إبليس؟».

- إنه من يحمل النور، حامل النور - أوضح ذلك السيد بهدوء. «كان يتكلم كما في كاميرا بطيئة يا بابا». وهذا يعني أنك فتى وسيم جداً. عندما تكبر، ستجن بك جميع فتيات ليما. ألم يعلمونك في المدرسة من هو إبليس؟

- إنني أراه يقترب، وأتخيل جيداً ما الذي يسعى إليه - دمدم دون رينغوبيرتو وهو يولي الآن اهتماماً كبيراً لما يقوله ابنه. عاد فونتشيتو إلى النفي بحركة من رأسه.

- كنت أعرف أنه على الذهاب بأسرع ما يمكن، إنني أتذكر جيداً كم من المرات قلت لي إنه علينا عدم تبادل الأحاديث مع مجھولين، مثل هذا السيد الذي حاول تعليمي يا بابا - أوضح مومناً بيديه - ولكن، ولكن، أقول لك، كان فيه شيء، في أساليبه، في طريقة بالكلام، لا يبدو معه أنه شخص سيئ. ثم إن الفضول لسعني. في المدرسة ماركمام لم يحدثونا، على ما أذكر، عن إبليس.

- لقد كان أجمل الملائكة، الملائكة المفضل لدى الرب هناك في الأعلى - لم يكن يمزح، كان يتكلم بجدية تامة، مع ظل ابتسامة حانية في وجهه جيد الحلاقة؛ ويشير بإصبعه إلى السماء - ولكن إبليس، لعرفته أنه باهر الجمال، تكبر، ارتكب خطيئة التكبر. أحس أنه مثل الرب، وليس أقل من ذلك. تصور. عندئذ عاقبه الرب، وتحول من ملاك النور ليصبح أمير الظلمات. هكذا بدأ كل شيء: التاريخ... ظهور الزمن والشر... الحياة البشرية.

- لم يكن يبدو كاهناً يا بابا، ولا واحداً من أولئك المبشرين الإنجيليين الذين يوزعون مجلات دينية متنقلين من بيت إلى بيت. وقد سأله: «هل أنت أب أيها السيد». «لا، لا، كيف أكون كاهناً يا فونتشيتو، لا أدرى لماذا يخطر لك مثل هذا الخاطر». وانفجر ضاحكاً -

- لقد كان تهوراً منك التحدث معه، قد يكون لحق بك حتى هنا - أنبته دونيا لوكريثيا وهي تداعب جبهته - عليك أن تعدني بألا تفعل ذلك أبداً، أبداً يا صغيري.

- يجب أن أذهب إليها السيد - قال فونتشيتو وهو ينهض - إنهم ينتظرونني في البيت.

لم يحاول السيد استبقاءه. ابتسم له بطريقة أكثر انفتاحاً، على سبيل الوداع، وانحنى له باحترام، ولوح بيده.

- أنت تعرف جيداً من يكون، أليس كذلك؟ - كرر ريفوبيرتو - إنه منحرف. مُغرر بالقاصرين. أظن أنك تعرف ما الذي يعنيه هذا، لست بحاجة لأن أشرح لك ما يعنيه. لقد كان يستدرجك طبعاً. لوكريثيا على حق. فقد أساءت التصرف بالردد عليه. كان عليك أن تغادر فور بدئه الكلام معك.

- لم يبدُ لي أنه شاذ يا بابا - طمأنه فونتشيتو - أقسم لك. فالشاذون

الذين يمضون بحثاً عن الصبيان أعرفُهم فوراً، من طريقتهم في النظر. حتى قبل أن يفهوا فهم، أقول لك بجد. ولأنهم يحاولون دوماً تحسسي. هذا كان مختلفاً تماماً، إنه رجل مؤدب، مهذب جداً. لا يبدو أن لديه نوايا سيئة حقاً.

- هؤلاء هم الأسوأ يا فونتشيتو - أكدت له دونيا لوكريثيا بذعر صريح

- من يبدون أشبه بذبابة ميتة، من لا يبدو عليهم، ولكنهم كذلك.

- قل لي يا بابا - غير فونتشيتو الموضوع - ذلك الكلام الذي أخبرني

به السيد عن الملائكة إبليس، فهو صحيح؟

- حسن، هذا ما يقوله الكتاب المقدس - تردد دون ريفوبيرتو -. إنه

صحيح في نظر المؤمنين على أي حال. من الغريب أنهم في مدرسة ماركهام لا يجعلونكم تقرؤون الكتاب المقدس، كثقافة عامة على الأقل.

ولكن دعنا لا نخرج عن الموضوع. أكرر لك مرة أخرى يا بني. ممنوع منعاً باتاً أن تقبل أخذ أي شيء من غرباء. لا دعوات، ولا أحاديث،

ولا أي شيء. لقد فهمت ما أقوله، أليس كذلك؟ أم أنك تريد أن أمنعك من الخروج إلى الشارع بتاتاً؟

- لقد كبرت على هذا يا بابا. لقد صار عمري خمس عشرة سنة، أرجوك.

- أجل، لقد صرت بعمر نوح - ضحكت دونيا لوكريثيا. ولكن ريفوبيرتو سمعها تتنهد على الفور في الظلام - لو أننا عرفنا إلى أين سيؤدي ذلك الموضوع كله. يا للكابوس، رباه. إنه مستمر منذ سنة على ما أقدر.

- سنة أو أكثر قليلاً يا حبي.

لقد نسي ريفوبيرتو تقريباً حادثة الغريب الذي تكلم مع فونتشيتو عن إبليس، في مقهى متزه بارانكو. ولكنه بدأ يتذكره ويقلق بعد أسبوع

من ذلك، عندما رجع ابنه، حسب ما قال له — للعب مباراة كرة قدم في مدرسة سان أغوسطين، وعاد ذلك السيد للظهور.

- كنتُ خارجاً بعد أن أخذت دوشًا في حمامات سان أغوسطين، وكنت ذاهباً للقاء تشاو بيثولو كي نركب معاً الحافلة إلى بارانكو. وحتى لو كنت لا تصدق، كان هو هناك يا بابا. إنه السيد نفسه. هو بالذات.

- مرحباً يا إبليس - حياة السيد بالابتسامة الودودة كما في المرة السابقة - هل تذكرني؟

كان جالساً في البهو الفاصل بين ملعب كرة القدم وببوابة مدرسة سان أغوسطين. ومن خلفه يظهر الأفعوان الطويل الذي تشكله السيارات والشاحنات والحافلات المتقدمة من جادة خابير برادو. وكانت بعض السيارات تضيء مصابيحها.

- أجل، أجل أتذكرك - قال فونتشيتو وهو ينهض. وقال له بنبرة حاسمة: - بابا منعني من التحدث إلى غرباء، اعذرني.

- لقد أحسن ريفوبيرتو صنعاً - قال السيد وهو يهز رأسه. وكان يلبس السترة الرمادية نفسها التي في المرة السابقة، ولكن الكنزة البنفسجية كانت واحدة أخرى، من دون الأشكال المعينية البيضاء - ليما تغص بالناس الأشزار. هنالك منحرفون ومنحطون في كل مكان. والصغرى المذهبون من أمثالك هم هدفهم المفضل.

فتح دون ريفوبيرتو عينيه على اتساعهما:

- ذكر اسمي أنا؟ أقال لك إنه يعرفني؟

- وهل تعرف أبي أيها السيد؟

- وأعرف أيضاً إليسا، أمك - أكد السيد مبدياً الجدية - وأعرف كذلك لوكريشيا، زوجة أبيك. لا يمكنني القول إننا أصدقاء، لأننا لم

نزلق إلا نادراً. ولكنني أعجبتُ بكليهما، ومنذ أن رأيتهما أول مرة بدا لي ثانياً رائعاً. يسعدني أن أعلم أنهما يهتمان بك كثيراً ويقلقان عليك. فصبي في مثل جمالك لن يكون آمناً في سدوم وعموراً التي صارت إليها مدينة ليما.

- أيمكنك أن تخبرني ما تعنيه سدوم وعموراً هذه يا بابا؟ سأل فونتشيتو ولح ريفوبيرتو في عينيه بريقاً ضئيلاً من الخبث.

- إنهم مدینتان قديمتان، فاسدان جداً، ولأنهما كذلك أبادهما الله أجاب ساهماً - هذا ما يؤمن به المؤمنون على الأقل. عليك أن تقرأ الكتاب المقدس قليلاً يابني. كثافة عامة. العهد الجديد على الأقل. فالعالم الذي نعيش فيه يغص بالإشارات التوراتية وإذا لم تفهمها ستعيش في بلبلة وجهل كاملين. لن تفهم، مثلاً، أي شيء من الفن الكلاسيكي، ومن التاريخ القديم. أنت متأكد من أن ذلك الشخص قال لك إنه يعرف لوكريثيا ويعرفني؟

- وقال إنه عرف أمي أيضاً - حدد فونتشيتو - حتى إنه أخبرني باسمها: إلويسا. وكان يقول ذلك بطريقة من المحال معها عدم تصديق أن ما يقوله هو الحقيقة يا بابا.

- أقال لك ما هو اسمه؟

- حسنُ، لم يقل هذا - ارتبك فونتشيتو - لم أسأله ولم أتح له الوقت حتى لأن يقوله لي. بما أنك أمرتني بـألا أتكلم ولو كلمة واحدة معه. فقد هربتُ راكضاً. ولكن من المؤكد أنه يعرفك، أنه يعرفكما. وإلا لما كان أخبرني باسمك، ولما كان يعرف اسم أمي، وأن زوجة أبي تدعى لوكريثيا.

- إذا ما صادف والتقيت به مرة أخرى، لا تننسَ أن تسأله عن اسمه - قال ريفوبيرتو، وهو يمعن النظر في الصبي بعدم ثقة: أهذا الذي يرويه

لهمَا صَحِّحْ أَمْ إِنَّهُ اخْتِلَاقٌ آخَرُ مِنْ اخْتِلَاقَاتِهِ؟ - وَلَكِنْ دُونَ أَنْ تَتَوَقَّفَ لِتَبَادُلِ الْحَدِيثِ مَعَهُ، وَأَقْلَ منْ ذَلِكَ أَنْ تَقْبِلَ مِنْهُ كُوكَاكُولاً أَوْ أَيْ شَيْءٍ آخَرَ يُعْرَضُهُ عَلَيْكَ. فَفِي كُلِّ مَرَّةٍ أَزْدَادُ قُنَاعَةً بِأَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ أُولَئِكَ الْمُنْحَطِينَ الَّذِينَ يَمْضُونَ طَلَقاً فِي لِيْمَا بَحْثَأَ عَنْ فَتِيَّةٍ صَغَارٍ. وَإِلَّا مَا الَّذِي يَفْعَلُهُ فِي مَدْرَسَةِ سَانْ أَغْوِسْطِينَ.

- أَتَرِيدُ أَنْ أَخْبُرَكَ أَمْرًا يَا رِيْغُوبِيرْتُو؟ - قَالَتْ لَهُ دُونِيَا لُوكَريَشِيا وَهِيَ تَلْتَصِقُ بِهِ فِي الظَّلَامِ، كَمَا لَوْ أَنَّهَا تَقْرَأُ أَفْكَارَهُ - فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَفْكَرَ فِي أَنْ هَذَا كُلُّهُ مِنْ اخْتِلَاقِهِ. إِنَّهُ أَمْرٌ نَمُوذِجِيٌّ فِي فُونْتِشِيتُو وَتَخْيَالَتِهِ. لَقَدْ فَعَلَ بَنَا مِثْلُ هَذِهِ الظَّرَافَاتِ مِنْ قَبْلِهِ، أَلِيْسَ كَذَلِكَ؟ وَأَقْوَلُ لِنَفْسِي إِنَّهُ يَجِبُ عَدُمُ الْقَلْقِ، وَأَنَّ ذَلِكَ السَّيْدَ لَا وَجْهَ لَهُ وَلَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ. وَأَنَّهُ اخْتَلَقَ كَيْ يَضْفِي اهْتِمَامًا عَلَى نَفْسِهِ وَيَقْلِقُنَا وَيَجْعَلُنَا نَتَعَلَّقُ بِهِ. لَكِنَّ الْمُشَكَّلَةُ أَنَّ فُونْتِشِيتُو مُخَادِعٌ عَظِيمٌ. لَأَنَّهُ حِينَ يَرْوِي حَكَايَاتِهِ، يَبْدُو لَيْ أَنَّهُ مِنَ الْمُحَالِّ أَنْ يَكُونَ مَا يَقُولُهُ غَيْرُ صَحِّحٍ. إِنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِطَرِيقَةٍ بِالْحَقِيقَيْةِ، بِالْغَةِ الْبَرَاءَةِ، بِالْغَةِ الإِقْنَاعِ. وَبِالْخَتْصَارِ، لَسْتُ أَدْرِي. أَلَا تَفْكِرُ فِي مِثْلِ هَذَا أَيْضًا؟

- بَلِي بِالْطَّبِيعِ، مِثْلَمَا يَحْدُثُ لَكَ - اعْتَرَفَ رِيْغُوبِيرْتُو وَهُوَ يَحْتَضِنُ امْرَأَتَهُ مَتَدَفِّقًا بِجَسْدِهَا وَمَدْفَقًا إِيَاهُ - إِنَّهُ مُخَادِعٌ عَظِيمٌ، بِكُلِّ تَأْكِيدٍ. أَرْجُو أَنْ يَكُونَ قَدْ اخْتَلَقَ كُلُّ هَذِهِ الْقَصَّةِ يَا لُوكَريَشِيا، أَرْجُو ذَلِكَ، أَرْجُو. فِي الْبَدْءِ كُنْتُ أَخْذُ الْأَمْرَ بِخَفْفَةٍ، وَلَكِنْ تَلْكَ الرُّؤْيَ بَدَأَتْ تَسْيِطُ عَلَى تَفْكِيرِي. أَجْلَسَ لِأَقْرَأُ فِيلِهِينِي التَّفْكِيرَ فِي ذَلِكَ الشَّخْصِ، أَحَاوَلَ سَمَاعَ مُوسِيقِيِّ فَأَجْدَهُ هَنَاكَ، أَرِيدُ رُؤْيَةً لَوْحَاتِي، فَيَكُونُ مَا أَرَاهُ وَجْهَهُ، وَهُوَ لَيْسُ وَجْهًا وَإِنَّمَا عَلَامَةٌ اسْتَفْهَامٌ.

- الْحَقِيقَةُ أَنَّهُ لَا يَمْكُنُ لَأَحَدٍ أَنْ يَمْلِأَ أَبْدًا مِعَ فُونْتِشِيتُو - حَاوَلَتْ لُوكَريَشِيا أَنْ تَمْزِحَ - فَلَنْ حَاوَلَ النَّوْمَ قَلِيلًا. لَا أَرِيدُ قَضَاءَ اللَّيْلِ سَاهِرَةً مَرَّةً أُخْرَى.

مضت أيام عديدة دون أن يعود الصبي للتحدث إليهما عن الرجل المجهول. بدأ ريفوبيرتو يفكر في أن لوكريثيا على حق. وأن كل ذلك كان تخيلاً من ابنه ليضفي أهمية على نفسه ويحظى باهتمامها. إلى أن جاء ذلك المساء الشتائي شديد البرودة والرذاذ، واستقبلته لوكريثيا بلامح أثارت فزعه.

- لماذا هذا الوجه - قبلها ريفوبيرتو -. أسباب تقاعدي المبكر؟ أترى أنها فكرة سيئة؟ أترتعبين من رؤيتي طيلة اليوم هنا في البيت؟

- إنه فونتشيتو - أشارت لوكريثيا إلى الطابق السفلي حيث غرفة الطفل - جرى له شيء في المدرسة ولم يرد أن يخبرني. لقد لاحظت ذلك فور دخوله. جاء شاحباً جداً، ومرتجفاً. ظننت أنه محموم. وضعت له ميزان الحرارة، لم تكن ثمة حرارة مرتفعة. كان كالداهل، مرعوباً ويقاد لا يستطيع الكلام. «لا، لا، لا أعناني شيئاً يا خالي». يقاد صوته لا يخرج منه. اذهب وانظر ما به يا ريفوبيرتو، إنه منزو في حجرته. فليخبرك بما حدث له. ربما علينا استدعاء الطوارئ الطبية، لم يرق لي الوجه الذي هو عليه.

«إنه الشيطان مرة أخرى»، فكر ريفوبيرتو. ونزل الدرج مسرعاً نحو الطابق السفلي من الشقة. وبالفعل، كان السبب هو ذلك الشخص مرة أخرى. قاوم فونتشيتو قليلاً في البداية - «لماذا سأخبرك مادمت لن تصدقني يا بابا» -، ولكنه استسلم أخيراً لمبررات أبيه العقلانية. «من الأفضل أن تُخرج ما لديك وتشاركني به يا صغيري. سيُشعرك إخباري بما لديك بالتحسن، سوف ترى». كان ابنه شاحباً بالفعل وفقداً تلقائيته. يتكلم كما لو أن الكلمات تُملئ عليه، أو كما لو أنه سينفجر في أي لحظة بالبكاء. لم يقاطعه ريفوبيرتو ولو مرة واحدة؛ استمع إليه دون أن يتحرك، مركزاً بالكامل على ما يسمعه.

حدث ذلك خلال استراحة الثلاثين دقيقة في مدرسة ماركهام، عند العصر، قبل موعد الدروس اليومية الأخيرة. فبدلاً من الذهاب للعب في ملعب كرة القدم، حيث كان زملاؤه يتلقون كرة، أو يتداولون الحديث مستلقيين على العشب، جلس فونتشيتو في أحد أركان المدرجات الخاوية ليراجع درس الرياضيات الأخير، وهي المادة التي تسبب له أكبر وجع رأس. وكان قد بدأ الغوص في معادلة معقدة، ذات تفرعات وجدور تكعيبية، عندما حدث شيء - «أشبه بالحاسة السادسة يا بابا» - جعله يشعر بأنه مُراقب. رفع بصره وهناك كان السيد جالساً أيضاً، على مقربة منه، على الدرج المقرر. يلبس بالدقة والبساطة المعهودة، مع ربطة عنق وكenza بنفسجية تحت سترته الرمادية. وكان يحمل حافظة وثائق تحت إبطه.

- مرحباً يا فونتشيتو - قال له مبتسمًا بصورة طبيعية، كما لو أنهما صديقان قديمان - أنت تدرس، بينما زملاؤك يلعبون. إنك تلميذ نموذجي، وهذا تصوري عنك. مثلما يجب أن تكون.

- متى جاء وصعد الدرج؟ ما الذي يفعله هناك ذلك السيد؟ الحقيقة أنني أخذت أرتجف دون أن أدرى السبب يا بابا - ازداد شحوب ابنه قليلاً وبدا مشوشاً.

- هل حضرتك أستاذ في المدرسة أيها السيد؟ - سأله فونتشيتو مرعوباً، دون أن يدرى سبب رعبه.

- أستاذ، لا، لستُ أستاذًا - أجابه، ودوماً بذلك الهدوء وتلك الأساليب باللغة التمدن التي لا تغادره - إنني أمد يد المساعدة بين حين وآخر لمدرسة ماركهام في مسائل عملية. أقدم للمديرين نصائح من النوع الإداري. وأحب المجيء إلى هنا حين يكون الجو جيداً، لرؤيتكم أنتم التلاميذ. إنكم تذكرونني بأيام شبابي، وتشعرونني باستعادة الشباب

بطريقة ما. ولكن مسألة الجو الجيد لم تعد نافعة. يا للأسف، فقد بدأ الرذاذ يهطل.

- أبي يريد أن يعرف ما هو اسم حضرتك أيها السيد - قال فونتشيتو، وقد فوجئ بأنه يتكلف مشقة كبيرة في الكلام، وبأن صوته يرتعش بقوة - لأن حضرتك تعرفه، أليس كذلك؟ وأنت تعرف خالي أيضاً، أليس صحيحاً؟

- اسمي إديليبيرتو توريس، ولكن لا يمكن لريغوبيرتو أن يتذكرني، ولا لوكريثيا كذلك، لأننا تعارفنا بصورة عابرة جداً. أوضح السيد بقلة كلامه المعهودة. ولكنه اليوم، وخلافاً لرات أخرى، بدل أن يطمئن فوتشيتو بابتسامته المهدبة تلك، وعينيه اللطيفتين والنفاذتين، جعله يشعر بالريبة.

لاحظ ريجوبيرتو أن صوت ابنه يتقطع. وأن أسنانه تصطك.

- اهدا يا صغيري، لسنا في عجلة من أمرنا. أتشعر بأنك لست على ما يرام؟ أتريد أن آتيك بكأس ماء؟ أترغب فيمواصلة رواية هذه القصة لي في ما بعد، أو غداً؟

نفي فونتشيتو بحركة من رأسه. كانت الكلمات تخرج منه بصعوبة، كما لو أن لسانه مخدر.

- أعرف أنك لن تصدق ما أقوله يا بابا، ولكن... ولكن، حدث عندئذ أمر غريب جداً.

أشاح ببصره عن أبيه وصوبه إلى الأرض. كان يجلس على حافة السرير، وهو لا يزال مرتدياً الذي المدرسي، وشبهه منكمش على نفسه، وبلامح ذاهلة. أحس دون ريجوبيرتو بموجة من الحنان والشفقة على الصغير. بدا واضحاً أنه يعاني. ولم يكن يدري كيف يساعده.

- إذا ما قلت لي إنه كلام صحيح و حقيقي، سأصدقك - قال له وهو

يمر بيده على شعره في مداعبة ليست كثيرة التواتر لديه . أنا أعرف جيداً أنك لم تكذب عليَّ قطَّ، وأنك لن تبدأ بفعل ذلك الآن يا فونتشيتو.

دون ريفوبيرتو الذي كان واقفاً، جلس الآن على كرسي مكتب ابنه. كان يرى الجهد الذي يبذله هذا الأخير ليتكلم، ويضايقه أنه ينظر إلى الجدار، يجب بنظره الكتب التي على الرف، متجنباً النظر إلى عينيه. وأخيراً استجمع قواه واستطاعمواصلة الكلام:

- وهكذا، بينما أنا أتحدث إلى السيد، جاء تشاتو بيثولو، صديقي الذي تعرفه، جاء راكضاً. وكان يصرخ:

- ماذا جرى لك يا فونتشيتو! لقد انتهت الفسحة، الجميع يعودون إلى الدروس. أسرع يا رجل. نهض فونتشيتو واقفاً بقفزة واحدة.

- المعذرة، يجب أن أذهب، لقد انتهت الفسحة - ودع السيد إدilibيرتو توريس واندفع راكضاً نحو صديقه.

- استقبلني تشاتو بيثولو وهو يتصنّع تكشّيرات ويتمسّ رأسه كما لو أن برغيياً ينقصني يا بابا.

- هل أنت مجنون أم ماذا يا صاحبي فونتشيتو؟ - سأله صديقه بينما هما يركضان نحو مبنى قاعات الدرس - أيمكنني أن أعرف أية لعنة كنت تودع؟

- لا أعرف من يكون ذلك الشخص - أوضح له فونتشيتو لاهثاً . يدعى إدilibيرتو توريس ويقول إنه يساعد مدير المدرسة في أمور عملية. هل رأيته أنت هنا ذات يوم من قبل؟

- ولكن عن أي شخص تتكلّم أيها الأبله - هتف تشاتو بيثولو لاهثاً وهو يتوقف عن الركض. والتفت ناظراً إليه - ولكنك لم تكن مع أحد.

كنتَ تتكلّم مع الفراغ، مثل من في رأسهم خلل. ألا تكون قد جنّت يا صاحبي؟

كانا قد وصلا إلى قاعة الدرس، ولم يعودا قادرين من هناك على رؤية ملعب كرة القدم.

- ألم تره أنت؟ - أمسكه فونتشيتو من ذراعه -. ألم ترَ ذلك السيد ذا الشيب، والسترة وربطة العنق والكنزة البنفسجية، جالساً هناك، بجانبي؟ أقسم لي بأنك لم تره يا تشاتو.

- لا تزعجي أكثر - ورفع تشاتو بيثولو إصبعه إلى صدغه مرة أخرى -. أنت مجنون تماماً، لم يكن هناك أحد سواك. إما أن تكون مجنوناً أو أنك ترى رؤى. لا تزعجي يا ألفونسو. أنت تريد الخداع، أليس كذلك؟ أؤكد لك أنك لن تستطيع خداعي.

- كنتُ أعرف أنك لن تصدقني يا بابا - همس فونتشيتو وهو يتنهّد. توقف عن الكلام قليلاً ثم أكد: - ولكنني أعرف جيداً ما أراه وما لا أراه. ويمكنك أن تكون واثقاً كذلك من أنني لم أتحول إلى مجنون. فهذا الذي أخبرك به هو ما حدث. وقد حدث هكذا بالضبط.

- حسن، حسن - حاول ريفوبيرتو تهدئته -. ربما يكون صديقك بيثولو هو من لم ير المدعو إديلبيرتو توريس. قد يكون واقفاً في زاوية ميّة، أو أن عائقاً حجب عنه الرؤية. لا تُقلّب هذا الأمر أكثر. يمكن أن يكون هناك أي تفسير آخر؟ صديقك تشاتو لم يتمكّن من رؤيته، وهذا هو كل شيء. لن نبدأ بالاعتقاد بوجود أشباح في هذا المستوى من الحياة، أليس صحيحاً يا بني؟ انس هذا كله، وبخاصة إديلبيرتو توريس. فلنُقل إنه لم يوجد قط. إنه قد مضى وراح، مثلما تقولون أنتم في هذه الأيام.

- إنها واحدة أخرى من تخيلات هذا الطفل المحمومة - علقت دونينا

لوكريثيا في ما بعد . لن يتوقف أبداً عن مفاجئتنا. بأن هنالك شخصاً يظهر له ولا يراه أحد سواه، هناك في ملعب الكرة بالمدرسة. رباه، يا لرأسه الصغير المتجاوز لكل الحدود!

ولكنها هي نفسها من حثت ديفوبيرتو بعد ذلك على الذهاب إلى مدرسة ماركهام، دون علم فونتشيتو، للتحدث مع مستر ماكفيرسون، المدير. وقد جعلت تلك المحادثة ريفوبيرتو يمر بوقت عصيب.

- طبعاً، إنه لم يسمع حتى باسم إديلبيرتو تورييس - أخبر لوكريثيا، مع حلول الليل، وهو الوقت الذي يتبدلان الحديث فيه عادة . - وفوق ذلك، ومثلما هو متوقع، سخر مني ذلك الغرينغوف على هواه. فمن الحال بالطلاق أن يكون شخص غريب قد دخل إلى المدرسة، وأصعب من ذلك أن يصل إلى ملعب كرة القدم. فمن غير المسموح لمن هو غير أستاذ أو موظف أن يضع قدميه هناك. ويعتقد مستر ماكفيرسون أيضاً أن الأمر برمه لا يعدو أن يكون واحدة من تلك التخيلات التي يميل إليها الصبية الأذكياء والحساسون. وقال لي إنه يجب عدم إيلاء أدنى اهتمام للقضية. وإنه من الطبيعي في من هم بمثيل عمر ابنك أن يروا شيئاً، بين حين وآخر، اللهم إلا إذا كان الصبي مجنوناً. وقد اتفقنا ألا يتحدث أي منا مع فونتشيتو بشيء عن الحديث الذي دار بيننا. ويبدو لي أنه على حق. لا مسوغ لمواصلة مجاراته في موضوع لا أساس له ولا رأس.

- تصور أن يكون للشيطان وجود، وأنه بيرويُ ويدعى إديلبيرتو تورييس - ضحكت لوكريثيا فجأة. ولكن ريفوبيرتو انتبه إلى أنها ضحكة عصبية.

كانا مضطجعين وبدا واضحاً أنه لن تكون هناك، في ذلك الوقت من الليل، لا قصص ولا تخيلات، وأنهما لن يمارسا الحب. وهو ما صار

يحدث لها بكثره في الفترة الأخيرة. فبدلاً من أن يخلقا قصصاً تهيجهما، صارا يتبادلان الحديث وكثيراً ما يستغرقان فيه طويلاً بحيث يأخذ الوقت بالانقضاء إلى أن يتغلب عليهما النعاس.

- أخشى ألا يكون الأمر مضحكاً وحسب - تراجعت هي نفسها عن كلامها بعد لحظة، وأبدت الجدّ من جديد -. فهذه المسألة تتخذ أبعاداً أكبر يا رينغوبيرتو. علينا أن نفعل شيئاً. لا أدرى ما هو، ولكن يجب أن نفعل شيئاً ما. لا يمكننا أن نشيخ بوجهينا وكأن شيئاً لا يحدث.

- أنا متأكد، الآن على الأقل، من أنها تخيلات، وهو أمر معهود لديه - فكر رينغوبيرتو -. ولكن، ما الذي يسعى إليه من هذه الحكايات؟ هذه الأمور ليست مجانية، بل لها خلفية، لها جذور في اللاوعي.

- إنني أراه أحياناً شديداً الصمت، فأمومت حزناً عليه يا حبي. أشعر أن الصغير يتذبذب بصمت فتنشطر روحه. لم يعد يروي لنا رؤاه، لأنه يعرف أننا لا نصدقها. وهذا يزيد الوضع سوءاً.

- يمكن أن تكون لديه رؤى، تهيبات - شرد دون رينغوبيرتو -. وهذا يحدث للناس الطبيعيين، المتيقظين منهم والبلهاء. ربما يظن أنه يرى ما لا يراه، يرى ما هو في ذهنه وحسب.

- أجل بالطبع، من المؤكد أنها اختلاقات - استخلصت دونيا لوكريثيا -. من المفترض أنه لا وجود للشيطان. أنا كنت أؤمن بوجوده حين تعرفت إليك يا رينغوبيرتو. كنت أؤمن بوجود رب والشيطان، مثلما تؤمن كل أسرة كاثوليكية عادية. أنت أقنعتني بأنها شعوذات، بلاهات أناس جهلة. وتبيّن الآن أن من لا وجود له قد دخل أسرتنا، ما رأيك.

أطلقت ضحكة عصبية أخرى وصمنت على الفور. رآها رينغوبيرتو هادئة وساحمة.

- من أجل أن أكون صريحاً معكِ، لا أدرى إن كان موجوداً أم لا - وافقها -. الشيءُ الوحيدُ الذي أنا متأكدُ منه الآن هو ما قلتهُ أنت. يمكن أن يكون موجوداً، هذا هو الحدُ الذي يمكنني الوصولُ إليه. ولكنني لا أستطيعُ تقبلُ أن يكون بيروياً، وأن اسمه إديليبيرتو توريس ويقضي وقته في التجول وراء تلاميذ مدرسة ماركهام. لا تزعجيَّني بهذا إذاً.

قلباً الأمر كثيراً، وأخيراً قرراً أن يأخذَا فونتشيتو إلى طبيب نفسيٍّ يقيِّم حالته. قاما بالتحري والاستفسار من أصدقائهما. وذكر لهما الجميعُ الدكتورة أغوسطا ديلميرَا ثيسبيديس. فقد درست في فرنسا، وهي متخصصةٌ بعلم النفسِ الظفري، ومن أوكلوا إليها أمر أبنائهما أو بناتهم الذين لديهم مشاكل، كانوا يتكلمون بأعاجيب عن علمها، وعن مهاراتها. خشياً أن يعارض فونتشيتو ذلك، واتخذَا ألف احتياطٍ كي يعرضَا عليه الموضوع بتروٍ. وكانت مفاجأتهما أن الصبي لم يبدِ أي اعتراض. وافق على لقائهما، وذهب عدة مرات إلى عيادتها، وقام بكل الاختبارات التي أخضعته لها الدكتورة ثيسبيديس وتحدث معها بأفضل ما في العالم من قابلية. ذهب ريفوبيرو ولوكريشيا إلى عيادتها، فاستقبلتهما الدكتورة بابتسامة مطمئنة. إنها مرأة تقارب الستين من العمر، ممتلئة بعض الشيء، رشيقَة، لطيفة ومحدثة ممتعة :

- فونتشيتو أكثر طفل طبيعي في العالم - أكدت لهما -. المحزن أنه فاتن إلى حدٍ كنت أرغبُ معه في أن أستبقيه تحت رعايتي لزید من الوقت. لقد كانت كل جلسة معه متعة بذاتها. إنه ذكي، حساس، ولهذا السبب بالذات يشعر في بعض الأحيان بأنه ناء عن أترابه. ولكنه بكل تأكيد طبيعي بصورة لا تحتمل المزید. وإذا كان هنالك أمر يجب عليكم أن تكونوا متأكدين منه بالكامل، فهو أن إديليبيرتو توريس ليس شيئاً، بل شخصٌ من عظم ولحم. واقعيٌ ومحددٌ بقدر ما أنتما وأنا

واعييون ومحددون. فونتشيتو لم يكذب عليكم. أجل، ربما يكون قد زين الأمور قليلاً. فمن أجل هذا تنفعه المخيلة الخصبة التي يمتلكها. وهو لم يأخذ تلك اللقاءات مع ذلك السيد قطّ على أنها رؤى سماوية أو شيطانية. أبداً، بالطلاق! يا للبلاهة. إنه طفل راسخ القدمين جيداً على الأرض، ورأسه مستقر تماماً في مكانه. أنتما من اختلقتما ذلك كله، ومن تحتاجان بالتالي لطبيب نفسي. هل أحدد لكم موعداً؟ أنا لا أعالج الأطفال فقط، بل البالغين أيضاً من يبدؤون في التفكير فجأة بأن الشيطان موجود وأنه يضيع وقته في التجول في شوارع ليما وبارانكو وميرافلوريس.

ووصلت الدكتورة ثيسبيديس مزاحها بينما هي ترافقهما حتى الباب. وعند الوداع طلبت من ريفوبيرتو أن يريها ذات يوم مجموعته من اللوحات الإيروتيكية. «لقد قال لي فونتشيتو إنها مجموعة رائعة»، وكانت هذه مزحتها الأخيرة. خرج ريفوبيرتو ولوكريثيا من العيادة غارقين في بحر من التشوش.

- قلتُ لكِ إن اللجوء إلى طبيب نفسي أمر شديد الخطورة - ذكرَ ريفوبيرتو ولوكريثيا -. لا أدرى في أية ساعة نحس استجبتُ لطلبك. يمكن للطبيب النفسي أن يكون أكثر خطراً من الشيطان نفسه، لقد عرفتُ ذلك مذ قرأت فرويد.

- لك ما تشاء إن كنت تريدأخذ هذه القضية على محمل المزاح، مثلما تفعل الدكتورة ثيسبيديس - دافعت لوكريثيا عن نفسها -. وأرجو ألا تندم على ذلك.

- أنا لا آخذ الأمر على محمل المزاح - أجابها، وكان يتكلم بجد الآن -. لقد كان من الأفضل الإيمان بأن إديلبيرتو توريس لا وجود له. أما إذا كان هذا الشخص موجوداً ويلاحق فونتشيتو، فأخبريني أية شياطين يمكننا أن نفعلها الآن.

لم يفعل شيئاً، وخلال وقت لا بأس به لم يعد الصبي إلى الحديث في الموضوع. واصل حياته العادمة، يذهب إلى المدرسة ويعود منها في الموعيد المعتادة، وينزوي في غرفته لساعة وفي بعض الأحيان لساعتين، في المساء، من أجل إنجاز واجباته الدراسية، ويخرج في عطلة نهاية الأسبوع أحياناً مع تشاتو بيثولو. وينذهب أيضاً في أحياناً أخرى، وإن يكن بدفع من دون ريفوبيرتو ودونيا لوكريثيا، مع فتية آخرين إلى السينما، أو إلى إستاد كرة القدم، أو للعب الكرة، أو إلى حفلة ما. ولكن ريفوبيرتو ولوكريثيا كانوا يتلقان في أحاديثهما الليلية على أن الصغير لم يعد هو نفسه، وإن كان يُظهر أنه في حالة طبيعية.

ما الذي تغير فيه؟ لم يكن من السهل قول ذلك، ولكنها متأكداً من أنه لم يعد هو نفسه. ومن أن التبدل الذي طرأ عليه عميق جداً. أهي مشكلة السن؟ ذلك التحول الصعب بين الطفولة والراهقة، حيث يتبدل صوته في الوقت نفسه، فيصبح خسناً، ويبدأ بالظهور في وجهه زغب يشي بلحية مستقبلية، ويأخذ الطفل بالإحساس بأنه لم يعد طفلاً، ولكنه لم يصبح رجلاً كذلك بعد، ويحاول، في طريقة لبسه وجلوسه وإيمائه وتكلمه مع أصدقائه ومع البنات، أن يبدو منذ الآن الرجل الذي سيصيره في ما بعد. يظهر عليه إيجازه في الحديث وكثرة تأمله، ويصير قليل الكلام في رده على الأسئلة، أثناء الجلوس إلى مائدة الطعام، حول المدرسة وأصدقائه.

- أنا أعرف ما بك أيها الصغير - تحدثه لوكريثيا ذات يوم - لقد وقعت في الحب! أليس كذلك يا فونتشيتتو؟ أتعجبك إحدى البنات؟  
ودون أن يبدو عليه أدنى قدر من تورد الخجل، نفى بحركة من رأسه.

- لا وقت لدى لهذه الأمور الآن - أجاب بمهابة، دون أي أثر من

السخرية – فقريباً سيحل موعد الامتحانات وأريد الحصول على نتائج  
جيدة.

– هكذا تعجبني يا فونتشيتو – أいで دون رينغوبيرتو – سيكون لديك في  
ما بعد متسع من الوقت من أجل البناء.  
وفجأة أشع الوجه الضارب إلى الحمرة بابتسامة وظهر في عيني  
فونتشيتو مكر الخبث في أزمنة أخرى.

– ثم إنك تعرفين أن المرأة الوحيدة التي تعجبني في الدنيا هي أنت  
يا خالتى.

– آى، رباه، دعني أقبلك يا صغيري – صفت دونيا لوكريثيا –  
ولكن ما الذي تعنيه هذه الأيدي يا زوجي؟  
– تعنى أنه عند الحديث عن الشيطان تتراجج، فجأة، مخيلتي  
وأشياء أخرى يا حبي.

واستمتعنا خلال بعض الوقت متخيلين أن دعابة الشيطان وفونتشيتو  
تلث قد انتقلت إلى الحياة الأخرى. ولكن لا، لم تكن قد انتقلت بعد.

## VII

حدث ذات مرة أن الرقيب ليتوما والنقيب سيلفا كانوا منكبين على المهمة بحواسهما الخمس - وقد تجاهل الثاني للحظات هوسه بمؤخرات نساء بيورا، وبالسيدة خوسيفيتا بصورة خاصة - يحاولان التوصل إلى طرف خيط يوجه تحقيقاتهما. فالعقيد ريوس باردو، الشهير بلقب راسكاتشوتشا، قائد شرطة المنطقة، عاد لتوبيخهما في العشية، وقد تحول كمن به مس شيطاني، لأن خبر تحدي فيليثيتو ياناكيه للمافياويبين في جريدة «القىيمبو» قد وصل إلى ليما. واتصل به وزير الداخلية شخصياً ليطالبه بأن تُحل تلك القضية فوراً. فالصحافة وسعت أصواء المسألة ولم تعد الشرطة وحدها، بل الحكومة نفسها، بدت في وضع مضحك أمام الرأي العام. وصار إلقاء القبض على المبتزدين والقيام بإجراء عقابي كبير هو شعار المراجع القيادية !

- علينا أن نستعيد سمعة الشرطة، يا للعنة - زاجر راسكاتشوتشا من وراء شاربه الضخم، بعينين كالجمر - لا يمكن السماح لبعض الأوغاد أن يسخروا منا بهذه الطريقة. عليكم أن تقبضا عليهم في الحال وإلا ستندمان طوال ما تبقى من مسيرتكم الشرطية؛ أقسم لكم بالقديس مارتين شفيع الكلاب وبالرب.

تفحص ليتوما والنقيب سيلفا بتمعن أقوال جميع الشهود، أعدا بطاقات بيانات، وقاما بمقارنات، وقاطعا معلومات، واستعرضوا

فرضيات واستبعادها واحدة بعد أخرى. وحين كانا يتوقفان بين حين وآخر لالتقاط أنفاسهما، اعتاد النقيب أن يطلق صرخات إطاء، مشحونة بحمى جنسية، لتكورات السيدة خوسيفيتا التي أغرم بها. وبجدية كبيرة وإيماءات معقدة، كان يشرح لرؤوسه أن تينك الإليتين ليسا كبارتين ومكورتين ونصفي كرتين وحسب، بل إنهم «تهتزان نافرتين عند الشيء»، وهو أمر يدفع قلبه وخصيته في آن واحد. ولهذا، يؤكد، «على الرغم من سنوات عمرها، ووجهها المغطى بالنقش، وساقيها الملتويتين بعض الشيء، فإن خوسيفيتا هي أنشى فاخرة بكل معنى الكلمة».

- وإذا ما اضطررتني إلى إجراء مقارنات يا ليتوما، فإني أعتبرها أكثر متعة في المضاجعة من مابيل الوفيرة - حدد وعيناه تقفزان من محجريهما كما لو أنه يقف إزاء مؤخرتي السيدتين وبروزهما - أتعرفُ أن لعشيقه دون فيليثيتو جسداً بدرياً، وتهديدن حربيين وساقيين وذراعين مسکوبة وممتلة، غير أن مؤخرتها، ولا بد أنك لاحظت ذلك، لا تفي بالرغبة. ليست ملموسة جداً، غير مكتملة تماماً، لم تتفتح، كما لو أنها قد ضمرت في لحظة ما. فمؤخرتها وفق نظامي التصنيفي مؤخرة خجولة، أظنك تفهمي.

- لماذا لا تركز على التحريرات أكثر يا نقبي - طلب منه ليتوما - لقد رأيتَ كم هو غاضب العقيد ريوس باردو. وإذا ما ظللنا على هذا الإيقاع، فإننا لن نخرج أبداً من هذه القضية، ولن نترفع في رتبينا.

- لقد تمكنتُ من ملاحظة أنك لا تبدي أي اهتمام بمؤخرات النساء يا ليتوما - أصدر النقيب حكمة متاثراً، ومبدياً وجهاً مكتبراً. ولكنه ابتسم على الفور ومرّ بلسانه على شفتيه مثل هر - هذا الأمر يعتبر خللاً في تكوينك الرجولي، أؤكد لك. فالمؤخرة الجيدة هي الجزء الأكثر

اللوهية مما وضعه الرب في أجساد الإناث من أجل إسعاد الذكور. حتى الكتاب المقدس يعترف بذلك كما قيل لي.

- إنني أهتم طبعاً يا نقيبي. ولكن ما لدى حضرتك ليس اهتماماً فقط، بل هوس وإدمان، وأقول هذا مع كل الاحترام. فلنعد إلى العناكب دفعة واحدة وننسى ما سواها.

أمضيا ساعات عدة في قراءة وإعادة قراءة رسائل المبتهرين ورسومها، وتحصصها كلمة وحراً حرفاً، والتمعن في قوائم العناكب قائمة قائمة. كانا قد طلبا من المكتب المركزي فحصاً لخطوط الرسائل المغفلة، ولكن الاختصاصي بذلك كان في المستشفى، حيث أجريت له عملية بواسير، ولديه إجازة لمدة أسبوعين. وفي أحد تلك الأيام، بينما هما مستغرقان في مقارنة رسائل مع تفاصيل وكتابات مجرمين لهم ملفات في النيابة العامة، بُرِزَ فجأة في رأس ليتوانا ذلك الشك، مثل وميض شرارة في الظلام. إنها ذكرى قديمة، تداعي أفكار. وقد لاحظ النقيب سيلفا أن شيئاً يحدث لمساعده.

- لقد بدت فجأة كمن به خبل. ما الذي حدث يا ليتواما؟

- لا شيء، لا شيء يا سيدي النقيب - هز الرقيب كتفيه -. مجرد بلاهة. لقد تذكرت للتو شخصاً كنت أعرفه. وكان يرسم عناكب طيلة الوقت، إن لم تخني الذاكرة. إنها مجرد بلاهة بالتأكيد.

- بالتأكيد - كرر النقيب وهو يتحصل على قرب وجهه منه وبذل نبرة صوته -. ولكن، بما أنه لا يوجد لدينا أي شيء، فإن وجود بلاهة أفضل من لا شيء. ومن هو ذلك الشخص؟ هيا، أخبرني.

- إنها قصة قديمة جداً يا نقيبي - لاحظ المفوض أن صوت معاونه وعينيه قد امتلاكاً بالقلق، كما لو أن النبض في تلك الذكري يزعجه، مع أنه لا يستطيع تجنب ذلك - وليس لذلك الشخص أية علاقة بقضيتنا هذه

على ما أتخيل. ولكنني أتذكر جيداً أن ابن العاهرة ذاك كان يرسم دوماً خربشات يمكن لها أن تكون عناكب. كان يرسمها على أوراق، على جرائد. وحتى على أرضية الحانات البائسة أحياناً، باستخدام عود. - ومن كان ابن العاهرة ذاك يا ليتوما؟ أخبرني دفعة واحدة ولا تزعجي بكثرة اللف والدوران.

- هلم بنا لتناول عصيراً ولنخرج قليلاً من هذا الفرن يا نقيببي - اقترح عليه الرقيب -. إنها قصة طويلة، سأرويها لك إن كنت لا تمل... ولا تقلق، فسوف أدفع أنا ثمن العصير.

ذهبنا إلى درَّة تشيرا، وهو بار صغير في شارع ليبرتاد، محاذٍ لقطعة أرض خلاء، قال ليتوما لرئيسه معلقاً بأن قطعة الأرض تلك كانت في شبابه ميدان مصارعة ديوك، تجري فيها مراهقات بمبالغ كبيرة. وكان هو نفسه يأتي إليها أحياناً، مع أنه لا يحب مصارعات الديوك، وتحزنه رؤية كيف تمزق تلك الحيوانات المسكينة بعضها بعضاً، بمناقيرها وبالشرفات المثبتة بقوائمها. لم يكن هناك في الحانة مكيف هواء، ولكن المراوح كانت تُبرد المحل. وكان مقرراً من الزبائن. طلباً كأسين من عصير اللوكموا مع كثير من الثلج وأشعلا سيجارتين.

- ابن العاهرة ذاك كان يدعى خوسيفينو روخاس، وهو ابن كارلوس روخاس، صاحب الزورق الذي كان يأتي قدیماً بالمواشي من المزارع إلى منطقة المسلح، عبر النهر، في شهور الفيضان -. قال ليتوما -. تعرَّفت عليه حين كنت صبياً تقريباً. كانت لنا عصبتنا. وكنا نحب العربدة، والجيارات، والبيرة، والنساء. وقد عَمِدْنا أحدهم، أو نحن عَمِدْنا أنفسنا، باسم «المنيعون». ووضعنا نشيدنا الخاص. وبصوت خافت ومجرح، غنى ليتوما متربناً وباسماً:

## نحن المنبعون

من لا نحب العمل؛

الشرب فقط!

المضاجعة فقط!

اللواط فقط!

احتفى به التقىب مطلقاً قهقهة ومصفقاً :

- جيد يا ليتوما. أي إنه كان ينتصب معك على الأقل وأنت شاب صغير.

- لقد كنا ثلاثة منْ شكلنا فريق المنبعين في البدء - واصل الرقيب بنوستالجيا وهو مستترق في ذكرياته - ابنا عمي، الأخوين ليون - خوسيه والمونو - وخدمتك. ثلاثة مانغاتشيين. ولا أدرى كيف انضم إلينا خوسيفينو. فهو لم يكن من حي مانغاتشيريا وإنما من حي غاييناثيرا، هناك حيث كان يقوم السوق القديم، ومنطقة المسلح. لستُ أدرى لماذا أدخلناه في الجماعة. فقد كانت بين الحيين آنذاك خصومة رهيبة، مع لكمات وضربات سكاكين. أقول لك إنها حرب أسالت الكثير من الدماء في بيورا.

- يا للعنة، إنك تكلمني بما قبل التاريخ في هذه المدينة - قال التقىب -. أعرف جداً أين كان حي لamanгатшерия، إنه هناك إلى الشمال، أسفل جادة سانتشيث سيرو، عند مقبرة سان تيودورو القديمة. ولكن ماذا عن حي غاييناثيرا؟

- هناك بالذات، قريباً جداً من ساحة السلاح، على ضفة النهر، باتجاه الجنوب - قال ليتوما مشيراً - كان يدعى غاييناثيرا بسبب أعداد نسور الرخمة التي يجتذبها المسلح، عند ذبح الماشية. وقد كنا نحن المانغاتشيين من أنصار سانتشيث سيرو وكان الغاييناثيين من أنصار حزب

الأبرا. وابن العاهرة خوسيفينو كان غايبيناثي وكان يقول إنه كان صبي جزار متدرّب في صغره.

- كنتم عصابات حينذاك إذاً.

- رعاع وحسب يا نقبي. نقوم بشيطنات فقط، دون أي شيء جدي. نوجه لكمات، ولا نتجاوز إلى ما أكثر من ذلك. أما خوسيفينو فتحول في ما بعد إلى قواد. يغوي فتيات ويدخلهن للدعارة في «البيت الأخضر»، وكان هذا هو اسم الماخور، عند مخرج المدينة في الطريق إلى كاناكاوس، حين لم يكن حي كاستيا يسمى كاستيا بعد وإنما تاكالا. هل تعرفت إلى ذلك الماخور؟ لقد كان مشهوراً.

- لا، ولكنني سمعت الكثير عن «البيت الأخضر» المشهور. إنه أسطورة قائمة بذاتها في بيورا. أي إن خوسيفينو صار قواداً. فهو من كان يرسم العناكب؟

- هو نفسه يا نقبي. أظن أنها كانت عناكب، ربما تخني الذاكرة. لستُ متأكداً تماماً.

- ولماذا تكره ذلك القواد إلى هذا الحد يا ليتوما إن كان يمكن لي أن أعرف؟

- لأسباب كثيرة - عبس وجه الرقيب الخشن، واحتقت عيناه من الغضب. كان قد بدأ بارتشاف العصير الكثيف بسرعة كبيرة -. السبب الأساسي ما فعله بي عندما كنت مسجونة. وحضرتك تعرف هذه القصة، فقد سجنوني لأنني كنت ألعب الروليت الروسي مع ملّاك من هنا. في «البيت الأخضر» بالتحديد. وهو أبيض سكير يكنى سيميناري، وقد فجر دماغه أثناء اللعب. واستغل خوسيفينو وجودي في السجن، فاستولى على أنشائي وأدخلها كعاهرة تعمل من أجله في «البيت الأخضر». كان اسمها بونيفاثيا. جئت بها من أتو مارانيون، التابعة

لسانتا مارتا دي نيفيفي في منطقة الأمازون. وعندما صارت فتاة متعة، أطلقوا عليها اسم سيلفاتيكا.

- آه، حسن، لديك ما يكفي من الأسباب لتكرهه - وافق النقيب وهو يهز رأسه -. هذا يعني أنه كان لك ماضٌ متكاملٌ يا ليتوما. لا يمكن لأحد أن يصدق ذلك حين يراك الآن وديعاً هكذا. تبدو كمن لم يقتل ذبابٍ في حياته قط. الحقيقة أنسني لا أستطيع أن أتصورك تلعب الروليت الروسي. أنا لعبتها مرة واحدة، مع زميلٍ لي، في ليلة شراب. ومازالت حتى الآنأشعر بعظامي تتجمد حين أتذكر ذلك. ولماذا لم تقتل خوسيفينو ذاك، إن كان ممكناً لي أن أعرف؟

- ليس بسبب انعدام الرغبة، وإنما كيلاً أذهب إلى السجن مرة أخرى - أوضح الرقيب باقتضاب -. لكنني أوسعته ضرباً إلى حد لا بد معه أن بدنـه ما زال يتوجع حتى الآن. إنني أكلمك عن أمر مضى عليه عشرون عاماً على الأقل يا نقبي.

- أأنت متأكد من أن ذلك القواد كان يقضي الوقت في رسم عناكب صغيرة؟

- لا أدرى إن كانت عناكب - صحق ليتوماً مرة أخرى -. ولكنـه كان يرسم، أـجل، طيلة الوقت. على مناديل ورقية، على قطعة الورق التي توضع أمامـه. كانت تلك هي نزواتـه. ربما لا تكون لها أـية علاقة بما نبحث عنه.

- فـكـرـ وحاولـ أن تـتـذـكـرـ يا ليـتـومـاـ. رـكـزـ، أـغمـضـ عـيـنـيكـ وـعـدـ بالـذـكـرىـ إلىـ الـورـاءـ. أـهـيـ عـنـاكـبـ مـثـلـ العـنـاكـبـ التـيـ يـرـسـلـونـهاـ إـلـىـ فـيـلـيـثـيـتوـ يـانـاكـيـهـ؟

- ذـاكـرـتـيـ لـاـ تـقـدـمـ المـزـيدـ يـاـ نـقـيـبـيـ - اـعـتـذـرـ لـيـتـومـاـ - إـنـيـ أـحـدـثـكـ عـنـ أـمـرـ مـضـتـ عـلـيـهـ سـنـوـاتـ طـوـيـلـةـ، وـقـدـ قـلـتـ لـكـ إـنـهـ عـشـرـونـ عـامـاـ، وـرـبـماـ

أكثر. لست أدرى لماذا خطر لي هذا الربط. من الأفضل نسيان الأمر.  
- أتعرف ما الذي حلّ بالقود خوسيفينو؟ ألح النقيب. وقد بدت عليه ملامح الاهتمام ولم يكن يرفع بصره عن الرقيب.

- لم أره بعد ذلك قط، مثلما لم أعد إلى رؤية المنيعين الآخرين، ابني عمي. فمنذ أن أعادوا قبولي في سلك الشرطة، خدمتُ في سلسلة الجبال، وفي الأدغال، وفي ليما. يمكن القول إنني جُلت في كل أنحاء البيرو. ولم أعد إلى بيورا إلا منذ وقت قصير. ولهذا أقول لك إنه من المحتمل ألا يكون ما خطر لي سوى مجرد بلاهة. ولست متأكداً، كما قلت لك، من أنها كانت عناكب. لقد كان يرسم شيئاً، أجل. وكان يفعل ذلك دوماً وكنا نحن في فريق المنيعين نسخر منه.

- إذا كان القواد خوسيفينو لا يزال حياً فإنني أرغب في التعرف إليه  
- قال المفوض وهو يضرب على المنضدة -. تحرى عنه يا ليتوما. لست أدرى السبب، ولكنني أشم رائحة ما. ربما تكون قد عضضنا قطعة لحم. وهي طرية وذات عصارة. أشعر بذلك في لعابي، في دمي وفي خصتي. أنا لا أخطئ في هذه الأمور. إنني أرى بصيص نور في عمق النفق. حسن يا ليتوما.

كان النقيب سعيداً إلى حدّ ندم معه الرقيب لأنّه أخبره بذلك الخاطر الذي باغته. هل صحيح أن خوسيفينو، في أزمنة المنيعين، كان يرسم دون توقف؟ لم يعد متأكداً جداً من ذلك. وفي هذه الليلة، بعد خروجه من الخدمة، ذهب كالعادة ماشياً في جادة غراو صعوداً باتجاه النزل الذي يعيش فيه، في حي بوينس آيريس، بالقرب من ثكنة غراو؛ وأجهد ذاكرته في محاولة للتأكد من أنها لم تكن ذكرى زائفة. كانت تعود إلى ذاكرته، في موجات متدفقة، صورٌ من سنوات الشباب المبكر تلك، في شوارع حي مانغاتشيرايا الترابية، حين كان يذهب مع المونو

وخصوصيه إلى الرملة الملائقة للمدينة، لينصبوا أفخاخاً للسلاحف عند جذوع أشجار الخروب، ولصيد العصافير بمقلاع يصنعونه بأنفسهم، أو الاختباء بين آجام الرملة وكثبانها ليتلخصوا على الغسالات الالتي يتتوغلن عند مصب المجرى في النهر حتى خصورهن لغسل الملابس. فتشف ثيابهن عن صدروهن أحياناً، وتتأجج عيون الفتىـان وفتحات سراويلـهن بالإثارة. كيف انضم خوسيفـينـو إلى الجمـاعة؟ لم يعد يتذكر متى حدث ذلك أو سببه. لقد انضم إليـهم على كل حال بعدما لم يعودوا صبية صغاراً. لأنـهم كانوا يذهبـون آنذاـك إلى الحانـات، وينفقـون فيها السـولات القـليلـة التي يـكسبـونـها من الـقيـام بأـعـمال آـنـية عـابـرة، مثل بـيع بطـاقـات مـراـهـنـات سـبـاقـات الـخـيلـ، في دور القـمارـ والـعـربـدةـ والـسـكرـ. ربـعاـ لم تـكنـ عـناـكـبـ، ولكنـ خـوسـيفـينـوـ كانـ يـرسـمـ، أـجلـ، ويـفـعلـ ذـلـكـ فيـ كـلـ وـقـتـ. إنهـ يـتـذـكـرـ الـأـمـرـ بـوـضـوحـ. كانـ يـفـعلـ ذـلـكـ بـيـنـماـ هوـ يـتـحدـثـ أوـ يـغـنـيـ، وـحـينـ يـسـتـغـرـقـ فيـ التـفـكـيرـ بـأـلـعـبـيـهـ الـخـبـيـثـةـ مـنـعـزـلـاـ عـنـ بـقـيـةـ الـجـمـاعـةـ. لـيـسـ ذـكـرـيـ زـائـفـةـ، رـبـماـ كانـ يـرسـمـ ضـفـادـ، أوـ ثـعـابـينـ، أوـ فـراـخـ. دـاهـمـتـهـ الشـكـوكـ. وـبـدـاـ لـهـ فـجـأـةـ أـنـ تـلـكـ الرـسـومـ كـانـتـ صـلـبـانـاـ وـدـوـائـرـ فيـ لـعـبـةـ الـقـطـ، أـوـ أـنـهـ رـسـومـ كـارـيـكـاتـيرـيـةـ لـلـنـاسـ الـذـينـ يـرـونـهـمـ فيـ بـارـ لـاتـشـونـغـاـ، أـحـدـ أـمـكـنـتـهـ الـمـحـبـبـةـ. لـاتـشـونـغـاـ التـشـوـنـغـيـتـاـ! هـلـ مـازـالـتـ مـوـجـودـةـ؟ مـسـتـحـيلـ. إـذـاـ كـانـتـ لـاـ تـزالـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ، فـلـاـ بـدـ أـنـهـ صـارـتـ عـجـوزـاـ إـلـىـ حـدـ لـاـ يـمـكـنـهـ مـعـهـ إـدـارـةـ شـؤـونـ بـارـ. وـلـكـنـ مـنـ يـدـريـ. فـقـدـ كـانـتـ اـمـرـأـ لـهـ شـعـرـ فيـ صـدـرـهـ، لـاـ تـخـشـىـ أـحـدـاـ، تـوـاجـهـ الـمـخـمـورـينـ مـوـاجـهـةـ الـنـدـ لـلـنـدـ. وـذـاتـ مـرـةـ أـوـقـفـتـ خـوسـيفـينـوـ نـفـسـهـ عـنـ حـدـهـ حـينـ أـرـادـ أـنـ يـبـدـوـ مـرـحـاـ مـعـهـ.

الـمـنـيـعـونـ! لـاتـشـونـغـاـ! يـاـ لـلـعـنـةـ كـيـفـ يـمـضـيـ الزـمـنـ بـسـرـعـةـ. رـبـماـ يـكـونـ الـأـخـوـانـ لـيـونـ وـخـوسـيفـينـوـ وـبـوـنيـفـاثـياـ قـدـ مـاتـوـاـ جـمـيـعـهـمـ وـدـفـنـوـاـ وـلـمـ يـبـقـ

منهم سوى الذكرى. يا للحزن.

كان يمشي في شبه ظلمة لأن أنوار الإضاءة العامة، بعد تجاوز نادي غراو والدخول في حي بوبينس آيرس السكني، تصبح متباعدة وشحيحة. كان يمضي ببطء، متعرضاً بحفر في الإسفلت، بين بيوت، بعد أن كانت ذات حدائق وطابقين، أخذت تتحول إلى أقل انخفاضاً وأكثر بؤساً. ومع اقترابه من نزله، صارت البيوت تتحول إلى أكواخ، وأبنية فجة، جدرانها من الطين وأغصان الخرب وسقوفها من صفيح، تتوزع على جوانب شارع بلا أرصفة، وتکاد لا تمر منها سيارات.

لدى عودته إلى بيورا، بعد أن خدم سنوات طويلة في ليما وفي سلسلة الجبال، استقر في غرفة في حي العسكريين السكني، حيث للشرطيين الحق بالإقامة، مثلهم مثل العسكريين. ولكن ذلك الاختلاط مع رفاق السلاح لم يرق له. إذ أحس كما لو أنه يستمر في الخدمة، يرى الأشخاص أنفسهم ويتحدث في الأمور نفسها. لهذا انتقل بعد ستة أشهر إلى بيت آل كالانتشي الذين يملكون خمس غرف للفزلاء. المكان متواضع، وحجرة ليتماما ضيقة جداً، ولكنه يدفع قليلاً ويشعر هناك بأنه أكثر استقلالية. كان الزوجان كالانتشي يشاهدان التلفاز عند وصوله. لقد كان رب البيت معلماً وزوجته موظفة بلدية. وهما متقادمان منذ زمن. وكانت أجرة النزل تتضمن الفطور فقط، ولكن يمكن للزوجين كالانتشي، إذا رغب المستأجر، أن يأتياه بالغداء أو العشاء من مطعم صغير مجاور، وهي وجبات طبيعية مغذية جداً. سألهما الرقيب عما إذا كانوا يتذكران، بالصدفة، باراً صغيراً بالقرب من الستاد القديم تديره امرأة مسترجلة بعض الشيء تدعى، أو يلقبونها، لاتشونغا. نظراً إليه بحيرة وهم يهزان رأسيهما.

ظل تلك الليلة مؤرقاً لوقت طويل، وبشيء من الضيق في بدنـه.

ملعونه الساعة التي خطر له فيها التحدث إلى النقيب سيلفا عن خوسيفينو. إنه متأكد الآن من أن ذلك القواد لم يكن يرسم عناكب، وإنما كان يرسم شيئاً آخر. تقليل ذلك الماضي يُشعره بالضيق. يحزنه أن يتذكر شبابه، وسنوات العمر التي بلغها – إنه يقارب الخمسين –، وكم كانت حياته متوحدة، والنكبات التي حلت به، وحمامة الروليت الروسي تلك مع سيميناريو، وسنوات السجن، وقصة بونيفاثيا التي ما إن ترد إلى ذهنه حتى تملأ فمه بطعنة المراة.

نام أخيراً، ولكن بصورة سيئة، مع كوابيس خلّفت لديه بعد الاستيقاظ صوراً مشروخة ومرعبة. اغتسل، تناول فطوراً، وقبل السابعة خرج إلى الشارع متوجهاً إلى المكان الذي تفترض ذاكرته أن بار لاتشونغا كان قائماً فيه. لم يكن من السهل عليه التوجه. فتلك الأمكنة، في ذاكرته، كانت خارج المدينة، أكواخ متفرقة من الطين والقصب تتنصب على الرمال. ولكن هنالك الآن شوارع، وإسمنتاً، وبيوتاً من مواد بناء ثمينة، ومصابيح إنارة كهربائية، وأرصفة، وسيارات، ومدارس، ومحطات وقود، ومحلات تجارية. يا للتبديلات! الحي البائس القديم صار جزءاً من المدينة الآن ولا يشبه ذكرياته بأي حال. محاولاته مع الجيران – كان يقترب لسؤال أشخاص كبار في السن فقط – لم تفده في شيء. لا أحد يتذكر البار الصغير أو لاتشونغا، وأناس كثيرون هناك ليسوا من بيورا في الأصل وإنما ممن نزلوا إليها من سلسلة الجبال. راوده إحساس فظ بأن ذاكرته تكذب عليه، وأنه لا شيء مما يتذكره كان موجوداً قط، إنها مجرد تخيلات وقد كانت كذلك على الدوام، محض نتاج من مخيالته. أرعبه التفكير في ذلك.

عند الضحى كره مواصلة البحث ورجع إلى مركز بيورا. وقبل أن يعود إلى المفوضية، تناول شراباً غازياً عند الناصية، وكان يشعر بحر

شديد. كانت الشوارع قد امتلأ بالضجيج والسيارات والحافلات، وبتلاميد بالزي المدرسي. باعة يانصيب وترهات رخيصة ينادون على بضائعهم صارخين، أناس متعرقون ومتعجلون يملؤون الأرصفة. عندئذ أعادت إليه الذاكرة اسم ورقم الشارع الذي كان يعيش فيه ابنها العم ليون: شارع موربون، الرقم 17. في قلب مانغاتشيريا بالضبط. أغمض عينيه ورأى الواجهة حائلة اللون للبيت المؤلف من طابق واحد، والنواخذ ذات القسبان الحديدية، وأحسن الزهور الشمعية، والراية البيضاء التي تشير إلى أن بيرة تشيتشا باردة تباع هناك.

ركب موتوكسي حتى جادة سانتتشيث سيرُو، وبينما هو يشعر بقطرات العرق تسيل على وجهه وتبلل ظهره، توغل ماشياً في متاهة الشوارع والأزقة والمنحدرات، والأراضي الخلاء التي كانت عليها مانغاتشيريا، ذلك الحي الذي يقال إنه يسمى هكذا لأن من كانوا يسكنونه في العهد الاستعماري هم من العبيد الملايين المستوردين من مدغشقر. لقد تبدل كل ما في ذلك الحي أيضاً من أشكال وأناس ونسيج عماري وألوان. فالدروب الترابية صارت إسفلتية، والبيوت صارت من آجر وإسمنت، وهناك بعض العمارت، وإنارة عامة، ولم تبق ولو حانة تشيتشاريا أو مقمرة واحدة في الشارع، وإنما كلاب متشردة فقط. لقد صارت الفوضى منظمة، شارع مستقيمة ومتوازية. لم يعد هناك ما يشبه ذكرياته المانغاتشية. لقد صار الحي محشماً، وتحول إلى حي تافه وبلا هوية. غير أن شارع موربون موجود وكذلك الرقم 17 فيه، ولكنه بدل أن يجد بيت ابني عمه، وجد هناك ورشة ميكانيك كبيرة، وعليها إعلان يقول: «نبيع قطع غيار لكافة ماركات السيارات والشاحنات والحافلات». دخل إلى المحل الفسيح والقائم العاقد برائحة الزيوت، ورأى هيكل سيارات ومحركات نصف مفككة، وسمع ضجة

معدات لحام ولح ثلاثة أو أربعة عاملين يرتدون أفرهولات زرقاء، وينحنون على آلياتهم. وكانت تنبعث، من مذيع، موسيقى غابية، موسيقى أغنية «لاكونتامانينا». دخل إلى مكتب تئز فيه مروحة. وكانت هناك امرأة شابة تجلس قبالة جهاز كمبيوتر.

- مرحباً - قال ليتوما وهو يخلع قبعته الشرطية.

- بماذا يمكنني خدمتك؟ كانت تنظر إليه بذلك القلق الخفيف الذي ينظر به الناس إلى الشرطيين عادة.

- إنني أقوم بتحريات عن أسرة كانت تعيش هنا - أوضح لها ليتوماً مشيراً إلى المحل -. حين لم يكن هذا المكان ورشة وإنما بيت أسرة. وكان لقبهم آل ليون.

- حسب ما أتذكر، هذا المكان كان ورشة ميكانيك منذ البدء. قالت الفتاة.

- حضرتك ما تزالين فتية جداً، ولا يمكنك أن تتذكرني - رد عليها ليتوماً - ولكن ربما يعرف صاحب المحل شيئاً ما.

- يمكنك انتظاره إذا شئت - أشارت له الفتاة إلى كرسي. وفجأة، أضيء وجهها: - آyi، كم أنا بلهاء. طبعاً! صاحب الورشة نفسه يدعى ليون. دون خوسيه ليون. وربما بإمكانه مساعدتك.

تهاوى ليتوما على الكرسي. كان قلبه ينبض بقوة. دون خوسيه ليون. يا للعنة. إنه هو، ابن عمه خوسيه. يجب أن يكون أحد المنبيعين. ومن يمكن أن يكون غيره.

تحول إلى جمرة سيجار متقدة وهو ينتظر. بدت له الدقائق لانهائية. وعندما ظهر المنبع خوسيه ليون في الورشة أخيراً، وعلى الرغم من أنه تحول الآن إلى رجل مربع وذي كرش، مع لطخات شب في شعره الخفيف، ويلبس مثل رجل أبيض، ستة وقميصاً بيافة وحذاء

ملمعاً كمرآة، فقد تعرّف عليه فوراً. نهض واقفاً بانفعال، وفتح ذراعيه. لم يتعرف عليه خوسيه وتحصصه مقرباً وجهه منه كثيراً باستغراب. - أرى أنك لم تعرف من أنا يا ابن العم - قال ليتوما - هل التغير كبير إلى هذا الحد؟

وسعّت ابتسامة كبيرة وجه خوسيه. - لا أستطيع أن أصدق! - هتف وهو يفتح ذراعيه أيضاً - ليتوما! أي مفاجأة يا أخي. بعد كل هذه السنوات، تشي غنوا. تعانقا، تبادلا الترتيبت، أمام أعين الوظفة والعاملين المتقاضين. تفحص كل منهما الآخر مبتسمين وسعیدين.

- أديك متسع من الوقت لتناول فنجان قهوة؟ - سأله ليتوما - أم تفضل أن نلتقي في وقت متأخر أو في الغد؟ - سأنهي أمراً أو اثنين ثم نذهب للتذكر أزمنة المنبعين - قال خوسيه وهو يربت على كتفه مرة أخرى - اجلس يا ليتوما. سأنتهي بسرعة. يا للروعة يا أخي.

عاد ليتوما للجلوس على الكرسي، ومن هناك رأى ليون يراجع أوراقاً على المكتب، ويتحقق شيئاً في بعض السجلات مع السكرتيرة، ويخرج من المكتب ليقوم بجولة على الورشة مراقباً عمل الميكانيكيين. لاحظ ليتوما كم هو واثق من نفسه حين يصدر الأوامر، ويتلقي تحيات العاملين؛ والطلاقة التي يوجه بها التعليمات أو يعطي حلولاً للاستفسارات. وفكرا: «من يتخيلك ومن يراك يا ابن العم». كان يجد مشقة في التعرف على خوسيه رث الثياب في شبابه، يركض حافياً بين الماعز والحمير في لامانغاتشيريا، وقد صار أبيض ومالك ورشة ميكانيك كبيرة يلبس بدلة وحذاء حفلات في منتصف النهار. خرجا معاً، وليتوما يمسك بذراع خوسيه، إلى كافيتريا - مطعم اسمه

«بيورا الجميلة». قال ابن عمه إنه يجب الاحتفال بهذا اللقاء وطلب بيارة. شربا نخب الأزمنة الماضية وظلا لبعض الوقت يقارنان بحنين ذكرياتهما المشتركة. لقد كان المونو شريكاً لخوسيه في الورشة عندما فتحها هذا الأخير. ولكنهما اختلفا في ما بعد وابتعد المونو عن المحل، إلا أن الأخرين ظلا متهددين على الدوام ويلتقيان بكثرة. المونو متزوج وله ثلاثة أبناء. عمل بعض سنوات في البلدية، وأقام بعد ذلك معمل آجر. عمله يعشي على ما يرام، تتصل به عدة شركات بناء في بيورا، ولا سيما الآن، في مرحلة البقرات السمان هذه التي بدأت تُشيد فيها أحياe جديدة. فجميع أهالي بيورا يحلمون بامتلاك بيت خاص، والرائع أن رياحاً جديداً بدأ تهب. ولا يمكن لخوسيه أن يتذمر. لقد كان العمل صعباً في البدء، وكانت هناك منافسة كبيرة، ولكن نوعية الخدمة راحت تفرض نفسها شيئاً فشيئاً، والآن، من دون تبجح، صارت ورشته واحدة من أفضل الورش في المدينة. ولديه فائض من العمل والحمد لله.

- هذا يعني أنك أنت والمونو لم تعودا منيعين ومانغاشيين، وتحولتما إلى أبيضين وغبنيين - مازحه ليتوما -. أنا وحدي من لا زلتُ فقيراً يستحق الشفقة، وسأظل شرطياً إلى أبد الآدبين.

- منذ متى أنت هنا يا ليتوما؟ لماذا لم تبحث عنِي من قبل؟ كذب عليه الرقيب بالقول إنه هنا منذ وقت قصير، وإن التحريرات التي قام بها عنه لعرفة أين صار لم تؤد إلى نتيجة، إلى أن خطط له المجيء والقيام بجولة في الأحياء القديمة. وهكذا وصل إلى الرقم 17 في شارع موربون. لم يتخيل قط أن تلك الرملة ذات الأكواخ البائسة قد تحولت إلى هذا الذي هي عليه الآن. مع وجود ورشة ميكانيك تُرفع لها القبة!

- الأزمنة تتغير، ولحسن الحظ أنها تتغير إلى الأفضل - وافقه خوسيه - هذه فترة جيدة لبيورا وللبيرو بأسرها يا ابن العم. أرجو أن تدوم... فلنمسّ الخشب.

لقد تزوج من فتاة من مدينة تروخيبيو، لكن الزواج كان كارثة. فقد كانا مثل القط والفار، وانتهيا إلى الطلاق. لهما ابنتان، تعيشان مع أمهما في تروخيبيو. ويذهب خوسيه لزيارتھما بين وقت وآخر، وتأتيان لقضاء العطلات الدراسية معه. إنھما في الجامعة، الكبيرة تدرس طب الأسنان والصغرى تدرس الصيدلة.

- أهنتك يا بن العم. ستكونان مهنيتين كلتھما، يا لحسن الحظ. وعندما كان ليتوما يستعد لأن يتطرق في الحديث إلى اسم القواد، سبقة خوسيه، كما لو أنه قرأ أفكاره:

- هل تتذكر خوسيفينو يا بن العم؟

- كيف يمكن لي أن أنسى ملعون الأم ذاك. تنهى ليتوما، وبعد وقفة صمت طويلة، كمن يود قول شيء، سأله: ماذا جرى له؟  
هز خوسيه كتفيه وقام بتکشیره ازدراه.

- منذ سنوات لا أعرف شيئاً عنه. لقد انغمس في الحياة الخبيثة كما تعلم. يعيش على استغلال النساء، لديه مومسات يعملن لحسابه. وقد راح يزداد خبثاً. أنا والمونو ابتعدنا عنه. يأتي بين حين وآخر ليقترض منا نقوداً، ويروي لنا حكاية أمراضه والدائنين الذين يهددونه. بل إنه تورط في قضية قبيحة، بشأن جريمة قتل. اتهموه بالتواطؤ والتستر على الجريمة. ليس من المستغرب أن يظهر ذات يوم مقتولاً في أحد تلك الأمكنة سيئة السمعة التي تروق له كثيراً. ومن يدري، ربما هو يتعرّف الآن في السجن.

- معك حق، فقد كانت الشروع تجذبه مثلما يجذب العسل الذباب

- قال ليتوما - لقد ولد ذلك الداعر ليكون مجرماً. لا أجد تفسيراً لاجتماعنا معه يا بن العم. لاسيما وأنه غاييناثو، بينما نحن مانغاتشيون.

وفي تلك اللحظة، كان ليتوما ينظر مصادفة إلى حركة يدي ابن عمه على المنضدة، فانتبه إلى أن خوسيه يُحدث بظفر إبهامه خطوطاً على السطح الخشن المعتلى بكتابات وبقع محروقة ولطخات. كاد يفقد أنفاسه، أمعن النظر وقال وكسر لنفسه إنه ليس مجنوناً، وليس به مس؛ لأن ما يخطه ابن عمه بظفره، دون أن ينتبه، هي عناكب. أجل، إنها عناكب، مثل عناكب رسائل التهديد المغفلة التي يتلقاها فيليثيتو ياناكيه. يا للعنة، فهو لا يحلم ولا يرى رؤى. إنها عناكب، عناكب، يا لابن العاهرة، يا لابن العاهرة.

- لدينا الآن مشكلة ألف شيطان - ددمد موارياً عصبيته ومشيراً باتجاه جادة سانتشيث سيرو - لا بد أن تكون مطلعاً. وأن تكون قد قرأت في «التييمبو» رسالة موجهة إلى المبترzin من فيليثيتو ياناكيه، صاحب شركة نارييهولا للنقل.

- أفضل خصيتين راسختين في مكانهما في بيورا بأسرها - هتف ابن عمه. ولعنت عيناه إعجاباً - لم أقرأ تلك الرسالة وحسب، مثلما فعل جميع أهالي بيورا. بل قصصتها، وأوصيت على إطار لها وعلقتها على جدار مكتبي يا ابن العم. فيليثيتو ياناكيه نموذج يجب أن يحتذى به رجال أعمال بيورا وتجارها الذين يُنزلون سراويلهم أمام المafيات ويدفعون لها الإتاوات. إنني أعرف دون فيليثيتو منذ زمن. فنحن في الورشة نقوم بياصلاح وضبط وزان حافلات وشاحنات نارييهولا للنقل. وقد كتبت إليه بضعة سطور تهنئة على رسالته في «التييمبو». ووكرز ليتوما بمرفقه مشيراً إلى الشرائط على كتفيه.

- عليكم أنتم واجب حماية هذا الرجل يابن العم. ستكون كارثة أن ترسل المafيات قاتلاً لتصفية دون فيليثيتو. لقد رأيت كيف أنهم سارعوا إلى إحراق محله.

كان الرقيب ينظر إليه مؤكداً كلامه. كل هذا السخط والتقدير لا يمكن أن يكون مصطنعاً، إنه هو المخطئ، فخوسيه لم يكن يرسم عناكب بظفر إيهامه، بل خطوط وحسب. مجرد توافق، مجرد مصادفة مثل مصادفات كثيرة. ولكن ذاكرته وجهت إليه، في تلك اللحظة بالذات، صفة أخرى، أضاءت له ليرى بصورة واضحة وجليه، وذكّرته بصفاء جعله يرتعش، أن من كان يرسم في صغرهم، بقلم أو عود أو سكين، تلك النجوم التي تبدو كعناكب هو ابن عمه خوسيه وليس القواد خوسيفينو. طبعاً، طبعاً. لقد كان خوسيه. وقبل زمن طويل من تعرفهم إلى خوسيفينو. خوسيه هو من كان يرسم دوماً. وقد سخر هو والمونو منه مرات كثيرة لتلك النزوة، يا للأم العاهرة، يا للأم العاهرة.

- متى نستطيع تناول الغداء أو العشاء معًا، كي تلتقي بالمونو أيضاً يا ليتونا. سيسعده اللقاء بك حقاً !

- وأنا أيضاً سيسعدني ذلك يا خوسيه. فأفضل ذكرياتي هي ذكرياتي عن بيورا. عن الفترة التي كنا فيها معاً، فترة المنيعين. إنها الأفضل في حياتي على ما أعتقد. في ذلك الزمن كنتُ سعيداً. بعد ذلك جاءت النكبات. ثم إنك أنت والمونو، على ما أتذكر، القريبان الوحيدان المتبقيان لي في هذه الدنيا. سئتلتني عندما تريد، أخبراني بالموعد وسوف أوفق.

- الغداء أفضل من العشاء إذاً - قال خوسيه - لأن ريتا، زوجة أخي، غيورة جداً، تغار على المونو إلى حد لا يمكنك تصوره. تتسبّب له بجرعة كبيرة كلما خرج ليلاً. بل يبدو أنها تضربه كذلك.

- فليكن غداء إذاً، لا توجد مشكلة - كان ليتوما يشعر بالاضطراب إلى حد خشي معه أن يرتاب خوسيه بما يجول في رأسه، فبحث عن ذريعة ليودعه وينصرف.

رجع إلى المفوضية مختنقًا، مضطرباً ومشوشًا، لا يعرف جيداً أين يضع قدمه، حتى إن عربة باائع فاكهة كادت أن تصدمه عند إحدى النواصي. حين وصل، انتبه النقيب إلى ترددي حالته المعنوية فور رؤيته له.

- لا تأتنني بمشاكل أخرى زيادة لما هو فوق رأسى يا ليتوما - حذره ونهض واقفًا وراء مكتبه بغضب جعل الحجرة الضيقة تهتز - أي براز حدث لك؟ من مات لك؟

- مات الشك بأن خوسيفينو روخاس هو من كان يرسم العناكب - تلعم ليتوما وهو يخلع القبعة ويمسح العرق بمنديل - . تبين الآن أن المشتبه به ليس القواد، بل ابن عمي خوسيه ليون. أحد المنيعين الذين حدثتك عنهم يا نقبي.

- أتسخر مني يا ليتوما؟ - هتف النقيب مرتباً - أوضح لي قليلاً كيف يمكن ابتلاء هذه البلاهة التي قلتها.

جلس الرقيب محاولاً أن يكون هواء المروحة موجهاً مباشرة إلى وجهه. وروى للمفوض بالتفصيل كل جرى له هذا الصباح.

- أي إن ابن عمك خوسيه الآن هو من يرسم عناكب بظفره - قال النقيب بغضب - . وهو فوق ذلك كله غبي تماماً إلى حد أنه يشي بنفسه أمام رقيب في الشرطة، وهو يعلم جيداً أن عناكب فيليثيو ياناكibe وناريهموالا للنقل هي حديث الناس جميعاً في بيورا. أرى أن هنالك لحماً مسلوقاً في رأسك يا ليتوما.

- لست متأكداً من أنه كان يرسم عناكب بأظفاره - اعتذر مرؤوسه

محزوناً - يمكن أن أكون مخطئاً أيضاً في هذا الأمر، أرجوك أن تعذرني.  
لم أعد متأكداً من أي شيء يا نقيبي، لست متأكداً حتى من الأرض  
التي أقف عليها. أجل، معك حق. رأسي أشهه بقدر مملوءة بجداجداً.  
ـ بل الأدق أنه أشهه بقدر عناكب - ضحك النقيب - وانظر الآن من  
أتى. إنه الوحيد الذي كان ينقصنا. صباح الخير يا سيد ياناكيه.  
ـ تفضل، ادخل.

عرف ليتوما من ملامح وجه صاحب شركة النقل أن شيئاً خطيراً قد  
حدث: أهي رسالة أخرى من المافيا؟ كان فيليثيتو شاحباً، تحيط  
بعينيه حالة من الزرقة، وكان فمه مفتوحاً قليلاً بملمح من البلاهة،  
بينما تشي عيناه بالرعب. انتهى من خلع القبعة وبدا شعره مشعاً كما  
لو أنه نسي تسريحه. وهو الذي كان يمضي دائماً مهندماً على أحسن  
وجه، زرّ صداره بصورة سيئة، بوضعه الزر الأول في العروة الثانية. بدا  
مظهره مضحكاً ومهملاً وتهريجياً. لم يكن قادراً على الكلام. لم يردد  
على التحية، واكتفى بابراج مغلق من جيبيه وتقديمة إلى النقيب بيد  
مرتجفة. بدا أكثر ضالة وهشاشة من أي وقت آخر، بل أشهه بقزم.  
ـ يا للعنة العاهرة. قال المفوض من بين أسنانه، وهو يُخرج الرسالة

من المغلف ويبدا القراءة بصوت عالٍ:  
ـ السيد ياناكيه العزيز:

قلنا لك إن عنادك وتحديك في «التييمبو» ستكون له نتائج غير  
لطيفة. قلنا لك إنك ستندم لرفضك أن تكون متعقاً وأن تتفاهم معنا،  
نحن الذين لا نريد إلا تقديم الحماية لأعمالك والأمان لأسرتك. إننا ننفذ  
دوماً ما نقوله. بين أيدينا أحد الأشخاص الأعزاء لديك وسنحتفظ به إلى  
أن تسمح بلي ذراعك وتتفق معنا.

وعلى الرغم من أننا صرنا نعرف عادتك السيئة بالذهب لتقديم

شكاويك إلى الشرطة، كما لو أن هذه الشرطة تنفع في شيء، إلا أنها نقترح، من أجل مصلحتك، أن تحافظ هذه المرة على التكتم المطلوب. فمن غير المناسب أن يعرف أحد بأننا ناحتجز هذا الشخص لدينا، وخاصة إذا كنت مهتماً بـألا يتعرض للمعاناة نتيجة تهور آخر من جانبك. يجب أن يبقى هذا الأمر بيننا وأن يتم حله بتكتم وسرعة.

ولأنك تحب استخدام الصحافة، عليك أن تنشر إعلاناً في «التييمبو»، تشكر فيه السيد كوتيفو دي آياباكا لتحقيقه العجزة التي طلبتها منه. وهكذا سنعرف أنك موافق على الشروط التي نطرحها عليك، وعلى الفور سيرجع الشخص المذكور سليماً معافى إلى بيته. وفي حالة الرفض، يمكن ألا تعود لمعرفة أي شيء عنه.

فليحفظ الله حضرتك.

ومع أن ليتوما لم ير مضمون الرسالة إلا أنه خمن أن رسم العنكبوت يختتم تلك الرسالة.

- من هو الشخص الذي اختطفوه يا سيد ياناكيه؟ - سأل النقيب سيلفا.

- مابيل - تلعم صاحب شركة النقل مختنقاً. ورأى ليتوما عيني الرجل الضئيل تبتلان وبضع قطرات من الدموع تسيل على خديه.

- اجلس هنا يا سيد فيليثيتو - تنازل له الرقيب عن الكرسي الذي كان يحتله وساعده على الجلوس.

جلس صاحب شركة النقل وغطى وجهه بيديه. كان يبكي ببطء، دون ضجة. وكان جسده الخائر يهتز في احتلالات مفاجئة. أحس ليتوما بالحزن من أجله. يا للرجل المسكين، لقد وجد أبناء العاهرة الآن حقاً الطريقة لتلبيين موقفه. ليس لهم حق، يا للظلم.

- يمكنني أن أقترح عليك أمراً يا دون - بدا النقيب متائراً أيضاً بما

يحدث لفيليتيتو ياناكيه . لن يمسوا شعرة واحدة من صديقتك. إنهم يريدون إخافتك، ولا شيء أكثر. يعرفون أنه من غير المناسب لهم إلحاد أدنى أذى ببابيل. إن بين أيديهم شخصاً لا يمكنهم المس به . - يا للفتاة المسكينة - تلعم فيليتيتو ياناكيه وسط شهقاته . أنا المذنب، أنا من أدخلها في هذا الأمر. ماذا سيحل بها، رياه، لن أسأمح نفسي أبداً.

رأى ليتوما أن وجه النقيب سيلفا منتفخ الخدين مع ظلال لحية يتحول من الأسى إلى الغضب ثم إلى الشفقة بعد ذلك. رآه يمد ذراعه، يربت على كتف دون فيليتيتو، ويقرب وجهه منه ليقول له بحزن : - أقسم لك بأقدس ما لدى ، وهو ذكري أمي ، أنه لن يحدث لها شيء . سيعيدونها سليمة معافاة . وأقسم بقداسة أمي إنني سأحل هذه القضية ، وسيدفع أبناء العاهرة هؤلاء ، الثمن غالياً . أنا لا أقسم مثل هذا القسم عادة يا دون فيليتيتو. أنت رجل شجاع ثابت الخصيتين ، بيورا بأسرها تقول هذا. لا تضعف الآن ، أرجوك بأعز ما لديك .

بدا ليتوما مبهوراً . فما يقوله المفوض حقيقي : إنه لا يقسم أبداً بمثل هذا القسم الذي أقسمه . أحس بمعنوياته ترتفع : سيفعل ذلك ، سيفعله . سيقبض عليهم . وسيندم أولئك البراز على اقترافهم مثل تلك النذالة مع هذا الرجل المسكين .

- أنا لن أضعف الآن ولا في أي وقت آخر - تلعم صاحب شركة النقل وهو يمسح الدموع عن عينيه .

## VIII

وصل ميكى وإسکوبیتا إلى الموعد بدقة، في الحادية عشرة صباحاً بالضبط. فتحت لهما الباب لوکریثيا نفسها وحييابها بتقبيل خدها. بعد ذلك، بينما هما يجلسان في الصالة، جاءت خوستينيانا لتسألهما أي شيء تقدم إليهما. طلب ميكى قهوة مع قليل من الحليب، وطلب إسکوبیتا كوب مياه معدنية وغازية. كان صباحاً رمادياً انخفضت فيه بعض الغيوم طافية فوق البحر الضارب إلى خضرة قاتمة مع لطخات زبد في خليج ليما. وفي أعلى البحر كانت ثرى بعض مراكب الصيادين. كان ابنا إسماعيل كاريلا يرتديان بدلتين قاتمتين، ويضع كل منهما منديلاً بارزاً في الجيب العلوي الصغير، وتلمع ساعتا رولكس في معصميهما. حين رأيا دخول ریغوبيرتو نهضا واقفين: «مرحبا يا عماه». ففَكَّ صاحب البيت: «يا للعادة اللعينة». لا يدرى السبب، ولكنه يتضايق من العادة المحدثة التي تنتشر بين شباب ليما منذ بضع سنوات، بالقول «يا عم» و«يا عمّة» لجميع معارف الأسرة وللأشخاص المتقدمين في السن، مختلقين بذلك صلة القرابة لا وجود لها. صافحة ميكى وإسکوبیتا، ابتسما له، مبدين له مودة باللغة التدفق كي تبدو حقيقة. «كم تبدو في حالة جيدة أيها العم ریغوبيرتو»، «التقاعد جعلك أحسن حالاً أيها العم ریغوبيرتو»، «يبدو أنك رجعت شاباً عدة سنوات مذ رأيناك آخر مرّة».

- لديك إطلالة بد菊花 من هنا - قال ميكى أخيراً وهو يشير إلى الكورنيش وبحر بارانكو -. حين يكون الجو صحواً تستطيع رؤية المشهد من ليما حتى تشوريبوس، أليس كذلك أيها العم؟

- أرى ذلك، ويرانا أيضاً جميع أولئك الأشخاص الذين يمارسون رياضة الطيران الشراعي ويلامسون لدى مرورهم نوافذ المبنى - أكد ريفوبيرتو -. يمكن لهبة رياح في أي يوم أن تدخل أحد أولئك الطيارين الجريئين إلى البيت.

احتفا «ابنا أخيه» بدعابته بضحكه مبالغ فيها. ففوجيء ريفوبيرتو: «إنهم أكثر عصبية مني».

لقد كانوا توأميين ولكنهما لا يتشابهان في شيء سوى طول القامة، والجسدين الرياضيين، وعاداتهما السيئة. أتراهما يمضيان ساعات طويلة بممارسة التمارين، ورفع الأثقال في الصالة الرياضية بنادي بيبيا أو نادي ريفاتاس؟ كيف تتوافق هذه العضلات مع حياة البوهيمية والشراب والكوكائين واللهو المنفلت من عقاله؟ لم يكن وجهه مدور وسعيد، وفم ثخين بأسنان لاحمة. شديد البياض، كأنه غرينغو، أشقر الشعر، يبتسم بين حين وآخر بصورة آلية، مثل دمية آلية. أما إسكوبيتا بالمقابل فشديد السمرة، له عينان سوداوان نفاذتان، وفم بلا شفتين، وصوت نحيل وزاعق. وله سالفان طويلاً كأنهما سالفاً مغني فلامنكو أو مصارع ثيران. «أيهما الأكثر جنوناً؟»، فكر ريفوبيرتو. «ومن منهما الأسوأ؟».

- ألا تشتق إلى المكتب الآن وقد أصبح وقتك كله فراغاً يا عم؟ سأله ميكى.

- الحقيقة أنني لا أشتاق يابن الأخ. فأنا أقرأ كثيراً، وأستمع إلى موسيقى جيدة، وأقضى ساعاتٍ مستغرقاً في كتبى الفنية. فالرسم كان

أحب إليّ على الدوام من شركات التأمين، ولا بد أن يكون إسماعيل قد أخبرك بذلك. وصار بإمكانني الآن، أخيراً، أن أكرس له وقتاً طويلاً.  
- يا للمكتبة التي تروق لك يا عماه - هتف إسکوبیتا مشيراً إلى الرفوف المرتبة في حجرة المكتب المجاورة - يا لكمية الكتب الشيطانية! هل قرأتها كلها؟

- حسن، لم أقرأها كلها بعد - «هذا أشدhem فظاظة»، فكر حاسماً الأمر. فبعضها كتب مرجعية فقط، مثل المعاجم والموسوعات التي على ذلك الرف في الركن. ولكن نظريتي تقول إن إمكانية قراءة الكتاب حين يكون موجوداً في البيت أكبر من إمكانية ذلك بوجوده في المكتبات.  
ظل الأخوان ينظران إليه بارتباك، وكانا يتساءلان دون شك عما إذا كان ما قاله دعابة أم أنه يتكلم بجد.

- بكل هذه الكمية من كتب الفن التي تملكتها هنا، تكون كمن جلب متاحف العالم كلها إلى مكتبك - أصدر ميكي حكمه وهو يبدي وجه رجل ماكر وحكيم. وأضاف: - وهكذا يمكنك زيارة تلك المتاحف دون أن تزعج نفسك بالخروج من البيت، يا للراحة.

«حين يُعرف مقدار حماقة ثنائيي الأرجل هذين، يُعرف مقدار ذكائهما»، هذا ما خطر لريغوبيرتو. كان من الصعب معرفة أيهما هو الأشد حماقة: هنالك تعادل. ساد صمت ثقيل، بلا نهاية، في الصالة، ولمداراة التوتر، راح الثلاثة ينظرون إلى المكتب. وفكر ريجوبيرتو: «لقد حان الوقت». هزته رعشة مفاجأة خفيفة، ولكنه كان يشعر بالفضول لعرفة ما الذي سيحدث. راوده إحساس عبثي بأنه محمي بفعل وجوده في ميدانه الخاص، ومحاط بكتبه ولوحاته.

- حسن يا عماه - قال ميكي وهو يرمي بسرعة كبيرة، وإصبعه في الهواء قبالة فمه -، أظن أن الوقت قد حان لنمسك الثور من قرنيه. وأن

ننتقل إلى الحديث في الأمور المؤسفة.

كان إسكوبيتا يواصل شرب المياه المعدنية من كأسه شبه الفارغة مصدراً لقرقة. وكان يحك جبهته دون توقف بينما عيناه الصغيرتان تنظران متقارفتين إلى أخيه وإلى ريفوبيرتو.

- مؤسفة؟ لماذا هي مؤسفة يا ميكي؟ - أبدى ريفوبيرتو ملامح المفاجأة - ما الذي جرى أيها الشابان؟ هل تورطنا في المشاكل مرة أخرى؟

- أنت تعرف جيداً ما الذي جرى أيها العم - صاح إسكوبيتا برجع غضب في صوته - لا تتظاهر، أرجوك.

- أتعني إسماعيل؟ - تظاهر ريفوبيرتو بالبلادة - أتريدان أن نتحدث عنه؟ عن أبيكما؟

- صرنا سخرية ليما وموضع النمائم فيها - أبدى ميكي وجهه ميلودرامياً، وكان بعض إصبعه الصغرى بهمة. ويتكلم دون أن يرفع إصبعه من فمه، فيخرج صوته متكلفاً - لا بد أنك لاحظت ذلك، لأن الأحجار نفسها لاحظته. لم تعد هنالك تقولات وثرثرات عن أي أمر آخر في هذه المدينة، وربما في بيرو بأسرها. لم أتصور قط، في حياتي، أنه يمكن للعائلة أن تجد نفسها محشورة في مثل هذه الفضيحة.

- وهي فضيحة كان بإمكانك منعها أيها العم ريفوبيرتو - أكد إسكوبيتا مدرداً، ومبدياً نوعاً من التبرم بشفتيه. ويبدو أنه انتبه الآن فقط إلى أن كأسه فارغة من الماء. فوضعها على منضدة الوسط الصغيرة بمبالفة في الحذر.

«الميلودrama أولاً وبعد ذلك التهديد»، قدر ريفوبيرتو الوضع. كان قلقاً بكل تأكيد، ولكنه مذهول أكثر فأكثر مما يجري. فهو يراقب التوءمين كمن يراقب ممثلين غير كفوئين، مبدياً ملامح الاهتمام والرصانة. لم

يكن يدرى السبب، لكنه كان يشعر برغبة في الضحك.  
- أنا؟ - أبدى الارتباك والتشوش -. لا أدرى ما الذي تعنيه يا ابن أخي.

- أنت الشخص الذى اعتاد أبي الاستماع إليه دائمًا - أكد إسکوبیتا بكثير من التفخيم -. وربما الشخص الوحيد الذى كان يستجيب لنصحه دوماً. أنت تعرف ذلك جيداً يا عماه، فلا تتظاهر. أرجوك. لسنا هنا لنلعب لعبة التكهنات. أرجوك!

- لو أنك نصحته، لو أنك عارضت، لو أنك أريته مدى فظاعة ما سيُقدم عليه، لما تحقق ذلك الزواج - أكد ميكى وهو يضرب على المنضدة. لقد تبدل الآن، ففي عمق عينيه الزرقاويين كانت تتلوى أفعى صغيرة. وكان صوته أكثر حدة.

سمع ريفوبيرتو صوت موسيقى آتياً من هناك في الأسفل، من الكورنيش: إنه صفير ناي مجلخ السكاكيين. وهو يسمعه دوماً في الموعد نفسه. إنه رجل دقيق في مواعيده هذا المجلخ. عليه أن يرى وجهه ذات يوم.

- وهو زواح لا يساوي أي شيء على كل حال، لأنه مجرد قمامنة -  
صحح إسکوبیتا لأخيه - مجرد مهزلة بلا أية قيمة قانونية. وأنت تعرف هذا أيضاً يا عماه، فلسبب ما أنت محام. ولهذا دعنا نتحدث على المكشوف، إذا رغبت، وأن نسمى الخبز خبزاً والنبيذنبيداً.

ما الذي يحاول قوله هذا السفيه؟، تسأله دون ريفوبيرتو «كلاهما يستخدم الأمثال على هواه، لسد الفراغ، دون أن يدرك ما تعنيه».

- لو أنك أخبرتنا في الوقت المناسب بما كان يحيكه أبي، لكننا أوقفنا الأمر، حتى لو اقتضى الأمر الاستعانة بالشرطة - أح ميكى. وكان لا يزال يتكلم بحزن مفتuel، ولكنه لم يستطع الحيلولة دون أن

يُظهر في نبرة صوته بوادر غضب. وقد صارت عيناه شبه العابتين الآن تتوعدان ريفوبيرتو.

- لكنك بدلًا من أن تحذر، ساهمت في تلك المهزلة إلى حدّ أنك وضعت توقيعك كشاهد أيها العم - رفع إسکوبیتا يده وقام بحركة غاضبة في الهواء -. وقُعْت إلى جانب نرسيس. حتى السائق، وهو مجرد أميّ بائس، لطختمه بتلك المؤامرة المشينة، شديدة القبح. عمل سيئ هذا الاستغلال لشخص جاهل. الحقيقة أننا لم نكن ننتظر مثل هذا الأمر منك أيها العم ريفوبيرتو. عقلي لا يتقبل أنك ساهمت في ذلك العمل التهريجي السيئ.

- لقد خيبت أملنا أيها العم - واصل ميكى وهو يتململ، كما لو أن ملابسه تضغط عليه -. هذه هي الحقيقة المحزنة: خي - بت - أمل - نا. مثلما تسمع وقعاها. يحزنني أن أقول لك هذا، ولكن هكذا هي الحال. أقولها لك في وجهك، وبأكبر قدر من الصراحة، لأنها الحقيقة المحزنة. أنت تتحمّل مسؤولية رهيبة عما جرى أيها العم. ولكي أكلمك على المكشوف، أنت لا تدري ما الذي تعرض نفسك له. قد تترتب عليك نتائج سيئة في حياتك الخاصة، وفي حياتك الأخرى.

«ما هي حياتي الأخرى؟»، فكر ريفوبيرتو. كان كلاهما قد بدأ برفع الصوت، وتبعه التودد المذهب، وتلاشت معه الابتسamas. صار التوءمان الآن جديين جداً، وما عادا يخفيان سخطهما. «هل سيعرضان عليّ أموالاً؟ هل سيهدداًني بقاتل مأجور؟ هل سيشهراً مسدساً في وجهي؟» كل شيء محتمل مع مثل ذلك الثنائي.

- لم نأت لتأنيبك - غير إسکوبیتا الاستراتيجية فجأة، وأسفى العذوبة مجدداً على صوته. كان يبتسم، يداعب أحد سالفيه، غير أن ابتسامته بدت ملتوية وحربية.

- إننا نحبك كثيراً يا عماه - أكد ميكي وهو يتنهد -. لقد رأيناك منذ مولدنا، إنك أشبه بأقرب أقربائنا، كل ما هنا لك... لم يستطع إكمال الفكرة وظل فاغر الفم وبنظره مرتبكة ، كالملقيد. فاختار أن يغضض إصبعه الصغرى من جديد، وبغضب. «أجل، هذا أشدّهما جلافة»، أكد لنفسه دون رغوبيرتو.

- الشعور متداول يابن الأخ - استغل صمتهم كي يقول جملة -. اهـ، أرجوك. ولنتحدث كأشخاص عقلانيين ومحضرين. - قول هذا سهل عليك وليس علينا - أجا به ميكي رافعاً صوته. وفك رغوبيرتو: «طبعاً، إنه لا يعرف ما الذي يقوله، ولكنه يصيب في القول أحياناً». - فليس والدك وإنما والدنا هو الذي تزوج من خادمته، الخلاصية التشولا الجاهلة والمقللة، وحولنا إلى محط سخرية عائلات ليما المحترمة كلها.

- وهو زواج ليست له فوق ذلك أية قيمة ! - تذكر إسكوبيتا من جديد وهو يومئى بعصبية - مجرد مهزلة بلا أية قيمة قانونية. وأظن أنك تدرك الأمر جيداً أيها العم رغوبيرتو. لهذا دعك من التظاهر بعدم الفهم، وبأنك لا تلاحظ شيئاً.

- ما الذي علي ملاحظته يابن الأخ؟ - سأله بجدية، وبفضول يبدو ساذجاً - أرغب في أن تشرح لي معنى ما قلته عن عدم الفهم. إنه من مترادات الغباء، أليس كذلك؟

- ما أعنيه هو أنك قد أدخلت نفسك في مشكلة كبيرة بمحض الجهالة - انفجر إسكوبيتا -. مشكلة ابنة عاهرة، إن سمحت لي بالفجاجة. ربما دون أن ترغب في ذلك، ولاعتقادك بأنك تقدم خدمة إلى صديق مقرب. إننا نأخذ بطبيب نواياك. ولكن هذا لا يهم، لأن القانون هو القانون على الجميع ، وفي هذه القضية أكثر من أي قضية أخرى.

- يمكن لهذا الأمر أن يتسبب بمشاكل خطيرة، لك ولأسرتك - أبدى ميكي الشفقة بينما هو يتكلم ويُدخل في آن واحد إصبعه الصغرى في فمه من جديد -. لا نريد إخافتكم، ولكن هكذا هي الأمور. ما كان عليك أن توقع على تلك الورقة بأي حال. أقول لك هذا بطريقة موضوعية ومحايدة. وبكل المحبة طبعاً.

- إننا نقول هذا من أجل مصلحتك أيها العم ريفوبيرتو - حدد أخيه إننا نفكري في مصلحتك أكثر مما نفكري في مصلحتنا، حتى لو لم تصدق ذلك. ونرجو ألا تندم على حشر نفسك في هذه الورطة.

«عما قريب سيصلان إلى المستيريا، ولن يتورع هذان الحيوانان عن ضربي»، استنتاج ريفوبيرتو ذلك. فقد كان التوءمان ينساقان للغضب، وصارت نظراتهما وإيماءاتهما وحركاتهما تزداد عدوانية في كل لحظة. فكر: «أيكون عليّ أن أدفع عن نفسي بقبضتي في مواجهة هذا الثنائي؟». لم يعد يتذكر آخر مرة تبادل الكلمات مع أحد. من المؤكد أن ذلك حدث في مدرسة ريكوليكتا، خلال إحدى الفسح بين الدروس.

- لقد قمنا بكل الاستشارات، ومع أفضل المحامين في ليما. ونحن نعرف ما الذي نتحدث فيه. ولهذا نطلب منك أن تؤكّد أنك قد تورطت في مشكلة اللعنة العظيمة هذه أيها العم. وآسف لأنني أقول لك هذا بكلام غير مهذب، ولكن علينا نحن الرجال أن ننظر إلى الحقيقة مواجهة. ومن الخير لك أن تكون مطلعاً.

- ستواجه تهمة التواطؤ والتستر - أوضح ميكي بنبرة وقرة، متهدجاً كل كلمة ببطء شديد لنحها مزيداً من الصبغة القتالية. وكان صوته ناشزاً طوال الوقت وعيناه جمرتين متقدتين.

- قضية إبطال الزواج قد انطلقت ولن يتأخّر إصدار الحكم فيها طويلاً - أخبره إسكوبيتا -. ولهذا فإن أفضل ما يمكن أن تفعله هو

مساعدتنا أيها العم ريفوبيرتو. وأعني ما هو أفضل لك طبعاً.

- وبعبارة أخرى، لسنا نريد أن تساعدنا نحن وإنما أن تساعد أبينا أيها العم ريفوبيرتو. أن تساعد صديقك مدى الحياة، الشخص الذي كان أخاً كبيراً لك. وأن تساعد نفسك بالذات، وتخرج من ورطة ألف عاهرة هذه التي أدخلت نفسك وأدخلتنا نحن أيضاً فيها. أتدرك هذا؟

- بصراحة، لا يابن الأخ. لست مدركاً أي شيء، اللهم إلا أنكما متورثان – لقد أنبئهما ريفوبيرتو في الواقع بجدية، بطريقة محببة، وهو يبتسם لهما -. بما أنكما تتكلمان معاً في وقت واحد، فإبني أعترف لكما بأنكما أصبحتماني بدوار. لست أفهم جيداً ما تسعين إلبيه. لماذا لا تهدآن وتوضحا لي بهدوء ما الذي تريدانه مني.

هل ظن التوءمان أنهما قد كسبا الجولة؟ لهذا ما يفكرا فيه؟ لأن سلوكهما هدا فجأة. وقد صارا يتأملاه باسمين، وراحوا يهزان رأسيهما ويتبادلان في ما بينهما نظرات التواطؤ والرضي.

- أجل، أجل، اعذرنا، لقد تجاوزنا الحدود قليلاً - اعتذر ميكى -. أنت تعرف أننا نحبك كثيراً أيها العم.

«إن أذنيه كبرستان مثل أذنيّ»، فكر ريفوبيرتو. «ولكن أذنيه تتحركان وأذنيّ لا».

- واعذرنا، بصورة خاصة، إذا كنا قد رفعنا صوتنا عليك - تابع إسكوبيتا وهو يحرك يديه في الهواء بلا مبرر ولا معنى، مثل قرد هائج - ولكن هذا أقل ما يمكن فعله في ظل ما وصلت إليه الأمور، عليك أن تتفهم الأمر. جنون أبي العجوز الخرف أفقدنا صوابنا أنا وميكى.

- الأمر بسيط جداً - أوضح ميكى -. نحن ندرك جيداً أنك، بسبب كون أبي رئيسك في العمل، لم تستطع رفض التوقيع على تلك الورقة كشاهد. وكذلك حال التعيس نرسيس. سيأخذ القاضي ذلك بعين

الاعتبار طبعاً. وسيكون مفيداً كعامل مُخفِّف. لن يحدث لكما أي شيء.  
المحامون يضمنون ذلك.

«كلمة محامي في فمه أشبه بعصا سحرية»، فكر دون ريفوبيرتو  
· بعرج.

- إنكما مخطئان، فأنا ونرسيس لم نوفق على أن نكون شاهدي  
أبيكما لأننا مرؤساه في العمل - وبخهما بلطف -. أنا فعلت ذلك لأن  
إسماعيل، فضلاً عن كونه رئيسي في العمل، هو صديقي مدى الحياة.  
و فعل نرسيس ذلك أيضاً للمحبة الكبيرة التي يشعر بها تجاه أبيكما.

- لقد قدمت إذاً جميلاً خبيثاً إلى صديقك المحب - غضب إسكوبيتا  
من جديد، وقد صعدت إمارات الغضب الآن إلى وجهه، كما لو أنه  
أصيب بضررية شمس مفاجئة، فقد صارت عيناه السوداوان تقدحان  
شرراً - فأبونا العجوز لم يكن يعرف ما الذي يفعله. إنه خَرْفٌ منذ  
زمن. ومنذ زمن لم يعد يعرف أين هو ولا من يكون، وأقل من ذلك  
معرفته بما يفعله بوقوعه في غواية خلاصية البراز تلك التي يتقود معها،  
إن كنت تسمح لي بهذا التعبير.

«يتقود؟»، فكر ريفوبيرتو. «لا بد أنها أقبح كلمة في اللغة القشتالية،  
إنها كلمة تعبر برائحة كريهة ولها شعر».

- أتصدق أن أبي الذي كان سيداً محترماً على الدوام، سيُقدم، وهو  
بكامل قواه العقلية، على الزواج من خادمة. والأدهى أنها أصغر منه  
بأربعين عاماً؟ - أいで ميكى فاتحاً فمه كثيراً ومؤهلاً أسنانه الكبيرة.

- أتصدق مثل هذا الأمر؟ - صارت عيناً إسكوبيتا الآن حمراوين  
وصوته منكسرأً - غير مع肯، أنت رجل ذكي ومتثقف، لا تخدع  
نفسك، ولا تحاول خداعنا. فلا أنت ولا أحد سواك يمكن له أن يدس  
إصبعه في فمنا، كي تعرف.

- لو كان لدى شك في أن إسماعيل لا يتمتع بكمال أهليته لما وافقت على أن أكون شاهده يابن الأخ. أرجوكم أن تتركاني أتكلم. أتفهم إنكم متأثرون جداً. وهذا من حكمكم بكل تأكيد. ولكن عليكم أن تبذلا جهداً لتقبل الواقع مثلما هي. ليس الأمر كما تظنون. فقد فوجئت كثيراً أيضاً بزواجه إسماعيل. مثلما فوجئ الجميع بالطبع. ولكن إسماعيل كان يعرف جيداً ما يفعله، وأنا متأكد تماماً من ذلك. لقد اتخذ قرار الزواج بعقل واع، وبمعرفة مطلقة بما هو مقدم عليه؛ وبنتائج ما فعله.

وبينما هو يتكلم، كان يلحظ تعاظم السخط والعداء في وجهي التوءمين.

- أعتقد أنك لن تتجرأ على أن تردد أمام قاض هذه البلاهات التي تقولها - نهض إسكوبيتا عن المقهى وتقدم خطوة نحوه متراجعاً. لم يعد الآن محتقناً بل كان يرتجف ووجهه شاحب.

لم يتحرك دون ريفوبيرتو من مقعده. كان ينتظر أن يمسك به ويجهزه، وربما أن يضربه، ولكن إسكوبيتا كبح نفسه، واستدار وعاد للجلوس. كان وجهه المدور مغطى بالعرق. «ها قد جاءت التهديدات. هل سيأتي الضرب أيضاً؟».

- إذا كنت تريد إخافيتي فقد توصلت إلى ذلك يا إسكوبيتا - اعترف بهدوئه الثابت - . وبعبارة أدق، توصلتما إلى ذلك كليهما معاً. أتريدان معرفة الحقيقة؟ إنني أموت خوفاً يابني أخي. إنكم شابان، قويان، مندفعان، ولديكم أوراق اعتماد وسوابق تبعث الخوف في أشد الناس جرأة. وأنا أعرف سوابقكم جيداً، لأنني كما تذكرا قد ساعدتكم مرات كثيرة على الخروج من التعقيبات والمخالفات القانونية التي تورطتما فيها منذ شبابكم المبكر. مثلما حدث حين اغتصبتما تلك الفتاة

في بوكوسانا، هل تتذكران؟ أنا مازلت أتذكر حتى اسمها: فلوراليسا روكا. هكذا كان اسمها. ولم أنس كذلك بالطبع أنه كان علىَّ أن أقدم خمسين ألف دولار لأبويها، كيلا تدخل السجن بسبب الظرافة التي ارتكبتماها. وأنا أعرف جيداً، إنكم قادران علىِّ سحقي إذا قررتما ذلك. وهذا واضح جداً.

تبادل التوءمان النظارات مرتبكين، أبدياً الجدية، حاولاً الابتسام دون أن يتمكنا من ذلك، وبدا عليهم الغيظ.

- لا تأخذ الأمر على هذا النحو - قال ميكى أخيراً وهو يخرج إصبعه الصغرى من فمه ويربت على ذراع ريفوبيرتو - إننا في لقاء سادة محترمين أيها العم.

- لن نمد يدنا إليك بالأذى أبداً - أكد إسكوبيتا مذعوراً - نحن نحبك يا عماه، حتى لو لم تصدق هذا. على الرغم من سوء تصرفك معنا بتوفيقك تلك الورقة المقرفة.

- اتركتاني أكمل - هدأهما ريفوبيرتو بحركة من يديه - ولكن على الرغم من خوفي، إذا ما استدعاني القاضي لأصرح بما لدى، فسوف أقول له الحقيقة. إن إسماعيل قد اتخذ قرار الزواج وهو يعرف تماماً ما الذي يفعله. وإنه ليس مختلاً، وليس خرقاً، ولم تُغُرِّر به أرميدا أو أي شخص آخر. لأن أباكم ما زال أكثر فطنة منكمَا معاً. هذه هي الحقيقة الصارمة يابني الأخ.

сад الغرفة مرة أخرى صمت شوكى كثيف ومشحون. وفي الخارج، كانت الغيوم قد اسودت، وهناك في البعيد، في الأفق البحري، ظهرت أضواء كهربائية يمكن لها أن تكون كشافات سفينة أو بروق عاصفة. كان ريفوبيرتو يشعر باضطراب في صدره. وكان التوءمان لا يزالان شاحبين وينظران إليه بطريقة قال لنفسه معها إنهم بيذلان، دون

شك، جهوداً عظيمة ليكتبها نفسيهما من الانقضاض عليه وسحقه. وفکر: «لقد قدمت لي جميلاً خبيثاً بإدخالي في هذا الأمر يا إسماعيل». كان إسكوبيتا هو أولهما في التكلم. وفعل ذلك خافضاً صوته، كما لو أنه سيخبره بسر، وكان ينظر بثبات إلى عينيه بنظرة تلمع بالازدراة.

- هل دفع لك أبي مقابل هذا؟ هل يمكنني معرفة كم دفع لك أبيها العـ؟

باغته السؤال بطريقة أبنته فاغر الفـ.

- لا تأخذ هذا السؤال على محمل السوء - أراد ميكي إصلاح الأمور، وقد أخفض صوته كذلك وراح يحرك يده لطمأنته - لا داعي لأن تخجل، فلجميع الناس احتياجاتهم. وإسكوبيتا يسألك لأنه إذا كان للأمر علاقة بالنقود، فنحن أيضاً على استعداد لأن نكرنك. لأننا في الحقيقة بحاجة إليك أيها العـ.

- نحتاج لأن تمثل أمام القاضي، وأن تصرح بأنك وقعت كشاهد تحت الضغط والتهديد - أوضح إسكوبيتا - إذا ما صرحت أنت ونرسيس بهذا، فسوف يمضي كل شيء بطريقة أسرع، وسوف يلغى الزواج بجرة قلم. ونحن على استعداد طبعاً لمكافأتك أيها العـ. وبصورة سخية.

- هذه الخدمات يدفع ثمنها، ونحن نعرف جيداً في أي عالم نعيش أضاف ميكي - وسيجري كل شيء بتكم مطلق بالطبع.

- أضف إلى ذلك أنك ستقدم جميلاً عظيماً لأبي أيها العـ. فلا بد أن يكون المسكين في حالة من اليأس الشديد الآن، ولا يدرى كيف يفلت من الشرك الذي وقع فيه في لحظة ضعف. نحن سُـخرجـه من المشكلة وسينتهي به الأمر إلى شكرنا، حقاً.

استمع إليهما ريفوبيرتو دون أن يرمش أو يتحرك، كان متـجـراً في

المقد، كما لو أنه مستغرق في تأملات رصينة. وكان التوءمان ينتظران رده متلهفين. تطاول الصمت لما يقارب الدقيقة. وفي البعيد كان يُسمع بين حين وآخر صفير ناي المجلخ الذي صار خافتًا جداً.

- سأطلب منكما أن تخرجا من هذا البيت، وألا تعودا إلى وضع أقدامكما هنا - قال دون ريغوبيرتو أخيراً، بهدوئه الدائم نفسه - الحقيقة أنكما أسوأ مما كنت أظنه أيها الشابان. مع أنه إذا كان هناك من يعرفكما جيداً، فهو أنا، مذ كنتما ترتديان البنطلونات القصيرة.

- إنك تهيننا - قال ميكى - لا تخطئ يا عماه. إننا نحترم شيبتك، ولكن إلى هذا الحد وليس أكثر.

- لن نسمح لك - أكد إسکوبیتا وهو يضرب المنضدة بقبضته - . ول يكن معلوماً لديك أنك ستختسر في كل الحالات. فتقاعدك نفسه ما زال تحت الدراسة.

- لا تننس من سيكونان صاحبي الشركة فور ارتعاش ساق العجوز المجنون - هدده ميكى.

- طلبت منكما أن تغادرا - قال ريغوبيرتو وهو ينهض ويشير إلى الباب - ولا تعودا للمجيء أبداً إلى هذا البيت. لا أريد رؤيتكم بعد اليوم.

- أظن أنك ستطردنا هكذا من بيتك يا شقة القواد؟ - قال إسکوبیتا وهو ينهض أيضاً ويشد قبضتيه.

- اصمت - قاطعه أخيه وهو يمسكه من ذراعه - . لا يمكن للأمور أن تنحط إلى مشاجرة. اعتذر من العم ريغوبيرتو لشتمك إيه يا إسکوبیتا.

- لا حاجة إلى ذلك. يكفي أن تغادرا ولا تعودا - قال ريغوبيرتو.

- إنه هو من أهاننا يا ميكى. إنه يطردنا من بيته كالكلاب الجرباء.

أتراك لم تسمعه؟

- اعتذر منه، يا للعنة ! - أمره ميكي وهو ينهض واقفاً أيضاً . الآن بالذات ، اطلب منه العذرة.
- لا بأس - أذعن إسکوبیتا ، وكان يرتعش مثل ورقه . أطلب منك الصفح عما قلته يا عماه.
- لقد سامحتك - أكد ریغوبیرتو - لقد انتهت هذه المحادثة. شكرأ لزيارتكم أيها الشابان. وطاب صباحكم.
- سنتبادل الحديث مرة أخرى ، بهدوء أكبر - قال ميكي مودعاً - يؤسفني أن الأمر انتهى على هذا النحو أيها العم ریغوبیرتو. كنا نرغب في التوصل إلى اتفاق ودي معك. ونظراً إلى عدم تساهلك ، لا بد من نقل القضية إلى السلطة القضائية.
- وليس هذا في مصلحتك ، أقولها لك بكل طيب نية لأنك ستندم - قال إسکوبیتا . من الأفضل أن تعيد التفكير في الأمر.
- هيا يا أخي ، اصمت - أمسك ميكي أخيه من ذراعه وسحبه باتجاه الباب الخارجي.
- ما إن خرج التوءمان من البيت حتى رأى ریغوبیرتو ظهور لوکریثیا وخوستینیانا بوجهين مذعورين. وكانت هذه الأخيرة تحمل بين يديها ، كسلام حاسم ، مدققة عجن الدقيق.
- لقد سمعنا كل شيء - قالت لوکریثیا وهي تتأنطذ ذراع زوجها . لو أنها أقدما على عمل أي شيء لك ، كنا جاهزتين للتدخل والانقضاض على الضبعين.
- آه ، من أجل هذا تحملين مدققة خفق العجين - سأل ریغوبیرتو ، فأومأت خوستینیانا بالإيجاب ملوحة في الهواء بهراوتها المرتجلة.
- وأنا كنت أحمل في يدي قضيب تسعير نار المدفأة - قالت لوکریثیا . كنا سننزع عيون هذين المحتالين. أقسم لك يا حبي.

- لقد أحسنتُ التصرف ، أليس كذلك؟ - أبرز دون ريفوبيرتو صدره - لم أسمح لنفسي بالخوف في أية لحظة من ثنائي المتخلفين.
  - لقد تصرفت كسيد عظيم - قالت لوكريثيا - وقد هزم الذكاء القوة البهيمية في هذه المرة على الأقل.
  - تصرفت كرجل يعطي الشعر صدره يا سيدى. قالت خوستينيانا كصدى لقول لوكريثيا.
  - لا أريد أن تصل كلمة واحدة من هذا كله إلى فونتشيتو - أمر ريفوبيرتو - لدى الصبي ما يكفى من وجع الرأس وليس بحاجة للمرزيد.
- وافقتا على كلامه، وفجأة، في آن واحد، انفجر الثلاثة في الضحك.

## IX

بعد ستة أيام من نشر إعلان فيليثيتو ياناكيه في جريدة «التييمبو» (وهو إعلان مُغفل، خلافاً لإعلانه الأول)، لم يُبد الخاطفون أثراً لوجودهم. وعلى الرغم من الجهد الذي بذلها ليتوما والنقيب سيلفا، إلا أنهما لم يجدا أي أثر لما بليل. لم يكن خبر الاختطاف قد وصل إلى الصحافة، وكان النقيب سيلفا يقول إن مثل هذه المعجزة لا يمكن أن تستمر، فمن المحال، في ظل الاهتمام الذي تحظى به قضية صاحب نارييهوالا للنقل في بيرو بأسرها، إلا يحتل حدثاً بمثل تلك الأهمية صدارة أخبار الجرائد والإذاعة والتلفزيون سريعاً. وفي أية لحظة قد يُعرف كل شيء، ويصاب العقيد راسكاتشوتشا بنوبة غضب عظيمة أخرى، مع ما يرافقها من توبيخ وتجریح ورفسات عصبية.

كان ليتوما يعرف رئيسه بما يكفي لأن يدرك مدى القلق الذي يشعر به المفوض، حتى ولو لم يقل ذلك، وأبدى الثقة بالنفس وواصل التفوه بتعليقاته النابية والداعرة المعهودة. لا بد أن رئيسه يتساءل، مثلاً يتساءل هو نفسه، عما إذا لم تكن يد مافيا العنكبوت قد تجاوزت الحد مع تلك السمراء، عشيقة دون فيليثيتو، وصارت في عداد الموتى ومدفونة في إحدى مزابل الضواحي. ففي كل مرة يلتقيان فيها بصاحب شركة النقل الذي تستنزفه تلك النكبة، كان الرقيب والنقيب يتأثران للازرقاق المحيط بعينيه، وارتজاف يديه، ولكيفية انقطاع صوته في منتصف

جملة وتوقفه كمحبول، ينظر إلى الفراغ برعب، صامتاً وأسير جنون فظيع يتبدى في عينيه الصغيرتين الحادتين. «في أية لحظة قد تصيبه سكتة قلبية ويظل متخشاً هنا»، كان ليتوما يفكر بخوف. وقد صار رئيسه يدخن الآن ضعف عدد السجائر التي كان يدخنها من قبل، ويستبقي أعقاب السجائر بين شفتيه ويعضضها، وهو ما لا يفعله إلا في حالات القلق العظيم.

- ماذا سنفعل إذا لم تظهر السيدة مابيل يا نقبي. أقول لك إن هذه القضية تؤرقني كل ليلة.

- ستنتحر يا ليتوما - يحاول المفوض أن يمزح - سلنعب لعبة الروليت الروسية، وهكذا نغادر هذا العالم بخصيتيين قويتين، مثلما حدث لسيميناريyo مراهنتك. ولكنها ستظهر، لا تكن متشائماً جداً. فهم يعرفون من الإعلان في «التييمبو»، أو يظنون على الأقل، أنهم قد كسروا إرادة ياناكيه أخيراً. ولا بد أنهم يريدونه الآن أن يعاني قليلاً كي ينجزوا العمل على أحسن وجه. ليس هذا هو ما يقلقني يا ليتوما. أتعرف ما الذي يقلقني بالمقابل؟ أن يفقد دون فيليثيتو عقله، ويخطر له فجأة أن ينشر إعلاناً آخر يتراجع فيه عن السابق ويقوض الخطة كلها. لم يكن من السهل إقناعه. فقد تطلب الأمر من النقيب عدة ساعات في تقديم السيناريوهات المحتملة من أجل نشر الإعلان في جريدة «التييمبو» ذلك اليوم بالذات. تحدث إليه أولاً في المفوضية، وبعد ذلك في «الرجل الغريبة»، وهي حانة أخذاه إليها، هو وليتوما، بما يشبه الجرجرة. رأيه يشرب، واحداً بعد آخر، نصف دستة من أكواب كوكتيل الخروب، على رغم من أنه لا يشرب أبداً، كما كر لها عدة مرات. فالكحول يؤذى معدته، يسبب له حرقة وإسهالاً. ولكنه مختلف الآن. فقد عانى انكساراً رهيباً، هو الأشد ألمًا في حياته، والكحول يكبح

الرغبة في نوبة بكاء أخرى.

- أرجوك أن تصدقني يا دون فيليثيتو - كان المفوض يشرح له مبدياً المزيد من الصبر - أنا لا أطلب منك أن تستسلم في مواجهة المافيا، أفهم ذلك. لا يمكن أن يخطر لي أن أنسنك بأن تدفع لهم الإتاوة التي يطلبونها.

- هذا ما لن أفعله أبداً - كرر صاحب شركة النقل مرتجاً وحاسماً - حتى لو قتلوا مابيل واضطربت إلى الانتحار كيلا أعيش مع هذا الشعور بالذنب في ضميري.

- لست أطلب منك سوى التظاهر، لا شيء أكثر. أجعلهم يعتقدون أنك وافقت على شروطهم - ألح النقيب - ليس عليك أن تتخلى لهم عن سنتٍ واحد، أقسم لك بأمي. وبخوسيفيتا، تلك الجميلة. إننا بحاجة إلى أن يطلقوا سراح الفتاة، ويمكن لهذا أن يجعلنا نلتمس آثارهم. أعرف جيداً ما أقوله لك، صدقني. إنها مهنتي وأعرف بالتفصيل كيف يتصرف أولئك المجرمون. لا تكون عنيداً يا دون فيليثيتو.

- لست أفعل هذا عناداً أيها النقيب - كان صاحب شركة النقل قد هدا، وبدت على وجهه الآن ملامح تراجيكوميدية، لأن خصلة شعر قد تدللت على جبينه وغطت جزءاً من عينيه اليمنى. وبدأ أنه لم ينتبه إليها - أنا أحب مابيل كثيراً، أحبها. قلبي يتمزق لوقوع شخص مثلها، ليس له أية علاقة بهذه القضية، ضحية شرور أولئك المجرمين وجشعهم. ليس الأمر متعلق بي، عليك أن تفهمني أيها النقيب. لا يمكنني أن أسيئ إلى ذكرى أبي.

ظل صامتاً لبرهة، يتأمل كأسه الفارغة من شراب الخروب، فظن ليتوما أنه سيبدأ بالتباهي مرة أخرى. لكنه لم يفعل. بل أطرق برأسه، دون أن يراهما، كما لو أنه لا يتوجه إليهما وإنما يكلم نفسه، وراح

الرجل الضئيل المحشور في جاكيته وفي صداره الرمادي يتذكر أبيه. كانت هناك بعض ذبابات زرقاء تزن محومة حول رأسه؛ وفي البعيد يسمع جدال مرتفع الصوت بين رجلين حول حادث سير. كان فيليثيتو يتكلم بصورة متقطعة، يبحث عن الكلمات لإضفاء التفخيم اللازم على ما يرويه، ويستسلم للعاطفة أحياناً. سرعان ما أدرك ليتوما والنقيب سيلفا أن ذلك الياناكوني المدعو ألينيو ياناكيه، من مزرعة ياباتيرا بتشلوكاناس، هو أكثر شخص أحبه فيليثيتو في حياته. ليس لأن دماءه نفسها تجري في عروقه وحسب، وإنما كذلك لأنه تمكّن بفضل ذلك الأب من الوقوف على قدميه والصعود انطلاقاً من الفقر، أو بعبارة أدق، من البؤس الذي ولد وأمضى طفولته فيه - وهو بؤس لا يمكن لهما حتى أن يتصوراه - إلى أن صار رجل أعمال، يملك أسطولاً كبيراً من السيارات والشاحنات والحافلات، وشركة نقل معتمدة تمنع السمو لاسم عائلته المتواضع. لقد اكتسب احترام الناس، ومن يعرفونه يعرفون أنه محترم ونزيه. وقد تمكّن من توفير تعليم جيد لابنيه، وحياة كريمة، ومهنة، وسيترك لها ناريهولا للنقل، الشركة المحترمة جداً بين زبائنها ومنافسيها. وهذا كله لم يتوصل إليه بجهوده وحدها، وإنما بتضحيات ألينيو ياناكيه. فهو لم يكن أبوه وحسب، بل كان أمه وأسرته أيضاً، لأن فيليثيتو لم يعرف قط المرأة التي جاءت به إلى الدنيا، كما أنه لم يعرف أي قريب آخر له. بل إنه لم يكن يعرف سبب ولادته في ياباتيرا، وهي قرية زنوج وخلاصيين، حيث كان آل ياناكيه - هو وأبوه - يبدوان غريبين لكونهما كروبيلين، أي خلاسيين تشنلو. كانا يمارسان حياة منعزلة عن الآخرين، لأن زنوج ياباتيرا ما كانوا يتصادقون مع ألينيو وابنه. فقد عاشا وحيدين على الدوام، إما لأنهما بلا أسرة، وإما لأن أباهم لم يكن يرغب في أن يعرف فيليثيتو من

هم أعمامه وأبناء عمومته، وأين يعيشون. إنه لا يتذكر، لأنَّه كان صغيراً جداً عندما حدث ذلك، ولكنه يعرف أنَّ أمه قد ذهبت بعد قليل من ولادته، ومن يدري إلى أين راحت ومع من. ولم تظهر بعد ذلك قطُّ وهو يتذكر، مذ صار في رأسه ذاكرة، أنَّ أباً كان يعمل كبغل في قطعة الأرض التي قدمها إليه السيد المالك، وفي مزرعة ذلك السيد، دون عطلة يوم أحد أو أعياد، طيلة أيام الأسبوع وطيلة شهور السنة. وكان ألينيو ياناكِيه يُنفق كل ما يتلقاه، وهو قليل، من أجل إطعام فيليثيتو، وذهابه إلى المدرسة، ومن أجل أنْ يوفر له حذاء وملابس ودفاتر وأقلام. وفي بعض الأحيان كان يهدى إليه لعبة ما في عيد الميلاد، أو يعطيه قطعة نقود كي يشتري مصاصة أو حلوي. لم يكن من أولئك الآباء الذين يظلون طيلة الوقت يمنون أبناءهم وينثثرون عليهم بالعجزة. كان أباً قليلاً الكلام، متقدساً، لم يقبله أو يعاقبه قطُّ، ولم يرو له دعابات لإضحاكه. ولكنه حرم نفسه من كل شيء كيلاً يكون ابنه حين يكبر أمياً مثله. لم يكن يوجد في ياباتيرا آنذاك ولو مدرسة صغيرة. فكان على فيليثيتو أنْ يمشي من بيته حتى تشولوكاناس، حوالي خمسة كيلومترات ذهاباً وخمسة أخرى إياباً، ولم يكن يجد على الدوام سائقاً مُحسناً يسمح له بالصعود إلى شاحنته ويوفِّر عليه تلك المسيرة. لا يتذكر أنه تغيب يوماً واحداً عن المدرسة. وكان يحصل دوماً على درجات جيدة. ولأنَّ أباً لا يعرف القراءة، كان على فيليثيتو نفسه أنْ يقرأ له ما يقوله سجله المدرسي، وأنْ يشعر بالسعادة حين يرى ألينيو ينتفع كطاوس وهو يسمع تعليقات ثناء المعلمين. ومن أجل أنْ يتمكن فيليثيتو من مواصلة المدرسة الإعدادية، ولأنَّه لا وجود ل مكان شاغر في مدرسة تشولوكاناس الوحيدة، اضطرا إلى المجيء إلى ببورا. وقد أسعد ألينيو أنَّ ابنه فيليثيتو قد قبل في وحدة سان ميغيل المدرسية في ببورا، وهي

المدرسة الرسمية الأشهر في المدينة. وبأمر من أبيه، أخفى فيليثيتو عن زملائه وأساتذته أن أباه يكسب عيشه من تحميم البضائع وتفريغها في السوق المركزي، هناك في غايناثيرا، وأنه يعمل في الليل بجمع القمامات في شاحنات البلدية. كل تلك الجهد من أجل أن يتعلم ابنه ولا يكون، حين يكبر، ياناكونياً ولا حملاً ولا زبلاً. والنصيحة التي قدّمتها إليه ألينيو قبل موته، «لا تسمح لأحد قطّ بأن يُذلّك يا بني»، كانت تلك هي عملة حياته الصعبة. وهو لن يسمح الآن كذلك بأن يُذلّه أولئك اللصوص مشعلي الحرائق والخاطفين وأبناء السبع عاهرات.

- أبي لم يطلب صدقة قطّ، ولم يسمح لأحد بأن يُذلّه - أنهى كلامه.  
- لا بد أن أباك كان شخصاً محترماً مثلك يا دون فيليثيتو - مالقه المفوض - ولن أطلب منك أبداً أن تخونه، أقسم لك بذلك. كل ما أطلبه منك هو القيام بمراؤحة، بشّرك، أن تنشر في جريدة «القييمبو» هذا الإعلان الذي طلبوه منك. سيظفرون أنهم قد تمكنا من ليّ ذراعك، وسيطلقون سراح مابيل. هذا هو المهم الآن. وهكذا سيكشفون أنفسهم وستتمكن من القبض عليهم.

وافق فيليثيتو أخيراً. وقام بالتعاون من النقيب بتحرير النص الذي سيظهر منشورةً في صحيفة اليوم التالي.

رسالة شكر للسيد كاوتييفو دي آياباكا

أشكر من أعماق روحي السيد كاوتييفو آياباكا الذي حقق لي، بكرمه اللامتناهي، العجزة التي طلبتها. وسائل ممتناً له دائماً ومتابعاً كافة الخطوات التي يشير علىّ بها بحكمته ورحمته العظيمتين.

من ملخص

في تلك الأيام، وبينما هم ينتظرون إشارة ما من مافيوسي العنكبوت، تلقى ليتوما رسالة من الأخوين ليون. فقد أقنعوا ريتا، زوجة المونو، بأن

تسمح له بالخروج ليلاً، وهذا يعني أنهم بدل الغداء سيتناولون العشاء معاً يوم السبت. التقوا في حانة، بالقرب من دير راهبات مدرسة لورديس. خلع ليتوما زيه الشرطي في نزل الزوجين كالانتشى وذهب بملابس مدنية، بالبدلة الوحيدة التي يملكها. أخذها أولاً إلى المصبحة كي يغسلوها ويكونوها. لم يضع ربطه عنق، لكنه اشتري قميصاً من متجر يقوم بتصفية موجوداته. مع حذاءه عند كشك لبيع الصحف، واستحم في حمام عمومي قبل توجهه إلى المونو مع ابني عمه.

من أجل التعرف إلى المونو، احتاج إلى جهد أكبر مما تطلبه منه التعرف إلى خوسيه. لأن المونو قد تغير فعلاً. ليس بدنياً فقط، وإن صار أكثر بدانة بكثير مما كان عليه في شبابه، وصار شعره قليلاً، وهناك أكياس بنفسجية تحت عينيه وتتجعدات عند السالفين وحول الفم وفي العنق. وكان يرتدي ملابس «سبور» أنيقة، وينتعل حذاء شديد البياض، ويوضع في معصمه سلسلة ذهبية وتندل سلسلة أخرى على صدره. لكن أكبر تبدل طرأ عليه هو أساليبه المطمئنة والهادئة، كشخص واثق ثقة عظيمة بنفسه لأنه اكتشف سر الوجود وطريقة التعايش على أحسن حال مع الجميع. لم يبق فيه أي أثر لحركات العفرة والتهريج التي كان يقوم بها في صباه والتي اكتسب بها لقب المونو [القرد].

عائقه بكثير من المحبة: «يا لروعه اللقاء بك من جديد يا ليتوما!». - لم يعد ينقصنا إلا أن نغنى نشيد المنيعين - هتف خوسيه، ثم صفق بيديه طالباً من الصيني أن يأتيهم بزجاجتي بيرة ساحليتين كبيرتين وبمردتين جيداً.

كان اللقاء في بدايته على شيء من الوقار المتكلف والشاق، فبعد كل مقارنة للذكريات المشتركة يسود فاصل طويل من الصمت، ترافقه ضحكات مغتصبة ونظرات عصبية. لقد انقضى زمن طويل، وقد عاش

كل منهم حياته، ولم يكن سهلاً عليهم بعث الرفاقية القديمة. كان ليتوما يتململ بقلق على مقعده، ويقول لنفسه إنه ربما كان من الأفضل تجنب ذلك اللقاء. فهو يتذكر بونيفاثيا، ويتذكر خوسيفينو، فينكمش شيء في معدته. وعلى الرغم من ذلك، ومع توالي إفراغ زجاجات البيرة التي يرفقونها بالرز المقلبي والمعكرونة الصينية ولحم البط ذهبي اللون، وحساء الشيشيرك الصيني، والقرىداس المقلبي، راحت الحماسة تسري في دمائهم، وأخذت السننهم تنفلت. بدؤوا يشعرون بالاسترخاء والراحة. روى خوسيه والمونو بعض الدعابات، وحث ليتوما ابن عمه على القيام ببعض حركات المحاكاة التي كانت طبقه الرئيسي في شبابه. أن يقلد، مثلاً، عظات الأب غارسيا في كنيسته، كنيسة عذراء الكارمن القائمة في ساحة ميرينو. تواني المونو في بادئ الأمر، ولكنه سرعان ما تحمس وبدأ يعظ ويطلق التهديدات التوراتية الصاعقة، مقلداً الكاهن الإسباني العجوز، هاوي جمع الطوابع والتزق، والذي تتحدث الأسطورة عن أنه قد أقدم مع جماعته من المتدينين الهايجين على إحرق أول ماخور في تاريخ بيورا، وكان يقوم في وسط الرملة في الطريق إلى كاتاكاوس، وكان يديره والد تشونغا تشونغيفيتا. يا للأب غارسيا المسكين! كم مرمر المنيعون حياته وهم يصرخون عليه في الشوارع: «حارق! حارق!». لقد حولوا السنوات الأخيرة من حياة الرجل النزق إلى جحيم من العذاب. فكان كلما التقى بهم في الشارع، يطلق عليهم سباباً بصوته الحلقى: «كسالى! سكيرون! منحلون!». آي، يا للضحك. يا لتلك الأزمنة، لقد مضت إلى غير رجعة كما تقول أغنية التانغو.

أنهوا العشاء بتناول حلوى برقال صينية، ولكنهم واصلوا الشرب، كان رأس ليتوما قد تحول إلى دوامة هادئة وبهيجية. كل شيء كان يدور، وتأتيه بين الفينة والفينية تثاؤبات لا يمكن له كبحها، وتوشك

أن تخلع عظام فكيه. وفجأة، وسط ذلك النوع من الإغفاء شبه الوعي، انتبه إلى أن المونو بدأ يتكلم عن فيليثيتو ياناكيه. كان يسأله عن شيء ما. أحس بأن بداية سُكُرٍه تلك قد راحت تتبعثر، واستعاد السيطرة على وعيه.

- ماذا جرى للمسكين فيليثيتو يابن العم؟ - كرر المونو - لا بد أنك تعرف شيئاً ما. أما زال مصراً على عدم دفع الإتاوة التي يطلبونها منه؟ بيفيل وتيبورثيو قلقان جداً على أبيهما، فالامر يشغل بال الابنين. إنهم يحبان عجوزهما على الرغم من أنه كان قاسياً جداً معهما. يخشيان أن يقتله المافياويون.

- أنت تعرف ابني دون فيليثيتو؟ سأله ليتوما.

- ألم يخبرك خوسيه؟ - أجابة المونو - إننا نعرفهما منذ وقت طويل. - كانا يأتيان بسيارات ناريهوا لا للنقل إلى الورشة من أجل الإصلاح والصيانة - بدا خوسيه متضايقاً من بوج المونو - إنهم طيبان. هذا لا يعني أننا أصدقاء جداً. إنهم من المعارف وحسب.

- لقد لعبنا القمار معهما مرات عديدة - أضاف المونو - تيبورثيو ماهر جداً بألعاب النرد.

- أخبراني ببعض الأمور عن هذين الشخصين - ألح ليتوما - لم ألتقي بهما سوى مررتين، حين جاءا لتقديم أقوالهما في المفوضية.

- إنهم شخصان طيبان جداً - أكد المونو - ويعانيان كثيراً مما يتعرض له أبوهما. على الرغم من أن العجوز كان متسطلاً في تعامله معهما كما يبدو. لقد جعلهما يقoman بكل الأعمال في شركته، بدءاً من الأعمال الدنيا. وما زال يستخدمهما كسائقين، ويقال إنه يدفع لهما مثلما يدفع للسائقين الآخرين. لا يقدم لهما أي تفضل، على الرغم من أنهم ابناء. لا يدفع لهم ولو قرشاً واحداً زيادة، ولا يقدم لهم أية

مكافآت. وقد أدخل ميغيليتو، كما تعرف، إلى الجيش، ويقال إنه فعل ذلك لتقويمه، لأنه كان آخذاً بالانحراف. يا له من عجوز!

- دون فيليثيتو هو واحد من أولئك الأشخاص النادرين الذين لا يظهرون إلا بين فترة وأخرى في الحياة - أُعلن ليتوما - إنه أكثر من عرفتهم استقامه. كان يمكن لأي رجل أعمال آخر أن يدفع تلك الإتاوة ويزبح ذلك الكابوس عن كاهله.

- حسن، على كل حال، ميغيليتو وتيبورثيو سيرثان نارهوا لا للنقل وسيخرجان من الفقر - حاول خوسيه أن يغير الموضوع - وأنت كيف أحوالك يابن العم؟ أعني في الأمور النسائية مثلاً. الديك امرأة... عشيقه... عشيقات؟ أم أنك تتردد على العاهرات فقط؟

- لا تتجاوز الحد يا خوسيه - أومأ المونو مبالغًا كما في الأزمنة القديمة - انظر كيف أربكت ابن العم بهذا الفضول سيني الظن الذي تبديه.

- ألا تكون مازلت تشعر بالحنين إلى تلك التي حولها خوسيفينو إلى عاهرة يابن العم؟ - ضحك خوسيه - كانوا يدعونها سيلفاتيكا، أليس كذلك؟

- لم أعد أتذكر من تكون - أكد ليتوما وهو ينظر إلى السقف.

- لا تذكر ابن العم بأمور حزينة، تشي غوا، يا خوسيه.

- من الأفضل أن نتحدث عن دون فيليثيتو - اقترح عليهمما ليتوما -

الحقيقة أنه رجل قوي الشخصية وشجاع. إنه يصيّبني بالذهول.

- ومن لم يصبه الذهول منه، لقد تحول إلى بطل بيورا، وصار مشهوراً مثل الأميرال غراو - قال المونو - . ربما بعد أن تحول الآن إلى

شخصية واسعة الشعبية لم يعد بإمكان المافيا أن تتجرأ على تصفيته.

- بالعكس، سيحاولون تصفيته لأنه صار مشهوراً. لقد جعلهم

أضحوكة، ولا يمكنهم التسامح مع ذلك - قال خوسيه - إن شرف المافياوين في اللعبة يا أخي. إذا ما نجح دون فيليثيتو في ما هو فيه، فسوف يتوقف جميع رجال الأعمال الذين يدفعون عن الدفع غداً بالذات، وسوف تفلس المافيا. أتظنن أنهم سيتحملون ذلك؟

هل صار ابن عمه خوسيه عصبياً؟ وانتبه ليتوما، وسط تناوبه، إلى أن خوسيه بدأ مجدداً برسم خطوط بطرف ظفره. لم يركز بصره، كيلا يستوحى أنه يرسم عناكب، مثلما اعتقاد في المرة السابقة.

- ولماذا لا تفعلون شيئاً يابن العم؟ - احتاج المونو - أعني أنتم في الحرس الأهلي. لا تغضب يا ليتوما، ولكن الشرطة، هنا في بيورا على الأقل، ليست إلا مظاهر فارغة. لا تفعل شيئاً في أي شأن ولا تنفع إلا في طلب إكراميات.

- ليس في بيورا وحدها - جاراه ليتوما - إننا مجرد مظاهر فارغة في البيرو بأسرها يابن العم. ولكنني أنبهك إلى أمر، فأنا على الأقل، وخلال كل السنوات التي أمضيتها وأنا أرتدي الزي الشرطي، لم أطلب بعد أية إكرامية من أحد. ولهذا أعيش حياة أشد بؤساً من متسلول. فلنرجع إلى الحديث عن فيليثيتو، الحقيقة أن القضية لا تتقدم لأننا لا نملك إلا القليل من الوسائل التقنية. اختصاصي الخط الذي عليه أن يساعدنا، هو في إجازة الآن، إذ أجريت له عملية بواسير. التحقيق برمته متوقف بسبب مؤخرة ذلك السيد المتأذية، فتصور.

- أتعني أنه ليس لديكم حتى الآن أي أثر يقود إلى المافياوين؟ - ألح المونو. وكان يمكن لليتوما أن يقسم بأن خوسيه كان يتسلل بعينيه كيلا يواصل أخوه الحديث في الموضوع نفسه.

- لدينا بعض الآثار، ولكن لا وجود لشيء مضمون منها - حدد الرقيب - لكنهم سيقدمون عاجلاً أو آجلاً على خطوة تكشفهم. المشكلة

أنه لا توجد، في بيورا الآن، مafia واحدة وإنما عدة مafias. ولكنهم سيقعون. إنهم يتمادون دوماً وينتهي بهم الأمر إلى كشف أنفسهم. لسوء الحظ أنهم لم يقتروا أي خطأ حتى الآن.

عاد يوجه إليهما أسئلة عن تيبورثيو وميفيليتو، ابني صاحب شركة النقل، وبدا له مجدداً أن خوسيه لا يروقه هذا الموضوع. وفي إحدى اللحظات بربت ناقض بين الأخرين:

- الحقيقة أننا تعرفنا عليهما منذ زمن قصير جداً. صار خوسيه يلح بين لحظة وأخرى.

- كيف منذ وقت قصير إذا كنا نعرفهما منذ سبع سنوات على الأقل - صحيح له المونو -. ألم تعد تتذكر تلك المرة التي أخذنا فيها تيبورثيو إلى تشيكلايو في إحدى شاحناته الصغيرة؟ كم مضى على ذلك؟ زمن طويل. حين كنا نحاول تلك الصفقة التي لم تتحقق.

- أي صفقة يابن العم؟

- بيع آلات زراعية للجمعيات والتعاونيات الزراعية في الشمال - قال خوسيه -. لم يكن أولئك العاهرون يدفعون قط. يحتاجون على جميع الكمباليات. لقد خسرنا استثمارنا كله تقريباً.

لم يلح ليتوما. وبعد أن ودع المونو وخوسيه في تلك الليلة وشكرهما على المأكولات الصينية، ركب في حافلة نقل عام حتى الثزل، واندس هناك في الفراش. ظل مستيقظاً لوقت طويلاً يفكر بابني عمه. ولاسيما خوسيه. لماذا يشعر بالاستياء منه إلى هذا الحد؟ هل بسبب الرسوم التي يُحدثها بظفره على المنضدة فقط؟ أم أن هنالك شيئاً مريباً حقاً في سلوكه؟ لقد كان يبدو غريباً، كمن يحفل، كلما دار الحديث عن ابني دون فيليثيتو. أم أنها محض توجسات منه بسبب ضياعهما هو والنقيب في التحريرات؟ أيخبر النقيب سيلفا بشكوكه هذه؟ من الأفضل

الانتظار إلى أن يصبح ذلك كله أقل ضبابية ويتحذ شكلاً متكاملاً.  
ومع ذلك فإن أول ما فعله في صباح اليوم التالي هو رواية كل ما جرى لرئيسه. استمع إليه النقيب سيلفا باهتمام، دون أن يقاطعه، وهو بدون ملاحظات في دفتر جيب وبقلم رصاص صغير جداً يختفي بين أصابعه. وأخيراً ددم: «يبدو لي أنه لا وجود لشيء جدي هنا. لا يوجد أي أثر يمكن تتبعه يا ليتوما. أبنا عنك ليون يبدوان نظيفين لا غبار عليهم ولا قش». ولكن ظل ساهماً، صامتاً، بعض قلم الرصاص كما لو أنه سيجارة. وفجأة اتخذ قراراً:

- أتدرى يا ليتوما؟ سوف نتبادل الحديث مجدداً مع ابني دون فيليثيتو. بعد ما رويته لي صرت أرى أننا لم نستخرج من هذا الثنائي بعد كل ما لديه من عصارة. يجب عصرهما أكثر قليلاً. حدد لهما موعداً في الغد، وكل منها على حدة بالطبع.

في تلك اللحظة طرق حارس مدخل المفوضية باب المقصورة وأطل بوجهه الشاب والأمرد من فتحة الباب الضيقة: السيد فيليثيتو ياناكيه يتصل هاتفياً يا سيد النقيب. كان الاتصال مستعجلًا جداً. رأى ليتوما المفوض وهو يرفع سماعة جهاز الهاتف القديم، سمعه يدمدم: «صباح الخير يا دون». ورأى وجهه يشرق كما لو أنه تلقى خبر فوزه بجائزة اليانصيب الكبرى. «ستنوجه إلى هناك فوراً»، صاح وأغلق الهاتف.

- لقد ظهرت مابيل يا ليتوما. إنها في بيتها الصغير في كاستيبيا. هيا بنا، أسرع. ألم أقل لك؟ لقد ابتلعوا القصة! لقد أطلقوا سراحها! كان سعيداً كما لو أنه قد ألقى القبض على مافيا العنكبوت.



## X

:

- هذه مفاجأة حقيقة - صاح الأدب أودونوفان حين رأى ريفوبيرتو يظهر عند باب حجرة المقدسات، حيث كان الكاهن قد انتهى للتو من خلع الرداء الذي قاد به قداس الساعة الثامنة - أنت هنا يا ذا الأذنين الكبيرتين؟ تأتي إلى بعد كل هذا الزمن الطويل. لا أكاد أصدق.

كان رجلاً طويلاً، متيناً، بهيجاً، له عينان لطيفتان، تلمعان وراء نظارة إطارها من دروع السلاحف، وصلعة متقدمة. بدا كأنه يشغل كامل الحيز في المكان الضيق ذي الجدران المقشرة، منزوعة الطلاء، والأرضية المثلثة التي يصلها ضوء النهار من خلال نافذة في السقف تتدلى منها شباك عنكبوت.

تعانقا بالحميمية القديمة نفسها؛ فهما لم يلتقيا منذ شهور، ربما منذ عام. لقد تلقيا التعليم معاً في مدرسة ريكوليتا، منذ السنة الأولى الابتدائية حتى السنة الخامسة المتوسطة، كانوا صديقين حميمين، وكانا في إحدى السنوات زميلين في المهد نفسه. بعد ذلك، حين دخل كلاهما إلى الجامعة الكاثوليكية لدراسة الحقوق، تواصلت لقاءاتهما بكثرة. وكانا عضوين في منظمة العمل الكاثوليكي، كما أنهما كانوا يختاران الفصول الدراسية نفسها، ويدرسان معاً. إلى أن قدم بيبين أودونوفان، ذات يوم، إلى صديقه ريفوبيرتو مفاجأة حياته.

- لا تقل لي إن ظهورك هنا يعني أنك قد تحولت وجئت إلى لأتلقي

اعترافاتك يا كبير الأذنين - قال الأب أودونوفان ساخراً وهو يقوده من ذراعه نحو حجرة مكتبه الصغيرة في الكنيسة. قدم إليه كرسيّاً. كانت هناك رفوف كتب وملفات، ورسمٌ للمصلوب، وصورة للبابا وصورة أخرى لأبوي بيبيين. جزءٌ من السقف كان خرباً ويُظهر مزيج القصب والطين اللذين شيد بهما. هل هذه الكنيسة من بقايا العهد الاستعماري؟ إنها متداعية ويمكن لها أن تنهار في أية لحظة.

- جئت لرؤيتك لأنني بحاجة إلى مساعدتك، هكذا بكل بساطة - ترك ريفوبيرتو نفسه يهوي على المبعد الذي طقطق وهو يتلقى ثقله، ثم زفر بضيق. بيبيين هو الشخص الوحيد الذي ما زال يدعوه بلقب أيام المدرسة: «كبير الأذنين» و«ذو الأذنين». وكان اللقب يسبب له عقدة إلى حد ما في مراهقته. ولكن ذلك لم يعد يهمه الآن.

في ذلك الصباح البعيد، في كافيتريا الجامعة الكاثوليكية، مع بدء السنة الثانية من دراستهما الحقوق، حين أعلن له بيبيين أودونوفان فجأة، بتلقائية من يعلق على أحد دروس القانون المدني أو على مبارأة كرة القدم الأخيرة بين فريق أليانثا وفريق الجامعة، أنهما لن يلتقيا البعض الوقت، لأنه سيغادر في تلك الليلة بالذات إلى سنتياغو دي تشيلي لبدء حياته كراهب مستجد. ظن ريفوبيرتو أن صديقه يمزح. «أتعني أنك ستتحول إلى كاهن؟ دعك من المزاح يا رجل». صحيح أن كلّيهما كان عضواً في منظمة العمل الكاثوليكي، ولكن بيبيين لم يلمح قطًّا لصديقه ذي الأذنين الكبيرتين بأنه قد شعر بالنداء. وما يقوله له ليس مزاحاً بأي حال، بل هو قرار فكر فيه بعمق، في الوحدة والصمت، طوال سنوات. ثم عرف ريفوبيرتو في ما بعد أن بيبيين تعرض لمشاكل كثيرة مع أبويه، لأن الأسرة حاولت بكل الوسائل أن تثنّيه عن دخول المدرسة الدينية.

- أجل يا رجل، بالطبع - قال الأب أودونوفان - إذا كان بإمكانني مساعدتك، فسأفعل بكل سرور يا ريفوبيرتو، هذا أقل ما يمكن عمله.

لم يعد بيبين بأي حال واحداً من أولئك الصبية الم الدينين الذين يشاركون في كل قداديس المدرسة، معن كان الكهنة يحثونهم ويحاولون إقناعهم بأن لهم ميلاً دينية، وأن الرب قد اختارهم للكهنوت. لقد كان أحد أكثر الصبيان طبيعية في العالم: رياضي، محظ للحفلات والتعدد إلى البنات، بل كانت له محبوبة لبعض الوقت، خوليتا ماير، فتاة كثيرة النعش ولاعبة كرة طائرة، تدرس في مدرسة سانتا أورسولا.

وكان بيبين يقوم بواجب الذهاب إلى القدس، مثل جميع تلاميذ مدرسة ريكوليتا، وكان عضواً مؤوياً في منظمة العمل الكاثوليكي، ولكنه لم يكن، على ما يتذكر ريفوبيرتو، أشد تديناً من الآخرين، ولا كثير الاهتمام بالمناقشات المكرسة للتوجهات الدينية. بل إنه لم يكن يتتردد على الخلوات التي ينظمها الكهنة بين حين وآخر في بيته — مزرعة يملكونه في تشوسيكا. لا، لم يكن مزاحاً، بل قراراً لا رجعة عنه. لقد شعر بالنداء منذ طفولته وفكر بالأمر طويلاً، دون أن يخبر أحداً، قبل أن يخطو الخطوة الكبرى الحاسمة. والآن لم يعد هنالك مجال للتراجع.

وفي تلك الليلة بالذات سافر إلى تشيلي. المرة التالية التي التقى فيها، بعد عدد لا بأس به من السنوات، كان بيبين قد تحول إلى الأب أودونوفان، وكان يرتدي ملابس كاهن، ويضع نظارة، وله صلة مبكرة، ويبداً مسيرته كدرج مهوس. مازال شخصاً بسيطاً ولطيفاً، ويبدو كلما التقى بأنه قد تحول أكثر فأكثر إلى نوع من الإيقاع الثابت، فكان ريفوبيرتو يقول له: «لحسن الحظ أنك لم تتغير يا بيبين، لحسن الحظ أنك لا تبدو كاهناً على الرغم من أنك كذلك». فيرد عليه هذا ساخراً على الدوام من اللقب الذي كانوا ينادونه به في أيام الشباب:

«وأنت أيضاً مازالت تنمو لك أذنا الحمار هاتين يا ذا الأذنين الكبيرتين، ما هو السبب يا ترى؟».

- الموضوع لا يتعلّق بي - أوضح له ريفوبيرتو - بل بفونتشيتو. لم نعد أنا ولوكريثيا نعرف ماذا علينا أن نفعل مع هذا الصبي يا بيبين. إنه يتسبّب لنا بظهور شعر شائب أخضر اللون حقاً.

واصل اللقاء بشيء من التواتر. وكان الأب أودونوفان هو من زوج ريفوبيرتو من إليسيا، امرأته الأولى، أم فونتشيتو المتوفاة، وبعد ترمله، زوجه أيضاً من لوكريثيا، في حفل حميم اقتصر على حفنة من الأصدقاء. وهو من عمد فونتشيتو، كما أنه يذهب بين حين وآخر لتناول الغداء وسماع الموسيقى في بيتهم بحدي بارانكو، حيث يستقبلونه بكثير من المودة. وقد ساعده ريفوبيرتو في بعض المرات بتبرعات (منه شخصياً أو من شركة التأمين) لأعمال الإحسان في أبرشيته. وعندما يلتقيان بتحديثان، بصورة خاصة، عن الموسيقى التي أحبها بيبين أودونوفان كثيراً على الدوام. وقد دعاه ريفوبيرتو ولوكريثيا أكثر من مرة إلى حضور حفلات موسيقية تقيمها جمعية ليما الفيلارمونيكا في قاعة سانتا أورسولا.

- لا تقلق يا رجل، ليس هنالك ما يستدعي القلق - قال الأب أودونوفان - جميع الفتيا في العالم لديهم مشكلات ويسبّبون المشاكل في سن الخامسة عشرة. وإذا لم تكن لديهم مشاكل، فلأنهم حمقى. الأمر طبيعي.

- يكون الأمر طبيعياً لو أنه مال إلى السُّكر، أو ذهب إلى المومسات، أو دخن لفافة ماريجوانا، أو قام بفظاعات مثل تلك التي كنا نقوم بها أنا وأنت حين كنا في عمر فرخ البط - قال ريفوبيرتو محزوناً - ولكن لا يا صديقي العجوز، فونتشيتو لم يتوجه إلى شيء من ذلك. وباختصار -

أعرف أنك سوف تضحك -، لقد استقر في رأسه منذ بعض الوقت أن الشيطان يظهر له.

حاول الأب أودونوفان كبح نفسه، ولكنه لم يستطع وأفلت قهقهة مدوية.

- لست أضحك من فونتشيتو، وإنما منك أنت - أوضح وهو لا يزال يضحك -. أضحك من أنك أنت يا ذا الأذنين الكبيرتين تتكلم عن الشيطان. اسم هذه الشخصية يبدو غريباً في فمك. يبدو ناشزاً.

- لا أدرى إن كان الشيطان، لم أقل لك قطّ من هو، لم أستخدم قطّ هذه الكلمة، لا أدرى لماذا تستخدمنها أنت يا أبي - احتج فونتشيتو بصوت ضعيف إلى حدّ اضطر معه أبوه، كيلا يفقد كلمة مما يقوله الصبي، إلى الانحناء وتقرّيب رأسه منه.

- لا بأس، اعذرني يابني - قال معترضاً -. أطلب منك أن تخبرني شيئاً واحداً فقط. إنني أكلمك بجد يا فونتشيتو. هل تشعر ببرودة في كل مرة يظهر لك فيها إديلبيرتو توريس؟ أتشعر بأن هبة ريح جليدية تصل معه حيث تكون؟

- أية حماقات تقولها يا بابا - فتح فونتشيتو عينيه على اتساعهما، متربداً بين أن يضحك أو يواصل إبداء الجدّ - أنت تسخر مني أم ماذا؟

- هل يظهر له الشيطان مثلما كان يظهر للأب أوراكا المشهور، في هيئـة سيدة عارية؟ - وعاد الأب أودونوفان إلى الضحك - أظن أنك قد قرأت هذه القصة التراثية لريكاردو بالـما يا ذا الأذنين، إنـها من أكثر قصصـه مـتعـة.

- حسـن، حسـن - اعتذر رـيغوبـيرـتو من فـونـتشـيـتو مـجـدـداً - أـنتـ علىـ حقـ، أـنتـ لمـ تـقلـ لـيـ قـطـ أـنـ المـدـعـوـ إـدـيـلـبـيـرـتوـ تـورـيسـ هوـ الشـيـطـانـ.

أطلب منك المغفرة، وأعرف أنه يجب عدم المزاح في هذه القضية. مسألة البرد هذه هي من رواية لتوomas مان، وفيها يظهر الشيطان للشخصية الرئيسة، وهو مؤلف موسيقي. انس سؤالي. فأنا لا أدرى كيف أدعوه ذلك الشخص يا بني. شخص يظهر ويختفي على هذا النحو، وينجس في أمكنة لا تخطر على البال، لا يمكن له أن يكون من لحم وعظم، لا يمكن أن يكون مثلك ومثلي. إنني أكلمك وقلبي في يدي. وإذا لم يكن الشيطان، فلا بد أنه ملاك إذا.

- بل إنك تسخر مني بالطبع يا بابا، ألا ترى ذلك؟ - احتج فوتشيتو - لم أقل إنه الشيطان ولم أقل كذلك إنه ملاك. فأنا لدى اعتقاد بأنه شخص مثلي ومثلك، من لحم وعظم بالطبع، وهو طبيعي جداً. إذا رغبت يمكننا قطع المحادثة وعدم العودة إلى الكلام أبداً عن السيد إيديلبيرتو توريس.

- ليس الأمر لعباً، لا يبدو كذلك - قال ريجوبيرتو بجدية تامة. وكان الأب أودونوفان قد توقف عن الضحك وصار يستمع إليه الآن باهتمام - فالصبي متواتر تماماً بسبب هذه المسألة، وإن كان لا يقول ذلك. إنه شخص آخر يا بيبين. لقد كان يتمتع بشهيبة جيدة على الدوام، ولم يُثر من قبل أية مشاكل بشأن الطعام، وهو الآن يكاد لا يتذوق لقمة واحدة. تخلى عن ممارسة الرياضة، يأتي أصدقاؤه بحثاً عنه فيختلف ذرائع كيلا يذهب معهم. أضطر أنا ولوكريثيا لدفعه من أجل الخروج. أصبح قليل الكلام، انطوائياً، منعزلاً، بعد أن كان اجتماعياً وثرثاراً. يظل طيلة النهار والليل منطويماً على نفسه كما لو أن هماً عظيماً ينهشه من الداخل. لم أعد أتعرف على ابني. أخذناه إلى طبيبة نفسانية، أجرت له جميع أنواع الاختبارات. وشخصت الحالة بأنه لا يعاني أي شيء، وأنه أكثر طفل طبيعي في العالم. أقسم لك إننا لم نعد نعرف ما علينا عمله يا بيبين.

- إذا ما أخبرتك بأعداد الناس الذين يرون رؤى يا ريفوبيرتو فسوف تهوي ساقطاً على ظهرك - حاول الأب أودونوفان أن يطمئنه - إنهن نساء مسنات في معظم الأحيان، أما الأطفال فنادراً ما يحدث لهم ذلك. هؤلاء تنتابهم أفكار خبيثة أكثر من أي شيء آخر.

- ألا يمكنك أن تتحدث إليه أيها العجوز؟ - لم يكن ريفوبيرتو في حالة تسمع له بالزواج - ألا يمكنك نصحه؟ لا أدرى بماذا ستتصحّه في نهاية المطاف. لقد خطّرت للوكريثيا فكرة المجيء إليك وليس لي. إنها تفكّر في أنه قد يفتح قلبه معك أكثر مما يفعل معنا.

- المرة الأخيرة كانت في سينما لاركومار يا أبي - خفض فونتشيتو نظره وتردد في الكلام - ليلة الجمعة، حين ذهبتُ مع صديقي تشاوو بيشولو لمشاهدة فيلم جيمس بوند الأخير. كنتُ مستغرقاً بعمق في الفيلم، وفجأة، فجأة...

- وفجأة ماذا؟ - حثّه دون ريفوبيرتو.

- فجأةرأيته، هناك، جالساً إلى جانبي - قال فونتشيتو وهو يخفض رأسه ويتنفس بعمق - كان هو، بلا أدنى شك. أقسم لك يا بابا، كان هناك. هو نفسه... السيد إديليبيرتو تورييس. كانت عيناه تلمعان، وعندئذ رأيت دموعاً تسيل على خديه. لا يمكن أن يكون الفيلم هو السبب يا بابا، فلم يكن يحدث أي شيء محزن على الشاشة، وكل ما كان هناك كثير من تبادل الضرب، والقبلات والمقامرات. أي إنه كان يبكي لسبب آخر. وعندئذ، لا أدرى كيف أقول ذلك، ولكن خطر لي أنه حزين بسببي. أعني أنه يبكي من أجلي.

- من أجلك أنت؟ - صاغ ريفوبيرتو العبارة بصعوبة - ولماذا سيبكي ذلك السيد من أجلك أنت يا فونتشيتو؟ ما الذي سيحزنه فيه؟

- هذا ما لا أعرفه يا بابا، إنني أتكلّم وحسب. ولكن لماذا تظنه

كان يبكي وهو جالس إلى جانبني؟

- وعندما انتهى الفيلم وأضيئت الأنوار، ظل إدilibيرتو تورييس جالساً في المقهى المجاور لمقعدك؟ - سأل رينغوبيرتو وهو يعرف الجواب تماماً.  
- لا يا بابا. كان قد انصرف. لست أدرى في أية لحظة نهض وانصرف. لم أره.

- حسن، حسن، سأتحدث إليه طبعاً - قال الأب أودونوفان - إذا كان فونتشيتور يريد التحدث معي. يجب ألا تحاول إجباره أولاً وقبل كل شيء. لا يخطر لك إجباره على المجيء إلي. لا شيء من هذا. فليأت برغبته، إن كان يرغب. وستحدث كصديقين، قل له هذا. ولا تضفي على الأمر أهمية كبيرة يا رينغوبيرتو. أراهنك على أنها مجرد حماقة صبيانية، لا شيء أكثر من ذلك.

- لم أول الأمر أهمية في البداية - أكد رينغوبيرتو - كنت أظن أنا ولوكريثيا أنه يختلق تلك القصة، لأنه صبي واسع المخيلة، كي يضفي أهمية على نفسه، ويبقينا معلقين به.

- ولكن هل المدعو إدilibيرتو تورييس موجود أم أنه مجرد اختلاق منه؟ - سأل الأب أودونوفان.

- هذا ما أرحب في اكتشافه يا بيبين، ولهذا جئت للقائك. لم أتوصل إلى معرفة ذلك حتى الآن. أقول أجل أعرف، وفي اليوم التالي أقول لا. يبدو لي في بعض اللحظات أن الصبي يقول لي الحقيقة. وفي لحظات أخرى يخيل إلي أنه يتلاعب بنا... أنه يخدعنا.

لم يفهم رينغوبيرتو قط السبب في أن الأب أودونوفان، بدلاً من أن يتوجه نحو التعليم ويقوم ضمن الكنيسة بمسيرة دارس ثقافي ولاهوتي - وهو المثقف الحساس، المحب للأفكار والمطالعة والفنون، ومن يقرأ كثيراً -، ارتضى لنفسه بعناد مهمته الرعوية في كنيسة تحت الجسر

المتواضعة هذه، ولا بد أن من يقطنون في محيطها هم أناس قليلو التعلم، أي إنه عالمٌ يبدو كما لو أن مواهبه تتبدد فيه. لقد تجراً ذات مرة وحدثه في هذا الشأن، لماذا لا تكتب أو تلقي محاضرات يا بيبين؟ لماذا لا تدرس في الجامعة مثلاً؟ إذا كان هناك شخص بين معارفك يتمتع بمبول ثقافية واضحة، وبشغف إلى الأفكار، فإنه أنت يا بيبين.

- لأن المكان الذي يحتاج إلى هو كنيسة تحت الجسر - اكتفى بيبين أودونوفان بهز كتفيه - إننا بحاجة إلى كهنة رعاة؛ أما المثقفون ففائضون عن الحاجة يا ذا الأذنين الكبيرتين. وأنت مخطئ إذا كنت تظن أنني أجد مشقة في عمل ما أقوم به. فالعمل في الكنيسة يشجعني كثيراً، إنه يُدخلني بقدميٍّ ويرأسني في الحياة الواقعية. يمكن للمرء، في المكتبات، أن ينعزل كثيراً في بعض الأحيان عن عالم كل يوم، عن الناس العاديين. أنا لا أؤمن بفضاءاتك المتحضرة التي تُبعنك عن الآخرين وتحولك إلى ناسك، وقد تحدثنا وناقشتنا هذا الموضوع كثيراً من قبل.

لم يكن يبدو كاهناً، لأنه لا يتطرق أبداً إلى موضوعات دينية في أحاديثه مع زميل مدرسته القديم. وهو يعرف أن ريفوبيرتو لم يعد مؤمناً في سنوات دراسته الجامعية، ولا يبدو عليه أنه يشعر بأدنى ضيق منعاشرة شخص لا أدرى. في المرات القليلة التي ذهب لتناول الغداء في بيت صديقه في بارانكو، كان ينزوئي مع ريفوبيرتو، بعد تنظيف المنضدة، في حجرة المكتب، حيث يضعان قرصاً مضغوطاً، يكون لباغ بصورة عامة، لأن بيبين أودونوفان يفضل موسيقى باخ على الأرغن.

- كنتُ مقتنعاً بأن هذه الرؤى كلها ليست سوى اختلاق منه - أكد ريفوبيرتو - ولكن تلك الطبيبة النفسية التي عاينت فونتشتيتو، الدكتورة أغلوستا ديلميرا ثيسبيديس، لا بد أنك سمعت عنها، أليس

كذلك؟ يبدو أنها مشهورة جداً، وقد جعلتني أعود إلى الشك. قالت لي وللوكريثيا بطريقة حاسمة إن فونتشيتو لا يكذب، وإنه يقول الحقيقة. فإذا لبيرتوريس موجود. لقد أربكتنا كما يمكن لك أن تتصور.

أخبر ريفوبيرتو الأب أدونوفان أنه، بعد كثير من التردد، قرر هو ولوكريثيا البحث عن وكالة متخصصة. (فأسأله الكاهن ساخراً: «من تلك التي يتعاقد معها الأزواج الغيورون للتجسس على زوجاتهم المتماديات؟»، وأكد ريفوبيرتو ذلك: «هي نفسها») من أجل متابعة فونتشيتو خطوة خطوة، لمدة أسبوع، كلما خرج إلى الشارع، سواء أكان وحده أم مع أصدقائه. فجاء تقرير الوكالة – «وأقول بالمناسبة إنه كلفني مبلغاً كبيراً» – بليغاً في التعبير ومتناقضاً: لم يحدث في أية لحظة، أو في أي مكان، أن التقى الصبي بأي أشخاص بالغين، لا في السينما، ولا في حفلة آل آرغوبيريس، لا في طريق ذهابه إلى المدرسة ولا أثناء عودته منها، ولا في زيارته السريعة العابرة كذلك، مع صديقه بيثولو، لإحدى صالات الرقص في سان إسيدرو. ومع ذلك، ففي صالة الرقص تلك، لدى دخول فونتشيتو إلى الحمام للتبول، حدث لقاء غير متوقع: كان هناك ذلك السيد المذكور يغسل يديه. (وهذا ما لم يقله التقرير بالطبع).

- مرحباً فونتشيتو. قال إديلبيرتوريس.

- في صالة الرقص؟ سأل دون ريفوبيرتو.

- في حمّام صالة الرقص يا بابا - حدد فونتشيتو. وكان يتكلم بثقة، ولكن لسانه بدا مثلاً، وكان نطق كل كلمة يكلفه جهداً كبيراً.

- هل أتيت للاستماع هنا مع صديقك بيثولو؟ بدا السيد مغموماً. كان قد غسل يديه وراح ينشفهم بقطعة ورق انتزعها من العلبة الصغيرة المعلقة على الجدار. وكان يرتدي الكنزة البنفسجية كما في المرات الأخرى، ولكن ليس البدلة الرمادية بل بدلة أخرى زرقاء.

- لماذا تبكي أيها السيد؟ تجراً فونتشيتو على سؤاله.
- هل كان إديلبيرتو تورييس يبكي هناك في الحمام أيضاً؟ - جفل دون ريفوبيرتو -. مثلاً حدث يوم رأيته جالساً إلى جانبك في سينما لاركومار؟
- في السينما رأيته في الظلمة، ويمكن أن أكون قد أخطأت - أجاب فونتشيتو دون تردد - أما في حمّام صالة الرقص فلا. فقد كانت الإضاءة كافية. لقد كان يبكي. تخرج الدموع من عينيه وتسيل على وجهه. كان... كان... لا أدرى كيف عبر عن ذلك يا بابا. كان حزيناً، حزيناً جداً، أقسم لك. رؤيته يبكي بصمت، دون أن يقول شيئاً، ينظر إلى بأسى شديد. بدا أنه يعاني كثيراً.. ما أشعرني بالمرح.
- المعدرة، عليّ أن أنصرف إليها السيد - تلعم فونتشيتو -. صديقي تشاوبيثولو ينتظري في الخارج. إن إحساساً، لا أدرى ما هو، ينتابني وأنا أراك تبكي أيها السيد.
- وكما ترى يا بيبين، لا يمكن أخذ الأمر على محمل المزاح - أنهى ريفوبيرتو - أتراء يروي لنا الحكاية؟ أم أنها هذيانات؟ أم رؤى؟ وباستثناء هذا الموضوع، يبدو الصبي طبيعياً جداً حين يتكلم في أمور أخرى. درجاته في المدرسة هذا الشهر كانت جيدة كالعادة. لم نعد أنا ولوكريثيا ندري ماذا نفكّر. أتراء أخذ بالجنون؟ أهي أزمة مراهقة عصبية عابرة؟ أتراء يريد تخويفنا ودفعنا إلى التعلق به؟ لهذا السبب جئت إليك أيها العجوز، لهذا فكرنا بك. سأكون ممتنًا إذا مددت لنا يد المساعدة. وكما قلتُ لك، لوكريثيا هي من خطرت لها الفكرة: «يمكن أن يكون الأب أو دونوفان هو الحلّ». فهي مؤمنة كما تعلم.
- سأساعدك طبعاً، هذا أقل ما يمكن عمله يا ريفوبيرتو - عاد صديقه للتأكيد -. ولكن إذا وافق الصبي على التحدث معي. هذا هو

شرطه الوحيد. يمكنني الذهاب لرؤيته في بيتك. ويمكن له أن يأتي إلى الكنيسة. أو يمكن لنا أن نلتقي في مكان آخر. في أي يوم من أيام هذا الأسبوع. أرى أن الموضوع مهم جداً بالنسبة لكم. أعدك بأن أفعل كل ما أستطيعه. والشيء الوحيد الذي أطلبه، ألا تجبره على اللقاء بي. اقترح عليه ذلك، وليقرر بنفسه إن كان يوافق على تبادل الحديث معي أم لا.

- سأكون مستعداً حتى للتحول إلى التدين إذا ما أخرجتني من هذه القضية يا بيبين.

- ولا بأي حال - وقام الأب أودونوفان بحركة كمن يبعد الشيطان عنه - لا نريد في الكنيسة خاطئين مرهفين من أمثالك يا ذا الأذنين. لم يدرأها كيف يعرضان الأمر على فونتشيتتو. وكانت لوكريثيا هي التي تجرأت أخيراً على التحدث معه. ارتبك الصغير قليلاً في البدء، ثم أخذ الأمر على محمل المزاح. «ولكن... كيف ذلك يا خالي، ألم يكن أبي لأدري؟! فهو من خطر له أن أتحدث إلى كاهن؟ أيريدني أن أتعرف؟». أوضحت له أن الأب أودونوفان رجل واسع التجربة في الحياة، وشخص متزع بالحكمة، سواء أكان أسقفاً أم لم يكن. «وماذا إذا تمكنا من إقناعي بدخول المدرسة الدينية لأصيير كاهناً، ماذا ستقولان عندئذ أنت وأبي؟»، واصل الطفل المزاح. «هذا أمر غير مقبول يا فونتشيتتو، لا تقل هذا ولو مزاحاً. أتصير أنت كاهناً؟ فلينجنا الرب!».

وافق الصبي، مثلما وافق من قبل على لقاء الدكتورة ديلميرا ثيسبيديس، وقال إنه يفضل الذهاب إلى كنيسة تحت الجسر. وقد أوصله ريفوبيرتو نفسه بسيارته. تركه هناك ثم ذهب لأخذه بعد نحو ساعتين.

- صديقك هذا شخص لطيف جداً. اقتصر فونتشيتو على هذا التعليق.

- أيعني هذا أن حديثك معه كان جديراً بالاهتمام؟ حاول ريفوبيرتو تقصي الوضع.

- كان الحديث جيداً جداً يا بابا. لقد كانت فكرتك عظيمة. تعلمتُ أشياء كثيرة من هذا الحديث مع الأب أودونوفان. لا يبدو كاهناً، فهو لا ينصحك، بل يستمع إليك. لقد كنتَ على حق يا أبي.

ولكنه لم يشاً تقديم أي توضيح آخر له أو لخالته، على الرغم من تسلسلاً كليهماً. اكتفى بالعموميات، مثل رائحة بول القطة التي تعقب بها الكنيسة الصغيرة («لم تلحظ ذلك يا بابا؟»)، على الرغم من أن الكاهن أكد له أنه لم يكن لديه أي هرّ قطٌ، بل هنالك فثran تظهر أحياناً في حجرة المقدسات.

سرعان ما استنتج ريفوبيرتو أن شيئاً غريباً، وربما خطيراً، قد حدث في الساعتين اللتين تبادل فيها بيبين الحديث مع فونتشيتو. وإنما السبب في أن الأب أودونوفان ظلّ يتفاداه طيلة أربعة أيام متعللاً بمختلف أنواع الذرائع، كما لو أنه يخشى اللقاء به وإخباره عن حديثه مع الصبي. فهو يتذرع بأن لديه مواعيد، وواجبات في الكنيسة، واجتماع مع المطران، وبأن عليه الذهاب إلى الطبيب من أجل إجراء فحص. وبلاهات من هذا النوع ليتجنب اللقاء به.

- هل تبحث عن ذرائع كيلا تخبرني كيف كان حديثك مع فونتشيتو؟ - واجهه في اليوم الخامس، حين تنازل الكاهن وردّ على اتصاله الهاتفي.

ساد صمتٌ لبعض ثوانٍ في ساعة الهاتف، وأخيراً سمع ريفوبيرتو الكاهن يقول شيئاً أذله:

- أجل يا ريفوبيرتو. في الحقيقة، نعم. لقد كنت أتجنب مقابلتك.  
فما سأقوله لك أمر لا تتوقعه - أكد الأب أودونوفان بغموض -. ولكن،  
بما أنه لا مفر من ذلك، سوف نتحدث في الأمر. سأحضر للغداء في  
بيتكم يوم السبت أو الأحد. أي يوم منهما تفضل؟

- السبت، فمن عادة فونتشيشتو الذهاب في هذا اليوم للغداء في بيت  
صديقه بيثولو - قال ريفوبيرتو -. ما قلته لي سيظل يُؤرقني حتى يوم  
السبت يا بيبين. وستكون الحال أسوأ بالنسبة لوكريثيا.

- وهذا ما ظلللتُ أنا عليه مذ خطر لك أن تحدثني عن ابنك - قال  
الكافن بجفاء - إلى اللقاء يوم السبت إذاً يا ذا الأذنين.

لا بد أن الأب أودونوفان هو رجل الدين الوحيد الذي لا يتنقل في  
اتساعات مدينة ليما بحافلات النقل العام أو الفانات الصغيرة، وإنما  
على الدراجة. يقول إنها التمارين الوحيدة التي يمارسها، ولكنه  
يمارسها بمواظبة تبقيه في حالة بدنية ممتازة. أضف إلى ذلك أنه يحب  
تحريك ساقية على الدراجة. وبينما هو يفعل ذلك يفكر في تحضير  
مواعظه، وكتابة رسائله، وبرمجة أعماله اليومية. وعليه، مع ذلك، أن  
يكون متيقظاً جداً طيلة الوقت، وبصورة خاصة عند التقاطعات وعند  
إشارات المرور التي لا يحترمها أحد في هذه المدينة، حيث يقود  
السائقون سياراتهم بنية صدم المشاة وراكبي الدراجات أكثر مما بنية  
الوصول بسياراتهم إلى بر السلام. لكنه كان محظوظاً مع ذلك، فخلال  
أكثر من عشرين عاماً من تجواله عبر أرجاء المدينة على عجلتين، لم  
يصادمه سوى مرة واحدة، ودون نتائج خطيرة، وسرقت له دراجة  
واحدة فقط. إنها حصيلة باهزة!

يوم السبت، قرابة منتصف النهار، كان ريفوبيرتو ولوكريثيا  
يرصدان الشارع من شرفة الطابق الأخير الذي يعيشان فيه، ورأيا ظهور

الأب أودونوفان وهو يقود دراجته بنزق عبر كورنيش بول هاريس في حي بارانكو. أحسا براحة كبيرة. بدا لهما غريباً جداً تأخير رجل الدين كثيراً لموعد إطلاعهما على حديثه مع فونتشيتو، حتى إنما خشيا أن يختلق ذريعة في اللحظة الأخيرة كيلا يحضر. ما الذي يمكن أن يكون قد جرى في تلك المحادثة حتى يبدي الكاهن كل ذلك التحفظ في إخبارهما؟

نزلت خوستينيانا إلى الشارع لتطلب من الباب أن يسمح للأب أودونوفان بادخال دراجته إلى العمارة، كي تبقى بمنجى من اللصوص؛ ورافقت الكاهن في المصعد. بادر بيبين إلى معانقة ريفوبيرتو، ثم قبل خدَّ لوكريثيا واستأنذن للذهاب إلى الحمام كي يغسل يديه ووجهه، إذ إنه وصل متعرقاً.

- كم من الوقت احتجت للوصول، على دراجتك، من «تحت الجسر» إلى هنا؟ - سأله لوكريثيا.

- أقل من نصف ساعة - قال الكاهن - وفي هذه الاحتقانات المروية في ليما، يصل أحدهنا على الدراجة أسرع من سيارة.

طلب عصير فاكهة لفتح الشهية، ونظر إليهما ببطء وهو يبتسم.

- أعرف أنكم كنتما تتفوهان بكلمات قبيحة عنِّي، لأنني لم أخبركم كيف كان الأمر - قال لهما.

- أجل يا بيبين، هكذا بالضبط، كلمات قبيحة وضفادع، وأفاع أيضاً. أنت تعرف كم ثبينا هذه المسألة متورين. إنك سادي.

- كيف جرى الأمر؟ - سأله دونيا لوكريثيا بجزع - هل تحدث إليك بصراحة؟ هل أخبرك بكل شيء؟ ما رأيك في الحالة؟

تنفس الأب أودونوفان بعمق، وقد اتخذ مظهراً جدياً الآن. ودمدم قائلاً إن نصف الساعة ذاك في قيادة الدراجة قد أتعبته أكثر مما يربد

تقبله. ثم صمت طويلاً.

- أتريدان أن أخبركم شيئاً؟ - نظر إليهما بوجه ما بين محزون ومحظى. الجِقيقة أنتي لا أشعر بأي قدر من الراحة في هذه الحديث الذي سنخوض فيه.

- وأنا أيضاً يا أبتاباه - قال فونتشيتتو. لا يوجد ما يسوغ الراحة. فأنا أعرف جيداً أن أعصاب والدي متورطة بسيبي. إذا كنت ترغب قُمْ بما عليك عمله، وأعرني مجلة أتصفحها، حتى لو كانت مجلة دينية. وبعد ذلك سنقول لأبي وحالي بأننا تبادلنا الحديث معاً، ونختلق أي شيء يمكن له أن يطمئنها. وينتهي الأمر.

- ما هذا، ما هذا - قال الأب أودونوفان - هذا الغصن من ذلك الجذع يا فونتشيتتو. أتعرف أن أباك وهو في مثل سنك، في مدرسة لاريكوليتا، كان مخدعاً كبيراً

- هل توصلت إلى التكلم معه في الموضوع؟ - سأله ريفوبيرتو دون أن يخفى جزعه. - هل فتح قلبه لك؟

- الحِقيقة أنتي لا أعرف - قال الأب أودونوفان - هذا الصبي مثل الزئبق، بدا لي أنه ينزلق متسلقاً طيلة الوقت. ولكن اطمئنا. فهناك أمر واحد على الأقل أشعر بأنني متأكد منه. إنه غير مجنون، وهو لا يهذي، ولا يسخر. بدا لي أنه أكثر الصبيان سلامـة ذهنية وتركيزـاً في الدنيا. وتلك الطبيـبة النفـسـية التي التـقـتـ بهـ أـخـبرـكـماـ بالـحـقـيقـةـ الصـارـمةـ:ـ إـنـهـ لـاـ يـعـانـيـ مـنـ أـيـةـ مشـكـلةـ نـفـسـيـةـ.ـ هـذـاـ مـاـ يـمـكـنـنـيـ الـحـكـمـ بـهـ،ـ ضـمـنـ حـدـودـيـ طـبـعاـ،ـ فـأـنـاـ لـسـتـ طـبـيبـاـ نـفـسـانـيـاـ،ـ وـلـسـتـ مـتـخـصـصـاـ فـيـ عـلـمـ النـفـسـ.

- ولكن... حالات ظهور ذلك الشخص له - قاطعته لوكريثيا - هل استطعت الخروج بشيء واضح بشأنه؟ هل لإديليبيرتو توريس وجود أم

لا وجود له؟

- مع أن القول إنه طبيعى ليس بالتصيف الدقيق تماماً - صحة الأب أودونوفان لنفسه متهرباً من الإجابة - لأن في هذا الطفل شيء استثنائي، شيء يميّزه عن الآخرين. ولست أعني أنه ذكي وحسب. إنه كذلك، أجل. وأنا لا أبالغ مقدار ذرة واحدة يا ريفوبيرتو، ولا أقول هذا الكلام لأتملكك. ولكن لدى الصبي فوق ذلك، في ذهنه، في روحه، شيء يلفت الانتباه. لديه حساسية خاصة جداً، ينفرد بها ولا نمتلكها نحن البشر الفانون العاديون. مثلما تسمعون. ولا أدرى إن كان ذلك سبباً للسعادة أم الفزع. ولست أستبعد كذلك أنه رغب في أن يبهرني، وقد توصل إلى ذلك، مثلما يمكن لمثل بارع أن يفعل. لقد ترددتُ كثيراً في المجيء لقول هذا الكلام لكم. ولكنني رأيت أنه من الأفضل أن أفعل.

- أيمكننا التوجه إلى لب الموضوع يا بيبيين؟ - فقد دون ريفوبيرتو صبره - . دعك من التقلّت من الحديث في الموضوع. ومن أجل أن تقول ما يجب قوله بوضوح، لا تواصل هذه الفهلويات ولنتوجه إلى جوهر المشكلة. تكلم بوضوح ودعك من إزاحة الإلية لتجنب إبرة الحقنة، أرجوك.

- ما هذه الكلمات يا ريفوبيرتو - وبخته لوكريثيا - . الشكلة أنها قلقان جداً يا بيبيين. اعذرها. أظن أنها المرة الأولى التي أسمعُ فيها صديقك ذا الأذنين يتكلم كحوزي.

- حسن، المعذرة يا بيبيين، ولكن أخبرني دفعة واحدة يا صديقي - ألح ريفوبيرتو - هل للمدعو إديلبيرتو توريس وجود؟ أيظهر له في السينما، وفي حمامات صالة الرقص، وفي ملعب المدرسة؟ أيمكن أن تكون كل تلك البلاهة حقيقة؟

بدأ الأب أدونوفان يتعرق بغزارة من جديد، وفك ريفوبيرتو بأن سبب تعرقه الآن ليس ركوب الدراجة، وإنما التوتر الذي يسببه له اضطراره إلى إصدار حكم حول الموضوع. ولكن، أي شياطين هذه؟ ما الذي يحدث له؟

- فلنقبل الأمر على هذا النحو يا ريفوبيرتو - قال الكاهن متنقياً كلماته بحذر بالغ، كما لو أن فيها أشواكاً - فونشيتو يعتقد أنه يراه وأنه يتكلم إليه. هذا أمر يبدو لي غير قابل للجدال. حسن، أظن أنه يؤمن بذلك إيماناً راسخاً، مثلما يؤمن بأنه لا يكذب حين يخبرك بما رأه وبما تبادله من كلام معه. وإن كان ذلك الظهور والاختفاء يبدو عبثياً، وهو كذلك حقاً. هل تفهم ما أحاط قوله لكما؟

نظر ريفوبيرتو ولوكريثيا إلى الأب أدونوفان بصمت. وبدا الكاهن الآن في حالة من الارتباك لا تقل عما هما فيه. لقد كان مغموماً وبدا عليه أنه هو أيضاً غير راض عن إجابته. ولكن بدا واضحاً كذلك أنه لا وجود لديه لإجابة أخرى، وأنه لا يعرف، ولا يستطيع، أن يقدم تفسيراً أفضل مما قدمه.

- إنني أفهم، طبعاً، ولكن هذا الذي تقوله لي لا يعني شيئاً يا بيبين - قال ريفوبيرتو شاكياً - القول إن فونشيتو لا يحاول خداعنا هو افتراض قائم بالطبع. وأنه يخدع نفسه، يقوم بالإيحاء لنفسه. هل هذا هو ما تظنه؟

- أعرف أن ما أقوله يخيب أملكما، وأنكما تنتظران شيئاً أكثر تحديداً، أكثر حسماً - واصل الأب أدونوفان - متأسف، ولكنني لا أستطيع أن أكون أكثر دقة يا ذا الأذنين. لا أستطيع ذلك. وهذا هو كل ما استطعت التوصل إليه. إن الصبي لا يكذب. إنه مؤمن بأنه يرى ذلك السيد، وربما يكون من المحتمل أنه يراه. وأنه يراه هو وحده ولا

يراه الآخرون. لا يمكن الذهاب إلى ما هو أبعد في هذا الشأن. هذا مجرد افتراض. وأكرر أنني لا أستبعد أيضاً أن يكون ابنك قد خدعني. وبكلمات أخرى أن يكون أكثر مكرًا وبراعة مني. ربما يكون قد خرج على شاكلتك يا ذا الأذنين. هل تتذكر أن الأب لاغنير، في مدرسة ريكوليتا كان يدعوك مختلف الأكاذيب؟

- ولكن ما استنتجه ليس فيه أي وضوح، بل هو أشد غموضاً يا بيبين - دمم ريفوبيرتو.

- أتراها تكون رؤى؟ أوهام؟ - حاولت لوكريثيا أن تحدد الحالة.

- يمكن تسميتها هكذا، ولكن هذه الكلمات لا تعني عدم الاتزان، ولا تعني مرضًا ذهنياً - أكد الكاهن - الانطباع الذي تشكل لدى هو أن فونتشيتو يسيطر تماماً على قواه الذهنية والعصبية. إنه طفل متزن، يميز بوضوح بين الواقع والخيال. هذا أمر يمكنني تأكيده حقاً، ومستعد لوضع يدي في النار مؤكداً على سلامته الذهنية. وبكلمات أخرى، هذه حالة لا يمكن حلّها عند طبيب نفسي.

- أعتقد أنك لا تتحدث عن معجزات - قال ريفوبيرتو بنزق وسخرية

- لأنه إذا كان فونتشيتو هو الشخص الوحيد الذي يرى إديلبيرتو توريس ويتكلم معه، فإنه تحدثني عن قدرات إعجازية. هل سقطنا إلى هذا الدرك يا بيبين؟

- لست أتكلم عن معجزات طبعاً يا ذا الأذنين، ولا فونتشيتو يتكلم عنها كذلك - قال الكاهن بدوره بنزق - إنني أتكلم عن شيء لا أدرى كيف أسميه بكل بساطة. هذا الطفل يعيش تجربة خاصة جداً. وهي تجربة، لا أقول إنها دينية، لأنك لا تعرف ولا تريد أن تعرف شيئاً في هذا الشأن، فلنستبدل كلمة دينية إذاً بروحية. وبحساسية، أو بتحسس مفرط. إنه شيء ليست له إلا علاقة غير مباشرة جداً بالعالم المادي

والعقلاني الذي نتحرك فيه. إديلبيرتو توريس يرمز في نظره إلى المعاناة البشرية كلها. أعرف أنك لا تفهمي. ولهذا السبب كنت أخشى كثيراً المجيء لإخبارك عن حديثي مع فونتشتيتو.

- تجربة روحية؟ - كررت دونيا لوكريثيا -. ما الذي تعنيه بالضبط؟  
ألا يمكنك أن توضح ما تعنيه يا بيبين؟

- أتعني أن الشيطان يظهر له، وأنه يُدعى إديلبيرتو توريس وهو بيرويّ - اختصر ريفوبيرتو بسخرية وغضب -. هذا هو في العمق ما تقوله لنا بكل هذه الثرثرة التافهة، إنها ثرثرة كاهن معجزات، يا بيبين.

- الغداء جاهز - قالت من عند الباب خوستينيانا التي تأتي دوماً في الوقت المناسب -. يمكنك الانتقال إلى المائدة متى شئتم.

- في البدء لم يكن يزعجني، كان يفاجئني وحسب - قال فونتشتيتو -. أما الآن فبلى. وإن تكن كلمة إزعاج ليست هي الكلمة الدقيقة يا أبتاه. من الأدق القول إنه يسبب لي الغم، يجعلني أمر بلحظة عصيبة، يثير فيّ الأسى. مذ بدأتُ أراه يبكي، هل تلحظ ذلك؟ ففي المرات الأولى لم يكن يبكي، كان يريد تبادل الحديث وحسب. ومع أنه لا يقول لي لماذا يبكي، إلا أنني أشعر أن السبب في بكائه هو كل ما يحدث من شرور. وأنه يبكي من أجلي أيضاً. وهذا ما يسبب لي المزيد من الحزن. ساد صمت طويل، وأخيراً قال الأب أودونوفان إن القريديس كان لذيداً جداً، ويبدو واضحاً أن مصدره نهر ماخيس. هل يجب تهنئة

لوكريثيا أم خوستينيانا على إعداد هذا الطبق الشهي؟  
- ليس أيّاً منهما، وإنما الطاهية - أجبت لوكريثيا -. اسمها ناتيفيداد، وهي من اريكيبيا طبعاً.

- متى كانت آخر مرة رأيت فيها ذلك الشخص؟ - سأله الكاهن.  
وكان قد فقد المزاج الواثق والأمن الذي ظل يحتفظ به حتى تلك

اللحظة، وصار يبدو عصبياً بعض الشيء. وقد وجه السؤال بتذلل عميق.

- يوم أمس، حين كنت أجتاز جسر التنهدات، في بارانكو يا أبتاباه - رد فونتشيتو على الفور -. كنت أمشي على الجسر وكان هناك ثلاثة أشخاص آخرين حولي، حسب تقديرني. وفجأة، رأيته هناك، يجلس على حاجز الجسر.

- وكان يبكي كالعادة؟ سأله الأب أودونوفان.

- لا أدرى، فقد رأيته للحظة فقط، لدى مروري. لم أتوقف، واصلت طريقي بخطى مسرعة - أوضح الصغير وقد بدا مذعوراً الآن - لا أدرى إن كان يبكي. ولكنني أعرف أنه كان بذلك الوجه شديد الحزن. لا أدرى كيف أعبر عن ذلك يا أبتاباه. لم أر مثل حزن السيد توريس على أحد، أقسم لك. إن عدواه تنتقل إلى، أظل مضطرباً لوقت طويل، أكاد أموت حزناً، دون أن أدرى ما يمكنني عمله. أحب أن أعرف سبب بكائه. أحب أن أعرف ما الذي يريدني أن أفعله. أقول لنفسي أحياناً إنه يبكي من أجل الناس الذين يعانون جميعاً من أجل المرضى، من أجل العمياء، من أجل من يطلبون الصدقات في الشوارع. حسن، لست أدرى، تخطر لذهني أشياء كثيرة كلما رأيته. والأمر الوحيد الذي لا أعرفه هو كيف أعبر عن تلك الأشياء يا أبتاباه.

- إنك تعبّر عنها بصورة جيدة يا فونتشيتو - اعترف الأب أودونوفان

- لا تقلق بهذا الشأن.

- ولكن، ماذا علينا أن نفعل؟ سأله لوكريثيا.

- انصحنا يا بيبين - أضاف ريفوبيرتو -. أشعر بأنني مشلول تماماً. إذا كان الأمر مثلما تقول، فإن هذا الطفل يملك نوعاً من الموهبة، ولديه نوع من الحساسية العالية، بحيث يرى ما لا يراه أحد سواه. هذه هي

الحال، أليس كذلك؟ هل عليّ أن أكلمه في الموضوع؟ هل عليّ أن أظل صامتاً؟ القضية تقلقني، تخييفني. لا أدرى ماذا أفعل.

- امنحه الحنان واتركه بسلام - قال الأب أودونوفان -. من المؤكد أن ذلك الشخص، سواء أكان له وجود أم لم يكن، ليس بالشخص المنحرف الفاسد، وهو لا يريد إلهاق أي أذى بابنك. وسواء أكان له وجود أم لم يكن، فإن له علاقة بروح فونتشيتوا، حسن، له علاقة بنفس فونتشيتوا إن كنت تفضل هذا القول، أكثر مما له علاقة بجسده.

- هي مسألة صوفية؟ - تدخلت لوكريثيا -. أ تكون هكذا؟ ولكن فونتشيتوا لم يكن متديناً قطّ. بل يمكنني القول إنه على العكس من ذلك تماماً.

- أرغب في أن أكون أكثر دقة، ولكنني غير قادر - اعترف الأب أودونوفان مرة أخرى وهو يبدي ملامح الهزيمة -. هنالك شيء ليس له تفسير عقلاني يحدث لهذا الصغير. إننا لا نعرف كل ما فينا نحن بالذات يا ذا الأذنين. فتحن الكائنات البشرية، كل شخص منا، هاويات عميقة متربعة بالظلال. لدى بعض الرجال، وبعض النساء، حساسية أشد زخماً مما لدى غيرهم، يشعرون ويتوجسون أموراً تمر دون انتباه على الآخرين. أيمكن أن تكون ناتجة عن تخيلاتهم وحسب؟ ربما نعم. ولكنها قد تكون شيئاً آخر لا أجرؤ على تسميته يا ريفوبيرتو. ابنك يعيش هذه التجربة بزخم شديد، وبحقيقة بالغة إلى حد لا أريد أن أصدق معه أن المسألة محض تخيلات. ولست أريد أن أقول أكثر من هذا.

صمت وراح ينظر إلى طبق سمك غراب البحر والرز نظرة هجينة ما بين الخبل والحنان. لم تتذوق لوكريثيا ولا ريفوبيرتو لقمة واحدة منه.

- أشعر بأنني لم أقدم لكمافائدة تذكر - أضاف الكاهن محزوناً - فبدل أن أساعدكم على الخروج من هذه المتابهة، علقت بها أنا نفسي أيضاً.

- ظل صامتاً لبعض الوقت ونظر إلى أحدهما ثم إلى الآخر بحزن.
- لست أبالغ إذا قلت لكم إنها المرة الأولى في حياتي التي أواجه فيها أمراً لست مهياً له - ددم بجدية كبيرة - إنه أمر ليس له، في نظري، تفسير عقلاني. ومع هذا فقد أخبرتكم من قبل بأنني لا أستبعد كذلك أن تكون لدى الصبي قدرة استثنائية على الخداع، وأنه جعلني أصدق قصة محكمة الحبكة. ليس هذا مستحيلاً. لقد فكرت كثيراً في الأمر. ولكن لا، لا أظن ذلك. أعتقد أنه صادق.
- لن تتركنا مطمئنين جداً ونحن نعلم أن لابني تجارة يومية من عالم الغيب - قال ريفوبيرتو وهو يهز كتفيه - وأن فونتشيتتو هو أشبه براعية لورديس التي ظهرت لها السيدة العذراء. لقد كانت راعية، أليس كذلك؟
- أنت سوف تضحك، أنتما الاثنان ستضحكان - قال الأب أودونوفان وهو يداعب الشوكة، دون أن ينقض على سمكة غراب البحر - ولكنني لم أتوقف في هذه الأيام عن التفكير لحظة واحدة في هذا الطفل. فمن بين جميع الأشخاص الذين عرفتهم طيلة حياتي، وهم كثُر، أظن أن فونتشيتتو هو الأقرب إلى ما نسميه، نحن المؤمنين، الكائن النقى. وليس ذلك لوسامته فقط.
- ها قد ظهر الكاهن الذي فيك يا بيبين - غضب ريفوبيرتو - هل تريد الإيحاء إلى أنه يمكن لابني أن يكون ملاكاً؟
- إنه ملاك بلا أجنحة على أي حال. ضحكت لوكريثيا، وقد فعلت ذلك الآن بسعادة صريحة وبعينين تتأرجحان خبثاً.
- أقول هذا وأكرره حتى لو أضحككم - أكد الأب أودونوفان وهو يضحك أيضاً - أجل يا ذا الأذنين، أجل يا لوكريثيا، مثلما تسمعان. حتى لو بدا الأمر لكم ظرافـة: إنه ملاك صغير، ولم لا.



حين وصلا إلى «البيت الصغير» في كاستييا، على الضفة الأخرى للنهر، حيث تعيش مابيل، كان الرقيب ليتوما والنقيب سيلفا يتعرقان بغزارة. فالشمس تضرب بقسوة من سماء بلا غيوم، حيث ترسم نسور الرحمة دوائر في تحليقها. ولم تكن هناك ولو هبة نسيم خفيفة تخفف من حدة الحرّ. على امتداد الطريق كله منذ خروجهما من المفوضية، كان ليتوما يتساءل. في أي حال سيجدون الفتاة الفاتنة؟ أ يكون أولئك الأوغاد قد أساوا إلى عشيقة فيليثيتو ياناكيه؟ أ يكونون قد ضربوها؟ أ يكونون قد اغتصبواها؟ هذا احتمال وارد جداً بالنظر إلى جمال الشابة، وكيف لن يستغلوا الفرصة وهم يحتجزونها تحت رحمتهم ليلاً ونهاراً.

فتح لها السيد فيليثيتو نفسه بباب مابيل الصغير. وقد بدا منشراً، سعيداً. لقد تبدل وجهه العابس الذي كان يراه عليه ليتوما دوماً، وتلاشت الملامة التراجيكوميدية التي كان عليها في الأيام الأخيرة. إنه يبتسم الآن ابتسامة تملأ وجهه وتمتد ما بين أذنيه، وتلمع عيناه من السعادة. يبدو كمن استعاد شبابه. كان بلا جاكيت البدلة، وأزرار صداره مفتوحة كلها. كم هو نحيل، يكاد صدره وظهره أن يتلاصقا، ويا له من شرغوف ضئيل؛ فقد بدا لليتوما أشبه بقزم. ما إن رأى الشرطيين حتى أقدم على شيء غير مألوف من رجل غير معتاد على إظهار مشاعره: فتح ذراعيه وعانتق النقيب سيلفا.

- لقد جرت الأمور مثلما توقعتها أنت أيها النقيب - وكان يربت على ظهره بانشراح - لقد أطلقوا سراحها، أفلتوها. كنتَ محقاً أيها السيد المفوض. لا أجد كلمات كافية لشكرك. إنني أحيا من جديد بفضلك. وبفضلك أنت أيضاً أيها الرقيب. الشكر لكما، أشكركمَا أنتما الاثنين.

كانت عيناه مخضلتين بدموع التأثر. مابيل تستحمل، ستخرج الآن. أجلسهما في الصالة الصغيرة، تحت صورة قلب يسوع، قبالة المنضدة الصغيرة حيث توجد منحوتة لاما وعلم البيرو. كانت هناك مروحة مشغلة تصدر صريراً غير منتظم بينما تيار الهواء الصادر عنها يهز الزهور البلاستيكية. كان صاحب شركة النقل يجيب على أسئلة الضابط بانفتاح وسعادة: أجل، أجل، إنها على ما يرام، لقد كان رعباً عظيماً بالطبع، ولكنهم لم يضربوها لحسن الحظ، والحمد لله أنهم لم يغتصبواها. أبقوها معصوبة العينين ومقيدة اليدين طيلة هذه الأيام، يا لهم من قساة، جلفين. ستخبرهما مابيل نفسها كل التفاصيل حين تخرج الآن. وبين لحظة وأخرى، كان فيليثيتو يرفع يديه إلى السماء: «لو أن شيئاً أصابها لما سامحتُ نفسي إلى الأبد. يا للمسكينة! درب الآلام هذا كله بسببي. لم أكن متدينًا قطّ، ولكنني عاهدت الله على أنني لن أتخلف، منذ الآن، عن الذهاب إلى القدس كل يوم أحد». وفكر ليتوما: «إنه مغرم بها حتى النخاع». لا ريب في أنه يضاجعها بصورة رائعة. وذكرته هذه الفكرة بوحدهته، وبالوقت الطويل الذي أمضاه بلا امرأة. أحس بالحسد تجاه دون فيليثيتو وبالغضب من نفسه. خرجت مابيل لمصافحتهما برداء حمام مزين بأزهار، وكانت تتنعل خفأً، وتضع منشفة على شكل عمامه فوق رأسها. بدت ليتوما وهي على تلك الحال، بلا مكياج وشاحبة وبعيدين ما زالتا

مذعورتين، أقل جمالاً مما كانت عليه يوم ذهبت إلى المفوضية لتدلي بأقوالها. ولكنه أُعجب بارتعاشة فتحت أنفها المدبب، وبكاحتها الحساسين، وانحناءة ظاهر قدميها. وبدت له بشرة ساقيها أكثر بياضاً من يديها وذراعيها.

- يؤسفني أنني لا أستطيع أن أقدم أي شيء لكما - قالت وهي تومي إليهما أن يجلسا. بل إنها حاولت أن تقدم إليهما دعاية: - يمكنكم أن تتخيلاً أنني لم أستطع القيام بعشترياتي خلال هذه الأيام، ولم يبق في ثلاجتي ولو علبة كوكاكولا واحدة.

- يؤسفنا جداً ما حدث لك يا سيدتي - وانحنى لها النقيب سيلفا انحناءة احترام باللغة الاحتفالية - . لقد أخبرنا السيد ياناكيه بأنهم لم يسيئوا إليك، أليس كذلك؟

قامت مابيل بتكشيرة غريبة، نصف ابتسامة ونصف تكشيرة.

- حسن، إلى حد معين وحسب. لم يضربوني ولم يغتصبني لحسن الحظ. ولكن لا يمكن القول إنهم لم يسيئوا إليّ. لم أشعر قطّ بمثل ذلك الخوف في حياتي أيها السيد. لم أنم قط كل ذلك العدد من الليالي وأنا على الأرض، بلا فراش ولا وسادة. بعينين معصوبتين ويدين مقيدتين. أليس هذا كله سوء معاملة؟ ولكنني مازلت حية في نهاية المطاف، أجل.

كان صوتها يرتعش ويطل من عينيها السوداين، للحظات، خوف عميق تبذل جهداً للسيطرة عليه. «التحلّ اللعنة عليهم أبناء العاهرة» فكر ليتوما. كان يشعر بالحزن والغضب لما تعرضت له مابيل. «يجب أن يدفعوا الثمن، يا لللعنة».

- أنت لا تعلمين كم نشعر بالأسف لمجيئنا وازعاجك في هذه اللحظات، لأنك ترغبين في الراحة - اعتذر النقيب سيلفا وهو يلعب

بقبعته - ولكن أرجو أن تتفهمي وضعنا. لا يمكن لنا إضاعة الوقت يا سيدتي. هل يزعجك أن نوجه إليك بعض الأسئلة الصغيرة؟ إنها مسألة لابد منها، قبل أن تختفي آثار أولئك الأشخاص تماماً.

- طبعاً، طبعاً، أتفهمك جيداً - وافت ما بليل وهي تبدي ملامح الرضا، ولكن دون أن تخفي معارضتها تماماً - اسأل ما تريده أيها السيد.

كان ليتوما مبهوراً بحركات الحنان التي يبديها فيليثيتو ياناكيه تجاه أنثاه. فهو يمر بيده على وجهها بعذوبة، كما لو أنها كلبه المدللة؛ يزبح خصل الشعر المفلترة على جبها ويدسها تحت المنشفة العمامة، يهش الحشرات الطيارة التي تقترب منها. ينظر إليها بحنان ولا يرفع بصره عنها. أمسك إحدى يديها واستيقظاها بين يديه.

- هل استطعت رؤية وجههم - سألهما النقيب - هل يمكنك التعرف عليهم إذا ما رأيتمهم مجدداً؟

- لا أظن ذلك - نفت ما بليل برأسها، ولكنها لم تكن تبدو متأكدة مما تقوله -، لم أر سوى واحدٍ منهم، وبصورة خاطفة. من كان يقف بجانب الشجرة، شجرة البونثيانا ذات الأزهار الحمراء، حين وصلت إلى البيت تلك الليلة. لم أكُد أدقق في ملامحه. كان يقف جانبياً، هكذا بدا لي، وفي الظلام. وفي تلك اللحظة بالذات، حين استدار ليقول لي شيئاً واستطاعت النظر إليه، ألقوا غطاء فوق رأسي. كمموني. ولم أعد أرى شيئاً حتى صباح هذا اليوم، حين...

قطعت كلامها بوجه ممتعق وأدرك ليتوما أنها تبذل جهوداً كبيرة كيلا تجهش في البكاء. كانت تحاول موافقة الكلام ولكن صوتها لم يكن يخرج. راح فيليثيتو يتضرع إليهما بعينيه بأن يشفقا على ما بليل.

- اهدئي، اهدئي - واساها النقيب سيلفا - أنت امرأة شجاعة جداً

يا سيدتي. لقد مررت بتجربة رهيبة ولم يستطيعوا كسرك. أطلب منك فقط أن تبذل مجهوداً أخيراً، أرجوك. كنا نفضل طبعاً عدم التحدث في الأمر، ومساعدتك على دفن ذكرياتك السيئة. ولكن المجرمين الذين اختطفوك يجب أن يكونوا وراء القضبان، وأن يُعاقبوا على ما فعلوه. وأنت وحدك من تستطعين مساعدتنا في الوصول إليهم.

هزمت مابيل رأسها موافقة وهي تبتسم ابتسامة مغمومة. وتابعت الكلام متغيرة على كربها. بدت قصتها لليتوما متفاسكة ومتدفقة، وإن كانت تنتابها بين حين وآخر ارتعاش وخزات رعب يجعلها تصمت مرتجلة لبضع ثوان. فيشحب وجهها، وتتصطك أسنانها. أتراءها تستعيد لحظات الكابوس، ذلك الرعب العظيم الذي لا بد أن تكون قد أحسست به نهاراً وليلأ على امتداد أسبوع مضته في قبضة المافيا؟ ولكنها تعود بعد ذلك لسرد قصتها، يقاطعها بين فينة وأخرى النقيب سيلفا، و(بأي تهذب شديد الأدب)، فكر ليتوما متفاجئاً يطلب منها تفصيلاً معيناً حول ما ترويه.

عملية الاختطاف جرت قبل سبعة أيام، بعد الحفل الموسيقي لكورال الأخوية المريمية بكنيسة سان فرانثيسكو في شارع ليما، وقد حضرته مابيل مع صديقتها فلورا دياث التي تملك محل ملبوسات في شارع خونين، يسمى محل إبداعات فلوريتا. إنهما صديقتان منذ زمن وتذهبان معاً إلى السينما في بعض الأحيان، أو لتناول وجبة خفيفة وللمشتريات. ومن عادتهما في مساء أيام الجمعة أن تذهبا إلى كنيسة سان فرانثيسكو، وهي المكان الذي أُعلن فيه استقلال بيورا، إذ تقام هناك حفلات موسيقية، وكورالات، ورقص وعروض فرق محترفين. وفي يوم الجمعة ذاك أنشد كورال الأخوية المريمية أناشيد دينية، كثير منها باللاتينية، أو هكذا كانت تبدو. فشعرت فلورا ومابيل بالضجر،

وخرجتا قبل انتهاء الحفل. تبادلتا الوداع عند الجسر المعلق، ورجعت مابيل إلى بيتها ماشية، لأنها كانت قريبة جداً. لم تلحظ شيئاً غريباً أثناء سيرها، لم تلحظ أحداً، ولم تلاحظ أن إحدى السيارات تتبعها. لا شيء مطلقاً. كلاب الشوارع وحدها، وأسراب صبية صغار يلهون، وأناس يستمتعون ببرودة الجو ويتبادلون الحديث على كراس عادية وكراس هزازة، أخرجوها أمام أبواب البيوت والحانات والدكاكين والمطاعم، مع الزبائن وأجهزة راديوهاتهم التي تطلق بأعلى صوت موسيقاها، فتختلط مائة الجو بصخب يبعث على الصمم. («أكان هناك قمر؟» سأل النقيب سيلفا، فارتبت مابيل للحظات: «أكان؟ المعذرة، لا أتذكر»).

كان شارع بيتها مقفراً، تظن أنها تتذكر. ولم تكن تلحظ تلك الهيئة الذكورية شبه المستندة إلى شجرة البونثيانا. كانت تحمل مفتاح البيت في يدها، ولو أن ذلك الشخص حاول الاقتراب منها لكان صرخت طالبة النجدة وانطلقت راكضة. لكنها لم تلحظ قيامه بأي حركة. أدخلت المفتاح في قفل الباب وكان عليها أن تعالجة بشيء من القوة - «وقال لها فيليثيو عندئذ إن المفتاح يعand قليلاً على الدوام» - وحين أحسست بظل يقترب منها. لم تجد وقتاً للقيام بأي رد فعل. أحسست بأنهم يلقون غطاء على رأسها، وأن عدة أذرع تمسك بها في الوقت نفسه. («كم كان عدد تلك الأذرع؟»، «أربع أذرع... ست، لا أدرى»). ثم حملوها وكمموا فمهما ليُخدمو صراخها. بدا لها أن ذلك كله قد حدث في ثانية واحدة. كان ذلك أشبه بزلزال، وكانت هي في مركز تلك الهززة الأرضية. وعلى الرغم من هلعها العظيم، حاولت أن ترفس بقدميها وأن تحرك ذراعيها، إلى أن أحسست بأنهم يطروحنها أرضاً في سيارة، يمكن أن تكون سيارة كبيرة أو شاحنة صغيرة؛ وكبح أولئك

الأشخاص حركتها بتثبيتها من قدميها ويديها ورأسها. عندئذ سمعت تلك الجملة التي مازالت ترن في مسامعيها : «التزمي الهدوء والصمت إذا أردت البقاء حية». أحسْتْ بمرور شيء بارد على وجهها، ربما هي سكين، وربما مقبض مسدس أو سبطانته. انطلقت السيارة؛ ومع اهتزازها راح بدنها يُصفع بالأرضية. عندئذ تكورت على نفسها وظلت صامتة تفكّر: «سأموت». لم تكن لديها حماسة حتى للصلوة. وبلا شكوى أو مقاومة، سمحت بأن يربطوا عصابة على عينيها، ويُلبسوا رأسها كيساً، وأن يقيدوا يديها. لم تَرَ وجههم لأنهم فعلوا ذلك كله في الظلام، بينما هم يمضون، ربما، على الطريق العام. لم تكن هناك أنوار كهربائية وكان كل شيء ظلاماً مطباً. لابد أن الجو كان ضبابياً، إذ لم يكن هناك حتى قمر. قاموا بجولات وجولات لوقت بدا لها ساعات... قرونًا، وربما لم تكن سوى دقائق قليلة. فبعينيها المعصوبتين ويديها المقيدتين وخوفها، فقدت الإحساس بالزمن. ومنذ تلك اللحظة لم تعد تعرف في أي يوم هي، وما إذا كان الوقت ليلاً، وإذا كان هناك من يحرسها أم أنهم تركوها وحدها في تلك الحجرة. الأرضية التي مددوها عليها كانت قاسية جداً. وكانت تشعر أحياناً بحشرات تمشي على ساقيها، ربما هي تلك الصراصير الفظيعة التي تكرهها أكثر من كرهها للعناكب والفثran. أنزلوها من الشاحنة. ممسكين بها من ذراعيها، ومشت متلمسة موطن قدميها ومتعرّثة، فدخلت بيته حيث كان مذيع بيت موسيقى كريولية، نزلت درجاً. وبعد أن طرحوها أرضاً على حصیر، تركوها وانصرفوا. ظلت ترتجف هناك في الظلام. لقد تمكنت عندئذ من الصلاة. طلبت من السيدة العذراء ومن جميع القديسين الذين تتذكّرهم، ومنهم القديسة روسا دي ليما وسيد أياباكا الكاوتيفو طبعاً، أن يحموها. وألا يتركوها تموت بتلك الحال، وأن ينتهي ذلك العذاب.

خلال أيام اختطافها السبعة، لم يجر أي حديث بينها وبين خاطفيها. لم يُخرجوها قطّ من تلك الحجرة. لم تعد لرؤية الضوء قطّ لأنهم لم ينزعوا العصابة عن عينيها مطلقاً. كان هناك إماء أو دلو يمكنها أن تقضي فيه حاجتها، بالتلمس، مرتين في اليوم. أحد ما كان يأخذه ويعيده نظيفاً دون أن يتوجه إليها بالكلام. مرتان في اليوم، الشخص نفسه أو شخص مختلف، يظل صامتاً دوماً، يأتيها بطبق أرز مع يخنة خضار ولحم وحساء، ومرطب مياه غازية شبه ساخنة أو قارورة مياه معدنية. ومن أجل أن تتمكن من الأكل، كانوا ينزعون الكيس عن رأسها ويفكونون قيد يديها، ولكنهم لا ينزعون العصابة عن عينيها أبداً. وكلما توسلت مابيل إليهم متضرعة أن يخبروها ماذا سيفعلون بها، ولماذا اختطفوها، يردّ عليهما دوماً الصوت القوي والامر نفسه: «اصمتى! إنك تقامررين بحياتك حين تسألين». لم تستطع الاستحمام قطّ، ولا حتى أن تغسل. ولهذا كان أول ما فعلته، حين استعادت حريتها، هو الدخول للاستحمام والبقاء تحت ماء الدوش طويلاً، وذلك بدنها بالليفة والصابون إلى أن تسلخت بشرتها، وبعد خلعها كل تلك الملابس التي كانت ترتديها خلال تلك الأيام الرهيبة. ستضعها كلها في حزمة - بما في ذلك الحذاء - وتقدمها هدية لفقراء سان خوان دي ديوس.

في صباح هذا اليوم دخل إلى حجرة سجنها عدة أشخاص، قدرت ذلك من وقع الخطوات. ودون أن يقولوا أي شيء، كالعادة، أوقفوها في ما بينهم على قدميهما وجعلوها تمشي، تصعد درجاً، وأعادوا طرحها على أرضية عربة، لا بد أنها السيارة أو الشاحنة نفسها التي اختطفوها فيها. وظلت السيارة تقوم بجولات وجولات لوقت طويل، بينما عظام بدنها كلها تخلع من الاهتزاز المتواصل، إلى أن توقفت

أخيراً. فكوا وثاق يديها وأمروها: «عَدَى حَتَّى الْمَثَة قَبْلَ أَنْ تَنْزَعِي  
الْعَصَابَة عَنْ عَيْنِي. إِذَا مَا نَزَعْتُهَا قَبْلَ ذَلِكَ سَتَقْضِي عَلَيْكَ رِصَاصَة». انصاعت لما طلبوه. وحين رفعت العصابة اكتشفت أنهم تركوها في وسط الرملة بالقرب من لا ليغوا. مشت أكثر من ساعة حتى وصلت إلى أول البيوت في حي كاستيا. وهناك تمكنت من العثور على سيارة أجرة أوصلتها إلى البيت.

بينما مابيل تروي أوديستها، كان ليتوما يتبع قصتها باهتمام شديد، ولكن دون أن يهمل مظاهر المحبة التي يبديها دون فيليثيو لعشيقته. كان هنالك شيءٌ طفولي، مراهق، ملائكي، في الطريقة التي يمر بها صاحب شركة النقل بيده على جبهتها، وينظر إليها بوع ديني، ويتمتم «مسكينة، مسكينة يا حبي». في بعض اللحظات كان ليتوما يشعر بالضيق من تلك الحركات، وتبدو له مبالغة فيها، ومضحكة بعض الشيء في مثل تلك السن. وفكراً: «لا بد أنه أكبر منها بثلاثين عاماً. يمكن لهذه الفتاة أن تكون ابنته». لقد كان العجوز يرتجف حتى النخاع. أ تكون مابيليتا من الناريات أم من الباردات؟ إنها من الناريات طبعاً.

- لقد اقتربتُ عليها أن تنتقل من هنا لبعض الوقت - قال فيليثيو ياناكيه للشرطيين -. أن تذهب إلى تشيكلايو، أو تروخيو أو إلى ليما. إلى أي مكان. ريشما تنتهي هذه القضية. لا أريد أن يحدث لها أي شيء. إلا تبدو لك فكرة جيدة أيها النقيب؟

هز الضابط كتفيه.

- لا أظن أنه سيحدث لها أي شيء ببقائها هنا - قال مفكراً -. الجناء يعرفون أنها محمية الآن ولن يكونوا مجانيين بالاقتراب منها وهم يعرفون ما الذي يعرضون أنفسهم له. أشكرك يا سيدة مابيل على

شهادتك. أؤكد لك أنها ستكون مفيدة لنا. هل تسمحين بأن أوجه إليك بعض الأسئلة الأخرى؟

- إنها متعبة - احتاج دون فيليثيتو -. لماذا لا تتركها الآن بهدوء أيها النقيب؟ ولتستجوبها غداً أو بعد غد. أريدأخذها إلى طبيب، وإدخالها المستشفى بضعة أيام لإجراء فحوصات شاملة.

- لا تقلق يا عجوزي، سأستريح في ما بعد - تدخلت مابيل -. أسألكي ما تشاء أيها السيد.

بعد عشر دقائق، قال ليتوما لنفسه إن رئيسه يبالغ. فصاحب شركة النقل على حق؛ لأن المرأة المسكينة تعرضت لتجربة رهيبة، اعتقاد أنها ستموت، لقد كانت تلك الأيام السبعة بالنسبة لها عذاباً فظيعاً. كيف يريد النقيب من مابيل أن تتذكر التفاصيل التافهة، شديدة البلاهة، التي يركز أسئلته عليها؟ إنه لا يفهم ذلك. لماذا يريد رئيسه أن يعرف إن كانت قد سمعت وهي في سجنها صياح ديكا أو صوت دجاج، أو مواء قطط أو نباح كلاب؟ وكيف ستتمكن مابيل من أن تحدد عدد الخاطفين من خلال أصواتهم، وإذا كانوا جميعهم من بيورا أم أن بينهم من يتكلم بلهجة ليما، أو اللهجة الجبلية أو بلهجة شرق البلاد؟ كانت مابيل تفعل كل ما بوسعها، تفرك يديها، تتشكل، ومن الطبيعي أن تلتبس عليها الأمور أحياناً وتبدي ملامح الذهول. هذا شيء لا أتذكره يا سيدى، لم أدقق في هذا الأمر، يا للأسف. وتعذر وهي تهز كتفيها، وتفرك يديها: «كم كنتُ بلهاء، كان عليّ أن أفكر في هذه الأمور، وأن أحاول الانتباه والتذكرة. ولكن... لقد كنت في حالة ذهول شديد أيها السيد».

- لا تقلقى، من الطبيعي أن يكون ذهنك مشغولاً، ومن المستحيل حفظ كل شيء في الذاكرة - شجعها النقيب سيلفا -. ولكن حاولي القيام

مع ذلك بجهد أخير. فكل ما تتذكرينه سيكون مفيداً جداً لنا يا سيدتي. قد تبدو لك بعض أسئلتي مجرد كلام لافائدة منه، ولكن لا تظني ذلك، ففي بعض الأحيان يظهر من هذه التفاهات عديمة الأهمية طرف خيط يقودنا إلى الهدف.

وما بدا للبيتوما أكثر غرابة هو أن النقيب سيلفا كان يلح كثيراً على أن تتذكر مابيل ظروف وتفاصيل الليلة التي اختطفت فيها. هل هي متأكدة من أن أحداً من جيرانها لم يكن يستمتع ببرودة الجو في الشارع؟ ولم تكن أي جارة تطل بنصف جسدها من نافذة مستمرة إلى سيرناتا أو تتبادل الحديث مع حبيبها؟ تظن مابيل أن لا، ولكن ربما نعم، لا، لا، لم يكن هناك أحد في ذلك الركن من الشارع لدى عودتها من حفلة الأخوية المريمية. ربما كان هناك أحد، أمر ممكن، كل ما في الأمر أنها لم تدقق، لم تنتبه، يا لي من بلهاه. بيتما والنقيب كانوا يعرفان جيداً أنه لم يكن هناك أي شاهد على عملية الاختطاف لأنهما كانوا قد استجوبا جميع الجيران. لم ير أحد أي شيء، لم يسمع أحد شيئاً غريباً في تلك الليلة. ربما كان ذلك صحيحاً، أو ربما، كما قال النقيب، لا أحد يريد التورط. «الجميع يرتجفون خوفاً أمام المafيا. ولهذا يفضلون عدم رؤية أو معرفة أي شيء، هكذا هم هؤلاء الأنذال المغلقين على أنفسهم».

أخيراً منح المفوض نفساً لمالك شركة النقل، وانتقل إلى سؤال عادي.  
ـ ما الذي تظنين، يا سيدتي، أن الخاطفين كانوا سيفعلونه بك لو لم يُشعرون دون فيليثيتو بأنه سيدفع الفدية؟  
فتحت مابيل عينيها على اتساعهما، وبدل أن تجيب على سؤال الضابط، التفتت إلى عشيقها:

ـ هل طلبوا منك فدية مقابلني؟ لم تخبرني بذلك يا عجوزي.

- لم يطلبوا مني فدية مقابلك - أوضح لها وهو يقبل يدها مرة أخرى -. لقد اختطفوك كي يجبروني على دفع الإتاوة التي يطلبونها من ناريهوا لا للنقل. وأطلقوا سراحك لأنني جعلتهم يعتقدون أنني وافقت على ابتزازهم. كان عليّ أن أنشر إعلاناً في «التييمبو»،أشكر فيه معجزة حقيقها لي السيد كاوتييفو دي أياباكا. كانت هذه هي الاشارة التي ينتظرونها. ولهذا أطلقوا سراحك.

رأى ليتوما أن وجه مابيل قد شحب من جديد. كانت ترتجف وراحت أسنانها تصطك مرة أخرى.

- أتعني أنك ستدفع لهم تلك الإتاوة؟ تلعمت.

- لن أفعل ولو مت ياحبيبي - شخر دون فيليثيتو وهو ينفي بحركة نشطة من رأسه ويديه -. لن أفعل ذلك أبداً.

- سوف يقتلونني إذاً - همست مابيل -. وأنت أيضاً يا عجوزي. ما الذي سيجري الآن أيها السيد؟ هل سيقتلوننا نحن الاثنين؟ أفلتت إجهاشة نحيب رافعة يديها إلى وجهها.

- لا تقلقي يا سيدتي. ستتوافق لك حماية على مدار الأربع والعشرين ساعة يومياً. ولن يكون ذلك لوقت طويل، لأنه لن يكون ضرورياً، وسوف ترين. لقد صارت أيام هؤلاء اللصوص معدودة، أقسم لك.

- لا تبكِ، لا تبكِ يا حبيبتي - واسهاها دون فيليثيتو وهو يحنو عليها ويحتضنها - أقسم لك إنه لن يصيبك أي سوء مرة أخرى. لن أسمح بحدوث ذلك أبداً. أقسم لك يا حياتي ، صدقيني. الأفضل أن تغادري هذه المدينة لبعض الوقت مثلما طلبتُ منك ، اعملني بنصيحتي.

نهض النقيب سيلفا واقفاً، وهذا ليتوما حذوه. «سنخصص لك حماية دائمة»، أعاد المفوض التأكيد على سبيل الوداع. «اطمئني يا سيدتي». لم يرافقهما أي من مابيل أو دون فيليثيتو حتى الباب؛ بل

ظلّ كلاهما في الصالة، هي تبكي وهو يواسيها.  
وفي الخارج، كانت تنتظر الشرطيين شمس حارقة والمشهد المعهود: صبية بثياب رثة يتداولون ركل كرة، وكلاعب أليفة تنبع، وأكواكب زبالة عند النواصي، وباعة متجللون، وصف عربات وشاحنات ودرجات نارية ودراجات هوائية تتناثر الطريق. لم تكن طيور الرحمة تحلق في السماء فقط، بل إن اثنين من تلك الطيور حطت أرضًا وراحت تبش في أكوام القمامه.

- ما رأيك يا سيادة النقيب؟

أخرج رئيسه عليه سجائير تبغ أسود، قدم واحدة للرقيب، وأخذ واحدة لنفسه وأشعل الاثنين بولاعة قديمة خضراء ضاربة إلى السواد. أخذ نفساً طويلاً، ثم أطلق الدخان على شكل حلقات. وكانت تبدو عليه ملامح الرضا.

- لقد وقعوا يا ليتوما - قال وهو يوجه لكتمه زائفة إلى مساعدته -. لقد اقترف الأنذال خطأهم الأول، وهو ما كنتُ أنتظره. وأوقعوا أنفسهم! هلم بنا إلى «التشالان»، إبني أدعوك إلى عصير فواكه مع كثير من الثلج للاحتفال المناسبة.

كانت ابتسامته تمتد من أذن إلى الأخرى وهو يفرك يديه مثلما يفعل حين يكسب جولة في لعب البوكر أو النرد، أو حين يكسب جولة في الداما.

- اعترافات هذه الأنثى تبر ذهب خالص يا ليتوما - أضاف وهو يدخن ويطلق الدخان باستمتاع -. وأعتقد أنك قد لاحظت ذلك.

- لملاحظي شيء يا سيادة النقيب - اعترف ليتوما مشوشًا -. هل تتكلم بجد أم أنك تريد السخرية مني؟ إذا كانت المرأة المسكينة لم تتمكن حتى من رؤية وجوههم.

- يا للعنة العاهرة! كم أنت شرطي سيني يا ليتوما، وأنت أكثر سوءاً في الأمور النفسانية - قال النقيب ساخراً وهو ينظر إليه من أعلى إلى أسفل ويضحك بارتياح -. لا أدرى كيف وصلت إلى رتبة رقيب، يا للعنة. وأن تصير فوق ذلك مساعدى، وهو أمر يعني الكثير.

ثم تتمت لنفسه من جديد: «تبرُّ ذهبٌ خالص، أجل يا سيدى». كانا يجتازان الجسر المعلق ورأى ليتوما جماعة صبيان يسبحون ويلعبطون في الماء عند ضفاف النهر الرملية. هذه الأمور نفسها كان يقوم بها مع أبني عمه ليون، منذ كثير من السنوات.

- لا تقل لي إنك لم تنتبه إلى أن هذه المدعوة مابيليتا لم تنطق بكلمة حقيقة واحدة يا ليتوما - أضاف النقيب وهو يبدي الجدية التامة. وكان يمح السيجارة، وينفث الدخان كمن يتحدى السماء، وفي صوته وعينيه حسُّ الانتصار -. إنها لم تفعل شيئاً سوى التناقض ورواية حكاية خرقاء. لقد أرادت أن تخدعنا وأن تدس إصبعها في فمنا... وفي مؤخرتنا أيضاً. كما لو أنا، أنا وأنت، مجرد زوج من البلهاء يا ليتوما.

توقف الرقيب فجأة وقد سيطر عليه الذهول.

- هذا الذي تقوله لا تعنيه بجد يا سيادة النقيب، أو إنك تخدعني؟

- لا تقل لي إنك لم تنتبه إلى ما هو جلي وشديد الوضوح يا ليتوما - أدرك الرقيب أن رئيسه يتكلم بكل جدية، وبقناعة مطلقة. يفعل ذلك بحماسة وسعادة وهو ينظر إلى السماء، ويرمش دون توقف من الشمس -. لا تقل لي إنك لم تنتبه إلى أن مابيليتا ذات المؤخرة الكثيبة لم تكن مخطوفة قطًّا. وأنها متواطئة مع المبتزين، وشاركت في مسرحية الاختطاف التهريجية من أجل تلبيين موقف دون فيليثيتو المسكين الذي تزيد هي أيضاً أن تنتف ريشه. لا تقل لي إنك لم تنتبه إلى أنه بفضل تمادي أبناء العاهرة هؤلاء، صارت القضية شبه محلولة عملياً يا ليتوما.

يمكن الآن لرسكاتشوتشا أن ينام مطمئناً ويتوقف عن إزعاج صبرنا. لقد صار الفراش مرتبأً ولم يبق علينا الآن سوى مداهمتهم والقبض عليهم. ألقى عقب السيجارة إلى النهر وبدأ يضحك مقهقاً وهو يهرش إبطيه.

كان ليتوما قد خلع قبعته وراح يمسد شعره.

- إما أنني غبي أكثر مما أبدو عليه أو أنك أنت عبكري يا سيد النقيب - أكد معنويات موهنة -. أو أن حضرتك أكثر جنوناً من عنزة، أقول هذا مع الاعتذار.

- إنني عبكري يا ليتوما، عليك أن تقنع بذلك، كما أنني أتقن دارسة سيكلولوجية الناس - أكد النقيب مبتهجاً -. يمكن لي أن أقدم لك تنبؤاً إذا أنت رغبت. في اليوم الذي سنلقي القبض على هؤلاء العتاة، وهو يوم قريب جداً، سوف أمزق فرج السيدة خوسيفيتا حبيبة روحي، وأسأجعلها تصرخ طيلة الليل. فلتتحيا الحياة، يا للعنة !



## XII

- هل وجدت نرسيس المسكين؟ - سأله السيدة لوكريثيا -، ماذا جرى له؟

أكد دون ريفوبيرتو ذلك بهز رأسه وانهار على مقعد الصالة في بيته مستنفداً.

- أوديسة حقيقة - قال متنهدأ - يا لهذا الجميل العظيم الذي قدمه لنا إسماعيل بإدخالنا في مشكلة فراشه وابنيه، يا حبي.

كان أحد أقرباء نرسيس، سائق إسماعيل كاريلا، قد حدد له موعداً في محطة الوقود الأولى عند مدخل تشينتشا. قاد ريفوبيرتو السيارة في الطريق إلى هناك طوال ساعتين، ولكنه حين وصل لم يجد أحداً بانتظاره في محطة الوقود المذكورة. وبعد أن وقف تحت الشمس لوقت لا يأس به وهو يرى مرور الشاحنات والحافلات، ويبتلع الغبار الذي تحمله ريح خفيفة ساخنة تهب من الجبال وتتصف به وجهه، وحين أصابه الضجر والتعب، وكان على وشك اتخاذ طريق الرجوع إلى ليما، ظهر صبي قال إنه ابن أخي نرسيس. كان زنجياً صغيراً، نزقاً وحافياً، له عينان واسعتان ثرثارتان ومتآمرتان. تحدث إليه متخدأ الكثير من الاحتياطات، بحيث لم يكن دون ريفوبيرتو يفهم جيداً ما يقوله. وأخيراً اتضح أن هناك تغييراً في الخطط؛ فعمه نرسيس ينتظره في غروسيو برادو، عند باب البيت نفسه الذي عاشت فيه، وحققت

معجزاتها، وماتت فيه الراهبة ميلتشوريتا (حين نطق الصبي اسمها رسم إشارة الصليب). نصف ساعة أخرى من قيادة السيارة في طريق يعج بالتراب والحفر، وسط كروم عنب وبساتين فواكه للتصدير. عند باب بيت- متحف- مصلى الراهبة التقية في ساحة غروسيو برادو، ظهر سائق إسماعيل أخيراً.

- كان شبهه متذكر بنوع من العباءة وبقلنسوة متعبد كيلا يتعرف عليه أحد، ويقاد يموت خوفاً بالطبع - تذكر رينغوبيرتو باسماً - لقد كان ذلك الزنجي أبيض شاحباً من الرعب يا لوكريثيا. والحقيقة أن هذا أقل ما هو متوقع. فالضبعان يلاحقانه نهاراً وليلاً، وأكثر مما كنت أتوقعه.

لقد أرسلوا إليه في أول الأمر محامياً، أو متشدقاً ثرثاراً بعبارة أدق، في محاولة لرشوته. إذا ما مثل أمام القاضي وقال إنه قد أجبر على أن يكون شاهداً على زواج رب عمله، وأنه يرى أن السيد إسماعيل كاريرا لم يكن بكامل قواه العقلية يوم زواجه، فسوف يقدمون له مقابل ذلك مكافأة بمبلغ عشرين ألف سول. وعندما أجابه الزنجي بأنه سيفكر في الأمر، ولكنه يفضل بادئ ذي بدء، إلا تكون له أية علاقة بالسلطة القضائية ولا بالحكومة، عندئذ جاءت الشرطة إلى منزل عائلته في تشينتشا، لتدعوه إلى المثلول في مفوضية الشرطة. فقد رفع التوءمان شكوى ضده بتهمة التواطؤ وجنايات أخرى، منها تهمة التآمر واختطاف رب عمله !

- لم يبق أمامه سوى الاختفاء من جديد - أضاف رينغوبيرتو -. لحسن الحظ أن لنرسيس أصدقاء وأقرباء في كل أنحاء تشينتشا. ومن حسن حظ إسماعيل أن هذا الزنجي هو الشخص الأكثر نزاهة ووفاء في العالم. وعلى الرغم من الرعب الذي يشعر به، إلا أنني أشك في أن يتمكن الجلغان من كسر إرادته. لقد دفعتُ له راتبه، وتركت له مبلغاً

إضافياً تحسباً لأي أمر غير متوقع. هذه القضية ستتعقد أكثر فأكثر كل يوم يا حبي.

تمطى دون ريفوبيرتو وتناءب على أريكة الصالة الصغيرة، وبينما كانت دونيا لوكريثيا تُعدّ له كأس ليموناده، استغرق مطولاً في تأمل بحر بارانكو من النافذة. كان مساء بلا رياح وكان في الجو عدد من هواة التحليق الشراعي يقومون بحركات بهلوانية. مرّ أحدهم قريباً جداً من النافذة، إلى حدّ تمكن معه ريفوبيرتو من أن يرى بوضوح رأسه الغاطس في خوذة. يا للمسألة اللعينة. وتأتي لتسقط عليه الآن بالذات، مع بدء تقادع. كان يظن أنه سيكون في راحة، يمضي الوقت بين فن ورحلات، أي في متعة خالصة. الأمور لا تجري أبداً مثلما تم التخطيط لها: إنها قاعدة بلا استثناءات. «لم أتصور قط أن الصداقة مع إسماعيل ستكون باهظة الكلفة إلى هذا الحد»، فكر «ولم أتصور بأي حال أنه سيكون عليّ أن أضحي من أجلها بحizzi الحضاري الصغير». لو كانت هنالك شمس، لكان هذا الوقت هو الساعة الساحرة في ليما. دقائق من الجمال المطلق. كرة النار تغطس في البحر هناك في الأفق وراء جزر سان لورينثو والفرونتون، مشعلة السماء، وصابحة العيون بلون وردي وعارضة، لبعض دقائق، ذلك الشهد الذي يجمع ما بين السكينة والقيامة ليعلن بدء الليل.

- ماذا قلت له؟ - سألته دونيا لوكريثيا وهي تجلس إلى جانبه - يا لنرسيس المسكين من هذا الوضع الذي ورط نفسه فيه لمجرد كونه شخصاً طيباً مع رب عمله.

- حاولتُ طمأنته - أخبرها دون ريفوبيرتو وهو يتذوق الليموناده بتلذذ - . وطلبتُ منه ألا يرتعب، فلن يحدث أي شيء له أو لي بسبب كوننا شاهدين على الزواج. وأننا لم نرتكب أية جنائية بذلك. ثم إن

إسماعيل سيخرج منتصراً من هذا الصراع مع الضبعين. وأن حملة اسكونبيتا وميكى وغضبهما لا يستندان إلى أية قاعدة قانونية. وأنه إذا أراد الشعور بمزيد من الطمأنينة، فليستشر بشأن وضعه محامياً من تشينتشا يثق به ويرسل إلى الفاتورة. وباختصار، فعلت كل ما استطعته. إنه رجل صلب الإرادة، وأكرر القول لك إن هذين الجلفين لن يقدرا عليه. ولكنهما يجعلانه يمر بلحظات عصيبة، هذا صحيح.

- ونحن، أنسنا كذلك؟ - قالت دونيا لوكريشيا شاكية -. أقول لك إنني، منذ بدأت هذه المزحة الثقيلة، صرت أخاف حتى من الخروج إلى الشارع. الجميع يسألونني عن العريسين، كما لو أنه ليس هناك ما هو أكثر أهمية لأهالي ليما. صرت أرى أن للناس جميعاً وجه صحفي. لا تعرف كم أكرههم حين أسمع أو أقرأ تلك البلاهات والخبريات الزائفة التي يكتبونها.

«إنها مذعورة أيضاً»، فكر دون ريفوبيرتو. امرأته تبتسم له ولكنها يستطيع أن يلمح ذلك البريق الخافت المتهرب الذي يطل من عينيها، والطريقة القلقة التي تفرك بها يديها طيلة الوقت. مسكينة لوكريشيا. لم تُلْعَنَ رحلتها إلى أوروبا وكل ما بنته عليها من أحلام وحسب، بل جاءت هذه الفضيحة لتحلّ بها فوق ذلك. بينما العجوز إسماعيل مازال يقضي شهر عسله في أوروبا، دون أن يرسل أية إشارة تدل على أنه حي، وبينما ابناه في ليما يجعلون الحياة مستحيلة على نرسيس وعلىه هو نفسه وعلى لوكريشيا، ويضعون شركة التأمين نفسها في حالة من الاضطراب.

- ماذا جرى لك يا ريفوبيرتو - فوجئت لوكريشيا -. من يضحك على انفراد، فإنه إنما يتذكر أعماله الخبيثة.

- أضحك من إسماعيل - أوضح ريفوبيرتو -. يكاد يكمل شهراً في

رحلة شهر العسل. وهو قد تجاوز الثمانين! لقد تأكّدتُ من الأمر، فهو ليس سبعينيًّا بل ثمانينيًّا! هل تلاحظين يا لوكريثيا؟ كثرة الفياغرا ستؤدي إلى جفاف دماغه، وسوف يتم إثبات صحة ادعاء الضبعين بأنه مختل العقل. لا بد أن تكون آرميدا متوجهة.. إنها تجففه!

- لا تكن مبتدلاً يا ريفوبيرتو - تظاهرت زوجته بانتقاده ضاحكة.

«إنها تحسن إظهار وجه مرح في الأجواء السيئة»، فكر ريفوبيرتو بحنان. فلوكريثيا لم تُبدي الجزع خلال هذه الأيام، بينما حملة التخويف التي شنها التوءمان تملأ البيت باستدعاءات قضائية وبوليسية وبأخبار سيئة - وأوسوا الأخبار: لقد تمكنا من وقف إجراءات تقاعده في شركة التأمين عبر حيلة قانونية -. إنها لم تُبدي أدنى مظاهر الضعف. فقد دعمته روحًا وجسداً في قراره بعدم الرضوخ لابتزاز الضبعين والحفاظ على وفائه لصديقه ورئيسه في العمل.

- الشيء الوحيد الذي يزعجني - قالت لوكريثيا قارئة أفكاره - هو أن إسماعيل لم يقم ولو باتصال هاتفي أو بإرسال بضعة سطور. ألم يلفت انتباحك ذلك؟ أتراه يعلم بأوجاع الرأس التي تصيبنا؟ هل يعلم بما يحدث للمسكين نرسيس؟

- إنه يعرف كل شيء - أكد ريفوبيرتو -. فأرنبياس على اتصال به ويُطلعه على كل شيء. وقد أخبرني بأنهما يتبادلان الحديث كل يوم. الدكتور كلوديو أرنبياس هو محامي إسماعيل كاريلا منذ سنوات طويلة، وهو الآن الوسيط بين ريفوبيرتو ورئيسه السابق. وحسب قوله فإن إسماعيل وآرميدا يتجلون في أوروبا، وسوف يرجعان قريباً إلى ليما. ويؤكد أن استراتيجية ابني إسماعيل كاريلا لإبطال الزواج، والحصول على قرار حجز على شركة التأمين، لأنها محكمة بأعظم فشل مدوٍ بسبب عجز أبيهما وإصابته بحرف الشيخوخة. وكيفي أن

يحضر إسماعيل، ويُخضع للفحوص الطبية والنفسية المطلوبة حتى تسقط تلك الدعوى بصورة تلقائية.

- ولكن، إذا كان الأمر على هذه الحال، فأنا لا أفهم لماذا لا يقوم به وننتهي يا دكتور أرنبياس - هتف دون ريفوبيرتو - لا بد أن هذه الفضيحة ستكون أشد وطأة على إسماعيل مما هي علينا.

- أودتري لماذا؟ - أوضح الدكتور أرنبياس متخدًا نبرة ميكافيلية، بينما إبهاما يديه يندسان تحت حمالتي السروال اللتين تثبتان ببطاله - لأنه يريد أن يواصل التوءمان إنفاق ما لا يملكانه. النقود التي لا بد أنهم يستدینونها من هنا وهناك كي يدفعوا لهذا الجيش من المحامين الفاشلين، والرши التي تسهل لهم الطريق لدى الشرطة والمحاكم... لا بد أنهم يسلخونهما حبّين، وهذا هو الاحتمال الأكبر، وإسماعيل يريدهم أن يفلسوا تماماً. هذا أمر خطط له السيد كاريرا بكل تفصيل، هل أدركت ذلك؟

لقد صار دون ريفوبيرتو يدرك جيداً الآن أن ضغفية إسماعيل كاريرا على الضبعين، منذ ذلك اليوم الذي اكتشف فيه أنهما ينتظران موته بفارغ الصبر، ويتلهفان لوراثته، هي ضغفينة مَرضية ولا رجعة عنها. لم يتصور قط أن تكون لدى إسماعيل الوديع القدرة على حقد انتقامي بهذا الحجم، وأقل من ذلك أن يكون حقده موجهاً ضد ابنيه بالذات. هل سيصل الأمر بفونتشيتو إلى تمني موته ذات يوم؟ وبالمناسبة، أين هو الصبي؟

- لقد خرج مع صديقه بيثولو إلى السينما على ما أظن - أخبرته لوكريثيا - ألم تلاحظ أنه صار أحسن منذ أيام؟ كما لو أنه قد نسي إديلبيرتو توريـس.

أجل، فمنذ أسبوع على الأقل لم يعد يرى تلك الشخصية الغامضة.

هذا ما قاله لهما على كل حال، ودون ريفوبيرتو لم يكتشف كذبة واحدة في كلام ابنه.

- كل هذه التعقيدات ضيّعت علينا الرحلة التي خططنا لها طويلاً - تنهدت دونيا لوكريثيا محزونة فجأة -. إسبانيا، إيطاليا، فرنسا. يا للأسف يا ريفوبيرتو. كنت أحلم بالقيام بها. وهل تعرف لماذا؟ أنت المذنب. بسبب الطريقة التفصيلية، شديدة النزوية، التي تخبرني بها بالرحلة. الزيارات إلى المتاحف، والحفلات الموسيقية، والمطاعم. ولكن ليس بيدنا عمل أي شيء... الصبر. وافقها ريفوبيرتو:

- إنه تأجيل فقط يا حبي - واسهاها، وقبل شعرها - بما أننا لن نستطيع الذهاب في الربيع، فسوف نذهب في الخريف. إنها فترة بدعة أيضاً، مع الأشجار المذهبة وأوراق الشجر التي تشكّل سجادة على الشوارع. إنها أجمل فترة في العام من أجل ارتياح دور الأوبرا والحفلات الموسيقية.

- أعتقد أن مشكلة الضبعين ستكون قد انتهت حتى تشرين الأول؟

- إنهم لا يملكان أموالاً، وبينما ينفقان القليل المتبقى لديهما في محاولة إبطال هذا الزواج وإعلان الحجر على أبيهما - أكده ريفوبيرتو -. لن يتوصلا إلى ذلك وسوف يُفلسان. أتعلمين أمراً؟ لم أتصور قط أن إسماعيل قادر على فعل ما يقوم بفعله. أولاً، زواجه من آرميدا. وثانياً، التخطيط لانتقام متقن من ابنيه، ميكى واسكوبيتا. صحيح بالفعل أنه من غير الممكن معرفة الأشخاص بعمق، فللجميع أعمق لا يمكن سبر غورها.

ظلا يتبادلان الحديث لوقت لا بأس به، وحين بدأ الظلام يخيم، راحت ثضاء أنوار المدينة. لم يعودا قادرين على رؤية البحر والسماء،

وامتنأً الليل بأضواء صغيرة كأنها الحبابب. روت لوكريثيا لريغوبيرتو أنها قد قرأت موضوع تعبير كتبه فونتشيتو للمدرسة، وقد أذهلها. لا يمكنها نزعه من رأسها.

- هل عرضه عليك هو نفسه؟ - استفزاها ريجوبيرتو - أم أنك كنت تنبشين في منضدته؟

- حسن، كنت هناك، ورأيت الموضوع، فاستثار فضولي. ولهذا قرأته.

- تصرف سين قراءتك لأشيائه دون إذن منه ومن وراء ظهره. تظاهر ريجوبيرتو بتأنيبها.

- لقد دفعني إلى التفكير - واصلت لوكريثيا، دون أن تعيره اهتماماً - إنه نصٌّ نصف فلسفـي ونصف دينـي. حول الحرية والشر.

- فهو في متناول يدك؟ - أبدى ريجوبيرتو اهتماماً - أحب أنا أيضاً أن ألقـي عليه نـظرة.

- لقد استنسخته أيها السيد النـمام - قالت لوكريثيا - وقد تركـت النـسخة لك على منضـدة مكتـبك.

انزوـى دون رـيجوبـيرـتو بين كـتبـه ولوحـاته ليـقـرـأ مـوضـوع إـنشـاء فـونـتشـيـتو. «الـحرـية والـشـر» كان نـصـاً قـصـيراً جـداً. يـؤـكـد علىـ أنهـ منـ المـحـتمـلـ أنـ الـربـ حينـ خـلـقـ الإـنـسـانـ، قـرـ أـلاـ يـكـونـ كـائـنـاً آـلـيـاًـ، حـيـاتـهـ مـبرـمـجـةـ مـنـذـ الـولـادـةـ حـتـىـ الـمـاتـ، مـثـلـماـ هـيـ حـيـوـاتـ النـبـاتـاتـ وـالـحـيـوـانـاتـ، وـإـنـماـ أـرـادـهـ كـائـنـاً مـزـودـاًـ بـحـرـيةـ الـاخـتـيـارـ، وـقـادـراًـ عـلـىـ تـقـرـيرـ أـفـعـالـهـ بـمـشـيـتـهـ الـخـاصـةـ. وـبـهـذـهـ الطـرـيقـةـ وـلـدـتـ الـحـرـيةـ. لـكـ هـذـهـ الـقـدـرـةـ الـتـيـ زـوـدـ بـهـاـ سـمـحتـ لـلـكـائـنـ الـبـشـريـ اـخـتـيـارـ الشـرـ، وـرـبـماـ خـلـقـهـ، وـفـعـلـ أـشـيـاءـ تـتـنـاقـضـ مـعـ كـلـ مـاـ يـصـدـرـ عـنـ الـرـبـ، وـهـيـ أـقـرـبـ إـلـىـ أـنـ تـكـونـ تـمـثـيـلاًـ لـسـبـبـ وـجـودـ الشـيـطـانـ، وـمـسـوـغاًـ لـوـجـودـهـ. وـهـكـذـاـ إـذـاـ يـكـونـ الشـرـ

ابناً للحرية، وقد خلق على يد البشر. وهذا لا يعني أن الحرية سيئة بذاتها؛ لا، لقد كانت هبة سمحت باكتشافات علمية وتقنية عظيمة، وبالتقدم الاجتماعي، وباختفاء العبودية والاستعمار، وبحقوق الإنسان، وغيرها. ولكنها كانت كذلك الأصل في القسوة والمعاناة الفظيعة التي لا تتوقف أبداً بل هي ترافق التقدم كظلله.

ظل دون ريفوبيرتو قلقاً. خطر له أن أفكار هذا النص كلها تلتقي بطريقة ما مع حالات ظهور إديلبيرتو توريس ونواحه. أم أن هذا النص هو نتيجة محادثات فونتشيتو مع الأب أودونوفان؟ هل عاد بيبين للقاء بابنه؟ وفي هذه اللحظة اقتحمت خوستينيانا غرفة المكتب منفعلة جداً. جئت لأخبرك أن «العرис الجديد» يتصل بك هاتفياً.

- هذا ما قال لي أن أخبرك به يا دون ريفوبيرتو - أوضحت الفتاة -  
«قولي له يا خوستينيانا إن العريس الجديد يتصل بك».  
- إسماعيل! - خرج دون ريفوبيرتو مسرعاً من مكتبه - ألو؟ ألو؟  
أهذا أنت؟ هل عدت إلى ليماء؟ متى رجعت؟

- لم أرجع بعد يا ريفوبيرتو - قال صوت لعوب عرف فيه صوت رئيسه في العمل - إنني أتصل من مكان لن أخبرك به طبعاً، لأن عصفوراً أخبرني بأن هاتفك مراقب من قبل من تعرفهم. ولكنني في مكان جميل، ولئمّتُ أنت حسداً.

أطلق ضحكة سعادة مجلجلة، فباغت ريفوبيرتو المذعور إحساس شك مفاجئ بأن رئيسه وصديقه مخرب حقاً، وأنه خرف تماماً. أیكون الضبعان قد كلغا إحدى وكالات التجسس بأن تراقب هاتفه؟ مستحيل، المادة الرمادية لا تسمح له بكل هذا. أم أنها تتيح ذلك ربما؟

- حسن، حسن، ماذا تريد أكثر من هذا - رد عليه - هذا أفضل لك يا إسماعيل. أرى أن شهر العسل يمضي مع رياح مواتية، وأنه مازال

لديك بعض قوة النفح. أو أنك ما تزال حياً على الأقل. وهذا يسعدني أيها العجوز.

- إنني في كامل لياقتي يا ريفوبيرتو. دعني أقول لك أمراً: لم أشعر من قبل قط بأنني أفضل حالاً وأكثر سعادة مما أنا عليه في هذه الأيام.

- رائع إذاً - كرر ريفوبيرتو - حسن، لا أريد أن أبلغك أخباراً سيئة، ولا سيما بالهاتف. ولكنني أفترض أنك على علم بما أشعلته هنا. وما الذي يمطر علينا هنا.

- كلوديو أرنبياس يطلعني على الأمور أولاً بأول مع أدق التفاصيل، ويرسل لي قصاصات الصحف. إنني أستمتع كثيراً بقراءة أخبار عن أنه جرى اختطافى، وأننى أعانى خرف الشيخوخة. ويبدو أنك أنت ونرسيس كنتما من المتواطئين في عملية اختطافى، أليس كذلك؟

أطلق قهقهة أخرى، طويلة وساخرة جداً.

- كم هو جيد أنك تأخذ هذه الأمور بمزاج طيب - ددم ريفوبيرتو -. أنا ونرسيس استمتعنا كثيراً، كما يمكنك أن تتصور. الأخوان أو صلا سائقك إلى حافة الجنون بمكائدhem وتهديداتهم. وقد نلنا نحن أيضاً مثل ذلك.

- متأسف جداً للازعاجات التي سببتها لكم يا أخي - حاول إسماعيل إصلاح الموقف بإبداء الجد - لقد أوقفوا إجراءات تقاعده، وألغوا رحلتك إلى أوروبا. إنني أعرف كل شيء يا ريفوبيرتو. أطلب ألف مغذرة منك ومن لوكريثيا بسبب هذه المشاكل. لن يستمر هذا كله لوقت طويل، أقسم لك.

- وما أهمية التقاعد والرحلة إلى أوروبا بالمقارنة مع صداقة شخص مثلك - قال دون ريفوبيرتو بسخرية -. ومن الأفضل ألا أخبرك بالاستدعاءات إلى المحكمة لتقديم أقوالي كمتواطئ مزعوم في التستر

والاختطاف، كيلاً أفسد عليك شهر عسلك البديع. وباختصار، آمل أن يتحول هذا كله قريباً إلى مادة لإضحاكنا ولرواية طرائف.

أطلق إسماعيل قهقةة أخرى، كما لو أن ذلك كله أمر لا علاقة له به.

- أنت من أولئك الأصدقاء الذين لم يعد لهم وجود يا رينغوبيرتو. لقد كنتُ أعرف ذلك على الدوام.

- لا بد أن أرنيبياً أخبرك بأن سائقك قد اضطر إلى الاختباء. لقد أرسل التوءمان إليه الشرطة، ولا أستغرب، في حالة الاختلال التي هما عليها، أن يرسلوا إليه كذلك اثنان من القتلة المأجورين ليقطعوا له ذلك الذي تعرفه.

- لن يتورعوا عن عمل ذلك - اعترف إسماعيل -. هذا الزنجي يساوي وزنه ذهباً. طمئنه بـلا يقلق. قل له إن وفاه سيلقى المكافأة المستحقة يا رينغوبيرتو.

- هل سترجع قريباً أم ستواصل شهر عسلك إلى أن ينفجر قلبك وترتعش ساقك؟

- إنني أنهي مسألة ستعجبك جداً يا رينغوبيرتو. وفور إنهائها سأعود إلى ليما كي أعيد الأمور إلى نصابها. وسترى كيف أن هذه المشكلة ستحل بكل سهولة. متأسف حقاً لأوجاع الرأس التي أسببها لك. لهذا السبب اتصلت بك فقط. سألتقي قريباً. قبلاتي للوكريثيا وعناق كبير لك.

- ومثله مني إليك، وقبلاتي لـأرميدا -. قال دون رينغوبيرتو مودعاً. وعندما أغلق الهاتف، ظل يتأمل الجهاز. فينيسيا؟ كوستا أثول؟ كابري؟ أين هما فرخا الحمام؟ أيكونان في مكان غرائبي مثل أندونيسيا أو تاييلندا؟ هل إسماعيل سعيد جداً مثلما يقول؟ أجل، دون شك، إذا ما حكمنا من خلال قهقهاته الشبابية. لقد اكتشف في الثمانين أن

الحياة ليست عملاً وحسب، وإنما اقتراف أعمال جنونية كذلك. الجموح وتجاوز الحدود، تذوق متع الجنس والانتقام. هذا أفضل له. وبينما هو يفكر في ذلك دخلت لوكريثيا إلى غرفة مكتبه متلهفة:

- ماذا جرى؟ ماذا قال لك إسماعيل؟ أخبرني، أخبرني.

- يبدو أنه سعيد جداً. يأخذ كل شيء على محمل المزاح والضحك، ما رأيك - أوجز لها. وعادت الشكوك تداهمه -: أتدرين يا لوكريثيا؟ وماذا إذا كان قد أصيب بحرف الشيخوخة حقاً؟ وإذا كان لا يدرك حقيقة الأعمال الجنونية التي يقترفها؟

- أتكلم بجد أم تمنح يا رينغوبيرتو؟

- حتى الآن يبدو لي أنه واع تماماً ومسطرا على نفسه - قال متشككاً - ولكنني حين كنت أسمع قهقهاته في الهاتف، رحت أفك. لماذا هو مبتهج جداً بكل ما يحدث، كما لو أنه لا يهتم قدر قلامة ظفر بالفضيحة وبالشكلة التي أدخلنا فيها. باختصار، لا أدرى، ربما أكون متأثراً بعض الشيء. أتدركين الوضع الذي سنكون فيه إذا ما كان خرف الشيخوخة قد أصاب إسماعيل بين ليلة وضحاها؟

- إنك تدس هذه الفكرة في رأسي في أسوأ وقت يا رينغوبيرتو. لن أتخلص منها طيلة الليل. سيكون الحال أسوأ بالنسبة إليك إذا ما أصابني الأرق، إنني أحذرك.

- لا تهتمي بما قلته، إنها مجرد حماقات، إنها تعويذات كيلا يحدث ما أقول إنه ممكن الحدوث - طمأنها رينغوبيرتو - ولكنني لم أكن أنتظر في الحقيقة أن أجده غير قلق إلى هذا الحد. كما لو أنه لا علاقة له بهذا كله. أعتذرني، اعتذرني. لقد عرفت الآن ما جرى له. إنه سعيد. هذا هو السر في كل شيء. فلأول مرة في حياته عرف إسماعيل ما هي المضاجعة الحقيقة يا لوكريثيا. لأن ما كان يفعله مع

كلوتيلدي لم يكن سوى تمضية وقت في واجبات زوجية. أما مع آماندا فدخلت الخطيئة أيضاً، وهذا يجعل الأمر أفضل.

- مرة أخرى مع قذاراتك - اعترضت امرأته -. ثم إنني لا أدرى ماذا لديك ضد تمضية الوقت في واجبات زوجية. أنا أرى أن علاقتنا تمضي على خير ما يرام.

- طبعاً يا حبي، إنها تمضي بصورة رائعة -. قال وهو يقبل بدلوكريثيا وأذنها -. من الأفضل لنا أن نفعل مثله، ولا نولي الموضوع أي اهتمام. أن نتسلح بالصبر وننتظر مرور العاصفة.

- لا تريد أن نخرج يا رينغوبيرتو؟ فلنذهب إلى السينما أو لتناول شيء في الخارج.

- فلنشاهد فيما هنا، أفضل من الخروج -. أجابها زوجها -. ف مجرد فكرة أن يظهر واحد من أولئك الصحفيين مع آلة تسجيله، ويلتقط لي صوراً ويوجه أسئلة عن إسماعيل والتوعمين، يسبب لي ارتخاء في المعدة.

منذ استحوذت الصحافة على خبر زواج إسماعيل من آماندا، وعلى أعمال ابنيه لدى الشرطة والقضاء من أجل إبطال زواجه واعتباره غير مؤهل لذلك، لم يعد هناك أي حديث آخر للصحف والإذاعات وببرامج التلفزيون، وكذلك شبكات التواصل الاجتماعي والمدونات. الواقع تختفي تحت الدوي الجنوني للمبالغات والاختلافات والنمائم والافتراءات والنداءات، حيث خرج إلى السطح على ما يبدو كل ما في الناس من خبث، وجهل، وفساد، وأحقاد، وضغائن. ولو لم يجد دون رينغوبيرتو نفسه منساقاً إلى أن يكون جزءاً من ذلك الهياج الصحفي، ومطلوباً على الدوام من قبل صحفيين يعوضون عن جهلهم بفتورهم وعجزتهم، لقال إن هذا الاستعراض الذي تحول فيه إسماعيل كاريلا

وآرميدا إلى تسلية المدينة الكبرى، حيث يغرقان في القذارة المكتوبة والمذاعة والتلفزة، ويشويان دون توقف في محارق أشعلاها ميكي وإسكونبيتا اللذان يؤجحانها يومياً بتصريحات ومقابلات وتخيلات ودورات، لكان الأمر مسلياً له، إضافة إلى كونه تعليمياً وتدربيباً. حول هذه البلاد، وهذه المدينة، حول الروح البشرية بصورة عامة. حول هذا الشر نفسه الذي يُقلق الآن فونتشيتوا من خلال ما يتبدى في موضوع تعبيره. «تعليمي وتدربي، أجل»، فكر من جديد. حول أمور كثيرة. وظيفة الصحافة في هذا الزمان، أو على الأقل في هذا المجتمع، ليس تقديم الأخبار، وإنما إخفاء أي شكل من أشكال التمييز بين الكذب والحقيقة، استبدال الواقع بخيال تتبدى فيه الكتلة الهائلة من العقد، والإحباط، والأحقاد والصدمات النفسية لجمهور تنشهه الضغينة والحسد. وهذا دليل آخر على أنه لا يمكن لفضاءات الحضارة الصغيرة أن تغلب أبداً على الهمجية الراسخة.

المحادثة التليفونية مع رئيسه السابق وصديقه خلفته مكتئباً. لم يكن نادماً لأنَّه قد له المساعدة بقبوله أن يكون شاهداً على زواجه. ولكن بدأت تثقل عليه نتائج توقيعه على وثيقة الزواج تلك. فليست التعقيدات القانونية والبوليسية، ولا تأخير إجراءات تقاعده هي ما يضايقه، لأنَّه يفكر (بلمس خشب، يمكن لكل شيء أن ينقضي) أنَّ ذلك كلَّه، مهما بلغ سوءه، يمكن حلَّه. ويمكن له وللوكريثيا أنَّ يقوما بالرحلة إلى أوروبا. لكنَّ الأسوأ هو الفضيحة العامة التي يجد نفسه مدفوعاً إلى التورط فيها. فهو يظهر الآن بصورة شبه يومية في صحفة المغارير، ملوثاً بنتانة صفراء. وتساءل بعراوة: «بماذا أفادك هذا الملجم الصغير الذي يضم الكتب واللوحات والأسطوانات، وكل هذه الأشياء الجميلة، المرهفة، الذكية التي جمعتها بكثير من الدأب معتقداً أنك في هذا الفضاء الحضاري الضيق

ستكون محسناً ضد الجهل والتفاهة والبلادة والفراغ؟». فكرته القديمة بأنه يجب إقامة هذة الجزر والمحصون الثقافية وسط العاصفة، بغض النظر عن همجية المحيط، ليست مجده. فالفضيحة التي أثارها صديقه إسماعيل والضبعان قد تسربت أحماضها، وقيحها، وسمومها إلى مكتبه، إلى هذا الحيز الذي يعتزل فيه، منذ سنوات طويلة - أهي عشرون، خمسة وعشرون، ثلاثون عاماً؟ -، كي يعيش الحياة الحقيقية. الحياة التي تعوضه عن بواصع التأمين وعقود الشركة، عن مكابد وذاءات السياسة المحلية، عن أكاذيب وبلاهة الناس الذين عليه التعامل معهم كل يوم. والآن، مع الفضيحة، لم يعد ينفعه في شيء البحث عن عزلة مكتبه. لقد فعل ذلك عشية أمس. وضع في الغراموفون تسجيلاً بدليعاً، عمل أرثر هونغر الموسيقي الملحمي الديني «أوراتوريو الملك داود»، المسجل في كاتدرائية نوتردام باريس والذي طالما أثر فيه. لم يستطع في هذه المرة التركيز على الموسيقى ولو لحظة واحدة. كان يسهو، تعидеه ذاكرته إلى صور وقلق الأيام الأخيرة، المفاجأة، الاستيء الصفراوي في كل مرة يجد اسمه في الأخبار، مع أنه لا يشتري تلك الصحف، لكن أصدقاءه يوصلونها إليه أو أنهم يأتون على ذكرها بصورة لجوجة، مسممين بذلك حياته وحياة لوكريثيا. اضطر إلى إطفاء جهاز الموسيقى والبقاء هادئاً، مغمض العينين، يسمع نبضات قلبه، مع طعم ملوحة في فمه. واستخلص: «في هذه البلاد لا يمكن إقامة فضاء حضاري ولو بأضيق الحدود. سينتهي الأمر بأن تكتنف الهمجية كل شيء». وقال لنفسه مرة أخرى، مثلما يفعل كلما أحس بالإحباط، كم كان مخططاً في شبابه حين قرر عدم الهجرة والبقاء هنا، في ليما الفظيعة؛ مقتنعاً بأنه حتى لو اضطر لأسباب تتعلق بعملية التغذية إلى قضاء ساعات طويلة من اليوم غارقاً في الصخب الدنبوبي لبيرويي الطبقة العليا، إلا أنه سيتمكن من تنظيم حياته

بطريقة تتيح له العيش حقاً في هذا الحيز النقي، الجميل، الرافي، المكون من أشياء سامية يصنعها بنفسه كبديل للنير اليومي. وكان أن أنته حينذاك فكرة الفضاءات الإنقاذية، فكرة أن الحضارة لم تكن قط حركة أو حالة أمور عامة، ولم تكن جوًّا يحتضن كل المجتمع، وإنما قلاع صغيرة جداً، مقامة على امتداد الزمان والمكان، تصد الهجوم المتواصل لتلك القوة الغريرة، العنيفة، الغفطة، القبيحة، المدمرة، البهيمية التي تسسيطر على العالم والتي دخلت الآن إلى بيته بالذات.

في تلك الليلة، بعد الانتهاء من تناول الطعام، سأله فونتشيتو عما إذا كان متعباً.

- لا - أجاب ابنه - لماذا يا بابا؟

- أحب أن أتحدث معك قليلاً إذا لم يكن هذا يضايقك.

- إذا لم يكن للأمر علاقة بـإديلبيرتو تورييس، فسوف يسعدني - قال فونتشيتو بخبث - لم أعد أراه، فاطمئن.

- أعدك ألا نتحدث عنه. أجابه دون ريفوبيرتو، وفعل مثلاً اعتاد أن يفعل وهو صغير، قاطع إصبعين على شكل صليب وقبلهما قائلاً: أقسم بالله.

- لا تستخدم اسم الله باطلًا، فأنا مؤمنة - أنبته دونيا لوكريثيا - اذهبنا إلى حجرة المكتب. وسأقول لخوستينيانا أن تأخذ لكما المثلجات إلى هناك.

وبينما هما يتذوقان مثلجات لوكريثيا في غرفة المكتب، كان دون ريفوبيرتو يراقب فونتشيتو بين لقمة وأخرى. إنه يجلس أمامه، متقطعاً الساقين، يتناول مثلجاته بملاعق بطيئة، ويبعد مستغرقاً في فكرة بعيدة ما. لم يعد طفلاً. منذ متى بدأ يحلق ذقنه؟ وجهه حليق، وشعر رأسه مشعث؛ إنه لا يمارس الرياضة كثيراً، ولكنه يبدو كذلك، لأن له جسداً

نحيلًاً ورياضيًّاً. إنه فتى وسيم، لا بد أن البنات يمتن من أجله. الجميع يقولون ذلك. ولكن ابنه لا يبدو مهتماً بهذه الأمور، بل يمضي مشغولاً بتهيؤات واهتمامات دينية. أهذا جيد أم سيئ؟ أكان يفضل أن يكون فونتشيتو صبياً عاديًّا؟ «عاديًّا»، فكر متخيلاً ابنه يتكلم بعامية تحذف حروفًا من الكلمات، وشبيهة بلغة القردة التي يتكلمها فتيانٌ من جيله، ومن يسكون في نهاية الأسبوع، ويدخنون لفافات ماريجوانا، ويتنشقون الكوكائين أو يبتلون حبوب النشوة في صالات رقص مركز الاستجمام الآسيوي، عند الكيلومتر مئة على الطريق العابر لأميركا، مثلما يفعل كثيرون من الأولاد المرهفين في ليما. جابت بدنـه قشعريرة. أفضل ألف مرة أن يرى ابني أشباحاً أو يرى الشيطان نفسه وأن يكتب مقالات عن الحرية والشر.

- قرأتُ ما كتبته عن الحرية والشر - قال له - كان هناك، على منضديك وأصابني الفضول. آمل ألا يضايقك تصرفـي. لقد أثر فيَ ما كتبته كثيراً، أقول الحقيقة. إنه مكتوب بطريقة جيدة وممتلئ بأفكار شخصية. من أجل أية مادة دراسية كتبته؟

- من أجل مادة اللغة - قال فونتشيتو دون أن يولي الأمر أهمية -. طلبـ منـا الأستاذ إتورياغا كتابة موضوع حرّ. فخطرـ لي هذا الموضوع. ولكنه مسودة فقط. مازالـ عليَّ أن أصحـحـه كلـه.

- لقد فاجـأـني، لأنـي لمـ أـعـرـفـ أنـكـ مـهـتمـ إـلـىـ هـذـاـ الحـدـ بالـدـيـنـ. - هلـ بـدـاـ لـكـ نـصـاـ دـيـنـيـاـ؟ - استـغـربـ فـونـتشـيـتوـ. كـنـتـ أـظـنـ أـنـهـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـفـلـسـفـةـ. حـسـنـ، لاـ أـدـرـيـ، فالـفـلـسـفـةـ وـالـدـيـنـ يـخـتـلـطـانـ، أـلـيـسـ كذلكـ. أـوـلـمـ تـهـتـمـ أـنـتـ قـطـ بـالـدـيـنـ يـاـ بـابـاـ؟

- لقد درستـ فيـ مـدـرـسـةـ لـارـيكـولـيـتاـ، وهـيـ مـدـرـسـةـ رـهـبـانـ - قال دون رـيـغـوـبـيرـتوـ. وـكـنـتـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ «ـالـعـلـمـ الـكـاثـوـلـيـكـيـ»ـ، معـ بـيـبـيـنـ

أودونوفان، لبعض الوقت. لقد أثار الدين اهتمامي كثيراً بالطبع، حين كنت شاباً. ولكنني فقدت الإيمان ذات يوم، ولم أستعد بعدها قط. أظن أنني فقدته حين بدأت أفكر. فلكي تكون مؤمناً لا يناسبك أن تفكـر كثيراً.

- هذا يعني أنك ملحد. تعتقد أنه لا وجود لأي شيء قبل هذه الحياة أو بعدها. هكذا تكون ملحداً، أليس كذلك؟

- إننا نتغـلـ عـمـيقـاً - هـفـ دون رـيـغـوبـيرـتوـ . أنا لـسـتـ مـلـحـداًـ ، فـالـملـحـدـ مـؤـمـنـ أـيـضاًـ . يـؤـمـنـ بـأـنـ الـربـ لـاـ وـجـودـ لـهـ ، أـلـيـسـ هـذـاـ صـحـيـحاًـ ؟ أنا لـاـ أـدـرـيـ ، هـذـاـ إـذـاـ مـاـ كـنـتـ شـيـئـاًـ . إـنـيـ شـخـصـ يـعـلـمـ أـنـ هـذـاـ غـيـرـ قـادـرـ عـلـىـ إـيمـانـ بـأـنـ الـربـ مـوـجـودـ أـوـ بـأـنـهـ غـيـرـ مـوـجـودـ .

- لا خـمـرـ وـلـاـ لـيـمـوـنـادـةـ . قال فـونـتـشـيـتوـ ضـاحـكاًـ . إنـهاـ طـرـيـقـةـ مـرـيـحـةـ جـداًـ لـلـتـخـلـصـ مـنـ المـشـكـلةـ يـاـ بـاـبـاـ .

إنـ لـهـ ضـحـكـةـ طـازـجـةـ ، صـحـيـةـ ، وـفـكـرـ دون رـيـغـوبـيرـتوـ بـأـنـهـ فـتـىـ جـيدـ . إنهـ يـمـرـ بـأـزـمـةـ مـراـهـقـةـ ، يـعـانـيـ مـنـ شـكـوكـ وـعـدـمـ يـقـيـنـ حـولـ الـمـاـوـرـائـيـاتـ وـالـوـاقـعـ الـذـيـ يـتـكـلـمـ عـنـهـ جـيدـاًـ . كـمـ هوـ رـاغـبـ فيـ مـسـاعـدـتـهـ . ولكنـ كـيـفـ ، كـيـفـ يـمـكـنـهـ فـعـلـ ذـلـكـ .

- شيء من هذا القبيل ، وإن تكن السخرية زائدة - قال موافقاً - أتـرـيدـ أـنـ أـخـبـرـكـ شـيـئـاًـ يـاـ فـونـتـشـيـتوـ ؟ـ أـنـاـ أـحـسـدـ الـمـؤـمـنـينـ .ـ وـلـكـنـ غـيـرـ المـتـعـصـبـيـنـ بـكـلـ تـأـكـيدـ ،ـ لـأـنـ المـتـعـصـبـيـنـ يـسـبـبـونـ لـيـ الرـعـبـ .ـ وـلـكـنـيـ أـعـنـيـ الـمـؤـمـنـينـ الـحـقـيـقـيـنـ .ـ مـنـ لـدـيـهـمـ إـيمـانـ وـيـحـاـولـونـ تـنـظـيمـ حـيـاتـهـمـ بـمـاـ يـتـفـقـ مـعـ مـعـقـدـاتـهـمـ .ـ بـاعـتـدـالـ وـدـونـ تـظـاهـرـ أـوـ تـهـرـيـجـ .ـ لـاـ أـعـرـفـ كـثـيـرـيـنـ ،ـ وـلـكـنـيـ أـعـرـفـ الـبـعـضـ .ـ وـهـمـ يـبـدوـنـ لـيـ مـثـيـرـيـنـ لـلـحـسـدـ .ـ وـبـالـنـاسـيـةـ ،ـ هـلـ أـنـتـ مـؤـمـنـ ؟ـ

اتـخـذـ فـونـتـشـيـتوـ مـظـهـراًـ جـديـاًـ وـفـكـرـ لـحـظـةـ قـبـلـ أـنـ يـجـيبـ .

- أحب أن أعرف شيئاً عن الدين، لأنهم لم يعلمني قطّ أي شيء من ذلك - تفادى الإجابة بنبرة تأنيب - . ولهذا انضممنا أنا وتشاتو بيثنلو إلى جماعة لقراءة الكتاب المقدس. نحن نلتقي أيام الجمعة، بعد انتهاء الدروس.

- فكرة رائعة - ابتهج دون ريفوبيرتو - . الكتاب المقدس كتاب رائع، على الجميع أن يقرؤوه، سواء أكانوا مؤمنين أو غير مؤمنين. كثافة عامة قبل أي شيء آخر. ولكن من أجل فهم أفضل كذلك للعالم الذي نعيش فيه. أشياء كثيرة تحدث في ما حولنا تأتي مباشرة أو بصورة غير مباشرة من الكتاب المقدس.

- وهذا هو الموضوع الذي تريد أن نتحدث فيه يا بابا؟

- في الواقع، لا - قال دون ريفوبيرتو - . كنت أريد الحديث عن إسماعيل والفضيحة التي نحن فيها. لا بد أن يكون هذا الأمر قد وصل إلى مدرستك أيضاً.

عاد فونتشيتو إلى الضحك.

- لقد سألوني ألف مرة عما إذا كان صحيحاً أنك ساعدته على الزواج من طاهيته، مثلما تقول الصحف. وأنت تظهر على الدوام في المدونات عالقاً في هذه الورطة.

- آرميدا لم تكن طاهيته قطّ - أوضح دون ريفوبيرتو - . بل كانت مدمرة بيته. تتولى تنظيف البيت وإدارته. وخاصة منذ ترمل إسماعيل.

- لقد كنتُ في بيته مرتين أو ثلاث مرات ولا أتذكرها بأي حال - قال فونتشيتو - . هل هي جميلة على الأقل؟

- فلنلقي إنها مقبولة - أقر دون ريفوبيرتو بطريقة سليمانية - . وأكثر شباباً بكثير من إسماعيل. لا أظنك تصدق كل البلاهات التي تقولها الصحافة. عن أنه قد اختطف، وأنه حرف، وأنه لا يعرف ما الذي

يفعله. فإسماعيل بكامل قواه العقلية، ولهذا وافقتُ على أن أكون شاهده. ولم أكن أتوقع بالطبع أن المشكاة ستكبر إلى هذا الحجم. لكن كل شيء سينقضي. كنت أريد أن أخبرك بأنهم قد أوقفوا إجراءات تقاعدي في الشركة. التوءمان قدما شكوى يتهمانني فيها بالتوظيف في عملية اختطاف لم تحدث قط. ولهذا فإنني الآن مقيد هنا، في ليماس، باستدعاءات ومحامين. هذا هو الموضوع. إننا نمر بمرحلة صعبة، وإلى أن يتم التوصل إلى حلٍّ، سيكون علينا أن نشد الأحزمة قليلاً. لأنه من غير المناسب أيضاً تصفية كافة المدخرات التي يعتمد عليها مستقبلنا نحن الثلاثة. وبصورة خاصة مستقبلك أنت. أريدك أن تكون على اطلاع.

- أجل بالطبع يا بابا - قال فونتشيتو مشجعاً إيه - لا تقلق. وإذا تطلب الوضع يمكنك أن توقف مصروفي إلى أن تمر هذه المرحلة.

- ليس إلى هذا الحد - ابتسם دون ريفوبيرتو - فمن أجل نفقاتك لدينا ما يكفي ويزيد. عندك في المدرسة، ما الذي يقال بين الأساتذة والللاميد حول هذا الموضوع.

- الأغلبية العظمى تقف مع التوءمين بالطبع.

- مع الضبعين؟ من الواضح أنهم لا يعرفونهما.

- كل ما في الأمر أنهم عنصريون - أكد فونتشيتو - لا يغفرون للسيد إسماعيل أنه تزوج من خلاصية تشولا. يعتقدون أنه لا يمكن لشخص عاقل أن يفعل ذلك وأن الشيء الوحيد الذي تريده آرميدا هو الاستحواذ على الأموال. أنت لا تدري مع كم منهم تراجعت دفاعاً عن زواج صديقك يا بابا. بيثولو وحده هو الذي يدععني، ولكنه يفعل ذلك بداع الصداقة وليس لأنه مؤمن بأنني على حق.

- إنك تدافع عن قضية حميدة يابني - ربت دون ريفوبيرتو على

ركبتيه - حتى لو لم يصدق أحد ذلك، فإن زواج إسماعيل كان بداع الحب.

- هل يمكنني أن أوجه إليك سؤالاً يا بابا؟ - قال الصبي فجأة، حين بدا أنه يستعد للخروج من المكتب.

- طبعاً يابني. يمكنك أن تسأل ما تشاء.

- هناك شيء لا أفهمه - غامر فونتشيتو بقلق -. بشأنك أنت يا بابا.

لقد كنت محبًا على الدوام للفن، للرسم، للموسيقى، للكتب. وهذا هو الأمر الوحيد الذي تتحدث عنه بشغف شديد. فلماذا إذاً صرت محاميًّا؟ لماذا كرست حياتك كلها للعمل في شركة تأمين؟ كان عليك أن تكون رساماً، موسيقياً، وباختصار... لا أدرى. لماذا لم تتبع ميولك؟ هز دون ريفوبيرتو رأسه موافقاً، وفكَّ هنيهة قبل أن يجيب.

- لأنني جبان يا بني - دمدم أخيراً -. لعدم إيماني بنفسي. لم أؤمن قط بأن لدى موهبة أن أكون فناناً حقيقياً. أو ربما أن هذا الاعتقاد كان ذريعة لعدم المحاولة. قررت ألا أكون مبدعاً، وإنما مجرد مستهلك للفن، ومتلذذ بالثقافة. لأنني كنت جباناً، هذه هي الحقيقة المحزنة.وها أنت تعرفها الآن. لا تتبع مثالى. ومهما كانت ميولك، اتبعها بعمق ولا تفعل مثلي، لا تخن ميولك.

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك يا بابا. إنه سؤال رغبتُ بتوجيهه إليك منذ زمن.

- وهو سؤال أوججه لنفسي منذ سنوات طويلة يا فونتشيتو. لقد أجبرتني على الإجابة عنه، وأنا شاكر لك هذا. هيا، امض، طابت ليلىتك.

ذهب للنوم بمعنويات أفضل بعد حديثه مع فونتشيتو. روى لدونيا لوكريتيا كم شعر بالتحسن في استماعه إلى ابنه، شديد التعلق، بعد أن

كان معكر المزاج، ومدى الضيق الذي كان يشعر به طيلة المساء. لكنه تجنب إخبارها بالجزء الأخير من الحديث مع ابنه.

- لقد أُعجبت ببرؤيته هادئاً جداً وناضجاً يا لوكريثيا. إنه منضم إلى جماعة لقراءة الكتاب المقدس، تصوري. كم من الفتية في مثل عمره يفعلون أشياء بهذه؟ قلة قليلة جداً. هل قرأتِ أنتِ الكتاب المقدس؟ أعترف لك أنتي لم أقرأ سوى مقاطع منه، ومنذ سنوات طويلة. لا ترغبين في أن نقرأه، كمن يلعب، ونناقشه؟ إنه كتاب بديع.

- سأفعل ذلك بكل سعادة، فلربما تتحول ثانية وترجع إلى الكنيسة

- قالت لوكريثيا، ثم أضافت بعد بضع ثوانٍ من التفكير: - آمل ألا تكون قراءة الكتاب المقدس متعارضة مع ممارسة الحب يا ذا الأذنين الكبيرتين.

- الكتاب المقدس هو أكثر الكتب إيروتيكية في العالم - سمعته يقول باندفاع -. سوف ترين، حين نقرأ *نشيد الإنجاد*، الممارسات الرهيبة التي يقوم بها شمشون مع دليلة، ودليلة مع شمشون، سوف ترين.

### XIII

- على الرغم من أننا نرتدي الزي الرسمي، إلا أن زيارتنا هذه ليست زيارة رسمية - قال النقيب سيلفا وهو ينحني احناءة تهذب نفخت كرشه وجعلت قميص زيه الخاكي - إنها زيارة أصدقاء يا سيدتي.

- طبعاً، حسن جداً - قالت مابيل وهي تفتح لهما الباب. كانت تنظر إلى الشرطيين متfragّلة مذعورة، وبعينين ترمشان - تفضل، تفضل، رجاء.

لقد وصل النقيب والرقيب فجأة، بينما هي مستغرقة في التفكير، تعرف مرة أخرى، بأنها متأثرة لما يبديه العجوز من مظاهر العاطفية. إنها تشعر بالمحبة دوماً نحو فيليثيتو ياناكيه. أو إنها لم تشعر نحوه بالرهاب قط، على الرغم من مرور ثمانية أعوام على كونها عشيقته، ولم تشعر بالانزعاج البدني أو المعنوي الذي كان يدفعها، في الماضي، إلى قطع علاقتها فجأة مع عاشقين أو حمّاء عابرين كانوا يسببون لها أوجاع رأس بغيرتهم، أو بمطالبهم ونزاولهم، أو بسبب زعلهم واستيائهم. وكان قطع بعض تلك العلاقات يعني لها خسارة مادية جسيمة. لكن الأمر كان أقوى منها. فعندما تصل بها الحال إلى الضجر من رجل، لا تعود قادرة علىمواصلة النوم معه. تصاب بحساسية، وتأتيها أوجاع رأس ونوبات قشعريرة، وتبدأ بتذكر زوج أمها، وتتمكن بصعوبة من كبح رغبتها في التقيؤ كلما وجدت نفسها مضطرة إلى التعرى

من أجله، والانصياع لرغباته في الفراش. ولهذا، كانت تقول لنفسها، على الرغم من أنها قد ضاجعت رجالاً كثيرين مذ كانت صبية صغيرة - فقد هربت من بيتها إلى حيث يقيم أقارب لها، حين حدثت تلك القصة مع زوج أمها -. ولكنها لم تكن قطًّا ما يسمونها عاهرة. لأن العاهرات يعرفن كيف يتصنعن وهنَّ في الفراش مع زبائنهنَّ، أما هي فلا. فمن أجل أن تضاجع مابيل أحدهم يجب أن تشعر على الأقل بشيءٍ من الإلفة مع الرجل، إضافة إلى الانسجام المسبق بطريقة ما، كما يقول أهالي بيورا بالعامية: دعوات، نزهات، هدايا، وأساليب ترتيب المضاجعة، وإضفاء مظهر العلاقة العاطفية عليها.

- شكرًا سيدتي - قال النقيب سيلفا رافعاً يده إلى واقية قبته في محاكاة لتحية عسكرية -. ستحاول ألا تأخذ الكثير من وقتك.

وقام الرقيب ليتوما بمحاكاة صدى لقول قائده: «شكراً سيدتي».

أجلستهم مابيل في الصالة وجاءتهما بزجاجتي إنكاولا باردين. وكى تخفي عصبيتها، كانت تحاول ألا تتكلم؛ وأن تكتفي بالانتظار مبتسمة. خلع الشرطيان قبعتيهما، واستقرا على المقعدين. انتبهت مابيل إلى أن العرق يبلل جبهتي الشرطيين وشعريهما. فكرت في أنه عليها أن تشغل المروحة، ولكنها لم تفعل؛ كانت تخشى، إذا ما نهضت عن المهد، أن يلحظ النقيب والرقيب الارتجاف الذي بدأ يهز ساقيهما ويديهما. أي تفسير ستقدم لهما إذا ما بدأت أسنانها تصطك أيضًا؟ «إنني شبه مريضة ولدي قليل من الحرارة، بسبب... بسبب ما يصيّبنا نحن النساء... حضرتكما تعرفان ما الذي أعنيه».

هل سيصدقانها؟

- ما نريدك يا سيدتي - أضفى النقيب سيلفا بعد العذوبة على صوته -، ليس استجوابك، وإنما إجراء محادثة ودية. وهو أمران مختلفان

تماماً، حضرتك تفهميني. لقد قلتُ وديَة وأكرر ذلك.

خلال السنوات الثمانية الماضية لم تصل قط إلى الشعور بالحساسية من فيليثيو. لأن العجوز كان دون شك شخصاً طيباً جداً. أجل، إذا كانت تشعر في يوم زيارته بأنها متوعكة بعض الشيء، بسبب الدورة الشهرية أو لأنها لا تجد، بكل بساطة، رغبة في فتح ساقيها للسيد، فإن صاحب شرفة نارييهوا للفنلن لم يكن يلح عليها. بل على العكس تماماً، كان يقلق عليها، يريد أخذها إلى الطبيب، يذهب إلى الصيدلية لشراء أدوية لها، يأتيها بميزان الحرارة. هل كان واقعاً في حبها؟ لقد فكرت مابيل ألف مرة أنه كذلك. فالعجز على كل حال لم يكن يدفع الإيجار الشهري لهذا البيت ويقدم لها بضعة آلاف سول كل شهر، من أجل مرة أو مرتين كل أسبوع. واضافة إلى قيامه بواجباته تلك، فإنه يأتيها دوماً بهدايا، في عيد ميلادها، وفي أعياد الميلاد، وكذلك في المناسبات لا يقدم أحداً فيها أية هدايا، كالاعياد الوطنية أو خلال الاحتفالات بأسبوع مدينة بيورا في شهر تشرين الأول/أكتوبر. وحتى في طريقته بالنوم معها، كان يثبت لها في كل مرة بأن ما يهمه ليس الجنس وحده. كان يهمس في أذنها بكلمات عاشق، ويقبلها بحنان، ويظل ينظر إليها مفتوناً، وبامتنان بينما هو يجثو أمامها كما لو أنه فتى أمرد. أليس هذا حباً؟ لقد فكرت مابيل مرات كثيرة في أنه يمكن لها، إذا ما حاولت، أن تتوصل إلى جعل فيليثيو يترك زوجته، تلك الخلاصية التشولا المترهلة التي تبدو أشبه بشبح منها بکائن بشري، وأن يتزوج منها. ويمكن أن يكون ذلك سهلاً جداً. يكفي أن تحبل مثلاً، وتتنفلت في البكاء، وتضعه في المرمى: «أعتقد أنك لا ترغب في أن يكون ابنك نغلاً؛ أليس كذلك يا عجوزي؟». ولكنها لم تحاول ذلك قط ولن تحاوله، لأن مابيل تقدر كثيراً حريتها، استقلالها. ولن تضحى

بها مقابل أمان نسبي: أضف إلى ذلك أنها لا تجد ظرافة في تحولها بعد سنوات قليلة إلى ممرضة وراعية لعجوز يجب تنظيف رياته وملاءات فراشه التي يبول عليها أثناء نومه.

- أعدك ألا تأخذ الكثير من وقتك يا سيدتي - كرر النقيب سيلفا، وهو يلف ويدور دون أن يتحمس لأن يشرح لها بوضوح سبب هذه الزيارة المفاجئة. وكان ينظر إليها بطريقة، فكرت مابيل، ثكذب أسلوب كلامه المذهب - وفي اللحظة التي تشعرين بالتعب منا، أخبرينا بذلك بكل صراحة وسنصرف ونذهب بإزعاجنا إلى مكان آخر.

لماذا يبالغ الشرطي في التهذب إلى هذه الحدود المضحكة؟ ما الذي يحمله على ذلك؟ إنه يريدطمأنتها طبعاً، ولكن تكلفه وأسلوبه المعسول وابتساماته المتصنعة تزيد من ارتياح مابيل. ما الذي يريد هذا الثنائي؟ ولم يكن الرقيب قادراً، خلافاً لقائده، على موارة أنه قلق بعض الشيء. يتأملها بطريقة غريبة، غير مطمئنة، وبحذر، كما لو أن لديه شيء من الخوف مما يمكن أن يحدث، وهو يرور لغده دون توقف، بحركة شبه عصبية من أصابعه.

- كما يمكنكِ أن ترى بعينيك، لم نأت معنا بأية آلية تسجيل - أضاف النقيب سيلفا وهو يفتح يديه ويربت بهما على جيوبه بطريقة مسرحية -. ولا حتى بورقة وقلم. يمكنك أن تكوني مطمئنة: لن يبقى أي أثر لما نقوله هنا. سيكون سرياً. بين حضرتك وبيننا. ولا أحد سوانا.

في الأيام التي تلت أسبوع الاختطاف، بدا فيليثيو حنوناً وودوداً بصورة غير معقولة، حتى إن مابيل صارت تشعر بالإرهاق. تلقت باقة ورود حمراء ضخمة ملفوفة بورق سيلوفان مع بطاقة مكتوبة بخط يده تقول: «مع كل حبي، ومع حزني للتجربة القاسية التي جعلتكم تمررين

بها يا مابيليتا الحبيبة. يرسل لك هذه الورود الرجل الذي يحبك: حبيبك فيليثيتو». كانت تلك أكبر باقة أزهار رأتها في حياتها. وحين قرأت البطاقة اغترقت عينها وتبللت يداها، وهو شيء لا يحدث لها حين تأتيها كوابيس. أتفافق على عرض العجوز بمقادرة بيورا إلى أن تنقضي هذه المشكلة برمتها؟ لديها شكوك. لقد كانت مطالبة ملحة أكثر من كونها عرضناً. كان فيليثيتو مرتعباً، يعتقد أنه يمكن لهم إلحاق الأذى بها، ويتوسل إليها أن تسفر إلى مدينة تروخيبيو، إلى تشيكلايو، إلى ليما، أو الذهاب للتعرف على مدينة كوسكو إذا كانت تفضل ذلك، أو أي مكان ترغب في الذهاب إليه لتكون بعيدة عن مبتزى العنکبوت اللعينين. كان يعدها بالذهب والفضة: لن ينقصها شيء، ستتمتع بكل وسائل الراحة طيلة رحلتها. لكنها لم تحسم أمرها. ليس لأنها لم تكن خائفة، لا شيء من هذا القبيل. فالخوف - خلافاً لكثير من الناس الخوافين الذين عرفتهم - شيء شعرت به مابيل مرة واحدة فقط من قبل، حين كانت صبية صغيرة، يوم دخل زوج أمها حجرتها مستغلًا ذهاب الأم إلى السوق، ودفعها إلى السرير وحاول أن يعرّيها. لقد دافعت عن نفسها، خمسة، وخرجت راكضة وهي شبه عارية إلى الشارع مطلقة الولولات. في تلك المرة عرفت ما هو الرعب حقاً. ولم تعد بعد ذلك إلى تجربة شيء مشابهة.. حتى الآن. الخوف أصبح في هذه الأيام هلعاً شديداً، عميقاً، دائماً، استقر مجدداً في حياتها. طوال الأربع والعشرين ساعة. نهاراً وليلاً، مساء وصباحاً، نائمة ومستيقظة. كانت مابيل تفك في أنها لن تستطيع التخلص منه أبداً حتى موتها. حين تخرج إلى الشارع يراودها الإحساس بأنها مراقبة؛ وحتى حين تكون في البيت، حبيسة جدرانه وراء أربعة أقفال، تداهمها أحاسيس مفاجئة تجمد جسدها وتقطع أنفاسها. فتسسيطر عليها عندئذ فكرة أن دمها قد

توقف عن الدوران في أوردتها. على الرغم من معرفتها أنها محمية، وربما بسبب ذلك. وكانت محمية حقاً؟ لقد أكد لها فيليثيتو ذلك، بعد أن تحدث مع النقيب سيلفا. صحيح أن هنالك حارس أمام بيتها، وحين تخرج إلى الشارع يتبعها، على مسافة معينة، شرطيان بملابس مدنية، رجل وامرأة، دون أن يُتيحا لأحد ملاحظة وجودهما. ولكن هذه الحراسة بالذات، المتواصلة على امتداد أربع وعشرين ساعة يومياً، هي ما تضاعف من حدة عصبيتها، وكذلك ثقة النقيب سيلفا من أن من اختطفوها لن يكونوا متهررين ولا مغفلين ليحاولوا مهاجمتها مرة أخرى، وهم يعرفون أن الشرطة تحيط بها ليلاً ونهاراً. وعلى الرغم من ذلك كله لم يكن العجوز يصدق أنها بمنجى من الخطر. لأن الخاطفين، حسب رأيه، حين يدركون أنه قد كذب عليهم، وأنه نشر إعلان جريدة «القيمبو» الذي يشكر فيه معجزة السيد الكاوتيبو دي اياباكا من أجل أن يطلقوا سراحها وحسب، وأنه لا يفكر في أن يدفع لهم الإتاوة، سوف يغضبون ويحاولون الانتقام بالنيل من أحد أعزائه المقربين. ولأنهم يعرفون أشياء كثيرة عنه، فإنهم يعرفون أن أعز الأشخاص إلى فيليثيتو في الدنيا هي مابيل. ولهذا يجب أن تغادر بيورا، وأن تختفي لبعض الوقت، لأنه لن يغفر لنفسه قط إذا ما ألحق بها أولئك التعساء الأذى من جديد.

طللت مابيل صامتة لإحساسها بأن قلبها سيخرج من مكانه. ومن فوق رأسى الشرطيين، وتحت رسم قلب يسوع، رأت وجهها معكوساً في المرأة وفوجئت بشحوبه. كانت بيضاء شاحبة مثل واحد من تلك الأشباح التي تظهر في أفلام الرعب.

- أرجوكِ أن تستمعي إلى بلا عصبية ولا رعب - أضاف النقيب سيلفا بعد وقفة صمت طويلة. كان يتكلم بنعومة، خافضاً صوته كثيراً

كما لو أنه سي Bowman لها بسر . لأن هذا الإجراء الخاص الذي جئنا من أجله ، وأكرر: الخاص ، هو لمصلحتك حتى لو لم يبدُ كذلك.

- قل لي دفعة واحدة ما الذي جرى ، ما الذي تريده - تمكنت مابيل من القول وهي تختنق. فقد أغضبها لف ودوران النقيب وتحفظاته المنافية . - قل لي ما الذي جئت تخبرني به. أنا لست بلهاء. فلا تُضيّعْ مزيداً من الوقت أيها السيد.

- فلندخل في الموضوع إذاً يا مابيل - قال المفوض متحولاً . واختفت فجأة أساليبه الطيبة ومزاجه السخي. لقد رفع صوته ونظر الآن بحزن، وبطريقة فوقية وآمرة. والأدهى من ذلك أنه توجه إليها من دون كلفة:- متأسف جداً من أجلك ، ولكننا نعرف كل شيء ، مثلما تسمعين يا مابيليتا. كل شيء ، الأمر كله ، كله. نحن نعرف مثلاً أنك لا تكتفين ، منذ زمن لا بأس به ، بالسيد فيليثيتو ياناكيه عشيقاً ، بل لديك شخص آخر. شخص أكثر وسامة وشباباً من العجوز ذي القبعة والصدر الذي يدفع لك نفقات هذا البيت.

- كيف تتجرأ حضرتك على هذا الكلام ! - احتجت مابيل وقد احمر وجهها بشدة - لا أسمح لك بهذا ! ولا بمثل هذا الافتراء !

- من الأفضل أن تتركيتنني أكمل ، وألا تكوني كثيرة الاعتراض - قاطعها بجفاء صوت النقيب سيلفا وإيماءاته المتوعدة . - ستقولين في ما بعد كل ما ترغبين فيه ، وسيكون بإمكانك أن تبكي وأن تضربي الأرض بقدميك كما تشاءين ، إذا كنت أزعجك. أما الآن فاصمعتي. أنا وحدي من له حق الكلام الآن ، وعليك أن تطبقي فمك. مفهوم يا مابيليتا؟

ربما سيكون عليها أن تغادر بيورا. ولكن فكرة العيش وحيدة ، في مدينة لا تعرفها تحبط معنوياتها - لم تكن قد خرجت من هذه المدينة إلا للذهاب إلى سويانا ولوبيتوس وبaita وياسيل ، لم تتجاوز قط حدود

المقاطعة، لا باتجاه الشمال ولا باتجاه الجنوب، ولم تصعد سلسلة الجبال -. ما الذي ستفعله روحها وحيدة في مكان لا أقارب لها فيه ولا أصدقاء؟ ستكون الحماية المتوافرة لها هناك أقل مما هي عليه هنا. هل ستقضى الوقت وهي تنتظر مجيء فيليثيتو لزيارتها؟ ستعيش في فندق، تعاني الضجر صباح مساء، ولا سلوى لها سوى التلفزيون، إذا كان هناك تلفزيون، والانتظار والانتظار. ولا يرود لها كذلك أن يكون هناك، ليلاً ونهاراً، شرطي رجل أو امرأة، يراقب خطواتها، يسجل مع من تتكلم، ومن تحسي، من يقترب منها. فأكثر من شعورها بالحماية، ستشعر بأنها هدف للتجسس، وبدل أن يطمئنها ذلك، يجعلها متوتة وغير آمنة.

صمت النقيب سيلفا لحظة كي يشعل سيجارة بهدوء. وأطلق دون تسرع دفقة طويلة من الدخان الذي طفا في الجو وملا الصالة الصغيرة برائحة تبغ لاذعة.

- هذا شأنك يا مابيل، فالشرطة لا تهمها حياتك الخاصة بأي حال - واصل المفوض وهو ينفض الرماد على الأرض ويتحذظ مظهراً يجمع بين الفيلسوف والقاتل -. ليس ما يهمنا هو أن يكون لك عشيقان أو عشرة عشاق؛ بل اقترافك جنون الاتفاق مع واحد منهم لابتزاز دون فيليثيتو ياناكيه، العجوز المسكين الذي يحبك كثيراً جداً فوق هذا. كم كنتِ جاحدة يا مابيليتا!

- ماذا تقول ! ماذا تقول ! - نهضت واقفة، وكانت ترجف الآن من الغضب، ورفعت صوتها أيضاً، وقبضة يدها -. لن أنطق بأية كلمة أخرى قبل أن يكون هناك محام إلى جانبي. عليك أن تعلم أنني أعرف حقوقني. أنا... يا لشدة عناد فيليثيتو ! لم تتخيل مابيل قط أن العجوز مستعد

للموت قبل أن يعطي الإتاوة للمبتسين. إنه يبدوليناً، شديد التفهم، ولكنه أثبت فجأة، أمام بيورا بأسرها، أنه ذو إرادة فولاذية. في اليوم التالي لتحررها، دار بينها وبين فيليثيتو حديث طويل. وفي إحدى اللحظات، سألته مابيل فجأة ومبشرة:

- لو قال لك الخاطفون إنهم سيقتلونني إذا لم تعطهم الإتاوة الشهرية، هل كنت ستتركمهم يقتلونني؟

- أنت ترين أن الأمر لم يكن كذلك يا حبي. تلعم صاحب شركة النقل بضيق شديد.

- أجنبني بصراحة يا فيليثيتو - ألحت عليه -. هل كنت ستتركمهم يقتلونني؟

- وكنت سأقتل نفسي بعد ذلك مباشرة - أكد بصوت محزن وهو يبدي ملامح مثيرة للأسى جعلتها تشفع عليه - اعذریني يا مابيل. ولكنني لن أدفع إتاوة أبداً لأي مبتز. حتى لو قتلوني أو قتلوا أعز من لدي في الدنيا، وهي أنت.

- ولكنك أنت نفسك قلت لي إن جميع زملائك في بيورا يدفعون لهم. ردت عليه مابيل.

- وكثيرون من التجار ورجال الأعمال أيضاً، على ما يبدو - اعترف فيليثيتو -. أجل، لقد علمت بذلك الآن من فيغنولو. هذا شأنهم. لا أنتقدهم. كل شخص يعرف ما يفعله وكيف يحمي مصالحه. ولكنني لست مثلهم يا مابيل. لا يمكنني عمل ذلك. لا أستطيع خيانة ذكري أبي.

وعندئذ، بعينين مغورقتين بالدموع، راح صاحب شركة النقل يتكلم عن أبيه أمام مابيل المتفاجئة. لم تسمعه قط خلال السنوات التي أمضياها معاً يتكلم بتلك الطريقة الحساسة عن أبيه. بتأثير، بحساسية،

مثلاً يفعل وهو يقول لها كلمات رقيقة تطفح بالعذوبة في علاقتهاها الحميمة. لقد كان رجلاً فقيراً جداً، رجلاً ريفياً ذا أصول هندية، من ريف تشولوكاناس. وصار في ما بعد، هنا في ببورا، حمالاً وزبالةً بليداً. لم يتعلم القراءة والكتابة قط، وقد أمضى الشطر الأعظم من حياته بلا حذاء، وهو أمر كان يُلحظ فيه حين ترك تشولوكاناس وجاء إلى المدينة كي يتمكن فيليثيتو من الذهاب إلى المدرسة. عندئذ اضطر إلى انتعال حذاء، ولوحظ كيف أنه يبدو غريباً في مشيته، وأن قدميه تقولانه لأنهما حُبستا في الحذاء. لم يكن رجلاً يظهر عاطفته بمعانقة ابنه وتقبيله، ولا بالقول له تلك العبارات الحانية التي يقولها الآباء عادة لصغارهم. كان صارماً، قاسياً، وحتى إنه طوبل اليدين أيضاً حين يغضب. ولكنه أثبت له أنه يحبه بدفعه إلى الدراسة، وتوفير الملبس والمأكل له، على الرغم من أنه هو نفسه لم يكن لديه ما يلبسه أو ما يضعه في فمه، ثم أدخله إلى أكاديمية لتعليم السائقين كي يتعلم فيليثيتو السياقة ويستخرج رخصته. بفضل ذلك الريفي الأمي وُجدتْ شركة ناريهموالا للنقل. صحيح أن أباًه كان فقيراً، ولكنه كان عظيماً باستقامة روحه، لأنه لم يسبب الأذى لأحد قط، ولم يخالف القوانين، ولم يحقد على المرأة التي هجرته تاركة له طفلاً حديث الولادة ليتولى تربيتها. وإذا كان صحيناً ذلك الذي يقال عن الخطيئة والشر والحياة الأخرى؛ فلا بد أنه الآن في الفردوس السماوي. لم يكن لديه الوقت حتى لاقتراف الشر، فقد كان عليه طيلة حياته أن يعمل مثل حيوان، في أسوأ الأعمال أجراً. يتذكر فيليثيتو أنه كان يراه ينهر كالميتس تعيناً في الليل. لكنه لم يكن يسمع لأحد بأن يُدله. لأن ذلك، حسب رأيه، هو ما يجعل للإنسان قيمة ما أو يجعله مجرد خرقة بالية. وهذه هي النصيحة التي وجهها إليه قبل موته على سرير بلا فراش في المستشفى العمال: «لا تسمح أبداً لأحد

بأن يُذلك يا بني». وقد عمل فيليثيتو بنصيحة ذلك الأب، بالرغم من أنه لم يستطع، لافتقاره إلى النقود، من دفنه في قبر، ولا الحيلولة دون أن يلقوا به في قبر جماعي.

- أترین يا مابيل؟ ليس المهم هي الخمسة دولار التي يطلبها مني هؤلاء المافياويون. ليست هذه هي المسألة. ولكنني إذا أعطيتهم إياها، فإنني أكون قد سمحت بأن يُذلوني، وأن يحولوني إلى خرقـة. أخبريني ما رأيك يا حبيـ.

لم تستطع مابيل فهمـهـ، ولكنـهاـ تأثرـتـ وهي تسمعـهـ يقولـ تلكـ الأشيـاءـ. وعندـئـذـ فقطـ، علىـ الرـغـمـ منـ أنهاـ قدـ أمـضـتـ معـهـ زـمنـاـ طـوـيـلاـ، انتـبهـتـ إـلـىـ أنـ تـحـتـ مـظـهـرـهـ كـرـجـلـ ضـئـيلـ الـقيـمةـ، شـدـيدـ النـحـولـ، وـبـالـغـ الـضـآلـةـ، هـنـالـكـ فيـ فـيـلـيـثـيـتوـ طـبـعـ صـارـمـ إـرـادـةـ لـاـ يـثـنـيـهاـ الرـصـاصـ. وـمـنـ المؤـكـدـ أـنـهـ كـانـ سـيـرـكـهـمـ يـقـتـلـونـهـ دونـ أـنـ يـسـمـحـ لـهـمـ بـلـيـ ذـرـاعـهـ.

- اصـمـتـيـ وـاجـلـسـيـ - أـمـرـ الضـابـطـ وـصـمـتـ مـابـيلـ، ثـمـ تـهـاـوـتـ مـجـدـداـ عـلـىـ المـقـدـ مـهـزـوـمـةـ - لـسـتـ بـحـاجـةـ إـلـىـ أـيـ مـحـامـ حـتـىـ الآـنـ. فـهـذـهـ مـحـادـثـةـ وـدـيـةـ وـسـرـيـةـ، لـقـدـ نـبـهـتـكـ إـلـىـ ذـلـكـ. وـخـيـرـ لـكـ أـنـ تـضـعـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ فيـ رـأـسـكـ دـفـعـةـ وـاحـدـةـ. وـهـكـذـاـ، دـعـيـنـيـ أـتـكـلـمـ يـاـ مـابـيلـيـتاـ، وـاسـتـوـعـبـيـ جـيـداـ ماـ أـقـولـهـ لـكـ.

ولـكـنـهـ قـبـلـ أـنـ يـوـاـصـلـ الـكـلـامـ، أـخـذـ نـفـسـاـ طـوـيـلاـ أـخـرـ منـ سـيـجـارـتـهـ وـأـعـادـ نـفـثـ الدـخـانـ بـبـطـهـ، مشـكـلاـ بـهـ حلـقـاتـ. «يرـيدـ تعـذـيبـيـ، وـمـنـ أـجـلـ هـذـاـ جـاءـ»، فـكـرـتـ مـابـيلـ. كـانـتـ تـشـعـرـ بـالـنـعـاسـ وـبـأـنـهـاـ مـسـتـنـفـدـةـ الـقـوـىـ، كـماـ لـوـ أـنـهـ يـمـكـنـ لـهـاـ تـغـفـوـ فـيـ أـيـةـ لـحـظـةـ. وـبـيـنـماـ هوـ جـالـسـ عـلـىـ المـقـدـ، كـانـ الرـقـيبـ لـيـتـوـمـاـ يـنـحـنـيـ قـلـيـلاـ إـلـىـ الـأـمـامـ وـكـانـهـ لـاـ يـرـيدـ أـنـ يـضـيـعـ حـرـفـاـ وـاحـدـاـ مـاـ يـقـولـهـ رـئـيـسـهـ، لـمـ يـكـنـ يـتـكـلـمـ وـلـاـ يـتـحـركـ. وـلـمـ يـكـنـ يـرـفـعـ بـصـرـهـ كـذـلـكـ عـنـهـاـ وـلـوـ ثـانـيـةـ وـاحـدـةـ.

- التّهم عديدة وبالجملة - واصل النقيب وهو ينظر إلى عينيها كمن ي يريد تنويهما مغناطيسياً . لقد حاولت أن تجعليننا نصدق أنك قد اختطفت ، ولم يكن ذلك كله سوى تهريجاً ، دبرته أنت ورفيقك من أجل الضغط على فيليثيتو ، الرجل الشهم الذي يموت حباً بك . لم تنجحا ، لأنكما لا تتمتعان بتصميم هذا السيد على عدم الرضوخ للابتزاز . عندئذ ، ومن أجل تلين موقفه ، أحرقتما مقر شركة نارييهولا للنقل في جادة سانتشيث سيررو . ولكن محاولتكم لم تنجح أيضاً .

- أنت أحرقتها؟ أهذا ما تتهمني به؟ بإشعال حريق أيضاً؟ - اعترضت مابيل وهي تحاول دون جدو الوقف من جديد ، ولكن كان يمنعها ضعفها أو نظرة النقيب الحربية وإيماءاته العدوانية . انهارت مرة أخرى على المقعد وانكمشت على نفسها مقاطعة ذراعيها . إضافة إلى النعاس ، صار لديها حرارة الآن وأخذت بالتعرق . كانت تشعر أن يديها تقطران خوفاً وعرقاً . أنا إذاً من أحرق مقر نارييهولا للنقل؟

- لدينا تفاصيل أخرى ، ولكن هذه التّهم هي الأخطر في ما يتعلق بك . قال النقيب ، والتفت بهدوء إلى مرؤوسه . هيا أيها الرقيب ، أخبر السيدة بالتهم التي يمكن تحمّلها عليها وما العقوبة التي يمكن أن تتلقاها .

تحمس ليتوما ، تململ في مقعده ، بلل شفتيه بلسانه ، أخرج ورقة صغيرة من جيب قميصه ، فتحها ، تنهنج . ثمقرأ مثل تلميذ يتلو درساً أمام معلم :

- مشاركة في جمعية غير شرعية لتنفيذ جريمة اختطاف مع إرسال رسائل مغفلة وتهديدات ابتزاز . مشاركة في منظمة غير شرعية لتدمير مقر تجاري بالتفجيرات ، مع المجازفة بتعریض بيوت ومحلات وأشخاص في الجوار للخطر . المشاركة الفعالة في اختطاف مزيف

لتخويف رجل أعمال بهدف إجباره على دفع الإتاوة الشهرية المطلوبة.  
التستر والتزييف والخداع أمام السلطات خلال التحقيق حول عملية  
الاختطاف الزائفة - أعاد الورقة إلى جيبه وأضاف: - هذه التهم  
الأساسية ضد السيدة، أيها النقيب. ويمكن للنيابة العامة أن تضيف  
تهمًا أخرى أقل خطورة، مثل الممارسة السرية للدعارة.

- وما هو المدى الذي يمكن أن تصله العقوبة إذا ما أديننت السيدة يا  
ليتوما؟ - سأله النقيب وعيناه الساخرتان مصوبتان إلى مابيل.  
- بين ثمانية وعشرة أعوام سجن - أجاب الرقيب - حسب الوسائل  
المخففة أو المتشددة طبعاً.

- أنتما تحاولان إخافي، ولكنكم مخطئين - تلعمت مابيل وهي  
تقوم بجهود هائل من أجل أن يتمكن لسانها الجاف والخشن كلسان  
عظاءة إغوانا من الكلام - لن أرد على أي من هذه الافتراطات ما لم  
يحضر محام.

- لم يوجه أحد إليك أسئلة حتى الآن - قال النقيب سيلفا ساخراً -  
الشيء الوحيد الذي طلب منه الآن هو الاستماع. مفهوم يا مابيليتا؟  
ظل يراقبها بنظرة خبيثة اضطرتها إلى إنزال عينيها. وبباس وهزيمة  
هزت رأسها موافقة.

وبسبب الأعصاب، والرعب، وفكرة أن الشرطيين سيكونان وراءها في  
كل خطوة تخطوها، ظلت خمسة أيام دون أن تخرج من البيت عملياً.  
كانت تصل إلى الشارع لتذهب راكضة إلى حيث الصيني الذي عند  
الناصية من أجل مشترياتها، وإلى مصبغة الكواه وإلى المصرف. وترجع  
راكضة لتغرق في غمّها وأفكارها القلقة. وفي اليوم السادس لم تعد قادرة  
على تحمل المزيد. فالعيش في تلك الحال هو أشبه بالعيش في سجن،  
ولم تكن مابيل تصلح لأي شكل من أشكال الحبس. إنها بحاجة إلى

الشارع، بحاجة لرؤية السماء، لشم المدينة وسماعها والمشي فيها، والإحساس بجلبة الرجال والنساء، ونهيق الحمير ونباح الكلاب. لم تكن ولن تكون أبداً راهبة معتكفة. اتصلت هاتفياً بصديقتها زويلا واقترحت عليها الذهاب إلى السينما، حفلة بعد الظهر.

- وأي فيلم سنرى يا تشوليتا - سألتها زويلا.

- أي فيلم، ما يعرضونه - أجابتها مابيل - أحتاج إلى رؤية ناس، التحدث قليلاً. إنني أختنق هنا.

التقيتا قبالة فندق لوس بورتاليس، في ساحة السلاح. تناولتا وجبة خفيفة في التشالان، ودخلتا إلى مجمع دور السينما في مركز أوبن بلازا التجاري، المجاور لجامعة بيورا. شاهدتا فيلماً قوياً بعض الشيء، فيه نساء عاريات. وزويلا التي تتصنّع العفة كانت ترسم إشارة الصليب كلما ظهرت مشاهد في الفراش. إنها سمنجة، لأنها في حياتها الشخصية تمنع نفسها الكثير من الحريات، تبدل خطيبها كل شهرين أو ثلاثة شهور، بل إنها تتباهى بعمليات التبديل تلك: «طالما الجسد يتحمل، يجب استغلاله يا بنية». لم تكن جميلة جداً ولكنها ذات جسد جيد، وتتجمل بتأنق وذوق حسن. لهذا السبب، ولأساليبها المتحررة والمفتوحة، كانت تحقق نجاحاً مع الرجال. عند خروجهما من السينما، اقترحت على مابيل أن تذهبا لتناول شيء في بيتها، لكن هذه لم توافق، لأنها لا ت يريد العودة وحيدة إلى حي كاستييا في وقت متأخر. ركبت سيارة أجرة، وبينما السيارة العتيقة تغوص في الحي شبه المظلم، قالت مابيل لنفسها إنها محظوظة في نهاية المطاف، لأن الشرطة أخفت واقعة الاختطاف عن الصحافة. فهم يعتقدون أنهم يُربكون المبتزين بذلك، ويصير اصطيادهم أسهل. لكنها كانت تعيش مقتنة بأن الخبر سيصل في أية لحظة إلى الصحف، والإذاعة

والتلفزيون. ما الذي ستتحول إليه حياتها إذا ما انفجرت الفضيحة؟ ربما من الأفضل العمل بنصيحة فيليثيتو ومجادرة بيورا لبعض الوقت. لماذا لا تذهب إلى تروخيبيو؟ يقولون إنها مدينة كبيرة، حديثة، قوية، وذات شاطئ بديع وبيوت وحدائق كولونيالية. ومسابقة رقصة المارينيرا التي تقام هناك في صيف كل عام تستحق أن تُرى. أ يكون الشرطيان اللذان بملابس مدنية يلاحقانها الآن في سيارة أو على دراجة نارية؟ نظرت من خلال نافذة السيارة الخلفية ثم إلى الجانبين ولم ترَ أيّة مركبة. ربما تكون مسألة الحماية كلها مجرد أكذوبة. لا بد أن تكون بلهاء بالكامل كي تصدق وعود الشرطيين.

نزلت من سيارة الأجرا، دفعت للسائق ومشت العشرين خطوة من الناصية حتى بيتها في منتصف شارع خاو، مع أن أصوات الحي الشاحبة كانت تلمع في جميع أبواب ونوافذ البيوت المجاورة. كانت تلمع أشباح الناس في الداخل. وكان مفتاح البيت جاهزاً في يدها. فتحت الباب، دخلت، وحين مدّت يدها نحو مفتاح النور، أحسست أن يداً أخرى تعترضها، توقفها، تغلق فمها، تخنق صرختها، بينما جسد ذكور ييلتصق في الوقت ذاته بجسدها وصوت معروف يهمس في أذنها: «إنني أنا، لا تخافي».

- ما الذي تفعله هنا؟ - احتجت مابيل مرتجلة. كانت تشعر بأنها ستنهار على الأرض لو لم يكن يمسك بها ويثبتها - هل رجعت أيها المجنون، يا شقة الـ...؟ هل رجعت يا مجنون؟

- أحتاج إلى مضاجعتك - قال ميغيل، وأحسست مابيل بشفتيه المحمومتين في أذنها، في عنقها، مندفعتين، نهمتين، وبذراعيه القويين يشدانها ويداه تتلمسان كل أنحاء جسدها.

- أبله، أحمق، أيها القمامنة الغليظ - احتجت، دافعت عن نفسها

غاضبة. كانت تشعر بارتدادات السخط والرعب الذي سيطر عليها -  
ألا تعلم بأن هناك حارس يراقب البيت؟ ألا تدري ما يمكن أن يحدث  
لنا بسببك أيها البراز الغبي؟

- لم يرني أحد وأنا أدخل، الشرطي في حانة الناصية يتناول قهوة،  
لم يكن هناك أحد في الشارع - وكان ميغيل يواصل احتضانها وتقبيلها  
والصاق جسده بجسدها والاحتراك بها - تعالى، فلنذهب إلى الفراش،  
سأضاجعك وأغادر. تعالى يا تشوليتا.

- أيها الوغد التعيس السافل، كيف تجرأت على المجيء، أنت  
مجنون - كانا في الظلام، وكانت تحاول المقاومة وإبعاده عنها، غاضبة  
ومذعورة، بينما هي تشعر، على الرغم من الغضب، بأن جسدها بدأ  
يتراخي - ألا تلاحظ أنك تدمر حياتي أيها اللعين؟ وتدمير حياتك أنت  
أيضاً أيها الشقي التعيس.

- أقسم لك إن أحداً لم يرني أدخل، اتخذت كل الاحتياطات - كان  
يردد وهو يشد ملابسها كي يعريها - تعالى، تعالى. لدى شهوة، لدى  
جوع إليك، أريدك أن تصرخي، أحبك.

توقفت عن المقاومة أخيراً. وبينما هي ضجرة، ومنهوبة في الظلام،  
سمحت له أن يعريها، وأن يطرحها على الفراش، واستسلمت بضع  
دقائق للمنتعة. هل يمكن تسمية ذلك متعة؟ لقد كان شيئاً مختلفاً جداً  
عن المرات الأخرى على أي حال. إنه شيء مجهد، متشنج، مؤلم.  
حتى وهي في ذروة النشوة، حين كانت على وشك الانتهاء، لم تستطع  
أن تزيح من ذهنها صورة فيليثيتو، والشرطيين اللذين استجوباهما في  
المفوضية، والفضيحة التي ستنفجر إذا ما وصل الخبر إلى الصحافة.

- انصرف الآن، ولا تعد لوضع قدمك في هذا البيت إلى أن تنتهي  
هذه المسألة كلها - أمرته حين أحسست أن ميغيل يفلتها ويستلقى على

السرير -. إذا ما أدت أعمالك الجنونية هذه إلى معرفة أبوك بالأمر، فسوف أنتقم. أقسم لك إنك ستتضرر. أقسم إنك ستندم طوال حياتك يا ميغيل.

- قلتُ لكِ إن أحداً لم يرني. أقسم لك لم يرني أحد. أخبريني على الأقل إذا كان ما فعلناه قد أعجبك.

- لم يعجبني أي شيء، وصرت أكرهك من أعماق روحي، يجب أن تعرف هذا -. قالت مابيل وهي تخلص من يدي ميغيل وتنهض -. هيا انصرف ولا تدع أحداً يراك وأنت تخرج. لا ترجع إلى هنا أيها الأبله. سيرسلونك إلى السجن أيها التعيس، كيف لا تلاحظ ذلك.

- حسن، سوف أذهب، لا تفضبي هكذا -. قال ميغيل وهو ينهض -. أتحمل شتائنك لأنك في حالة عصبية. وإلا لكونك جعلتك تتبعين هذه الشتايم كلها أيتها الصغيرة.

شعرت وهي في شبه الظلمة بأن ميغيل يرتدي ملابسه. وأخيراً انحني ليقبلها بينما هو يقول لها، بالفظاظة التي تنضح من كل مسامات جسده في تلك المناسبات الحميمة :

- طالما أنت تروقين لي سوف آتي كلما طلب مني السفود ذلك أيتها التشوليتا.

- من ثمانية إلى عشرة أعوام سجن هي سنوات طويلة يا مابيليتا -. قال النقيب سيلفا مبدلاً صوته مرة أخرى، فهو يبدو الآن حزيناً ومشفقاً - ولاسيما إذا أمضيتك العقوبة في سجن سويانا للنساء. إنه جحيم. أنا أستطيع أن أخبرك بوضعه، إنني أعرفه مثلما أعرف راحة يدي. لا وجود للماء والكهرباء في معظم الأوقات. السجينات ينمن مكدسات كل اثنتين أو ثلاثة في سرير ضيق واحد، ومعهن أبناءهن، وكثيرات ينمن على الأرض العابقة برائحة البراز والبول، ولأن الوصول إلى الحمامات

صعب المنال في معظم الأحيان، فإنهن يقضين حاجاتهن في دلاء أو في أكياس بلاستيكية يمكنهن رميها مرة واحدة في اليوم. لا وجود لجسم قادر على تحمل ذلك النظام لوقت طويل. فما بالك بامرأة مثلك، معتادة على نوع آخر من الحياة.

على الرغم من رغبتها في الصراخ والشتم، إلا أن مابيل ظلت صامتة. لم تدخل قط إلى سجن سويانا للنساء، ولكنها رأته من الخارج لدى مرورها. وحدست أن النقيب لا يبالغ ولو قليلاً في وصفه.

- بعد سنة أو سنة ونصف في مثل تلك الحياة، بين عاهرات، وقاتلات، ولصات، وتجارات مخدرات، كثيرات منها أصحابهن الجنون في السجن، تتحول امرأة شابة، وجميلة مثلك، إلى عجوز قبيحة وعصابية. لا أتمنى لك ذلك يا مابيليتا.

تنهد النقيب مشفقةً من ذلك المصير المحتمل لصاحبة البيت.

- ستقولين إنه من الخبر قول هذه الأمور لك وتصوير مثل هذا المشهد - واصل المفوض دون هواة -. إنك مخطئة. فلست أنا ولا الرقيب ساديين. لا نريد إخافتكم. ماذا تقول أنت يا ليتوما.

- طبعاً لا، بل على العكس تماماً - أكد الرقيب وهو يتململ مرة أخرى في المقهى -. لقد جئنا بنوايا حميدة أيتها السيدة.

- نريد أن نوفر عليك هذه الأهوال - كثُر النقيب بطريقة شوهد وجهه، كما لو أنه يرى تهبيؤات مروعة، ورفع يديه مرعوباً -  
الفضيحة، المحاكمة، الاستجوابات، الوقف وراء القضايا الحديدية.  
هل تتخيلين ذلك يا مابيل؟ ما نريده هو ألا تدفعي عقوبة التواطؤ مع أولئك اللصوص، وأن تظلي نظيفة من الغبار والقذى، وتواصلي الحياة  
المريحة التي تعيشينها منذ سنوات. أتدركين لماذا قلت لك إن زيارتنا  
من أجل مصلحتك؟ إنها كذلك يا مابيليتا، اقتنعي بما أقول.

كانت تهجمس، ماذًا في الأمر. لقد تحولت من الرعب إلى الغضب، ومن الغضب إلى القنوط. شعرت بثقل جفونها، وشعرت مجددًا بنعاس يجبرها على إغماض عينيها للحظات. كم هو رائع النوم، فقدان الوعي، الإحساس بأن شيئاً من هذا كله لم يحدث، وأن الحياة تتواصل كما في السابق.

قربت مابيل وجهها من زجاج النافذة ورأت، على الفور، خروج ميغيل من باب بيتها، ثم رأته يختفي، تبتلعه الظلمة، بعد أمتار قليلة. راقبت محيط المكان بحذر. إنها لا ترى أحداً. لكن ذلك لم يطمئنها. قد يكون الحراس متربصاً في مدخل بيت مجاور، ويكون قد رأه من هناك. سيقدم تقريراً إلى رؤسائه، وستبلغ الشرطة دون فيليثيتو ياناكيه: «ابنك والموظف لديك ميغيل ياناكيه، يزور في الليل بيت عشيقتك». ستتفجر الفضيحة. ما الذي سيحدث لها؟ وبينما هي تغسل في الحمام، وبينما هي تبدل شراشف السرير، وبعد ذلك، بينما هي منبطحة، والمبراح الذي بجانب السرير مضاء، كانت تتساءل مرة أخرى، مثلما تساءلت كثيراً خلال السنطين ونصف السنة الأخيرة التي اعتادت أن تلتقي فيها خفية بميغيل، كيف سيكون رد فعل فيليثيتو إذا علم بالأمر. فهو ليس من أولئك الذين يستلون سكيناً أو مسدساً لغسل العار، ليس منمن يؤمنون بأن عار الفراش لا يمحى إلا بالدم. ولكنه سيتخلى عنها. وستنتهي إلى الشارع. مدخراتها تكاد لا تكفي معيشتها لأكثر من بضعة شهور، مع تقلص شديد في النفقات. لن يكون من السهل عليها، بعد هذا كله، أن تجد علاقة مريحة مثل علاقتها مع صاحب شركة نارييهوا لا للنقل. لقد كانت غبية. بلها. هي الذنبة. كانت تعرف أنها، عاجلاً أو آجلاً، ستدفع ثمن ذلك غالياً. كانت قانطة إلى حد غادرها معه النعاس. ستكون ليلة أخرى من الأرق والكتوابيس.

نامت للحظات متفرقة، تتخيلها نوبات رعب. إنها امرأة عملية، لم تضيع الوقت قط في الرثاء لحالها أو الندم على أخطائها. الشيء الوحيد الذي تندم عليه في الحياة هو رضوخها للإلحاح الذي لاحقها وبحث عنها وعشقتها به هذا الرجل الشاب الذي انصاعت له دون يخامرها الشك في أن يكون ابن فيليشتيو. لقد بدأ الأمر قبل سنتين ونصف، حين لاحظت أنها تصادف بكثرة في طريقها، في شوارع وسط بيورا ومتاجرها ومطاعمها ومقاهيها، هذا الشاب الأبيض، الرياضي، الوسيم وحسن الملبس الذي يوجه إليها نظرات موحية وابتسمات مغازلة. لم تعرف من هو إلا حين قبلت منه، بعد كثير من التوسل، عصير فاكهة في كافيتيريا، والخروج لتناول الطعام معه، والذهاب للرقص مرتين في صالة رقص بجوار النهر، ووافقت على الذهاب إلى الفراش معه في نزل بأutarخيا. لم تقع في حب ميغيل قط. حسن، مابيل لم تحب أحداً منذ كانت بنت صغيرة، ربما لأن طبعها هكذا وربما بسبب ما حدث لها مع زوج أمها وهي في الثالثة عشرة من عمرها. لقد تعرضت لكثير من الخيبات في صباها مع عشاقها الأوائل، ومنذ ذلك الحين اقتصرت علاقاتها على مغامرات، بعضها أطول أمداً من غيرها، وبعضها قصيرة جداً، ولكن قلبها لم يكن يشارك مطلقاً في تلك المغامرات، وإنما جسدها وعقلها فقط. وظلت أن مغامرة ميغيل ستكون على ذلك المنوال نفسه، وأن المغامرة ستنتهي حين تقرر هي ذلك، بعد لقائين أو ثلاثة. ولكن الأمر لم يكن كذلك في هذه المرة. لقد وقع الشاب في الحب. تعلق بها مثل تعلق حلزون بقوquetه. انتبهت مابيل إلى أن هذه العلاقة قد تحولت إلى مشكلة وأرادت قطعها. لم تستطع. المرة الوحيدة التي لم تستطع التخلص فيها من عشيق. عشيق؟ ليس هكذا بالضبط، لأنه فقير أو بخيل، لم يقدم لها هدايا إلا نادراً، ولم يأخذها إلى أماكنة جيدة، حتى

إنه نبهها إلى أنهم لن يصلوا أبداً إلى علاقة رسمية، لأنه ليس من أولئك الرجال الذين يحبون التكاثر وتأسيس أسرة. أي إنها لا تهمه إلا في الفراش.

حين أرادت القطيعة قسراً، هددها بأنه سيخبر أباه بكل شيء. منذ تلك اللحظة أدركت أن هذه القصة ستنتهي نهاية سيئة، وأنها ستكون الخاسر الأكبر بين الثلاثة.

- تعاون فعال مع العدالة - أوضح النقيب سيلفا وهو يبتسم بحماسة -. هكذا تسمى باللغة الحقوقية يا مابيليتا. الكلمة المفصلية ليست التعاون وإنما الكلمة «فعال». هذا يعني أنه لا بد للتعاون من أن يكون مفيداً ويعطي نتائج. إذا ما تعاونتي بإخلاص وأتاحتْ لنا مساعدتك أن نلقي القبض على المجرمين الذين ورطوك في هذه الطبخة، فسوف تتخلصين من السجن، وستتخلصين حتى من الخصوص للمحاكمة. والسبب جلي جداً، لأنك أنت أيضاً ضحية أولئك اللصوص. ستكونين نظيفة من الغبار والقش يا مابيليتا! تصوري ما الذي يعنيه هذا!

أخذ النقيب مجتين من سيجارته، ورأة هي كيف كانت سحب الدخان تزيد من كثافة جو الصالة المخلخل ثم تنقشع شيئاً فشيئاً.

- لابد أنك تتساءلين عن نوع التعاون الذي نريده منك. لماذا لا تشرح لها ذلك يا ليتوما.

هز الرقيب رأسه موافقاً.

- ما نريده منك حالياً هو أن تواصلني التظاهر يا سيدتي - قال باحترام شديد -. مثلما كنت تتظاهرين طيلة هذا الوقت مع السيد ياناكيه ومعنا. مثلما كنت بالضبط. ميغيل لا يعرف أننا صرنا نعرف كل شيء، وبدل أن تخبريه حضرتك، ستواصلين التصرف كما لو أن أحاديثنا هذه لم تحدث قط.

- هذا هو بالضبط ما نريده منك - دخل النقيب سيلفا على الخط -. سأكون صريحاً معك ، وأقدم لك دليلاً آخر على الثقة. يمكن لتعاونك معنا أن يكون مفيداً جداً لنا. ليس للقبض على ميغيل ياناكيه. فهذا صار عالقاً تماماً ولا يمكنه القيام بخطوة واحدة دون أن نعلم بها. ولكن ليس واضحاً لدينا بالمقابل ولا نعرف من هم المتواطئين. وبمساعدتك ستنصب لهم فخاً وترسلهم إلى حيث يجب أن يكون المافياويون ، في السجن وليس في الشارع يعرقلون حياة الناس المحترمين. ستقدمين لنا خدمة عظيمة. وسنعاملك بالمثل ، وننسب إليك خدمة عظيمة أخرى. وب Lansani هذا لا تتكلم الشرطة الوطنية وحدها ، وإنما العدالة كذلك. اقتراح يحظى بتأييد النائب العام. مثلما تسمعين يا مابيليتا. تأييد السيد النائب العام الدكتور إرناندو سيمولا ! لقد كسبت اليانصيب معي يا فتاة.

منذ ذلك الحين ، ظلت مع ميغيل فقط كيلا ينفذ تهديده بالوشية بغرامياتها لفيليثيتو « حتى لو وصل الأمر بالعجز إلى إطلاق رصاصة عليك ورصاصة أخرى على يا تشوليتا ». وهي تعرف الحماقات التي يمكن أن يقدم عليها رجل غيور. كانت تنتظر في أعماق قلبها أن يحدث شيء ما ، حادث ، مرض ، أي شيء يُخرجها من هذه الورطة. حاولت إبقاء ميغيل بعيداً ، وكانت تختلق الذرائع كيلا تخرج معه وكيلا تتمتعه. ولكن لم تكن تجد مناصاً بين وقت وآخر ، وإن كانت تفعل ذلك دون رغبة وبخوف. كانا يخرجان لتناول الطعام في أمكنة بائسة ، والرقص في صالات رقص تعيسة ، النوم في فنادق تؤجر غرفها بالساعة في الطريق إلى كاتاكاو. وفي مرات قليلة جداً سمحت له بزياراتها في بيتها الصغير بحي كاستيبا. وفي مساء أحد الأيام ، دخلت مع صديقتها زوليا إلى كافيتريا التشالان لتناول الشاي ، فوجدت مابيل

نفسها وجهاً لوجه مع ميغيل. كان مع فتاة صغيرة وغريبة المظهر، وكانا يبدوان مغربين جداً ويمسك كل منهما بيدي الآخر. ورأت كيف ارتبك الشاب واحمر لونه وأدار وجهه كيلا يسلم عليها. وبدل إحساسها بالغيرة، شعرت مابيل بالراحة. فسوف تكون القطيعة معه الآن سهلة جداً. ولكنها حين التقى في المرة التالية، أخذ ميغيل يتباكي، وطلب منها المغفرة، وأقسم إنه يشعر بالندم، وأن مابيل هي حب حياته، إلى آخره. فغفرت له هي البلاهاء.

في هذا الصباح، ودون أن تكون قد أغضبت عينيها تقريراً، مثلما هي حالها في الفترة الأخيرة، كانت مابيل تشعر بالانهيار، رأسها معتلٍ بالترقب. كانت تشعر بالأسى كذلك على العجوز. فهي لم تكن تريد إلحاق الأذى به. وما كانت لترتبط قط بميغيل لو عرفت أنه ابنه. ولكن هو غريب أن يكون قد أنجب ابناً أبيض ووسيماً إلى هذا الحد. لم يكن العجوز من صنف الرجال الذين يمكن لامرأة أن تعيشهم، ولكنه يمتلك الصفات التي يمكن أن تدفع امرأة إلى أن تحب رجلاً. ولقد اعتادت عليه. إنها لا تنظر إليه كعشيق، وإنما كصديق ثقة. يمنحها الأمان، يجعلها تفكر في أنه، مadam قريباً منها، سيخرجها من أية مشكلة تقع فيها. إنه شخص وقور وطيب المشاعر، واحد من أولئك الرجال الذين يمكن الثقة بهم. يؤسفها جداً أن تسبب له المراة، أن تجرحه، أو تغضبه. لأنه سيعاني كثيراً حين يعلم أنها قد نامت مع ميغيل.

وفي حوالي منتصف النهار، حين طرقوا الباب، أحسست بأن التهديد الذي كانت تهجمس به منذ الليلة السابقة سوف يتجسد الآن. ذهبت لتفتح الباب ووجدت نفسها أمام النقيب سيلفا والرقيب ليتما عند العتبة. رباء، رباء، ما الذي سيحدث.

- أنت تعرفين ما هو الاتفاق يا مابيليتا - قال النقيب سيلفا. ثم نظر

إلى الساعة كما لو أنه قد تذكر شيئاً، ونهض واقفاً - لست مضطراً إلى أن تردي عليَّ الآن طبعاً. سأمنحك وقتاً حتى الغد، في مثل هذه الساعة. فكري بالأمر. وإذا جاء المجنون ميغيل في زيارة أخرى لك، لا تفكري في أن تخبريه بما تحدثنا فيه. لأن إقدامك على ذلك يعني أنك قررت الوقوف إلى جانب المافياوين ضدنا. وهذا سيزيد من خطورة

لائحة الاتهام ضدك يا مابيليتا. أليس كذلك يا ليتوما؟

حين توجه النقيب والرقيب نحو الباب، سألتهما:

- هل يعلم فيليثيتو بأنكما قد جئتما لتقديم هذا العرض لي؟

- السيد ياناكيه لا يعلم أي شيء عن مجئتنا، ولا يعرف بعد أي شيء عن أن مبتز العنكبوت هو ابنه ميغيل، وأنك أنت شريكه المتواطئة معه - رد عليها النقيب - عندما سيعلم بالأمر سيفهم عليه. ولكن هكذا هي الحياة، وأنت تعرفين ذلك أكثر من الجميع. فعند اللعب بالنار، سيحرق أحد ما. فكري في عرضنا، تشاوري بشأنه مع وسادتك وسترين أنه مناسب لك. سوف نتحدث غداً يا مابيليتا.

عندما انصرف الشرطيان، أغلقت الباب وأسندة ظهرها إلى الجدار. كان قلبها ينبض بقوة. «لقد وقعت. لقد وقعت. أوقعت نفسك يا مابيل». ومستندة إلى الجدار، جرجرت نفسها حتى الصالة - كانت ساقها ترتجفان، ومازال النعاس يثقل عليها بصورة لا تقاوم - وتهاوت على أقرب أريكة. أغمضت عينيها ونامت على الفور أو أغامي عليها. رأت كابوساً كانت قد رأته في مرات سابقة. رأت نفسها تقع في رمال متحركة وتأخذ بالغوص في ذلك السطح الترابي الذي غارت فيه ساقها، وراح تلتف عليهم خيوط لزجة. وببذلها جهوداً عظيمة تتمكن من التقدم باتجاه أقرب ضفة إليها، ولكن ذلك لم يكن الخلاص بأي حال، إذ كان يقع على الضفة، بانتظارها، وحش

كثيف الشعر، تنين أفلام له أسنان حادة وعينان واخزتان لا تتوقفان عن رصدها وانتظارها.

حين استيقظت، كانت تشعر بالألم في حلقتها ورأسها وظهرها وكانت مبللة بالعرق. ذهبت إلى المطبخ وشربت كأس ماء على جرعات. «يجب أن تهدئي. وأن يكون رأسك بارداً. عليك أن تفكري بهدوء في ما ستفعلينه». ذهبت ل تستلقي على السرير، دون أن تخلع عنها سوى الحذاء. لم تكن لديها رغبة في التفكير. كانت تريد أن تركب سيارة، حافلة، طائرة، وأن تغادر إلى أبعد مكان ممكناً عن بيورا، إلى مدينة لا يعرفها فيها أحد. وأن تبدأ حياة جديدة من الصفر. لكن ذلك مستحيل، فأينما ذهبت ستصل الشرطة إليها، وسيزيد الهروب من خطورة ذنبها. أليست ضحية أيضاً؟ لقد قال النقيب ذلك، وهذهحقيقة خالصة. أهي صاحبة الفكرة؟ لا شيء من هذا. بل إنها جادلت المجنون ميغيل حين عرفت بما جاء يعرضه عليها. ولم تقبل الاستماع إلى تهريج عملية الاختطاف إلا بعد أن هددها - مرة أخرى - بأنه سيخبر العجوز بغرامياتهما: «سيرميك مثل كلبة يا تشوليتا. وكيف ستعيشين حياة منعة كالتي تعيشينها الآن؟».

لقد أجبرها، وليس لديها أي سبب لأن تكون وفيه لابن عاهرة مثله. ربما الشيء الوحيد المتبقى لها هو التعاون مع الشرطة والنائب العام. لن تكون حياتها سهلة بالطبع. سيكون هناك انتقام، ستتحول إلى هدف، سيطلقون عليها رصاصة أو يطعنونها بخنجر. أيهما أفضل؟ هذا أم السجن؟

ظللت طوال ما تبقى من النهار وتلك الليلة دون خروج من البيت، تنهشها الشكوك. كان رأسها عش جُداجد. الشيء الوحيد الواضح لديها هو أنها قد تخوزقت وستبقى كذلك بسبب خطئها في التواطؤ مع

ميغيل والقبول بذلك التهريج.

لم تأكل شيئاً في الليل، على الرغم من أنها أعدت سندوتش جامبون وجبن دون أن تتذوقه. استلقت للنوم وهي تفكر في أن الشرطيين سيعودان في الصباح ليسألها ما هو جوابها. أمضت الليل كله تفكير، تبدل في خططها. كان النوم يأتيها في بعض اللحظات، ولكنها لا تكاد تغفو حتى تستيقظ مذعورة. عندما داهمت بيت كاستييا أول أنوار اليوم الجديد، أحسست بأنها تهداً. بدأت ترى بوضوح. وبعد قليل، كانت قد اتخذت قرارها.

## XIV

ذلك الثلاثاء من شتاء ليمما الذي سيعتبره دون رينغوبيرتو ودونيا لوكريثيا أسوأ يوم في حياتهما، أشرق بسماء صافية وبإعلان عن ظهور الشمس، بعد أسبوعين من ضباب لجوج ورطوبة ورذاذ مطر لا يكاد يبلى، لكنه يتسلل إلى العظام. مثل هذا الاستيقاظ يبدو فالأ طيباً.

كان الموعد في مكتب قاضي التحقيق في الساعة العاشرة صباحاً. مرَّ الدكتور كلاوديو أرنبياس في الساعة التاسعة، بحملات بنطاله المزركشة المعهودة وخطوات مشيته العرجاء، لمرافقته رينغوبيرتو مثلما اتفقا مسبقاً.

كان هذا الأخير يظن أن التحقيق الجديد أمام القاضي سيكون مجرد إضاعة وقت مثل التحقيقات السابقة، أسئلة بلها حول وظائفه وكفاءاته كمدير في شركة التأمين، يجيب عنها بما يناسبها من عبارات التعقل الجلية وببلاغات معادلة لها. لكنه في هذه المرة وجد أن التوءمين قد رفعا من وتيرة الحصار القضائي؛ ففضلاً عن إيقاف إجراءات تقاعده بحجة فحص مسؤولياته ومداخيله خلال سنوات عمله في الشركة، وجد أنهما فتحا ضدّه تحقيقاً قضائياً جديداً حول عملية تدليس مزعومة تضرّ بشركة التأمين، وأنه هو نفسه كان متستراً عليها ومستفيداً منها ومتواطئاً فيها.

يكاد دون رينغوبيرتو لا يتذكر تلك الواقعة التي حدثت قبل ثلاث سنوات. فالزيتون هو مكسيكي مقيم في ليمما، يملك قطعة أرض زراعية

ومصنعاً لمشتقات الحليب في وادي تشييون، وقد وقع ضحية حريق أودى بمتلكاته. وبعد التقرير الشرطي وحكم القاضي، جرى تعويضه عن الخسائر التي تعرض لها وفق التأمين الذي لديه. وعندما اتهم الرجل، من خلال شريك له، بأنه هو نفسه من افتعل الحريق كي يتقاضى بصورة احتيالية قيمة بوليصة التأمين، كان ذلك الشخص قد غادر البلاد دون أن يخلف أثراً يدل على مستقره الجديد، ولم تستطع الشركة تعويض تلك الخديعة. ويقول التو، مان الآن إن لديهما أدلة على أن ريفوبيرتو، مدير الشركة، قد تصرف بطريقة متهاونة ومريبة في القضية كلها. والأدلة تمثل في شهادة موظف سابق في الشركة، فصل من العمل فيها بسبب عدم الكفاءة، ويؤكد أنه قادر على إثبات أن المدير قد تصرف بما يتناسب مع مصلحة المحتال. لم يكن الأمر برمته سوى أكذوبة لا سند لها، وقد أكد له الدكتور أرنبياس الذي رفع دعوى افتراء وتشهير معاكسة ضد التو، مين وشاهدهما المزيف، أكد له أن تلك القضية ستنهار كانهيار قلعة من رمل؛ وسيكون على ميكى وإسكوبيتا أن يدفعا عطلاً وضرراً لإهانتهما كرامته، وتقديمهما شهادة مزيفة ومحاولتهما تضليل العدالة.

شغلت الإجراءات طيلة فترة الصباح. كانت القاعة الضيقة والخانقة تغلي حراً وتغص بالذباب، وجدرانها تغض بكتابات وتشطيب لكتابات. كان ريفوبيرتو جالساً على كرسي صغير ومخلع، يكاد لا يتسع لنصف إلبيه، بينما هو يحاول طيلة الوقت التوازن كيلا يقع على الأرض، ويرد على أسئلة القاضي شديدة التعسف والسخافة إلى حد تدفعه إلى القول بينه وبين نفسه إنه لا هدف لها سوى تعكير مزاجه وهدر وقته وصبره. أيكون هذا القاضي مرتشياً من ابني إسماعيل أيضاً؟ فهذا الماجنان يضيقان إليه كل يوم مزيداً من المضايقات لـإجباره

على الشهادة بأن أباهما لم يكن بكمال قواه العقلية حين تزوج من خادمته. ففضلاً عن تجميد إجراءات تقاعده، هاهما يخرجان له الآن بهذه القضية. التوءمان يعرفان جيداً أنه يمكن لهذا الاتهام أن ينقلب ضدهما. لماذا يتقدمان به؟ هل كل هذا الحقد الأعمى، والرغبة العنيفة في الانتقام منه لا سبب آخر لها سوى أنه تواطأ في ذلك الزواج؟ ربما هي عملية تحول فرويدية؟ كانوا مغتاظين وخارجين عن طورهما، يستشرسان ضده لأنهما لا يستطيعان عمل شيء لإسماعيل وأرميدا اللذين يستمتعان على هواهما، هناك في أوروبا. إنهم مخطئان. لن يستطيعا إجباره على الرضوخ. ولنـ من الذي سيضحك أخيراً في هذه الحرب التي أعلناها.

كان القاضي رجلاً ضئيلاً، مشوشًا، يلبس بصورة بائسة، يتكلم دون أن ينظر إلى عينيّ محدثه، وبصوت شديد الخفوت والتتردد ما ضاعف من استحياء دون ريفوبيرتو للحظات. هل هناك من يسجل الاستجواب؟ ظاهريًا لا. هناك كاتب ينزوّي بين القاضي والجدار، رأسه غارق في ملف ضخم، ولكن لا تظهر أي آلة تسجيل. وليس لدى القاضي من جهته سوى دفتر صغير يُدون فيه، بين حين وآخر، ملاحظة سريعة لا يمكن لها أن تكون حتى تلخيصاً مقتضاً لأقواله. أي إن هذا الاستجواب كلـ ليس سوى مهزلة، ولا هدف له سوى إزعاجه. كان مستفزًا إلى حد اضطر معه إلى بذل مجهد كبير للتجاوب مع تلك التمثيلية الإيمائية المضحكة، وكيلا ينفجر في نوبة غضب. ولكن الدكتور أرنبياس قال له، لدى الخروج، إنه عليه أن يكون سعيداً وليس غاضباً، فإنـ قاضي التحقيق الكثير من الضجر في الاستجواب، يشير بوضوح إلى أنه لا يأخذ اتهامات الضبعين على محمل الجد. وسوف يعتبرها باطلة وغير متوافقة بكل تأكيد.

وصل ريفوبيرو إلى بيته متعباً، معكر المزاج، وبلا رغبة فيتناول الغداء. وكانت تكفيه رؤيته وجه دونيا لوكريثيا المتقطع كي يدرك أن خبراً سيئاً آخر ينتظره.

- ماذا جرى؟ - سألهما بينما هو يخلع الجاكيت ويعملقه في خزانة الملابس بغرفة النوم. ولأن زوجته تأخرت في الرد عليه، التفت لينظر إليها.

- ما هو الخبر السيئ يا حبي؟

فتلعتهمت دونيا لوكريشيا بصوت مكتوم ومرتعش:

- إديبيرتو تورييس، تصور. أفلتت منها شبه شكوى وأضافت: لقد  
مر له في حافلة. مرة أخرى يا ريفوبيرتو. رباه، مرة أخرى!  
- أين؟ متى؟

- في حافلة ليما - تشوريبوس يا خالي - روى فونتشيتو بهدوء  
شديد، متسللاً إليها ألا تعطي الموضوع أية أهمية -. صعدت إلى الحافلة  
الصغيرة في باسيو ديلا ريبوبليكا، بالقرب من شارع غراو. وفي الموقف  
التالي، موقف الثانخون، صعد هو.

- هو؟ هو نفسه؟ هو؟ - صاحت وهي تقرّب وجهها منه متفرحة  
إيه.. هل أنت متأكد مما تقوله لي يا فونتشيتو؟

- تحية أيها الفتى الصديق - حيّاًه السيد إديلبيرتو توريس، وهو ينحني له بواحدة من انحناء احترامه المعهودة - يا للمصادفة، انظر أين نلتقي. تسعدني رؤيتك يا فونتشيتتو.

- كان يرتدي ملابس رمادية، مع جاكيت وربطة عنق، وكنزته ذات اللون الرماني - أوضح الصبي -. وكان شعره مُسرّحاً وذقنه حلقة على أحسن وجه، وشديد اللطف. لقد كان هو طبعاً يا خالي. ولحسن الحظ أنه لم يبك هذه المرة.

- يبدو لي أنك كبرت قليلاً عما كنت عليه في آخر مرة التقينا بها -  
أكيد إديلبيرتو توريس وهو يتفحصه من أعلى إلى أسفل - ليس بدنياً  
فقط. فأنت لك الآن نظرة أكثر صفاء مما كنت عليه من قبل، وأكثر ثقة  
بالنفس. نظرة شخص شبه راشد يا فونتشيتو.

- لقد منعني أبي من التكلم مع حضرتك أيها السيد. متأسف، ولكن  
يجب عليّ أن أطيعه.

- وهل أخبرك بسبب هذا المنع؟ - سأله السيد توريس، دون أن يبدو  
عليه أدنى تأثر. كان يتأمله بفضول، وبابتسامة خفيفة.

- أبي وزوجة أبي يظنون أنك الشيطان يا سيدي.  
لم يبدأ على إديلبيرتو توريس أنه قد فوجئ كثيراً، ولكن المفاجأة  
بدت على سائق الحافلة. فقد داس قليلاً على مكبح السيارة، والتفت  
ليلقي نظرة إلى الراكبين في المقدمة الخلفي. وحين رأى وجههما،  
اطمأن. اتسعت ابتسامة السيد توريس أكثر، ولكنه لم يفلت قهقهة.  
وهز رأسه معتبراً الأمر مزاحاً.

- كل شيء معك في هذه الأذمنة التي نعيشها - علق بالطريقة المتقنة  
بالنطق كمحاضر وهو يهز كتفيه - بما في ذلك أن يكون الشيطان طليقاً  
في شوارع ليماء، ويتنقل بحافلة نقل صغيرة. وبمناسبة الحديث عن  
الشيطان، لقد علمتُ أنك توصلت إلى تفاهم جيد مع الأب أودونوفان يا  
فونتشيتو. أجل، كاهن الكنيسة الصغيرة تحت الجسر، ومن سيكون  
سواء. هل أنت على تفاهم جيد معه؟

- لقد كان يسخر منك، ألم تلاحظي ذلك يا لوكريشيا؟ - أكيد دون  
ريغوبيرتو - الأمر مزاح منذ اللحظة الأولى لظهوره له مجدداً في تلك الحافلة.  
ولأنه من المستحيل تماماً أن يذكر الرجل اسم بيبين. لقد كان يسخر منك  
بكل بساطة. وقد كان يسخر منا منذ بداية القصة، هذه هي الحقيقة.

- ما كنت لتقول هذا لو أنك رأيت كيف كان وجهه يا ريفوبيرتو.  
أظن أنني أعرفه جيداً بحيث يمكنني أن أعرف متى يكذب ومتى لا يكذب.

- هل تعرف الأب أودونوفان أيها السيد؟

- إنني أذهب في بعض أيام الأحاداد للاستماع إلى قداسه، على الرغم من أن كنيسته بعيدة جداً عن مكان سكني - أجابه إديلبيرتو توريس -. أقطع المسافة إلى هناك لأن مواعظه تروق لي. إنها مواعظ رجل مثقف، ذكي، يتكلم إلى الجميع، وليس إلى المؤمنين وحدهم. ألا يعطك هذا الانطباع حين تتحدث معه؟

- لم أسمع مواعظه قط - أوضح فونتشيتو -. ولكنه بدا لي ذكياً جداً بالفعل. لديه خبرة في الحياة، ولاسيما في أمور الدين.

- يجب أن تسمعه حين تتحدث على المنبر - نصحة إديلبيرتو توريس -. ولاسيما الآن، بعد أن صرت تهتم بشؤون روحانية. إنه متحدث بارع، أنيق وكلماته مفعمة بالحكمة. لابد أنه أحد آخر الخطباء الجيدين لدى الكنيسة. لأن الخطابة المقدسة التي كانت مهمة جداً في الماضي، دخلت في مرحلة انحطاط منذ زمن طويل.

- ولكنه لا يعرف حضرتك - تجرا فونتشيتو على القول -. لقد كلمتُ الأب أودونوفان عنك، ولم يكن يعرف حتى من تكون.

- إنني بالنسبة إليه لستُ سوى وجه آخر بين رواد كنيسته - رد إديلبيرتو توريس دون أن يطرأ عليه أي تبدل -. وجهٌ ضائع بين وجوه كثيرة أخرى. كم هو جيد أن تكون مهتماً الآن بالدين يا فونتشيتو. لقد سمعت أنك انضمت إلى جماعة تجتمع مرة كل أسبوع لقراءة الكتاب المقدس. هل تجد متعة في عمل ذلك؟

- إنك تكذبُ عليَّ يا قلبي - قالت له دونيا لوكريثيا مؤنثة بمحبة،

ومحاولة مداراة مفاجأتها - لا يمكن أن يكون قد قال لك هذا. لا يمكن أن يكون السيد توريس عارفاً بأمر فريق دراسة الكتاب المقدس.

- بل إنه يعرف كذلك أننا أنهينا الأسبوع الماضي قراءة سفر التكوين وبدأنا بسفر الخروج - وأبدى الصبي في هذه اللحظة ملامح قلق عظيم. فقد بدا هو نفسه مذهولاً أيضاً - إنه يعرف حتى هذا التفصيل، أقسم لك. لقد فاجأني بطريقة لم أستطع معها إلا أن أقول له ذلك يا خالي.

- يجب ألا تفاجأ يا فونتشيتو - ابتسم له إدiliberto توريس - إنني أشعر نحوك بتقدير كبير وبهمني أن أعرف كيف تمضي أمورك، في المدرسة، في أسرتك، وفي الحياة. ولهذا أهتم بالتحري عما تفعله ومع من تلتقي. إنه إعراب عن المحبة لك، لا شيء أكثر. يجب عدم البحث عن ثلاثة قوائم للقط ونحن نعرف أن له أربع قوائم: هل تعرف هذا المثل؟

- سوف يسمع تأنيباً مني حين يرجع من المدرسة - قال دون ريفوبيرو، وقد داهمه الغضب فجأة - لا يمكن لفونتشيتو أن يواصل التلاعب بنا بهذه الطريقة. لقد تعجبت من أنه يريدنا أن نبتلع كل هذه الخدع والاحتيالات.

توجه متزوجاً إلى الحمام وغسل وجهه بماء بارد. كان يشعر بشيء مثير للقلق، ويحدس بمضايقات جديدة. لم يعتقد قط أن قدر البشر مكتوب، وأن الحياة ما هي إلا سيناريو مهيأ مسبقاً، يمثله البشر دون أن يطلعوا عليه، ولكنه منذ زواج إسماعيل المنحوس، وعودة ظهور إدiliberto توريس المزعومة في حياة فونتشيتو، صار لديه إحساس بأنه قد ضبط إطلالة مسبقة في حياته. أيمكن لأيامه أن تكون مشاهد قررتها مسبقاً قوة خارقة مثلما يعتقد الكلفينيون؟ وأسوأ ما في هذا الثلاثاء المشؤوم هي أوجاع الرأس العائلية التي بدأت للتو.

لم يشأ تناول ولو لقمة واحدة أخرى. خرج كدوامة وهو يعد لوكريثيا بأن يرجع فوراً ليخبرها بحديثه مع إسماعيل. فعودة صديقه الذي هو مصدر كل النزاعات التي يجد نفسه غارقاً فيها مع التوءمين، جعلته ينسى اللقاء مع قاضي التحقيق، وعودة ظهور إديلبيرتو توريس في حافلة ليما - تشوريبيوس.

لقد عاد العجوز وزوجته الجديدة أخيراً من شهر عسلهما. أهو مطلع  
حقاً على كل المشاكل التي يلاحمه بها الضبعان، ويخبره بها يومياً  
كلاوديو أرنبياس؟ سيتحدث إليه بكل صراحة؛ سيقول له كفى، لأنه  
مذ وافق على أن يكون شاهده، تحولت حياته إلى كابوس قضائي

وبوليسي، وعليه أن يفعل شيئاً على الفور كي يوقف ميكى وإسكوبيتا حصارهما له.

ولكنه حين وصل إلى الدار الكبيرة المشيدة على الطراز النيوكولونيالي في حي سان إيسيدرو، وشبه المحاصرة بمعارات شاهقة في ما حولها، استقبله إسماعيل وآرميدا بكثير من مظاهر المودة، بحيث انهارت نواياه المسبقة في التكلم بوضوح وحزن. أذهلتة طمأنينة الزوجين وسعادتهما وأناقتها. كان إسماعيل يرتدي ملابس سبورت، مع منديل حريري حول عنقه وصندل يبدو كفاز لقدميه؛ وستره الجلدية تتناسب مع القميص ذي الياقة المفتوحة الذي يبرز منه وجهه الباسم، الحليق لتوه والمعطر بعطر يانسون خفيف. غير أن التحول الذي طرأ على آرميدا كان أعظم. فقد بدت كما لو أنها خارجة للتو من بين يدي مصففات شعر، وخبيرات مكياج ومنيكور. شعرها الأسود القديم صار الآن كستانائيًا مع تموجات لطيفة حللت محل الشعر المترهل الذاوي. وترتدي ثوباً خفيفاً من قطعتين، مُطَبَّعاً بأزهار ملونة، مع شال ليلكي على الكتفين وحذاء بيتي من اللون نفسه بنصف كعب. كل شيء فيها: يداها المعنى بهما، أظفارها المطلية بطلاء أحمر شاحب، القرطان، السلسلة الذهبية، والميدالية المتدرية على الصدر، وحتى أساليبها التلقائية - كانت قد سلمت على ريفوبيرتو وهي تقرب خدتها منه ليقبله - بدت أساليب سيدة أمضت حياتها بين أناس جيدي التربية، أثرياء ووجوه مجتمع، لا هم لها سوى العناية بجسدها وأناقتها. لم يكن قد بقي فيها، للوهلة الأولى، أي أثر من العاملة المنزلية القديمة. أتراها كرست شهور شهر العسل هذه في أوروبا لتلقي دروساً في الأساليب الراقية؟

ما إن انتهوا من تبادل التحية حتى أدخلوه إلى الصالة الصغيرة المجاورة لغرفة الطعام. من خلال النافذة الواسعة كانت تظهر الحديثة

المتلئه بنباتات زينة من الكروتينيات والجهنميات والخباريات والزنبقيات. لاحظ ريفوبيرتو أنه إلى جانب المضدة حيث توجد الفناجين وإبريق القهوة وطبق البسكويت والحلويات، هنالك عدة حزم وعلب ملفوفة بعناية بأوراق وشرائط ملونة. أهي هدايا؟ أجل. لقد أحضرها إسماعيل وآرميدا لريفوبيرتو ولوكريثيا وفونتشيتو، وحتى لخوستينيانا كذلك، في لفترة امتنان لما أبدوه من محبة للعروسين: قمحان وبيجاما من الحرير لريفوبيرتو، بلوزات وشالات ولوكريثيا، ملابس وأحذية رياضية لفونتشيتو، مئزر وصندل لخوستينيانا، إضافة إلى أحزمة وأزار قمحان ومفكرات ودفاتر مذكرات مصنوعة يدوياً، ولوحات وشكولاته وكتب فن ولوحة رسم غزلي لتعليقها في الحمام أو الحجرة الحميمية في البيت.

كان يراهما كمن استعادا الشباب، واثقين من نفسيهما، سعيدين وهادئين إلى حدّ أحس ريفوبيرتو بعدهى طمأنينة وطيب مزاج العروسين تنتقل إليه. لا بد أن إسماعيل يشعر بثقة تامة بما يفعله، وأنه بمنجي من كل مكايد ابنيه. ومثلاً قال له سابقاً خلال ذلك الغداء في مطعم «روسا ناوتيكا»، لا بد أنه ينفق نقوداً أكثر منها من أجل إحباط مؤامراتهما. ولا بد أنه يتحكم بكل شيء. لحسن الحظ. لماذا يقلق هو إذا؟ فمع وجود إسماعيل في ليما، سوف تُحل المشكلة التي أثارها التوءمان. ربما بمصالحة إذا ما وافق رب عمله السابق على تقديم بعض الأموال الإضافية إلى الأربعين. وستنتهي كافة المكايد التي تنقل عليه خلال أيام قليلة، وسيستعيد حياته السرية، وحيزه المتحضر. وفكرة: «سأستعيد سيادتي وحربيتي».

بعد تناول القهوة، استمع ريفوبيرتو إلى بعض طرائف رحلة العروسين إلى إيطاليا. فآرميدا التي يكاد لا يتذكر أنه سمع صوتها من

قبل، استعادت الآن موهبة اللغة. إنها تعبّر عن نفسها بطلاقه وتدفق، وبقدر أقل من الأخطاء في الصياغة اللغوية وبمزاج ممتاز. بعد قليل انسحبت «كي يتكلم الرجالن في شؤونهما المهمة». أوضحت أنها لم تتم أية قيلولة في حياتها قطّ، ولكن إسماعيل علمها الآن الاستلقاء حوالي خمس عشرة دقيقة بعينين مغمضتين بعد الغداء، وأنها تشعر بعد ذلك أنها على ما يرام بفضل هذه الاستراحة القصيرة.

- لا تقلق لأي شيء يا عزيزي ريفوبيرتو - قال له إسماعيل، وهو يربّت على كتفه فور بقائهما وحيدين - أترى فنجان قهوة آخر؟ كأس كونياك صغير؟

- تبهرجي روبيتك سعيداً هكذا يا إسماعيل - رفض ريفوبيرتو العرض بحركة من رأسه -. تبهرجي روبيتكما أنتما الاثنين على أحسن حال. الحقيقة أنكما، أنت وأرميدا، مشرقين. وهذا دليل على أن الزواج يمضي على خير ما يرام. يسعدني هذا كثيراً بالطبع، ولكن، ولكن...

- ولكن هذين الشيطانين جعلا شيئاً شعرك أخضر، أعرف ذلك جيداً - أكمل إسماعيل كاريرا جملة صديقه وهو يربّت على كتفه من جديد، دون أن يتوقف عن الابتسام له وللحياة -. لا تقلق يا ريفوبيرتو، صدقني. إنني هنا الآن وسوف أتولى الأمور كلها بنفسي. أعرف كيف أواجه هذه المشاكل وأحلّها. أطلب منك ألف معذرة على الإزعاجات الكثيرة التي جلبها لك كرمك معـي. غداً سأعمل طيلة اليوم في هذه القضية مع كلاوديو أرنبيا والمحامين الآخرين في مكتبه. سأزيح عن كاهلك دعاوى المحاكمات والمشاكل، أعدك بهذا. أما الآن فاجلس واستمع. لدى أخبار أقدمها إليك، وهي تهمك. لا ترىـد أن نتناول هذا القليل من الكونياك يا صديقي العجوز؟

سارع هو نفسه إلى سكب كأسين. رفع كأسه. قرعـا الكأسين وبلا

شفاهمها ولسانيهما بالمشروب الذي يلمع قرمزيًا في قاع الكريستال، وله شذى ذكرى خشب سنديان البرميل. انتبه ريفوبيرتو إلى أن إسماعيل يراقبه بمكر. وأن ابتسامة خبيثة، ساخرة، تبث الحماسة في عينيه المجدعتين. أتراه أصلح أسنانه الاصطناعية في أثناء شهر عسله؟ لقد كانت تتحرك في فمه من قبل، أما الآن فتبدو ثابتة جداً على لثته.

- لقد بعث أسهمي في الشركة كلها لشركة أسيغورزيوني جنرالي، أفضل وأكبر شركة تأمين إيطالية يا ريفوبيرتو - هتف وهو يفتح دراعيه ويطلق قهقهة صاحبة -. أنت تعرفها جيداً، أليس كذلك؟ لقد عملنا معهم مرات عديدة. مقرها الرئيسي في تريستي، لكنها موجودة في العالم كله. صفة ممتازة. ها أنت ترى، شهر عسل لم يكن رحلة متعة وحسب. وإنما رحلة عمل أيضاً.

كان يحتفي بالأمر بفرح وسعادة طفل يفتح هدايا بابا نويل. لم يكن دون ريفوبيرتو قد استوعب الخبر بعد. وتدثر بصورة غامضة أنه كان قدقرأ، قبل أسبوع، في الإيكonomist، أن لدى شركة أسيغورزيوني جنرالي خطط للتمدد في أميركا الجنوبية.

- أبعت الشركة التي أسسها أبوك، والتي عملت فيها طيلة حياتك؟ - سأله أخيراً وهو مشوش - بعثتها إلى شركة إيطالية عابرة للقارات؟ منذ متى وأنت تتفاوض معها على هذا الأمر يا إسماعيل؟

- منذ حوالي ستة أشهر - أوضح صديقه وهو يهزم كأس الكونيك ببطء -. لقد كانت مفاوضات سريعة، بلا تعقيدات، وجيدة جداً، أكرر لك. لقد أنجزت صفة جيدة. خذ راحتك واستمع. لأسباب معروفة وجليلة، وقبل الوصول إلى نهاية حميدة، كان لا بد لهذا الموضوع من أن يظل سرياً. هذا هو سبب تدقيق الحسابات الذي فوّضت الشركة الإيطالية به وكان قد لفت اهتمامك كثيراً في العام الماضي. ها أنت

تعرف الآن ما الذي كان وراء ذلك: أرادوا أن يتفحصوا شركتنا بعدسة كبيرة. لم أوصي أنا بتلك المهمة ولم أدفع تكاليفها، وإنما أسيغورزيوني جنرالي هي من فعلت ذلك. وبما أن انتقال الملكية قد أنجز، فإنني أستطيع أن أخبرك الآن بكل شيء.

تكلم إسماعيل كاريرا قرابة الساعة دون أن يقاطعه ريفوبيرتو، اللهم إلا في مرات قليلة ليطلب منه بعض التوضيحات. كان يستمع إلى صديقه معجباً بذاكرته، إذ راح يشرح أمامه بإسهاب، ودون أي تردد، كمن يبسط طيات رق جلدي، أحداث تلك الشهور بما فيها من عروض وعروض مضادة. كان مذهولاً بدا له من غير المعقول أن مفاوضاتٍ بتلك الحساسية أمكن لها أن تتحقق، وأن تصل إلى نهايتها بكل تلك السرية، بحيث لم يستطع هو نفسه، المدير العام للشركة، أن يعلم بها. كانت لقاءات المتفاوضين تتم في ليما وتريستي ونيويورك ومilan؛ وكان يشارك فيها محامون ومساهمون رئيسيون ووكلاء مفوضون ومستشارون ومصرفيون من عدة بلدان، غير أنه جرى استبعاد جميع موظفي إسماعيل كاريرا البيرويين بصورة خاصة، وكذلك ميكى وإسكوبيتا طبعاً. فهذا الندان تلقيا ميراثهما سلفاً، حين طردتها دون إسماعيل من الشركة، كانوا قد باعوا جزءاً كبيراً من أسهمها، ولم يعلم ريفوبيرتو إلا الآن بالذات أن من اشتراها، من خلال أشخاص آخرين، هو إسماعيل نفسه. وما زال الضبعان يحتفظان بحصة ضئيلة من الأسهم، وقد تحولا الآن إلى مساهمين صغارين (بل صغارين جداً في الواقع) في الفرع البيروي لشركة أسيغورزيوني جنرالي. كيف سيكون رد فعلهما؟ هز إسماعيل كتفيه بازدراة: «سيكون شيئاً بالطبع. وماذا في ذلك؟». فليصرخوا. عملية البيع التزمت بكلية الاجراءات الرسمية الوطنية والأجنبية. وقد صادقت على نقل الملكية الأجهزة الإدارية في إيطاليا

والبيرو والولايات المتحدة. وتم تسديد الفرائض المترتبة حتى آخر سنت منها. كل شيء قانوني ونظامي.

- ما رأيك يا ريفوبيرتو؟ - أنهى إسماعيل كاريرا عرضه. وفتح ذراعيه مجدداً كأنه مهرج يحيي الجمهور وينتظر التصفيق. - هل ما أزال حياً وأتصرف كرجل أعمال أم لا؟  
هز ريفوبيرتو رأسه موافقاً. كان مشوشًا لا يدرى ما الذي يمكنه قوله. بينما صديقه ينظر إليه باسماً وراضياً عن نفسه.

- الحقيقة أنك لا تتوقف عن إثارة إعجابي يا إسماعيل. - قال أخيراً -. إنك تعيش مرحلة شباب ثانية، هذا ما أراه. هل آرميدا هي من أعادت بعثك؟ مازال رأسي لا يتسع لمسألة أنك قد تخلصت بكل هذه السهولة من الشركة التي أسسها أبوك، وواصلت أنت ترسّيخها باذلاً الدم والعرق والدموع على امتداد نصف قرن. قد يبدو لك كلامي سخيفاً، ولكنني أشعر بالحزن، كما لو أنني فقدت شيئاً يخصني. بينما أنت سعيد كمخمورا

- لم يكن الأمر سهلاً. - صلح له إسماعيل مبدياً الجدية -. خامرتنى شكوك كثيرة في البدء. وقد أحزنني الأمر أيضاً. ولكنه الحل الأخير في ظل الوضع الذي صارت إليه الأمور. لو كان لي ورثة آخرون... ولكن، لماذا الحديث في أمور حزينة. أنت وأنا نعرف جيداً ما الذي كان سيحدث لو أن ابني ورثا الشركة. سيفرقانها قبل صياغة الديك. وفي أحسن الحالات سيبيعانها بطريقة سيئة. بين أيدي الإيطاليين ستواصل الشركة وجودها وازدهارها. يمكن لك أن تتقاضى تقاعدك دون أية حسميات، بل مع مكافآت يا صديقي العجوز. لقد رتبت كل شيء. بدا لريفوبيرتو أن ابتسامة صديقة تحولت إلى الكآبة. تنهد إسماعيل واجتاز عينيه ظل قاتم.

- ما الذي ستفعله بكل هذه النقود يا إسماعيل؟
- قضاء سنواتي الأخيرة بهدوء وسعادة - أجاب على الفور -. وآمل أن أقضيها معافي كذلك. أستمتع قليلاً بالحياة إلى جانب زوجتي. فالوصول متأخراً أفضل من عدم الوصول يا ريفوبيرتو. أنت تعرف أكثر من أي شخص آخر أنني لم أعش، حتى الآن، إلا من أجل العمل.
- إنها فلسفة جيدة، فلسفة اللذة يا إسماعيل - وافقه ريفوبيرتو -. إنه مذهبى فوق ذلك. لم أستطع تطبيقه إلا جزئياً حتى الآن في حياتي. لكنني آمل أن أجاريك حين يتركني التوeman بسلام ونستطيع، أنا ولوكريثيا، القيام برحلتنا التي خططنا لها إلى أوروبا. لقد أصيّبت لوكريثيا بخيبة أمل حين اضطررنا إلى إلغاء خططنا بسبب دعاوى أبنيك.

- غداً سأتأول هذا الأمر، مثلما قلت لك. إنه أول بند في مفكري يا ريفوبيرتو - قال إسماعيل وهو ينهض واقفاً -. سأتصلك بك بعد الانتهاء من الاجتماع في مكتب المحامي أرينينياس. ولنر إن كنا نحدد يوماً لتناول الطعام معًا، ومعنا آرميدا ولوكريثيا.

بينما هو في طريق العودة إلى بيته، مستندًا إلى مقود السيارة، كانت كل أنواع الأفكار تفوح مختلطة في ذهن دون ريفوبيرتو مثل مياه نافورة. كم من الأموال حصل عليها إسماعيل من بيع أسهمه؟ ملايين كثيرة. ثروة على أي حال. ومهما كانت أعمال الشركة سيئة في الأزمة الأخيرة، إلا أنها تظل مؤسسة قوية، ذات محفظة عظيمة، وسمعة من الطراز الأول، في بيرو وفي الخارج. ومن الصحيح فعلاً أن شخصاً ثانينيًا مثل إسماعيل لم يعد قادرًا على تحمل مسؤوليات الأعمال. لقد وضع رأس ماله في استثمارات آمنة، سندات خزينة، صناديق تقاعد، مؤسسات في أفضل الجِنَان الضريبية المعتمدة. إمارة

ليختنستاين، أو جزيرة غيرنزي أو جزيرة جيرسي. وربما سنغافوراً أو دبي. الفوائد وحدها تكفيه هو وأرميدا لأن يعيشَا كملκين في أي مكان من العالم. ما الذي سيفعله التوءمان؟ الصراع مع المالكين الجدد؟ إنهم معتوهان إلى حد لا يمكن معه استبعاد ذلك. سيتم سحقهما كصرارين. لقد حان الوقت. لا، ربما سيحاولان قضم بعض النقود من ثمن البيع. لابد أن إسماعيل يحتفظ بالنقود في مكان آمن. ولا شك في أنهم سيدعُّون إذا ما لَّان أبوهما وألقى إليهما ببعض الفتاوى التي يتوقفا عن الإزعاج. عندئذ سيجري كل شيء على ما يرام. وربما يتم ذلك بأسرع ما يمكن. فهكذا سيتمكن من تجسيد خططه بتقاعد ممتع، غني بالملذات المادية والفكرية والفنية.

ولكنه لا يستطيع، في دخلة نفسه، الاقتناع بأن كل شيء سيخرج على ما يرام لإسماعيل. فالشك يخامر في أن الأمور ستزداد تعقيداً بدلًا من تسويتها، وأنه بدل الإفلات من العقيادات الشرطية والقضائية التي احتجزه فيها ميكى وإسكونبيتا، سيجد نفسه عالقاً أكثر فأكثر حتى آخر أيام حياته. أم أن سبب هذا التشاوم هو عودة ظهور إدلبيرتو توريس المفاجئة في حياة فونتشيتو؟

ما إن وصل إلى بيته في حي بارانكو حتى قدم تقريراً مفصلاً لزوجته عن آخر الأحداث. يجب عدم القلق لبيع شركة التأمين إلى شركة تأمين إيطالية، لأنه يمكن لهذا التحول، في ما يتعلق بهما، أن يساعد في حل الأمور، إذا ما أقدم إسماعيل، بالاتفاق مع المالكين الجدد، على تهدئة التأمين ببعض النقود لكي يتراك رينغوبيرتو وزوجته بسلام. ما أثر في لوكريشيا أكثر هو معرفتها أن آرميدا قد رجعت من رحلة زفافها وقد تحولت إلى سيدة اجتماعية، أنيقة، وراقية. «سأتصل بها لتهنئتها بالعودة وترتيب موعد غداء أو عشاء بأسرع وقت يا حبي. أكاد أموت

تلهاً لرؤيتها متحولة إلى سيدة راقية».

اعتكف ريفوبيرتو في مكتبه ليراجع على كمبيوته كل ما هو موجود حول شركة أسيغورزيوني جنرالي ش.م. بالفعل، إنها أكبر شركة تأمين في إيطاليا. وقد كان هو نفسه على اتصال بها، وبشركات تابعة لها، في عدة مناسبات. لقد توسعـت كثيراً خلال السنوات الأخيرة في شرق أوروبا، وفي الشرقين الأوسط والأقصى، وبصورة محدودة أكثر في أميركا اللاتينية، حيث تتركـز عملياتها في بـنـعـاـ. إنـهـ فـرـصـةـ جـيـدةـ لـلـشـرـكـةـ منـ أجلـ الدـخـولـ إـلـىـ أمـيرـكـاـ الجنـوـبـيـةـ مـسـتـخـدـمـةـ الـبـيـروـ كـمـنـصـةـ. فالـبـلـادـ تـمـضـيـ الآـنـ عـلـىـ مـاـ يـرـامـ، بـقـوـانـينـ مـسـتـقـرـةـ وـاسـتـثـمـارـاتـ مـتـنـامـيـةـ.

كان غارقاً في هذه الأبحاث حين سمع وصول فونتشيتـوـ عائـداـ من المدرسة. أغلـقـ الـكمـبـيـوتـرـ وـانتـظـرـ بـفـارـغـ الصـبـرـ مـجـيـءـ اـبـنـهـ لـيـحـيـيـهـ تـحـيـةـ المـسـاءـ. حـيـنـ دـخـلـ الصـبـيـ إـلـىـ الـمـكـتبـ وـاقـتـرـبـ مـنـهـ لـيـقـبـلـهـ، بـيـنـماـ لـاـ تـزالـ حـقـيـبةـ مـدـرـسـةـ مـارـكـهـامـ مـعـلـقـةـ عـلـىـ كـتـفـيـهـ، قـرـرـ رـيفـوبـيرـتوـ أـنـ يـدـخـلـ فـيـ المـوـضـوـعـ مـباـشـرـةـ.

- لقد عـادـ إـدـيلـبـيرـتوـ تـورـيسـ إـلـىـ الـظـهـورـ إـذـاـ - قال له متضايقاً -  
ظنـنتـ أـنـناـ قدـ تـحرـرـناـ مـنـهـ إـلـىـ الأـبـدـ يـاـ فـونـتشـيـتوـ.

- وأـنـاـ أـيـضاـ يـاـ بـابـاـ - ردـ اـبـنـهـ بـصـرـاحـةـ مـثـيـرـةـ لـلـذـعـرـ. نـزـعـ الـحـقـيـبةـ عـنـ ظـهـرـهـ وـوـضـعـهـ عـلـىـ الـأـرـضـ، ثـمـ جـلـسـ قـبـالـةـ مـنـضـدـةـ مـكـتبـ أـبـيـهـ - لقد جـرـتـ بـيـنـنـاـ مـحـادـثـةـ قـصـيـرـةـ جـداـ. أـلمـ تـخـبـرـكـ خـالـتـيـ؟ـ الـوقـتـ الـذـيـ اـحـتـاجـتـهـ الـحـافـلـةـ الـلـوـصـولـ إـلـىـ مـيـرـافـلـوـرـيـسـ. فـقـدـ نـزـلـ عـنـ الـطـرـيقـ المـحـوـريـ، بـجـانـبـ الـحـدـيـقةـ. أـلمـ تـخـبـرـكـ؟ـ

- بـلـىـ، أـخـبـرـتـنـيـ طـبـعاـ، وـلـكـنـنـيـ أـحـبـ أـنـ تـخـبـرـنـيـ أـنـتـ أـيـضاـ - لـاحـظـ أـنـ هـنـالـكـ لـطـخـاتـ حـبـرـ عـلـىـ أـصـابـعـ فـونـتشـيـتوـ، وـأـنـ رـبـطةـ عـنـقـهـ مـفـلـتـةـ -  
ماـذـاـ قـالـ لـكـ؟ـ عـمـ تـحـدـثـمـ؟ـ

- عن الشيطان - صحي فونتشيتو -. أجل، أجل، لا تضحك. إنها الحقيقة يا بابا. وفي هذه المرة لم يبلغ لحسن الحظ. قلت له إنك أنت وخالي تظنون أنه الشيطان شخصياً.

كان يتكلم بتلقائية شديدة الوضوح، وكان فيه شيء هادئ و حقيقي جعل ريفوبيرتو يفكر، كيف يمكن عدم تصديقه.

- أمازلا يؤمنان بالشيطان حتى الآن؟ - فوجن إديلبيرتو توريس. وكان يتوجه إليه بصوت خافت - يبدو لي أنه لم يعد هناك أناس كثيرون يؤمنون بوجود هذا السيد في أيامنا. هل أخبرك أبواك لماذا لديهما مثل هذه الفكرة البائسة عنّي؟

- بسبب أنك تظهر وتحتفي بصورة غامضة جداً أيها السيد - أوضح فونتشيتو وهو يخفض صوته أيضاً، لأن الموضوع استحوذ كما يبدو على اهتمام ركاب الحافلة الصغيرة الآخرين الذين راحوا يراقبونهما بطرف أعينهم خفية -. يجب ألا أخوض في هذا الحديث معك. فقد أخبرتك بأنهما حظرا علي ذلك.

- قل لهم على لساني أن ينزعوا عنّهما هذه المخاوف، وأنه يمكن لهم أن يناما مطمئنين جداً - أكد إديلبيرتو توريس بصوت يكاد لا يُسمع -. لستُ الشيطان ولا أي شيء شبيه بذلك، وإنما أنا شخص عادي، مثلك ومثلهما. ومثل جميع الأشخاص في هذه الحافلة. أضف إلى ذلك أنك مخطئ، فأنا لا أظهر وأحتفي بصورة إعجازية. فلقاءاتنا تحدث دون ترتيب. بمحض الصدفة.

- سأكلمك بكل صراحة يا فونتشيتو - ظل ريفوبيرتو ينظر مطولاً إلى عيني الصبي الذي تحمل نظراته دون أن يرمش -. أرغب في أن أصدقك. أعرف أنك لست كاذباً، وأنك لم تكن كذلك قط. أعرف جيداً أنك كنت تقول لي الحقيقة على الدوام، حتى لو كانت تضر بك. ولكن

في هذه الحالة، أعني في حالة إديلبيرتو توريس اللعينة...

- لماذا هي لعينة يا بابا؟ - قاطعه فونتشيتتو -. ما الذي فعله لك هذا الرجل حتى تقول عنه مثل هذه الكلمة الرهيبة؟

- ماذا فعل لي؟ - هتف دون ريفوبيرتو -. لقد توصل لدفعي إلى الشك بابني لأول مرة في حياتي، وإلى أنني غير قادر على الاعتقاد بأنك مازلت تقول لي الحقيقة. هل تفهمني يا فونتشيتتو؟ هكذا هو الأمر. في كل مرة أسمعك تحدثني عن لقاءاتك مع إديلبيرتو توريس، لا أستطيع أن أصدق أن ما تقوله صحيح، مهما بذلت من جهد لإقناع نفسي بأنه كذلك. ليس هذا تأنيباً، حاول أن تفهمني. هذا هو ما يحدث لي الآن معك، وهو يحزنني... يُحبطني كثيراً. انتظر، انتظر، دعني أكمل. أنا لا أقول إنك تريد أن تكذب عليّ، وأن تخدعني. أعرف أنك لن تفعل ذلك أبداً. لا، لن تفعل ذلك، على الأقل بصورة قصدية ومتعمدة. ولكنني أرجوك أن تفك لحظة في ما سأقوله بكل المحبة التي أكتها لك. فكر في الأمر. ألا يمكن أن يكون هذا الذي ترويه لي وللوكريشيا عن إديلبيرتو توريس مجرد تخيل.. نوع من حلم اليقظة يا فونتشيتتو؟ هذه أمور تحدث للناس أحياناً.

صمت لأنه رأى شحوب ابنه. وأن وجهه قد اكتسى بكآبة كاسحة. أحس ريفوبيرتو بتأنيب الضمير.

- هذا يعني أنني صرت مجنوناً وأرى رؤى.. أشياء لا وجود لها. أهذا ما تقوله لي يا بابا؟

- لم أقل إنك مجنون، لا طبعاً - هتف ريفوبيرتو -. لم يخطر ذلك بيالي. ولكن ليس من المستحيل يا فونتشيتتو أن يكون ذلك الشخص مجرد فكرة ثابتة متسلطة على العقل، مجرد كابوس تراه وأنت مستيقظ. لا تنظر إلى بهذه الطريقة الساخرة. أؤكد لك أن ما أقوله

ممكن. وسأخبرك السبب. في الحياة الواقعية، في العالم الذي نعيش فيه، لا يمكن حدوث أن يظهر لك شخص هكذا، فجأة، في أمكنة متفرقة ومختلفة، في ملعب كرة القدم بمدرستك، في دورة المياه بصالات للرقص، في حافلة ليما- تشوريبوس. وأن يكون هذا الشخص عارفاً كل شيء عنك، وعن أسرتك، ما تفعله وما لا تفعله. هذا غير ممكن، أليس كذلك؟

- ماذا سأفعل إذا كنت لا تصدقني يا بابا - قال الصبي بتأثر وأسى -. وأنا أيضاً لا أريد أن أسبب لك الحزن. ولكن كيف سأوافقك الرأي في أنني مُهَلَّس؟ أنا متأكد من أن السيد توريس من لحم وعظم وليس شيئاً. سيكون من الأفضل ألا أحدهُ عنه بعد اليوم.

- لا، يا فونتشيتو، أريد منك أن تُثقيني على اطلاع حول هذه اللقاءات - ألح ريفوبيرتو -. على الرغم من أنني أجد صعوبة في تقبيل ما تقوله عنه، إنني واثق من أنك تعتقد بأنك تخبرني بالحقيقة. كن على ثقة من هذا. وإذا كنت تكذب عليّ، فإنك تفعل دون رغبة منك ودون أن تنتبه إلى ذلك. حسن، لديك واجبات مدرسية عليك إنجازها، أليس كذلك؟ اذهب لإنجازها إذاً، سنواصل الحديث في ما بعد.

القطف فونتشيتو حقيبته المدرسية عن الأرض وخطا خطوتين نحو باب حجرة المكتب. ولكنه قبل أن يفتحه، وكما لو أنه تذكر شيئاً، التفت نحو أبيه :

- أنت لديك فكرة باللغة السوء عنه، بينما لدى السيد توريس بالمقابل فكرة طيبة جداً عنك يا بابا.

- لماذا تقول هذا يا فونتشيتو؟

- لأنني أظن أنني عرفت أن أباك لديه مشاكل مع الشرطة، ومع العدالة، أنت على علم بها - قال إديليبيرتو توريس على سبيل الوداع،

بعد أن كان قد أشار إلى السائق أنه سينزل في الموقف التالي - أنا واثق من أن ريفوبيرتو رجل نظيف ومتاكد من أن ما يحدث له فيه إجحاف كبير. إذا كان بإمكانه عمل أي شيء من أجله، فسوف أكون سعيداً بمد يد المساعدة إليه. انقل إليه هذا عندي يا فونتشيتو.

لم يدرِ دون ريفوبيرتو كيف يرد. كان يتأمل، بصمت، الصبي الذي مازال هناك ينظر إليه بهدوء وينتظر ردّ فعله.

- أقال لك هذا؟ - تلعم بعد لحظات - هذا يعني أنه أرسل إليَ رسالة. وأنه على علم بورطاطي القضائية ويريد مساعدتي. أليس كذلك؟

- هكذا بالضبط يا بابا. وها أنت ترى كيف أن لديه رأي طيب فيك.

- قل له إنني موافق؛ وبكل سعادة على قبول مساعدته - استعاد ريفوبيرتو أخيراً السيطرة على نفسه - بكل تأكيد. حين يظهر لك في

المرة القادمة، قدم إليه شكري وقل له إنه يسعدني تبادل الحديث معه. حيث يشاء. وليتصل بي هاتفياً. ربما لديه طريقة لمد يد المساعدة إلىَ

في ساعة طيبة. فأكثر ما أرغب فيه هو رؤية إديلبيرتو تورييس شخصاً والتحدث إليه يا بني.

- أوكِي يا بابا، سأخبره إذا ما رأيته مجدداً. أعدك بذلك. وسوف ترى أنه ليس روحًا وإنما هو لحم وعزم. سأذهب الآن لإنجاز واجباتي المدرسية، لدى واجبات كثيرة جداً.

حين خرج فونتشيتو من المكتب، حاول ريفوبيرتو أن يفتح الكمبيوتر من جديد، ولكنه أعاد إغلاقه على الفور. لقد فقد أدنى اهتمام بشركة أسيغورزيوني جنرالي ش.م. وبعمليات إسماعيل المالية الأفعوانية. أيمكن أن يكون إديلبيرتو تورييس قد قال ذلك لفونتشيتو؟ أيمكن أن يكون مطلعاً على ورطاته القضائية؟ غير ممكن بالطبع. لقد نصب له هذا الصبي فخاً جديداً هذه المرة، وها هو يقع فيه كأبله. وماذا لو حدد له

إديلبيرتو تورييس موعداً؟ وفكـر: «سأعود عندئذ إلى الدين، سأتحول وأدخل دير رهبان كرتوزيين طوال ما تبقى من حياتي». ضحك وهو يددمـم بين أسنانـه: «يا للضجر اللامتناهيـ. كـم من أقيانوسات البلاهة في هذا العالم».

نهضـ وذهب ليلقـي نظرـة على أقرب رفـ إـلـيهـ، حيثـ تـوـجـدـ كـتـبـ وكتـالـوغـاتـ الفـنـ المـفـضـلـةـ لـدـيـهـ. وـبـيـنـماـ هوـ يـتـفـحـصـهاـ رـاحـ يـتـذـكـرـ المـعـارـضـ الـتـيـ اـشـتـراـهـ مـنـهـ. نـيـويـورـكـ، بـارـيسـ، مـدـرـيدـ، مـيـلانـ، مـكـسيـكـوـ. كـمـ هوـ شـاقـ تـبـدـيـدـ الـوقـتـ فـيـ الـلـقـاءـ مـعـ مـحـامـيـنـ وـقـضـاءـ وـالـتـفـكـيرـ فـيـ هـذـيـنـ الـأـمـيـنـ الـوـظـيفـيـنـ، التـوـءـمـيـنـ، بـدـلـ الـغـوـصـ صـبـاحـاـ وـمـسـاءـ فـيـ هـذـهـ الـلـذـاتـ وـالـلـوـحـاتـ وـالـتـصـامـيمـ، وـالـاسـتـمـاعـ إـلـىـ مـوـسـيـقـىـ جـيـدةـ، وـالـتـخـيـلـ مـعـهـاـ، وـالـسـفـرـ فـيـ الرـزـمـنـ، وـعـيـشـ مـغـامـرـاتـ اـسـتـثـانـيـةـ، وـالـانـفـعـالـ، الـحـزـنـ، الـاسـتـمـتـاعـ، الـبـكـاءـ، التـحـمـسـ وـالـتـهـيـجـ. وـفـكـرـ: «بـفـضـلـ دـيـلـاـكـرـوـاـ شـهـدـتـ مـوـتـ سـارـدـنـيـاـ مـحـاطـاـ بـنـسـاءـ عـارـيـاتـ، وـبـفـضـلـ جـورـجـ كـروـسـتـسـ الشـابـ ذـبـحـتـهـنـ فـيـ بـرـلـينـ وـأـلـوـطـ بـهـنـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ بـعـضـوـ ذـكـرـيـ ضـخمـ. وـبـفـضـلـ بوـتـشـيلـيـ كـنـتـ سـيـدـةـ مـنـ عـصـرـ النـهـضـةـ. وـبـفـضـلـ غـوـيـاـ كـنـتـ مـسـخـاـ شـهـوـانـيـاـ يـلتـهـمـ أـبـنـاهـ بـدـءـاـ مـنـ رـبـلـاتـ سـيـقـانـهـ. وـبـفـضـلـ أوـبـرـيـ بـيـارـدـسـليـ كـنـتـ حـلـقـةـ مـعـ وـرـدـةـ فـيـ الـمـؤـخـرـةـ. وـبـفـضـلـ بـيـاتـ مـونـدـريـانـ كـنـتـ مـثـلـاـ مـتـسـاوـيـ السـاقـينـ».

بدأ يستمتعـ، ولكن دون أن يـعـيـ ذلكـ تـاماـ بـعـدـ، هـاـ قـدـ وـجـدـتـ يـدـاهـ ماـ كـانـ يـبـحـثـ عـنـهـ، بدـأـ تـفـحـصـ الرـفـ: كـاتـالـوغـ المـعـرـضـ الـاستـعـادـيـ الـذـيـ أـقـامـتـهـ الأـكـادـيمـيـةـ الـمـلـكـيـةـ تـكـرـيـمـاـ لـتـعـارـاـ دـيـ لـيـمـبـيـكـاـ مـنـ أـيـارـ/ـمـايـوـ حتـىـ آـبـ/ـأـغـسـطـسـ 2004ـ وزـارـهـ هوـ شـخـصـيـاـ فـيـ الـمـرـةـ الـأـخـيـرـةـ الـتـيـ ذـهـبـ فـيـهـاـ إـلـىـ إـنـكـلـتـرـاـ. وـهـنـاكـ، بـيـنـ سـاقـيـ بـنـطـالـهـ، أـحـسـ بـبـدـاـيـةـ دـغـدـغـةـ وـاـعـدـةـ فـيـ حـمـيـمـيـةـ خـصـيـتـيـهـ، بـيـنـماـ هوـ يـتـأـثـرـ وـيـمـتـلـئـ فـيـ الـوقـتـ

نفسه بالحنين والامتنان. الآن، إضافة إلى الدغدغات، أحس بحرقة خفيفة في مقدمة عضوه. اتجه الكتاب بين يديه ليستقر على أريكة القراءة وأضاء المصابح الذي يتتيح له نوره أن يستمتع بكل تفاصيل صور اللوحات. وكانت عدسة التكبير في متناول يده. أيكون صحيحاً أن رماد الفنانة البولونية - الروسية تمارا دي ليمبيكا قد ثُر من طائرة هيلوكبتر، وفق رغباتها الأخيرة، بواسطة ابنتها كيزيت، على فوهة ذلك البركان المكسيكي، برkan بوبوكاتيبتل؟ إنها طريقة أولبية، كارثية، عظيمة لوداع هذا العالم من قبل تلك المرأة التي لم تكن تتقن الرسم وحسب وإنما الاستمتاع أيضاً، مثلما تشهد لوحاتها، إنها فنانة تبثُّ أصابعها شيئاً مهيجاً - وجليدياً في الوقت نفسه - في لوحات الأجساد العارية المطواعة، المقلوية، البصلية، المنعمة التي تمر تحت عينيه: روثم، رافائيلا الجميلة، ميروت، الوريل، السلافية. لوحاته الخمس المفضلة. من قال إن الآرت ديكو والأيرروسية لا يلتقيان؟ في سنوات العشرينات والثلاثينات عمَّدت الروسية - البولونية ذات الحاجبين المتوفين والعينين المتأججتين والنهمتين والقلم الحسي واليدين الغليظتين، إلى ملء لوحاتها بشهوانية زخمة، جليدية في المظهر فقط، لأن مخيلاً وحساسية مشاهِد مُتنبه تلاشي جمود اللوحة النحتي، وتدب الحيوية في الشخصيات، فتختلط، وتتزاحم، وتتبادل المداعبة، وتلتسم، وتحابب، وتستمتع بفجور كامل. إنه جميل، بديع، ومثير مشهد أولئك النساء اللاتي رسمتهن تمارا دي ليمبيكا أو اختلقتهن في باريس، وميلان، ونيويورك وهوليود، ثم في عزلتها الأخيرة في كويرناباكا. منفخات، لحميات، ممثلات، أنيقات، يعرضن بفخر سرزنهن المثلثة التي لا بد أن تمارا تشعر نحوها بتفضيل خاص، كذلك الإلهام الذي توحى لها به الأفخاذ الواقفة، الغضة،

للأستقراطيات الماجنات اللواتي تعريهن كي تلبسهن الشبق والمجون الجسدي. «هي من منحت جداره وسمعة حسنة للسحاق ولأسلوب «الغارسون»، وجعلتهما مقبولين وراقيين بعرضهما في الصالونات الباريسية والنيويوركية»، وفكّر. «لا أستغرب أبداً أن ينتصب من أجلها العضو المجنون لغابرييلي دي أنونزيو ويحاول اغتصابها في بيته بفيتوريالي، في بحيرة غاردا، حيث أخذها بذريعة رسم صورة له، ولكنه في أعماقه كان مجنوناً بالرغبة في مضاجعتها. هل تراها ستهرّب عبر إحدى النوافذ؟». كان يقلب صفحات الكتاب ببطء، متمهلاً قليلاً عند الأستقراطيين المتكلفين ذوي الآذان الزرقاء المتدرنة، ومتوقفاً عند الشخصيات الأنثوية البديعة، ذات العيون الناثنة، الناعسة، والشعور المكبّسة كأنها قلنوسات والأظفار القرمزية، والنهود المنتصبة والأرداف المهيّبة، الّلّا تي يظهern على الدوام تقريباً متلوّيات مثل قطط في نزواتها. ظلّ لوقت طويلاً مستغرقاً في الوهم، يشعر بعودة فيض تلك الرغبة التي تلاشت منذ أيام عديدة وأسابيع، مذ بدأت هذه المشاكل السوقية مع الضبعين. كان منتاشياً بجمال أولئك السيدات المزدانت بأثواب شفافة وواسعة فتحة الصدر، مع مجواهرات زاهية البريق، وجميعهن تستحوذ عليهن رغبة عميقـة تصارع للخروج عبر بريق عيونهن الكبيرة. فكر: «انتقالٌ من الآرت ديكو إلى التجريـد، يا له من جنون يا تمـارا». على الرغم من أن لوحات تمـارا دي ليـمبيـكا تعكس أيضاً حسيـة سـرـية غامـضة. وبتأثر وسعـادة، أحس بحركة خفـيفة في أسـفل بطـنه، إشـارة إلى بداية انتـصـاب.

وفي تلك اللحظة، عاد إلى الواقع الدـنيـوي، ورأـيـ أن دونـيـا لوـكـريـثـيا قد دخلـتـ إلى حـجـرةـ المـكـتبـ دونـ أنـ يـشعـرـ بأنـهاـ فـتحـتـ الـبـابـ. ماـذاـ حدـثـ؟ إنـهاـ تـقـفـ بـجـانـبـهـ، بـعيـنـيـنـ مـضـمـخـتـينـ وـشـفـتـيـنـ منـفـرجـتـيـنـ

ومرتعشتين. تحاول أن تتكلم واللسان لا يطأوها، لا تخرج منها  
كلمات وإنما لعثمات غير مفهومة.

- أي خبر سيئ لديك يا لوكريشيا؟ - سأل مرعوباً وهو يفك  
ياديلبيرتو توريس، بفونتشيتو. مرة أخرى؟

- لقد اتصلتْ آرميدا باكية كمحنة - أجهشت دونيا لوكريشيا -.  
بعد وداعك إسقاعيل ومغادرتك بيته، أغمي عليه في الحديقة. نقلوه إلى  
المستشفى الأمريكي. وقد توفي للتو يا ريفوبيرتو! أجل، أجل، لقد  
مات للتو!



## XV

- ماذا جرى يا فيليثيتو - كررت التقبة وهي تتحني باتجاهه وتهوي بمروحة يدوية من القش، عتيقة ومثقوبة - ألا تشعر بأنك على ما يرام؟ كان صاحب شركة النقل يرى القلق الذي تشي به عيناً آديلايدا الكبيرتين، ووسط ضبابية رأسه، خطر له أن يفكر بأنه لا بد لها، باعتبارها عرافه، من أن تعرف جيداً ما جرى له. لكنه لم يجد القوة ليرد عليها؛ كان دائمًا ويشعر بأنه سيغيب عن الوعي في أية لحظة. لم يهتم. الاستغراب في نوم عميق، نسيان كل شيء، عدم التفكير: يا للروعه. فكر بتلمس في طلب عون السيد الكاوتيفو دي ايا باكا الذي تؤمن خيرتوديس بقدراته. ولكنه لم يعرف كيف يفعل ذلك.
- أتريد أن أحضر لك كأس ماء بارد خارج للتلو من حجر التقطير يا فيليثيتو؟

لماذا تكلمه آديلايدا بصوت مرتفع جداً، كما لو أنه قد أصيب بالصمم؟ وافق بهز رأسه ورأى - وهو ما يزال في ضبابيته - الخلاصية الملتقة بعباءتها التي بلون الطين تهرع راكضة بقدميها الحافيتين إلى عمق دكان الأعشاب والقديسين. أطبق عينيه وفك: «عليك أن تكون قوياً يا فيليثيتو. لا يمكنك أن تموت الآن يا فيليثيتو ياناكيه. يا للعنزة يا رجل! يا للعنزة!». كان يشعر بفمه جافاً وبقلبه يدفع بقوة كي يكبر أكثر وسط أربطة صدره وظاماه وعضلاته. ففك: «إنه يكاد يخرج من

فمي». وانتبه على الغور إلى مدى دقة تلك العبارة. ليس الأمر مستحيلاً تشي غو. فقلبه، هذا الحشى، يُدّوى باندفاع شديد وبصورة غير منضبطة داخل قفصه الصدرى، بحيث يمكن له أن يفلت فجأة، ويهرب من السجن الذي هو بدنه، ويصعد عبر الحنجرة ليخرج مقدوفاً إلى الخارج مع قيء مرارة ودم عظيم. سيرى قلبه الصغير يرتطم بالأرض الترابية في بيت التقى، مفلطحاً، ساكناً، عند قدميه، وربما محاطاً بصراصير متحركة لها لون الشوكولاتة. وسيكون هذا هو آخر ما يتذكره من الحياة. وحين تفتح عيون الروح، ستكون أمام الرب. أو ربما أمام الشيطان يا فيليثيتو.

- ما الذي يحدث؟ - سأل بقلق. لأنه ما إن رآهما حتى أدرك أن هنالك شيئاً خطيراً يحدث؛ وأن هذا هو السبب في استدعائه المتعجل إلى مفوضية الشرطة وسبب الملامح القلقة، والنظرات المتفلقة، وشبه الابتسamas الزائفة التي يبديها النقيب سيلفا والرقيب ليتموا. لقد أصاب البكم والتحجر الشرطيين حين رأياه يدخل إلى الحجرة الضيقة. - ها هو يا فيليثيتو، إنه بارد. افتح فمك واشربه ببطء، في جرعات صغيرة يا بابا ثيتو. ستري كيف سيجعلك أفضل حالاً.

هز رأسه موافقاً، ودون أن يفتح عينيه، باعد ما بين شفتىه وتلقى، بإحساس بالراحة، السائل البارد الذي راحت آديلايدا تعطيه إياه في فمه، كما لطفل رضيع. بدا له أن الماء يطفئ لهيب حلقه ولسانه، وبالرغم من أنه لم يكن قادراً على الكلام ولا راغباً فيه، إلا أنه فكر: «شكراً آديلايدا». شبه الظلمة الهدئة التي تسود دكان التقى على الدوام هدأت أعصابه قليلاً.

- أمور مهمة يا صديقي - قال أخيراً النقيب سيلفا مبدياً الجدية وهو ينهض واقفاً ليصافحه في حركة انفتاح غير معهودة - هلموا بنا لتناول

قهوة في مكان أكثر برودة، في الجادة العريضة. هناك سنتبادل الحديث أفضل من هنا. فالحر في هذا الكهف خانق، ألا ترى ذلك يا دون فيليثيتو؟

و قبل أن يتاح له الوقت للرد، التقط المفوض قبعته عن المشجب، وتبعده لتوما الذي كان يبدو أشبه برجل آلي، يتفادى النظر إلى عينيه، واتجه نحو الباب. ما الذي أصابهما؟ ما هي الأمور المهمة؟ ما الذي حدث؟ أي ذبابة لسعت هذين الشرطيين؟

- هل تشعر بالتحسن يا فيليثيتو؟ سأله التقية.

- أجل - تمكن من التعلم بصعوبة. يشعر بألم في لسانه وحلقه وأسنانه. ولكن كأس الماء البارد جعلته أحسن حالاً، أعادت إليه قليلاً من تلك الطاقة التي راحت تنسل خارجة من جسمه - شكرأ يا آديلايدا.

- أخيراً، هيا، لحسن الحظ - هتفت الخلاصية وهي ترسم إشارة الصليب وتبتسم - يا للرعب الذي سببته لي يا فيليثيتو. كم أنت شاحب! آي، تشي غوا! حين رأيتكم تدخل وتتهاوى على الكرسي الهزاز مثل كيس، كنت تبدو أشبه بجثة. ماذا أصابك، ومن مات لنا. - إنك تسبب لي الجزء أيها النقيب بهذا الغموض كله - ألح فيليثيتو وقد بدأ يشعر بالخوف -. ما هي هذه الأمور الخطيرة إذا كان يمكن لي أن أعرف؟

- فنجان قهوة ثقيل جداً لي - أمر النقيب سيلفا النادل -. وقهوة مع قليل من الحليب للرقيب. وأنت يا دون فيليثيتو، ماذا ستشرب؟ - مياه غازية، كوكاكولا، كوكا إنكا، أي شيء - فقد صبره، وببدأ يضرب بقبضته على المنضدة -. حسن، فلنتحدث في الأمر مباشرة. إنني رجل قادر على تقبل الأخبار السيئة، لقد بدأت اعتقاد على هذا الأمر.

أخباراني بالمشكلة دفعة واحدة.

- لقد حلّت القضية. قال النقيب وهو ينظر إلى عينيه. ولكنه ينظر إليه بلا سعادة، بل هي نظرات حزن وأقرب إلى الشفقة. والمفاجئ في الأمر أنه صمت بدل أن يواصل الكلام.

- حلّت القضية؟ - صاح فيليثيتو - أتعني أنكم قد أمسكم بهم؟ رأى أن النقيب والرقيب يؤكdan ذلك بهز رأسهما، بحرب شديد وبارداء وقار مضحك. لماذا يتأملانه بهذه الطريقة الغريبة، كما لو أنه يوحى إليهما بالأسى؟ كان هناك صخب جهنمي في جادة سانتشيث سيرو، أناس يذهبون ويأتون، أبواق سيارات، صراخ، نباح ونهيق. يُسمع عزف موسيقى فالس، ولكن ليس للمغنية عذوبة صوت سيسيليا باراسا، وإنما صوت عجوز مخمور.

- أتتذكرين المرة الأخيرة التي جئت فيها إلى هنا يا آديلايدا؟ - كان فيليثيتو يتكلم بصوت خافت، باحثاً عن الكلمات، خائفاً من أن يفقد صوته. وكان قد فتح أزرار الصديري وحلحل ربطه عنقه كي يتنفس بصورة أفضل - حين قرأت لك رسالة العنكبوت الأولى.

- أجل يا فيليثيتو، أتذكرة ذلك جيداً - قالت التقبية وهي تسرره بعينيها الهايتلتين والقلقتين.

- وهل تتذكرين أنني حين بدأت أودعك، جاءك الوحي فجأة وطلبت مني أن أرضيهم، وأن أقدم لهم الإتاوة التي يطلبونها؟ هل تتذكري هذا أيضاً يا آديلايدا؟

- أتذكرة طبعاً يا فيليثيتو، بالتأكيد، كيف يمكن لا تذكرة. ألن تقول لي أخيراً ما الذي جرى لك؟ لماذا أنت شاحب هكذا ودائخ؟

- لقد كنت محققة يا آديلايدا. مثلما يحدث على الدوام، أنت على حق. وكان من الأفضل لي أن أعمل بنصيحتك. لأن، لأن...

لم يستطع أن يكمل. فقد انقطع صوته وسط إجهاشة نحيب وانفجراً في البكاء. لم يفعل ذلك منذ أزمنة بعيدة جداً، أمنذ ذلك اليوم الذي مات فيه أبوه، في ذلك الركن الضيق والمظلم من قاعة الطوارئ في مستشفى بيورا العمالـي؟ أو ربما منذ تلك الليلة التي نام فيها أول مرة مع مابيل؟ ولكن هذا الخيار الأـخير لا ينفع لأنـه كان بكاء سعادة يومذاك. أما الآن بالمقابل، فدموعه تسيل طيلة الوقت.

- لقد حلَّ الأمر كله وسوف نشرح لك الآن يا دون فيليثيو - تحرسـ النقيب أخيراً، مكرراً ما كان قد قالـه من قبل -. أخشـى كثيراً من أنـ ما ستسمـعـه لن يروق لك.

سوـى جلستـه على المـعدـ وانتظرـ بكل حواسـه المـتأهـبةـ. راوـدهـ إحساسـ بتلاشـي الناسـ في الـبارـ الصـغـيرـ، وبـأـنـ ضـجـةـ الشـارـعـ قدـ خـمـدـتـ. شيءـ ما جعلـهـ يـشكـ فيـ أنـ ماـ سـيـأـتـيـ أـسـوـاـ منـ كلـ الكـوارـثـ التيـ تتـوالـيـ عـلـيـهـ منـذـ بعضـ الـوقـتـ. بدـأـتـ سـاقـاهـ تـرـتعـشـانـ.

- آديلايدـاـ، آديلايدـاـ - أـنـ بـيـنـماـ هوـ يـمسـحـ عـيـنيـهـ - كانـ لـابـدـ ليـ منـ أـنـ أـفـرـجـ عنـ نـفـسيـ بـطـرـيقـةـ ماـ. لمـ أـسـتـطـعـ كـبـحـ دـمـوعـيـ. أـقـسـمـ لـكـ إنـ الـبـكـاءـ لـيـسـ عـادـتـيـ، اـعـذـرـيـنـيـ.

- لاـ تـقلـقـ يـاـ فيـليـثـيـتوـ - اـبـتـسـمـتـ لـهـ التـقـيـةـ وـهـيـ تـربـتـ عـلـىـ يـدـهـ بـحـنـانـ - منـ المـفـيدـ لـنـاـ جـمـيعـاـ أـنـ نـسـكـ بـعـضـ الدـمـوعـ بـيـنـ حـيـنـ وـآخـرـ. أناـ أـيـضاـ يـداـهـنـيـ الـبـكـاءـ فيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ.

- تـكـلـمـ وـحـسـبـ أـيـهاـ النـقـيـبـ، إـنـيـ مـسـتـعـدـ - أـكـدـ صـاحـبـ شـرـكـةـ النـقـلـ - تـكـلـمـ بـوـضـوحـ وـقـوـةـ مـنـ فـضـلـكـ.

- فـلنـفـضـ بـالـتـسـلـسلـ - تـنـحـنـحـ النـقـيـبـ سـيـلـفـاـ لـكـسبـ الـوقـتـ؛ رـفعـ فـنجـانـ القـهـوةـ إـلـىـ فـمـهـ، تـنـاـولـ رـشـفةـ مـنـهـ ثـمـ واـصـلـ: - مـنـ الـأـفـضلـ أـنـ تـأـخـذـ حـضـرـتـكـ باـكتـشـافـ الـمـكـيـدةـ مـنـذـ الـبـدـاـيـةـ، مـثـلـمـاـ اـكـتـشـفـنـاـهاـ نـحنـ. ماـ

اسم الحراس الذي كان يوفر الحماية للسيدة مابيل يا ليتوما؟

كانديلاريو بيلاندو، ثلاثة وعشرون عاماً، من مدينة تومبيس. انضم منذ سنتين إلى سلك الشرطة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ألبس فيها رؤساؤه الملابس المدنية من أجل القيام بمهمة. حددوا له موقعاً قبالة بيت السيدة، في الشارع المسود بحى كاستيبا المجاور للنهر ولدرسة دون خوان بوسكو لرهبان طائفة الساليسيانيين، وأمروه بالانتباه كيلا يحدث شيءٍ لسيدة البيت. وعليه أن ينجدها إذا تطلب الأمر، وأن يسجل ملاحظة عن كل من يأتون لزيارتها، وأن يتبعها دون إثارة الانتباه، ويسجل مع من تلقى، ومن تزور، وما الذي تفعله أو تمنع عن فعله. أعطوه سلاحه النظامي مع ذخيرة من عشرين طلقة، وآلة تصوير فوتوغرافي، ودفتر ملاحظات، وقلم رصاص، وهاتف خلوي لاستخدامه في حالات الضرورة القصوى فقط وليس للاتصالات الشخصية بأي حال.

- مابيل؟ - فتحت التقبية عينيها شبه المجنوتين على اتساعهما -

صديقتك؟ هي بالذات؟

هز فيليشيتو رأسه موافقاً. كانت كأس الماء فارغة، ولكنه لم ينتبه إلى ذلك كما يبدو، لأنّه كان يواصل بين الفينة والفينية رفع الكأس إلى فمه وتحريك شفتيه وحنجرته كما لو أنه يبتلع جرعة ماء.

- هي نفسها يا آديلايدا - هز رأسه عدة مرات - مابيل، أجل. مازلتُ غير قادر على تصديق ذلك.

لقد كان شرطياً جيداً، ينجز مهمته بحذافيرها وبكل دقة. إنه يحب المهنة ويرفض حتى الآن قبول أية إكراميات. ولكنه كان متعباً جداً في تلك الليلة، فقد أمضى أربع عشرة ساعة في متابعة السيدة في الشارع ومراقبة بيتها، وما إن جلس في ذلك الركن الذي لا يصله

الضوء وأسند ظهره إلى الجدار، حتى غلبه النعاس ونام. لم يدرك من الوقت؛ لا بد أنه وقت لا بأس به، لأنه عندما استيقظ متراجعاً كان الصمت يخيم على الشارع الصغير، وكان الصبية الذين يلعبون بالدوامات قد اختفوا، وكانت البيوت قد أطفأت أنوارها وأقفلت أبوابها. حتى الكلاب كانت قد توقفت عن التراكم والنباح. بدا أن الجوار كله قد نام. نهض مذهولاً، واقترب ملتصقاً بالجدران من بيت السيدة. سمع أصواتاً. الصق أذنه بإحدى النوافذ. بدا أنه جدال. لم يفهم كلمة واحدة مما كان يقال، ولكن لم يكن لديه شك بأن هنالك رجل وامرأة يتشاركان. هرع ليريض بجوار نافذة أخرى، واستطاع من هناك أن يسمع بصورة أفضل. كانوا يتبادلان السباب بتجريح، ولكن دون الوصول إلى الضرب، ليس بعد. صمت طويلاً فقط، وبعد ذلك أصوات أكثر ليناً. يمكن القول إن المرأة كانت تتسامل. إنها تتلقى زيارته كما يbedo، والزائر يضاجعها. عرف كانديلاريو بيلاندو على الفور أن ذلك الشخص ليس السيد فيليثيو ياناكيه. أهناك عشيق آخر إذاً للسيدة؟ ساد البيت أخيراً صمت تام.

انسحب كانديلاريو إلى الناصية حيث كان قد غفا من قبل. عاد للجلوس وأشعل سيجارة، وأسند ظهره إلى الجدار وراح ينتظر. لم ينم هذه المرة ولم يهمل المراقبة. كان واثقاً من أن الزائر سيظهر في أي لحظة. وبالفعل، لقد خرج بعد انتظار لا بأس به، وكان يتخذ احتياطات تفضحه: يفتح الباب قليلاً، يطل برأسه فقط، وينظر إلى اليمين وإلى اليسار. وحين اعتقد أنه لا يمكن لأحد أن يراه، خرج ماشياً. رأه كانديلاريو بكامل قامته وتأكد من خلال هيئته وحركاته أنه لا يمكن أن يكون العجوز شبه القزم صاحب شركة نارييهوالا للنقل. فهذا رجل شاب. لم يستطع تمييز وجهه، بسبب الظلمة.

حين رآه يبتعد باتجاه الجسر المعلق، لحق به. كان يمشي ببطء، محاولاً عدم الظهور، وعلى مسافة بعيدة بعض الشيء، ولكن دون أن يغيب عن نظره. اقترب منه قليلاً بعد اجتياز الجسر المعلق لأنه كان هناك بعض الساهرين الذين يمكن له أن يختفي بينهم. رآه يسلك أحد الدروب المؤدية إلى ساحة السلاح ويختفي في بار فندق لوس بورتالس. انتظر هنيئة ودخل أيضاً. وجده جالساً إلى منضدة الكونتوار - إنه شاب، أبيض، ناضج، له خصلة شعر منتصبة على طريقة الفيس بريسي - وكان يشرب مباشرة من زجاجة خمر بيسمو. عندئذ عرفه. إذ كان قد رآه عندما حضر إلى مفوضية الشرطة في شارع سانتشيث سيرو لتقديم أقواله.

- هل أنت متأكد من أنه هو يا كانديلاريو؟ سأله الرقيب ليتوما وهو يبدي وجهاً بلامح متشككة.

- إنه ميغيل، وبكل تأكيد - قال النقيب سيلفا بجفاء وهو يرفع من جديد فنجان القهوة إلى فمه. بدا متضايقاً جداً من قول ما قاله له -. أجل يا سيد ياناكيه. مع أسفه الشديد. ولكنه ميغيل.

- أبني ميغيل؟ - كرر صاحب شركة النقل بسرعة كبيرة، وكان يرمي دون توقف، ويهز إحدى يديه؛ وشحب وجهه بصورة مفاجئة - في منتصف الليل؟ حيث تقيم مابيل؟

- كانوا في ذروة نزاع يا حضرة الرقيب - أوضح الشرطي كانديلاريو بيلاندو للرقيب ليتوما - كانوا يتشارجران حقاً، مع شتائم مثل عاهرة، ويابن العاهرة وما هو أسوأ. وبعد ذلك ساد صمت طويل. فتخيلت عندئذ ما تخيله أنت الآن: جاءت المصالحة واندسا في الفراش. وما الذي سي فعلنه سوي المراجعة؟ هذا الأمر الأخير لم أسمعه ولم أره. إنه فرضية.

- من الأفضل ألا تروي لي هذه الأمور - قالت آديلايدا متسللة وهي تخفض بصرها. كانت رموشها طويلة وحريرية، وقد حزنت. ربت بيدها بحنان على ركبة صاحب شركة النقل - اللهم إلا إذا كنت تشعر بالراحة إذا ما رويني ذلك. افعل ما تفضلت به يا فيليثيتو. قل ما تشاء. فلسبب ما أنا صديقتك، تشي غوا.

- فرضية تكشف أن ذهنك متغصن جداً يا كانديلاريو - ابتسم له ليتوماً - لا بأس يا فتي. لقد نجحت. فمادامت هنالك مؤخرات فسوف ترمق قصتك للنقيب.

- كان هذا طرف الخطيط أخيراً. وبأننا نشهد ونفك الكبة. لقد شمعت شيئاً منذ الاستجواب بعد عملية الاختطاف. لقد وقعت مابيل في تناقضات كثيرة، فهي لا تتقن التصنع. هكذا هو الأمر يا سيد ياناكيه - أضاف المفوض - لا تظن أن ذلك كان سهلاً بالنسبة لنا. أعني إطلاعك على هذا الخبر الرهيب. أعرف أن وقوعه عليك أشبه بطعننة في الظهر. ولكن هذا واجبنا، وستعذرني حضرتك.

صمت لأن صاحب شركة النقل رفع يده، بقبضة منكمشة.

- لا يوجد احتمال خطأ؟ - ددمد الآن بصوت أحش ومتضرع قليلاً -  
ولا احتمال واحد؟

- لا وجود لأي احتمال - أكد النقيب سيلفا دون رحمة - الأمر مؤكد ومثبت إلى حد الإنهاك. السيدة مابيل وابنك ميغيل يخدعانك منذ زمن طويل أيها السيد. ومن هنا تبدأ قصة العنكبوت. إننا متأسفون من أعمق روحنا يا سيد ياناكيه.

- الذنب يتحمله ابنك ميغيل أكثر من السيدة مابيل - دس ليتوماً أنفه، ثم اعتذر على الفور: - المعدنة، لم أشاً المقاطعة.

لم يعد يبدو أن فيليثيتو ياناكيه يسمع شيئاً مما يقوله الشرطيان. فقد

ازدادت حدة شحوبه؛ وراح ينظر إلى الفراغ كما لو أنه تجسد شبحاً.  
وكان طرف ذقنه يرتعش.

- أعرف جيداً ما الذي تشعر به يا فيليثيتو وأشعر بالحزن من أجلك.  
- كانت التقية قد وضعت يدها على صدرها - أجل، معك حق.  
الفضفضة سترigraph. ومن هنا لن يخرج أي شيء مما ترويه لي يا  
باباثيتو، وأنت تعرف ذلك.

ضرب فيليثيتو على صدره وفكراً: «يا للأمر الغريب، رنْ كفارغ». وأحس بالخجل لأن عينيه تمتلئان بالدموع مجدداً.

- إنه هو العنكبوت - أكذ النقيب سيلفا بحرز - إنه ابنك، الأبيض.  
ميغيل. ويبدو أنه لم يُقدم على فعل ذلك من أجل المال فقط، وإنما من  
أجل شيء أكثر إلتواء. وربما... ربما لهذا السبب نفسه أحب ماييل.  
لديه شيء شخصي ضدك. حقد، ضغينة... هذه الأمور المعقّدة التي  
تسمم أرواح الناس.

- لأنك أجبرته على أداء الخدمة العسكرية كما يبدو - عاد ليتوما  
للتدخل. وقد اعتذر في هذه المرة أيضاً - المعذرة. هذا ما جعلنا هو نفسه  
فهمه منه على الأقل.

- هل تسمع ما نقوله لك يا دون فيليثيتو؟ - انحنى النقيب باتجاه  
صاحب شركة النقل. أمسك به من ذراعه: - هل تشعر بالتوءك؟  
- أشعر بأنني على ما يرام - أبدى صاحب شركة النقل ابتسامة  
مغتصبة. كانت شفتاه ترتعشان، وكذلك فتحتني أنفه. ويداه اللتان  
تمسكن بزجاجة الإنكا كولا الفارغة. كانت دائرة صفراء تحيط ببياض  
عينيه وكان صوته خيطاً نحيلـاً - واصل إليها النقيب. ولكن، المعذرة،  
أرغب في معرفة أمر محدد إذا كان ممكناً. هل تيبورثيو، ابني الآخر،  
متورط أيضاً؟

- لا شيء من هذا، ميفيل وحده فقط - حاول النقيب تشجيعه -  
أؤكد لك بصورة جازمة. يمكنك أن تكون مطمئناً من هذه الناحية يا سيد  
ياناكيه. تيبورثيو غير متورط في المسألة وليس على علم بكلمة واحدة في  
هذه القضية. وعندما سيعلم سوف يفاجأ مثلما فوجئت حضرتك.

- لكل هذا الرعب جانبه الطيب يا آديلايدا - ز مجر صاحب شركة  
النقل بعد صمت طويل - حتى لو لم تصدقني، هنالك جانب طيب.

- أصدق هذا يا فيليثيتو - قالت التقبية وهي تفتح فمها كثيراً كاشفة  
عن لسانها - هكذا هي الحياة دوماً. الأمور الطيبة لها جانبها الخبيث  
دوماً، وللأمور الخبيثة جانبها الطيب. ما هو الجانب الطيب في هذه  
الحالة؟

- لقد توصلتُ إلى حلٌّ لشكوكِ كانت تنهش روحي منذ تزوجتُ يا  
آديلايدا - دمم فيليثيتو ياناكيه. بدا في تلك اللحظة كما لو أنه قد  
تعافي: لقد استعاد صوته، ألوانه، وشيء من الثقة بالنفس أثناء الكلام  
- توصلتُ إلى أن ميفيل ليس ابني. وأنه لم يكن ابني قط. لقد  
 أجبرتني خيرتروديس وأمهما على الزواج بالقوة، بقصة الحبل. صحيحٌ  
 أنها كانت حبلٍ. ولكن ليس مني، بل من شخص آخر. وهو ابنه إذا.  
لقد أصروا بي ابناً لزوجتي على أنه ابني، وهكذا نجت خيرتروديس  
من عار أن تكون أمًا عازبة. كيف يمكن أن يكون ابناً لي ذلك الأبيض  
ذو العينين الزرقاء، هل لك أن تخبرينني؟ لقد كنت في شك على  
الدوم من أن هناك قطاعاً مخباً في هذه المسألة. والآن، توصلتُ أخيراً إلى  
الحقيقة الجلية، وإن متأخراً. إنه ليس ابني، ولا تسري دمائي في  
عروقه. فلو كان ابني ومن دمي لما فعل بأي حال ما فعله بي. أتررين؟  
أتلاحظين يا آديلايدا؟

- أرى ذلك يا باباثيتو، وألاحظه - وافقته التقبية - أعطني كأسك

هذه، سأملؤها لك مجدداً بماء بارد من حجر التقطير. لستُ أدرى ما الذي أشعر به وأنا أراك تشرب الماء من كأس فارغة، تشي غوا.

- وما بيل؟ - تلعم صاحب شركة النقل وهو يخفض بصرة -. هل كانت على علم بمؤامرة العنكبوت منذ البدء؟ هل كانت كذلك؟

- أجل، كانت كذلك، ولكن مكرهه - خفف النقيب سيفيل من وطأة الأمر، كمن هو مرغم -. لقد كانت على علم بالأمر. ولم يرق لها عمل ذلك قطّ، وهي تتقول إنها حاولت في أول الأمر ثني ميغيل عن ذلك، وقد فعلت ما تستطيعه. ولكن لأنك طبعه و...

- هو ليس ابني - قاطعه فيليثينتو ياناكيه وهو ينظر إلى عينيه مباشرة -. اعذرني، أنا أعرف ما أقوله. تابع، قل ما لديك أيها النقيب.

- لقد كانت ضجرة من ميغيل وتريد قطع علاقتها به، ولكنه لم يسمح لها، كان يهددها بأنه سيخبرك عن غرامياتهما -. تدخل ليتوما من جديد -. ولأنه ورطها في تلك المكيدة، بدأت تكرهه.

- أتعني أنكما قد تكلمتا مع مابيل؟ - سأله صاحب شركة النقل مشوشاً -. وما الذي اعترفت به؟

- إنها تتعاون معنا يا سيد ياناكيه - أكد النقيب -. لقد كانت شهادتها حاسمة لمعرفة مكيدة العنكبوت برمتها. ما قاله لك الرقيب صحيح. ففي البدء، حين بدأت مع ميغيل، لم تكن تعرف أنه ابنك. وحين عرفت ذلك، حاولت التخلص منه، ولكن كان الوقت قد فات. لم تستطع لأن ميغيل كان يبتزها.

- كان يهددها بإخبارك بكل شيء يا سيد ياناكيه، كي تقتلها أو تضربها على الأقل -. عاد الرقيب ليتوما إلى التدخل.

- وكيف تركها في الشارع وليس لديها فلس واحد، وهذا هو الأهم -. دخل النقيب على الخط -. مثل ما قلت لك من قبل أيها السيد. ميغيل

يكرهك، يكن لك حقداً عظيماً. يقول إنه يشعر بذلك لأنك أجبرته على أداء الخدمة العسكرية ولم تفعل ذلك مع أخيه تيبورثيو. لكنني أشعر أن هناك ما هو أكثر. ربما هذا العداء آت مما هو قبل ذلك، منذ طفولته. حضرتك تعرف أكثر.

- لا بد أنه كان يرتاب كذلك في أنه ليس ابني يا آديلايدا - أضاف صاحب شركة النقل. كان يشرب، في رشفات، كأس الماء الجديدة التي جاءته بها آديلايدا للتو - لقد كان يرى وجهه في المرأة، فيدرك أن ما يسري في عروقه ليست دمائي، ولا يمكن لها أن تكون دمائي. وهذا بدأ يكرهني، وهو ما بقي له. الغريب أنه أخفى ذلك دوماً، ولم يُظهره قط. أتررين؟

- ماذا تريدين أن أرى يا فيليثيتو - هتفت المداوية - كل شيء واضح تماماً، ويمكن حتى للأعمى أن يراه. هي فتاة شابة وأنت عجوز. هل كنت تظن أن مابيل ستظل وفيه لك حتى الموت؟ ولا سيما أن لك زوجتك وأسرتك، وهي تعرف جيداً أنه لا يمكن لها أن تكون أكثر من عشيقة لك. الحياة هي الحياة يا فيليثيتو، لابد أنك تعرف هذا. أنت آت من أسفل وتعرف ما هي المعاناة، مثلـي ومثلـ فقراء بيورا الكثـيرـين.

- طبعاً، فالاختطاف لم يكن اختطافاً قـط وإنـما مجرد تهـريـج - قال النقـيب - من أجل الضـغـطـ عليكـ فيـ مشـاعـركـ أيـهاـ السـيدـ.

- كنت أعرف ذلك يا آديلايدا. لم تكن لدى أوهام قـطـ. لماذا تظنـين إـذـاـ أـنـنيـ كـنـتـ أـفـضـلـ غـضـ النـظـرـ دـوـماـ،ـ وـعـدـمـ التـحـريـ عـماـ تـفـعـلـهـ مـابـيلـ؟ـ

لكـنـنيـ لمـ أـتـخـيلـ قـطـ أـنـ يـمـكـنـ لـهـ أـنـ تـفـعـلـ ذـكـ مـعـ اـبـنـيـ بـالـذـاتـ!

- وهـلـ هوـ اـبـنـكـ؟ـ صـحـحتـ لـهـ التـقـيـةـ سـاخـرـةـ -ـ ماـ أـهـمـيـةـ مـعـ فـعـلـتـ ذـكـ يـاـ فيـلـيـثـيـتوـ.ـ مـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـسـبـبـ لـكـ هـذـاـ كـلـهـ الـآنـ.ـ لـاـ تـفـكـرـ أـكـثـرـ فـيـ الـأـمـرـ يـاـ صـاحـبـيـ.ـ اـقـلـبـ الصـفـحةـ،ـ فـالـأـمـرـ قـدـ مـضـىـ.ـ هـذـاـ أـفـضـلـ مـاـ

يمكن عمله، اعمل بنصيحتي.

- أتدرين ما الذي أفكر به الآن بغم حقيقى يا آديلايدا؟ - فرغت كأسة مرة أخرى. وكان فيليثيتو يشعر بقشعريرة -. إنها الفضيحة. قد يبدو لك هذا مجرد حماقة، ولكنه أكثر ما يعذبني. سيخرج الخبر غداً في الصحف، في الإذاعات، في التلفزيون. وسيأتي التصعيد الصحفي عندئذ. ستكون حياتي سيركاً مرة أخرى. ملاحقة الصحفيين، فضول الناس في الشارع، في المكتب. لم يعد لدي صبر ولا قدرة على تحمل كل هذا من جديد يا آديلايدا. لم أعد قادرًا.

- لقد غلب النوم السيد يا حضرة النقيب - همس ليتوما مشيراً إلى صاحب شركة النقل الذي أغمض عينيه وأحنى رأسه.

- هذا ما أظنه - وافقه الضابط -. لقد دمره الخبر. الابن والعشيقية. بعد القرون ضرب بالعصبي. هذا أقل ما يمكن أن يصيبه، يا للعنة! كان فيليثيتو يسمعهما ولكن دون سماعهما. لا يريد فتح عينيه، ولا حتى للحظة واحدة. كان يتناوم، وكان يسمع صخب وجبلة جادة سانتشيث سيريو. لو لم يحدث هذا كله لكان الأن في مقر ناريهم والا للنقل، يراجع حركة الحافلات والشاحنات وسيارات الفترة الصباحية، ويدرس حركة اليوم ويقارنها بحركة الأمس، ويملي رسائل على السيدة خوسيفيتا، يلغى أو يقبض كبياليات في المصرف، ويستعد للعودة إلى بيته لتناول الغداء. أحس بحزن شديد سبب له رعشة حمى ثلاثية من أخصم قدميه حتى رأسه. لن تعود حياته أبداً إلى إيقاعها القديم الهادئ، ولا إلى أن يكون ماراً عادياً ومجهولاً. سيكون منذ الآن معروفاً على الدوام في الشوارع، لدى رؤيته يدخل إلى صالة سينما أو إلى مطعم ستتعالى الهمسات والدمدمات، والنظرات الوجهة، والوششات، والأيدي المشيرة. هذه الليلة بالذات، أو في صباح الغد

على أبعد تقدير، سيكون الخبر عاماً، تعرفه بببورا بأسرها. وسينبغى عندئذ ذلك الجحيم.

- هل تشعر بالتحسن مع هذه الغفوة أيها السيد؟ سأله النقيب سيلفا وهو يربت بمودة على ذراعه.

- لقد غفوت قليلاً، متأسف - قال وهو يفتح عينيه - اعذراني. انفعالات كثيرة في آن واحد.

- طبعاً، طبعاً - طمأنه الضابط - أتريد أن نواصل أم نترك الأمر إلى وقت آخر يا دون فيليثيتو؟

هز رأسه مدمداً: «نواصل». خلال الدقائق التي ظل فيها مغمض العينين، امتلأ البار بالناس، وخاصة الرجال. كانوا يدخون، ويطلبون سندوتشات، ومياهاً غازية أو بيرة أو فناجين قهوة. أخفض النقيب صوته كيلا يسمعه من يجلسون حول المنضدة المجاورة.

- ميغيل ومابيل معتقلان منذ الليلة الماضية، وقاضي التحقيق يتتابع القضية. لقد حددنا موعداً للصحافة في الساعة السادسة مساء. لا أظن أن حضرتك ترغب في حضور هذا اللقاء، أليس كذلك يا دون فيليثيتو؟

- ولا بأي حال - صاح صاحب شركة النقل مرعوباً - طبعاً لا!

- ليس ضرورياً أن تأتي - طمأنه النقيب - ولكن عليك أن تعرف وتكون مستعداً. الصحفيون سوف يسببون لك الجنون.

- هل اعترف ميغيل بالتهم كلها؟ سأله فيليثيتو.

- لقد أنكرها في البدء، ولكنه حين عرف أن مابيل قد خانته وأنها ستكون شاهد اتهام ضده، اضطر إلى الاعتراف بالواقع. لقد قلتُ هذا، إن شهادتها ساحقة.

- بفضل السيدة مابيل انتهى به الأمر إلى الاعتراف بكل شيء - أضاف الرقيب ليتوما - لقد سهلت علينا عملنا. إننا نحرر التقرير.

وغداً على أبعد تقدير سيكون بين يدي قاضي التحقيق.

- هل سيكون عليَّ أن أراه - كان فيليب بيتو يتكلم بصوت خافت جداً، فاضطر الشرطيان إلى تقريب رأسيهما منه كي يسمعاه - أقصد ميفيل.
- ستكون موجوداً في المحاكمة على أي حال - أكد النقيب -

وستكون حضرتك الشاهد النجم. إنك الضحية، تذكر هذا.

- وقبل المحاكمة؟ ألح صاحب شركة النقل.

- يمكن لقاضي التحقيق أو النائب العام أن يطلب مواجهة - أوضح النقيب - في هذه الحالة ستقابله، أجل. نحن لا نحتاج إلى ذلك، لأن ميفيل، مثلما قال لك ليتوما، قد اعترف بالتهم كلها. يمكن لمحاميه أن يعمد إلى استراتيجية أخرى ويُكذب كل شيء متذرعاً بأن اعترافاته باطلة لأنها انتزعت منه بوسائل غير شرعية. وباختصار سيفعلون مثلما يحدث عادة. ولكنني لا أظن أنه سيجد مهرباً. مادامت مابيل تتعاون مع العدالة فإنه واقع لا محالة.

- كم ستكون مدة الحكم عليه؟ - سأله صاحب شركة النقل.

- الأمر يعتمد على المحامي الذي سيدافع عنه، وعلى ما يمكن أن ينفقه في دفاعه - قال المفوض الشرطي وهو يبدي تحشيرة متشككة - لن تكون مدة طويلة. لم يكن هنالك عنف باستثناء الحريق الصغير في شركتك. أما الابتزاز، وعملية الاختطاف المزيفة، وعصبة الإجرام فليست جرائم خطيرة، في هذه الظروف. لأنها لم تتمخض عن شيء عملي، وإنما كانت مجرد تصنع. سنتان أو ثلاثة سنوات في أفضل الحالات، أشك في أن يكون الحكم أكثر. والأخذ في الاعتبار أنه جائع مبتدئ، وبلا سوابق، يمكن له أن ينجو من السجن.

- وهي؟ سأله صاحب شركة النقل وهو يمر بلسانه على شفتيه.

- بما أنها تعاونت مع العدالة، فإن الحكم عليها سيكون مخففاً جداً

يا دون فيليثيتو. ربما تخرج نظيفة لا قش ولا غبار عليها. فقد كانت، في نهاية المطاف، ضحية الشاب الأبيض أيضاً. هذا ما يمكن أن يتذரع به محاميها، ومعه بعض الحق في ذلك.

- أتلاظحين يا آديلايدا؟ - تنهد فيليثيتو ياناكيه -. لقد جعلوني أقضى أسابيع من الغم، وأحرقوا المكان في جادة سانتشيث سيرُو، وكانت الخسائر كبيرة، فالخوف الذي تسبب به المبتزون بإلقاءهم قبلة على حافلاتي، جعل زبائن كثيرين يبتعدون عنا. ومن المحتمل أن يخرج الاثنان إلى بيتهما طليقين، وأن يعيشَا حياة النعيم. أترین ما هي العدالة في هذه البلاد؟

صمت لأنه لاحظ أن شيئاً ما قد تبدل في عيني التالية. كانت تنظر إليه بثبات، بحدقتين متسعتين، وبجدية كبيرة وتركيز، كما لو أنها ترى فيه، أو من خلاله، شيئاً مثيراً للقلق. أمسكت إحدى يديه بين يديها الكبيرتين والخشنتين ومتسختي الأظفار. راحت تضغط على يده بقوة كبيرة. ارتعش فيليثيتو وهو يكاد يموت خوفاً.

- أهو وهي يا آديلايدا؟ - تلعمت محاولاً سحب يده -. ماذا ترين، ما الذي يحدث لك، أرجوك يا صديقتي.

- هنالك شيء يحدث لك يا فيليثيتو - قالت له وهي تضغط بشدة أكبر على يده، وتنظر إليه بعينيها العميقتين اللتين تحولتا الآن إلى محمومتين -. لا أدرى ماذا هنالك، لعله ما حدث لك هذا الصباح مع الشرطيين، وربما شيء آخر. شيء أسوأ أو أفضل، لست أدرى. شيء رهيب، قوي جداً، هزة ستبدل حياتك كلها.

- أتعنين أنه شيء مختلف عن كل ما يحدث لي؟ أشياء أسوأ مما حدث؟ ألا يكفيوني الصليب الذي أجرجره؟

هزت رأسها كمن أصابها مس ولم يبدُ عليها أنها تسمعه. رفعت

صوتها كثيراً:

- لست أدرى إن كان أفضل أو أسوأ يا فيليثيتو - صرخت مذعورة -  
ولكنه أهم من كل ما ححدث لك حتى اليوم. إنها ثورة في حياتك، هذا  
هو ما أستشعره.

- أعظم مما أنا فيه؟ - كرر - لا يمكنك إخباري بأي شيء محدد يا  
آديلايدا؟

- لا، لا أستطيع - أفلتت التقية يده وراحت تستعيد شيئاً فشيئاً  
لامحها وأساليبها المعهودة. رآها تزفر، تمر بيدها على وجهها كما لو  
أنها تزيح حشرة عنه - أقول لك ما أشعر به فقط، ما يجعلني الوحي  
أشعر به. أعرف أن الأمر معقد. وهو كذلك بالنسبة لي أيضاً يا فيليثيتو.  
لا ذنب لي أنا، هذا ما أراد لي الرب أن أشعر به. هو من يأمر. هذا  
كل ما يمكنني أن أقوله. كن مستعداً، هنالك ما سيحدث لك. شيء  
سيفاجئك. ربما لا يكون شيئاً أسوأ يا بابا ثيتو.

- أسوأ؟ - هتف صاحب شركة النقل - الشيء الوحيد الأسوأ الذي  
يمكن أن يحدث لي هو موتي سحقاً تحت سيارة، أو عضًا بأنيات كلب  
مصاب بالسعار. ربما يكون هذا هو ما يناسبني. أن الموت يا آديلايدا.

- لن تموت بعد، أؤكد لك. فليس موتك هو ما قاله لي الوحي.  
بدت التقية مستنفدة. وكانت ماتزال على الأرض، جالسة على  
كعبي قدميها وهي تفرك يديها وذراعيها ببطء، كما لو أنها تنفس عنها  
الغبار. قرر فيليثيتو الانصراف. لقد انقضت نصف فترة ما بعد الظهر.  
لم يكن قد تناول ولو لقمة واحدة في الظهيرة، ولكنه ليس جائعاً. مجرد  
فكرة الجلوس لتناول الطعام كانت تسبب له القرف. نهض عن  
أرجوحة النوم بمشقة وأخرج محفظة نقوده.

- لا حاجة لأن تعطيني أي شيء - قالت التقية وهي جالسة على

الأرض -. اليوم لا يا فيليثيتو.

- بلـى ،اليوم ضروري - قال صاحب شركة النقل وهو يترك خمسين سولاً على منضدة قريبة -. ليس مقابل هذا الوحي المشوش ، وإنما لأنك واسـيـتـني وـنـصـحـتـني بـحـنـانـ شـدـيدـ. أـنتـ صـديـقـتـيـ المـفـضـلـةـ يا آـدـيـلاـيدـاـ. ولهـذـاـ أـنـقـ بـكـ عـلـىـ الدـوـامـ.

خرج إلى الشارع وهو يزور الصدار، ويعيد تسوية ربطـةـ عنـقهـ، وـقـبـعـتـهـ. أـحسـ مـجـدـداـ بـحـرـ شـدـيدـ. كانت تـثـقـلـ عـلـيـهـ الحـشـودـ التـيـ تـمـلـأـ شـوـاعـ مرـكـزـ بـيـورـاـ. كان بـعـضـ الـأـشـخـاصـ يـتـعـرـفـونـ عـلـيـهـ فـيـحـيـونـ بـإـيمـاءـ أوـيـتـهـامـسـونـ وـهـمـ يـشـيرـونـ إـلـيـهـ. وـيـلـقـطـ لـهـ آـخـرـونـ صـورـاـ بـهـوـاتـهـمـ الـخـلـيـوـيـةـ. قـرـرـ المـرـرـورـ عـلـىـ نـارـيـهـوـالـاـ لـلـنـقـلـ لـيـرـىـ إـنـ كـانـتـ هـنـاكـ مـسـتجـدـاتـ حـدـيـثـةـ. نـظـرـ إـلـىـ سـاعـتـهـ: الـخـامـسـةـ مـسـاءـ. الـمـؤـتـمـرـ الصـحـفيـ فـيـ مـفـوضـيـةـ الشـرـطـةـ سـيـكـونـ فـيـ السـادـسـةـ. سـاعـةـ وـاحـدـةـ كـيـ تـسـرـيـ الـأـخـبـارـ كـالـبـارـودـ. سـتـنـفـجـرـ فـيـ الإـذـاعـاتـ، وـفـيـ شـبـكـةـ الـإـنـتـرـنـتـ، وـسـتـنـشـرـهـاـ المـدوـنـاتـ، وـطـبـعـاتـ الـجـرـائـدـ الـدـيـجـيـتـالـ، وـأـخـبـارـ التـلـفـزـيـوـنـ. وـسـيـكـونـ، مـنـ جـدـيدـ، الرـجـلـ الـأـوـسـعـ شـهـرـةـ فـيـ بـيـورـاـ. «ـصـحـيـةـ خـدـاعـ اـبـنـهـ وـعـشـيقـتـهـ»، «ـابـنـهـ وـعـشـيقـتـهـ أـرـادـاـ اـبـرـازـهـ»، «ـالـعـنـكـبـوتـانـ هـمـاـ اـبـنـهـ وـعـشـيقـتـهـ، وـكـانـاـ فـوـقـ ذـلـكـ عـشـيقـيـنـ!ـ». أـحسـ بـالـغـثـيـانـ وـهـوـ يـتـخـيلـ العـنـاوـينـ، وـرـسـومـ الـكـارـيـكتـيرـ التـيـ تـصـورـهـ فـيـ أـوـضـاعـ مـضـحـكـةـ، بـقـرـنـيـنـ يـصـلـانـ إـلـىـ السـحـابـ. يـاـ لـلـأـوـغـادـ!ـ يـاـ لـلـجـاهـدـيـنـ، نـاكـرـيـ الـجـمـيلـ!ـ سـلـوكـ مـيـغـيـلـ يـسـبـبـ لـهـ غـضـبـاـ أـقـلـ. لـأـنـ شـكـوـكـهـ تـأـكـدـتـ بـفـضـلـ اـبـرـازـ الـعـنـكـبـوتـ:ـ إـنـهـ لـيـسـ اـبـنـهـ. مـنـ تـرـاهـ يـكـونـ أـبـوـهـ الـحـقـيـقـيـ؟ـ أـتـعـرـفـهـ خـيـرـتـوـدـيـسـ؟ـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ كـانـ أـيـ وـاحـدـ مـنـ زـيـاـئـنـ النـزلـ يـضـاجـعـهـ، هـنـالـكـ مـرـشـحـوـنـ كـثـرـ لـهـذـهـ الـأـبـوـةـ. هـلـ سـيـنـفـصـلـ عـنـهـ؟ـ أـيـتـلـقـانـ؟ـ لـمـ يـشـأـ ذـلـكـ قـطـ، أـمـاـ الـآنـ، وـبـعـدـ مـرـورـ كـلـ هـذـاـ الزـمـنـ، لـمـ يـعـدـ قـادـرـاـ حـتـىـ عـلـىـ

الحقد عليها. لم تكن امرأة سيئة؛ وخلال هذه السنوات كلها لم تكن تشوب سلوكها أية شائبة، وكانت تعيش من أجل بيتها وتذينها وحسب. سيهزها الخبر طبعاً. فصورة لميغيل مقيد اليدين، ووراء القضبان، لأنه أراد ابتزاز أبيه فضلاً عن وضع قرون له مع عشيقته، هي أمور لا تتحملها الأم بسهولة. ستبكى وستهرب إلى الكاتدرائية كي يواسيها الكهنة.

موضوع مابيل كان أشد قسوة. يفكر بها فتنفتح فجوة في معدته. لقد كانت المرأة الوحيدة التي أحبها حباً حقيقياً في حياته. قدم لها كل شيء. البيت، المعاش، الهدايا. والحرية التي لا يمنحها أي رجل لامرأة يُنفق عليها. لماذا تندس في الفراش مع ابنه! لماذا تحاول هذه اللعينة البائسة ابتزازه! لن يقتلها، بل إنه لن يوجه إليها ولو صفة واحدة على وجهها كاذبة. لن يعود لرؤيتها. فلتكتسب عيشها من التعهر. ولنر إن كانت ستجد عشيقاً معتبراً مثله.

بدل أن ينزل عبر شارع ليما، انحرف عند مستوى الجسر المعلق باتجاه كورنيش إغيفوريين. هناك كان يتواجد أناس أقل، ويمكن له أن يمشي بطمأنينة أكبر، دون أن يُفاجأ بمعرفة أنهم ينظرون ويشيرون إليه. تذكر البيوت الكبيرة القديمة التي كانت تحف بهذا الكورنيش النهري حين كان صبياً صغيراً. وقد راحت تتداعى بيتاً بعد آخر بفعل الأضرار التي سببها النينيو، والأمطار وفيضانات النهر الذي كان قد فاض وغرم الحي كله. وبدل إعادة بنائها، قام البيض ببناء بيوتهم الجديدة في ضاحية التшибيه، بعيداً عن مركز المدينة.

ما الذي سيفعله الآن؟ أیواصل عمله في ناريهوala للنقل وكأن شيئاً لم يحدث؟ مسكن تيبورثيو. سيشعر بكل تأكيد باستثناء عظيم. فأخوه ميغيل الذي كان ملتتصقاً به جداً على الدوام يتحول إلى مجرم أراد أن

يسطوا على أبيه بالتوافق مع العشيقه. لقد كان تيبورثيو شخصاً طيباً جداً. ربما هو ليس شديد الذكاء، ولكنه مستقيم، وفيه، وغير قادر على اقتراف نذالة مثل أخيه. سوف يحطمه الخبر.

كان منسوب نهر ببيورا مرتفعاً جداً، ويجر معه أغصاناً، وشجيرات صغيرة، وأوراقاً، وقناني وبلاستيك. لياهه لون طيني كما لو أنها محملة بانهيارات ترابية حدثت في سلسلة الجبال. ولم يكن هنالك أحد يسبح في مياهه.

حين صعد من الكورنيش إلى جادة سانتشيث سيرو قرر عدم الذهاب إلى المكتب. ما زالت هنالك خمس عشرة دقيقة فقط لبلوغ الساعة السادسة، وسوف يهرب الصحفيون كالذباب إلى ناريهوala للنقل فور اطلاعهم على الخبر. من الأفضل له التزام البيت، وإغفال الباب الخارجي وعدم الخروج طوال عدة أيام، إلى أن تهدأ العاصفة. التفكير في الفضيحة يجعله يشعر كما لو أن ثعابين تزحف على ظهره.

سلك شارع اريكيبيا متوجهاً نحو بيته، وكان يشعر أن الغم قد بدأ يضغط مجدداً على صدره، ويجعل تنفسه أصعب. ميغيل يكن له الحقد، بل إنه يكرهه منذ ما قبل إجباره على الانضمام إلى الخدمة العسكرية. لقد كان شعوراً متبادلاً. لا، هذا زائف، فهو لم يكره فقط هذا الابن النجل. شيء آخر هو أنه لم يحبه قط، لأنه كان يدرك أنه ليس من دمه نفسه. ولكنه لا يذكر أنه فضل تيبورثيو عليه. لقد كان أبياً عادلاً، يحاول منح كليهما معاملة متماثلة. صحيح أنه أجبر ميغيل على قضاء سنة في الثكنة العسكرية. كان ذلك من أجل مصلحته. كي يضعوه في الطريق السليم. فقد كان تلميذاً بسيطاً جداً، لا يحب سوى اللهو، وركل الكرة وشرب الخمور في الحانات. لقد فاجأه وهو يشرب في باراتٍ ونزل سينئة السمعة مع أصدقاء خبيثي المظهر، وينفق

مصروفه في الماخور. هذا الطريق سيودي به إلى مصير سين. وقد حذر: «إذا ما واصلت هكذا، سأدخلك إلى الجيش». فواصل، وأدخله إلى الجيش. يوضح فيليثيتو. حسن، يمكن القول إن حاله لم تصلح كثيراً بالنظر إلى إقدامه على ما انتهى إلى فعله. فليذهب إلى السجن ليعرف ما الذي يعنيه هذا. ولنر من الذي سيوفر له عملاً بعد ذلك، وهو بمثل هذا السجل. سيخرج من هناك كقاطع طريق أكثر مما كان عليه لدى دخوله، مثل جميع من يمررون عبر جامعات الجريمة التي هي السجون.

كان قبالة بيته. وقبل أن يفتح البوابة الكبيرة المزينة بمسامير ضخمة، خطأ بعض خطوات حتى الناصية وألقى بعض قطع نقدية في علبة الأعمى:

- مساء الخير يا لوثيانو.

- مساء الخير يا دون فيليثيتو. فيليكافٹك الرب.

رجع وهو يشعر بانقباض في قلبه، وبأنه يتنفس بصعوبة. فتح البوابة ثم أغلقها وراءه. ومن البهلو سمع أصواتاً في الصالة. هذا ما كان ينقص. لدينا زيارة! أمر غريب، فخيرت روبيس ليس لها صديقات يأتين دون إخبار مسبق، لا تقيم لقاءات شاي أبداً. كان يقف في البهو، متربداً، حين رأى هيئة امرأته المشوهة تظهر من عتبة الصالة. كانت محشورة في واحد من تلك الأثواب التي تبدو كمسوح راهبات، رآها تتقدم باتجاهه مستعجلة كثيراً بطريقتها تلك الشاقة في الشيء. لماذا هي بهذا الوجه؟ لقد علمت بالخبر إذا.

- هذا يعني أنك قد علمت بكل شيء. دمم. ولكنها لم تتح له الوقت ليكمل. بل أشارت إلى الصالة، وراحت تتكلم بتغش: 312

- آسفه، آسفة جداً يا فيليثيتو. اضطررتُ إلى إيوائها هنا في البيت.  
لم يكن بإمكانني عمل أي شيء آخر. ستبقى بضعة أيام فقط. جاءت  
هاربة. يمكن لهم أن يقتلوها كما يريدون. قصة لا تصدق. تعال، ستخبرك  
هي نفسها.

كان صدر فيليثيتو ياناكيه طبلاً. راح ينظر إلى خيرتروديس دون أن  
يفهم جيداً ما تقوله، ولكن بدلاً من وجه زوجته كان يرى وجه آديلايدا  
متحولاً ومشوهاً بسبب رؤى الوحي.



## XVI

لماذا تتأخر لوكريثيا كل هذا الوقت؟ يقوم دون ريفوبيرتو بالدوران كوحش حبيس أمام باب شقته في بارانكو. زوجته لم تخرج بعد من حجرة النوم. إنه يرتدي ملابس حداد صارمة، ولا يريد الوصول متاخراً إلى جنازة إسماعيل، لكن لوكريثيا بنزواتها في التأخر، بالبحث عن ذرائع شديدة السخافة لتأخير الخروج، ستجعلهما يصلان إلى الكنيسة حين يكون الموكب قد انطلق باتجاه المقبرة. هو لا يريد استثنارة الملاحظة بظهوره في مقبرة «حدائق السلام» وقد بدأت مراسيم الجنازة، وأن يجتذب بذلك نظرات جميع الحاضرين. سيكون هناك أناس كثيرون جداً دون شك، مثلما كانت عليه الحال أثناء السهر على الجثمان في الليلة الماضية، ليس لروابط صداقتهم بالمتوفى وحسب، وإنما بدافع فضول أهالي ليما الخبيث في التمكّن أخيراً من رؤية الأرملة التي أثيرت الفضيحة بسببها.

لكن دون ريفوبيرتو كان يعرف أنه ليس بإمكانه عمل أي شيء سوى الاستسلام والانتظار. ربما كان السبب الوحيد لل مشادات التي وقعت له مع امرأته، على امتداد سنوات زواجهما، هو تأخر لوكريثيا دوماً لدى خروجهما إلى أي مكان، سواء إلى السينما أو إلى دعوة لتناول الطعام، أو إلى معرض، أو لمعاملة مصرافية، أو رحلة. في البدء، حين كانوا حديثي الزواج، وببدأ العيش معاً، كان يظن أن زوجته تتأخر

لمجرد انعدام الرغبة وازدراء منها لدقة الموعيد. وقد تسبب ذلك بجدل بينهما، وزعل، ومماحكات. وشيئاً فشيئاً، ومن خلال مراقبتها، والتفكير في الأمر، انتبه دون ريفوبيرتو إلى أن تأخر زوجته لدى الخروج إلى أي التزام لم يكن حدثاً سطحياً، ينم على إهمال سيدة متعرجة. بل هو استجابة لشيء أعمق بكثير، لحالة معنوية أو كيانية، لأنها - ودون أن تعني ما الذي يحدث - في كل مرة تضطر فيها إلى مغادرة مكان ما، مثل بيتها، أو بيت صديقة ذهبت لزيارتها، أو المطعم الذي تناولت العشاء فيه، يسيطر عليها قلق خفي، نوع من انعدام الأمان، خوف غامض، بدائي، يدفعها إلى عدم الذهاب، المغادرة، تبديل المكان، وتحتلق عندئذ كل أنواع الذرائع - إخراج منديل، تبديل المحفظة، البحث عن المفاتيح، التأكد من أن النوافذ مغلقة، أو أن التلفزيون مطفأ، وإذا لم يكن الطباخ قد بقي مشتعلًا، أو الهاتف مرفوع الساعية - أي شيء يؤخر الانصراف أو المغادرة المرعبة لدقائق أو لثوان. هل كانت هكذا على الدوام؟ وحين كانت طفلة أيضاً لم يتجرأ على سؤالها عن ذلك. ولكن ثبت له، مع مرور السنوات، أن هذه الرغبة الجامحة، أو النزوة أو الحتمية تزداد حدة، حتى إن ريفوبيرتو كان يفكر أحياناً، وهو يرتعش، بأن الأمر قد يصل بلوكريشيا ذات يوم إلى أن تصاب بعذوى السبات أو الخمول الميتافيزيقي الذي أصاب شخصية بارتليبي في قصة ميلفيل نفسها، وتُقرر عندئذ عدم التحرك من بيته، وربما من غرفتها أو حتى من سريرها. «لخوفها من فقدان الكينونة، من فقدان كينونتها، من البقاء دون كينونتها»، عاد يقول لنفسه. وهذا هو التشخيص الذي توصل إليه بشأن تأخر زوجته. كانت الثانية تمر دون أن تُطلّ لوكريشيا. لقد ناداها ثلاثة مرات بصوت عالٍ مُذكراً إليها بأن الوقت قد تأخر. مما لا شك فيه، مع ما أصابها من غمٍ وتوتر أعصاب

مذ تلقت مكالمة آرميدا التي أخبرتها بموت إسماعيل المفاجئ، أن ذلك الخوف من بقائها دون كينونة، وتركه منسياً مثل مظلة أو معطف مطري إذا ما ذهبت، آخذ بالازدياد. ستواصل التأخر وسيصلان متأخرين إلى الجنازة.

وأخيراً خرجت لوكريثيا من غرفة النوم. كانت ترتدي ثوباً أسود، وتضع نظارة سوداء. سارع ريفوبيرتو إلى فتح الباب لها. كان وجه زوجته لا يزال ممتقاً بسبب الحزن والقلق. ماذا سيحدث لهما الآن؟ في الليلة السابقة، أثناء السهر على الجثمان في كنيسة سانتا ماريا رينا، رآها ريفوبيرتو تجهش بالبكاء وهي تعانق آرميدا، بجانب النعش المفتوح الذي يُسجى فيه جسد إسماعيل، وقد عُقد منديل على رأسه كيلا يتدلّى فكه السفلي. وكان على ريفوبيرتو نفسه أن يبذل في تلك اللحظة جهداً عظيماً كي يكبح رغبته في البكاء. لقد مات إسماعيل بعد أن ظن أنه قد كسب المعارك كلها، وصار يشعر أنه أسعد رجل في الخليقة. تكون السعادة هي التي قتلتة؟ لأن إسماعيل كاريرا لم يكن معتاداً عليها.

نزلَ في المصعد مباشرةً إلى الكراج، وخرجَ منه بسرعةً، وبعد جلوس ريفوبيرتو وراء المقود، توجّها نحو كنيسة سانتا ماريا رينا، في حي سان إيسيدرو، حيث سينطلق الموكب إلى مقبرة حدائق السلام، في حي لامولينا.

- هل انتبهتَ إلى أن أيّاً من ميكِي أو إسكوبيتا لم يقترب ولو مرة واحدة من آرميدا خلال السهر على الجثمان؟ - علقت لوكريثيا. - ولا مرة واحدة. يا لانعدام التقدير. إنهم شخصان خبيثان حقاً.

لقد لاحظ ريفوبيرتو ذلك، ولاحظه بالطبع معظم الناس الذين ظلوا طوال ساعات، حتى منتصف الليل تقريباً، يمرون من حجرة التسجية

المأتمية المغطاة بالأزهار. كانت الأكاليل والباقات والصلبان وبطاقات التعزية تملأ الردهة وتنتشر في الفناء حتى تصل الشارع. هنالك أناس كثيرون يحبون إسماعيل ويحترمونه، وهما هوذا الدليل: مئات الأشخاص يودعونه. وستكون هناك أعداد مماثلة أو أكثر الآن، في موكب الجنازة، صباحاً. ولكن كان هناك في الليل، وكذلك الآن، من قالوا الأقاويل عنه لأنه تزوج من خادمه، وحتى أولئك الذين أيدوا ميكى وإسکوبیتا في القضية القضائية التي رفعها هذان الأخيران من أجل أن يُبطل القضاء ذلك الزواج. ومثلاً هي حاله الحال لوكريثيا، كانت نظرات جميع من سهروا على الجثمان مرکزة على الضبعين وعلى آرمیدا. كان التوءمان اللذان يرتديان ملابس حداد صارمة، دون أن ينزععا نظارتهما السوداين، يبدوان أشبه بأوغاد الأفلام. وكان يفصل بين الأرملة وابني المتوفى أمطار قليلة، لم يحاول أي منهما اجتيازها في آية لحظة. بدا المشهد مضحكاً أحياناً. فآرمیدا المسريلة بالحداد من رأسها حتى قدميها، مع قبعة وخمار أسودين، تجلس على مقربة من النعش، وتحمل في يدها منديلاً ومسبحة تحرك خرزاتها ببطء بينما هي تحرك شفتيها في صلاة صامتة. وبين لحظة وأخرى تممسح قطاع الطرق، يقفن طيلة الوقت وراءها، فتقف على قدميها، وتقترب من النعش، وتنحنن فوق الزجاج وهي تصلي أو تبكي. وتواصل بعد ذلك تقبل التعازي من الداخلين الجدد. عندئذ يتحرك الضبعان، يقتربان من النعش ويظلان أمامه للحظات يرسمان إشارة الصليب بحزن، دون أن يديرا رأسيهما ولو مرة واحدة إلى حيث تقف الأرملة.

- هل أنت متأكد من أن الشخصين القويين اللذين لهما ملامح الملائكة، وكأنما طيلة الليل إلى جانب آرمیدا، هما حارسان شخصيان؟

- سأله لوكريثيا -. يمكن لهم أن يكونوا من أقربائها. لا تسرع أكثر، أرجوك. يكفينا ميت واحد الآن.

- إنني متأكد جداً - قال ريفوبيرتو -. لقد أكد لي ذلك كلاوديو أرنبياس. لأن محامي إسماعيل صار محاميها الآن. إنهم حارسها الشخصيان.

- لا يبدو لك الأمر مضحكاً بعض الشيء؟ - علقت لوكريثيا -. أود أن أعرف ما هي حاجة آرميدا إلى حراس شخصيين.

- إنها بحاجة إليهم الآن أكثر من أي وقت آخر - رد دون ريفوبيرتو وهو يخفف من سرعة السيارة -. يمكن للضعين أن يتعاقدا مع قاتل مأجور ويكلفاه بقتلها. إنها أمور تحدث الآن في ليما. أخشى أن يدمر المتهكأن هذه المرأة. لا يمكنك تخيل الثروة التي ورثتها الأرملة الجديدة يا لوكريثيا.

- إذا ما واصلت قيادة السيارة على هذا النحو فسوف أنزل منها - حذرته زوجته -. آه، هذا هو السبب إذاً، ظننت في البدء أن الغرور قد أصابها وتعاقدت مع هذين الشخصين كي تضفي أهمية على نفسها وحسب.

عندما وصلا إلى كنيسة سانتا ماريا رينا، عند منحنى غوتيريث دي سان إيسيدرو، كان موكب الجنازة قد بدأ انطلاقه، فانضما إلى القافلة دون النزول من السيارة. كان رتل السيارات بلا نهاية. وقد رأى دون ريفوبيرتو أن مارة كثيرين يتوقفون ويرسمون إشارة الصليب لدى مرور عربة النعش، وفكرا: «إنه الخوف من الموت». هو لا يتذكر أبداً أنه خاف من الموت. «حتى الآن على الأقل»، صحيح لنفسه. «مدينة ليما بأسرها موجودة هنا».

وبالفعل، ليما كانت هناك عن بكرة أبيها. ليما كبار رجال الأعمال،

وأصحاب المصارف، وشركات التأمين، وشركات المناجم والصيد البحري والبناء، والتلفزيونات، والصحف، والمؤسسات العقارية والمالية، ومعهم عدد كبير من موظفي الشركة التي قادها إسماعيل إلى من قبل أسابيع قليلة، بل هنالك بعض الأشخاص المتواضعين ممن عملوا لديه أو ممن يديرون له بجميل قدمه إليهم. وكان هناك أيضاً ضابط عسكري بوشاح، ربما هو مرافق عسكري لرئيس الجمهورية، وزيراً الاقتصاد والتجارة الخارجية. وقد وقع حادث صغير حين أنزلوا النعش من العربة الجنائزية وحاول ميكي وإسکوبیتا أن يتصدراً الموكب. وقد توصلاً إلى ذلك لبعض ثوان فقط. فبعد أن ترجلت آرميدا من سيارتها وتأبطت ذراع الدكتور أرنبياس، يحيط بها ليس اثنان وإنما أربعة حراس شخصيين، قام هؤلاء بشق الطريق لها، دون أية اعتبارات، وأوصلوها إلى مقدمة الموكب وأبعدوا التوءمين بحزم. فما كان من ميكي وإسکوبیتا، بعد لحظة ارتباك، إلا أن تنازلاً عن المكان للأرملة واتخذَا مكاناً لهما على جانبي النعش. أمسكا بالشرائط القماشية وسارا في الموكب وهو يحييان رأسيهما. معظم الحضور كانوا رجالاً، ولكن كان هناك أيضاً عدد لا بأس به من السيدات الأننيقات اللواتي لم يتوقفن، خلال تحدث الكاهن، عن النظر إلى آرميدا بوقاحة. لم يستطعن رؤية شيءٍ عظيم. فهي ترتدي السواد وتضع قبعة ونظارة قائمة تغطي جزءاً كبيراً من وجهها. وكان كلاوديو أرنبياس - بمحملات بنطاله متعددة الألوان المعهودة تحت سترته الرمادية - يقف إلى جانبها، بينما الحراس الشخصيون الأربع يشكلون وراء ظهريهما جدار حماية لا يمكن لأحد اختراقه.

عندما انتهت المراسم ووضع النعش أخيراً في كوة أغلقت بلوحة رخامية تحمل اسم إسماعيل كاريلا، بحروف مذهبة، مع تاريخ ميلاده

وفاته - لقد مات قبل ثلاثة أسابيع من إكماله الثانية والثمانين من العمر -، اقتاد الدكتور أرنبياس آرميدا بمشية أكثر اضطراباً من المعهود، بسبب تسرعه، وأوصلها ومعه الحراس الأربعة إلى المخرج، دون أن يسمحوا لأحد بالاقتراب منها. أما ريفوبيرو فرأى، بعد مغادرة الأرملة، أن ميكي وإسكوبيتا قد ظلا واقفين بجانب القبر، وأن أشخاصاً كثيرين راحوا يقتربون منها ويعانقونهما. فانصرف هو ولوكريثيا دون أن يفعل ذلك. (ففي الليلة السابقة، أثناء السهر على الجثمان، اقتربا لتقديم التعازي للتوءمين فكان الشدّ على الأيدي جليدياً).

- فلنمرّ على بيت إسماعيل - اقترحت دونيا لوكربيثيا على زوجها -. ولو للحظة واحدة، لعلنا نستطيع تبادل الحديث مع آرميدا.

- حسناً، فلنحاول.

عند وصولهما إلى البيت في سان إيسيدرو فوجئاً بعدم رؤية حشد سيارات متوقفة عند الباب. ترجل ريفوبيرتو، وأعلن عن نفسه، وبعد عدة دقائق من الانتظار أدخلوهما إلى الحديقة. وهناك استقبلهما الدكتور أرنبياس. كان يبدو كما لو أنه قد صار يتحكم بالوضع، ولكنه لا يمسك بزمام الأمور جميعها. ويلاحظ أنه غير واثق من نفسه.

- ألف اعتذار من آرميدا - قال لهما -. أمضت الليل كله مستيقظة، في السهر على الجثمان، وقد أجبرناها الآن على النوم. فقد أصر الطبيب على أن تستريح قليلاً. ولكن تفضل، فلنذهب إلى صالة الحديقة لتناول شراباً مرطباً.

انقبض قلب ريفوبيرتو قليلاً حين رأى أن المحامي يقتادهما إلى الحجرة التي رأى فيها صديقه آخر مرة، قبل يومين.

- آرميدا تشكركما جزيل الشكر - قال لهما كلوديو أرنبياس، بوجه قلق؛ بينما هو يتكلم بصورة متقطعة، وبجدية كبيرة. وكانت

حَمَالَة سرواله المهيّبة تلمع كلما انفتحت سترته -. أنتما، حسب قولها، صديقا إسماعيل الوحيدان اللذان تثق بهما. فالمسكينة تشعر الآن، مثلما يمكن لكما أن تخيلاً، بأنها مهجورة لمصيرها. سوف تحتاج كثيراً إلى دعمكما.

- اغذري يا دكتور، أعرف أن هذا ليس الوقت المناسب - قاطعه ريعوبيرو -. ولكنك تعرف كل الأمور التي ظلت معلقة مع موت إسماعيل. هل لديك فكرة عما سيحدث الآن؟

هز أرنبياس رأسه مؤكداً. كان قد طلب قهوة، وكان الفنجان في يده، قريباً من فمه، ينفح عليه بتمهل. وفي وجهه بارز العظام، كانت عيناه الحادتان والماكرتان تبدوان متشككتين.

- كل شيء يعتمد على ذلك الثنائي - تنهد نافخاً صدره - غداً ستُفتح الوصية، في مكتب الكاتب بالعدل نونيث. أنا أعرف مضمونها إلى هذا الحد أو ذاك. سوف نرى كيف سيكون رد فعل الضبعين. محاميهمما شخص فاشل وسينصحهما بالتحدي وال الحرب. لا أدرى إلى أين يريدان الوصول. لقد ترك السيد كاريلا ميراثه كله عملياً لآرميدا، ولهذا يجب الاستعداد لأسوأ الاحتمالات.

هز كتفيه مستسلماً لما لا مفر منه. وافتراض دون ريعوبيرو أن ما لا مفر منه هو أن يرفع التوءمان صراخهما إلى عنان السماء. وفكري في تناقضات الحياة الاستثنائية: واحدة من أفقر نساء البيرو تحول، بين ليلة وضحاها، إلى واحدة من أثري الثريات.

- أ ولم يقدم لهما إسماعيل مسبقاً حصتها من الميراث؟ - تذكر -. لقد فعل ذلك عندما اضطر إلى طردهما من الشركة بسبب الاحتيالات التي كانوا يقومان بها، إنني أتذكر ذلك جيداً. لقد أعطى لكل منها مبلغاً كبيراً من المال.

- ولكن بطريقة غير رسمية، بواسطة رسالة فقط - عاد الدكتور أرنبياس إلى تجعيد جبينه ورفع كتفيه وإنزالهما، بينما هو يعيّد ترتيب وضع نظارته -. لم تكن هنالك أية وثيقة رسمية ولا قبول رسمي من جانبهما. يمكن لهذا الأمر أن يُرد قانونياً، وهو ما سيحدث دون ريب. ولدي شك كبير في أن يستسلم التوءمان. أخشى أن يستمر النزاع لوقت طويل.

- فلتحاول آرميدا إعطاءهما شيئاً كي يتراكمها بسلام - اقترح دون ريفوبيرتو -. فأسوأ الأمور بالنسبة إليها هي المحاكمة طويلة الأمد.

لأنها تستمر سنوات ويستولى المحامون على ثلاثة أربعاء الأموال... آي، المعدرة يا دكتور، هذا غير موجه إليك شخصياً، إنه مجرد مزاح.

- أشكرك على ما يتعلّق بي - ضحك المحامي أرنبياس وهو ينهض واقفاً -. أوقفك الرأي، أوافقك. فالوصول إلى صفقة هو الأفضل على الدوام. فلنر من أي وجهة سيتم تناول هذه القضية. وسأبقيك على اطلاع طبعاً.

- وهل سأظل عالقاً في هذه المشكلة أيضاً؟

- سنحاول ألا تكون كذلك طبعاً - طمأنه المحامي نصف طمانينة -. الدعوى القضائية ضدك لم يعد لها أي مفرز الآن، بعد وفاة دون إسماعيل. ولكن لا يمكن أن نعرف أبداً ما الذي قد يخطر لقضاتنا. سأتصل بك فور حصولي على أية مستجدات.

في الأيام الثلاثة التالية لوفاة إسماعيل كارييرا ظل ريفوبيرتو مشلولاً بسبب انعدام اليقين. اتصلت لوكريثيا عدة مرات بآرميدا، ولكن هذه الأخيرة لم ترد على الهاتف قط. كان يرد عليها صوت أنثوي، يبدو أقرب إلى صوت سكرتيرة منه إلى صوت عاملة منزلية. السيدة كارييرا تستريح، وهي تفضل في هذه الظروف، وأسباب جليه، ألا تستقبل

زيارات؛ سأبلغها الرسالة بكل تأكيد. ولم يستطع ريفوبيرتو كذلك الاتصال بالدكتور أرنبياس. فهو غير موجود في مكتبه ولا في بيته أبداً، فقد خرج للتو أو أنه لم يأتِ بعد، أو يعقد اجتماعات باللغة الأهمية، وسوف يرد على المكالمة فور توفر لحظة فراغ له.

ما الذي يحدث؟ ماذا جرى؟ هل فتحت الوصية؟ ما الذي سيكون عليه رد فعل التوءمين حين يعلمان أن إسماعيل قد عين آرميدا وريثة وحيدة له؟ سوف يطعنان بالوصية، وسيعتبرانها باطلة لأنها تخرق قوانين البيرو التي تشترط الثالث الإجباري للأبناء. ولن تعرف العدالة بحصة الميراث التي قدمها إسماعيل مسبقاً إلى التوءمين. أبسطل ريفوبيرتو عالقاً في إجراءات الضبعين القانونية؟ هل سيستمران في التمادي؟ هل سُيُستدعي مجدداً أمام ذلك القاضي الفظيع، في ذلك المكتب الذي يوحى برهاب الأمكنة المغلقة؟ ألن يتucken من الخروج من البيرو ما لم يتم التوصل إلى حل للنزاع القضائي؟

يلتهم الصحافة ويستمع إلى كافة نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية، غير أن القضية لم تصبح خبراً بعد، إنها ما تزال مودعة في مكاتب تنفيذ الوصيات والمدعين العامين والمحامين. كان ريفوبيرتو يعتكف في مكتبه، يشحذ ذهنه محاولاً أن يتنبأ بما يحدث في تلك المكاتب الوثيرة. لم يكن يجد الحماسة لسماع الموسيقى - حتى موسيقى محبوبه مالير تسبب له قشعريرة في أعصابه -، ولا يستطيع التركيز على كتاب، ولا تأمل صور لوحاته والاستغراق في تخيلاته. ويقاد لا يأكل سوى لقيمات قليلة. لا يتبادل مع فونتشيتو ودونيا لوكريثيا أكثر من كلمات صباح الخير ومساء الخير. لا يخرج إلى الشارع خشية أن ينقض عليه الصحفيون دون أن يدرى ما الذي يرد به على أسئلتهم. وقد اضطر، خلافاً لكل احتياطاته، إلى أن يلجأ إلى المنومات الكريهة.

وأخيراً، في اليوم الرابع، وفي وقت مبكر جداً، حين كان فونتشيتو قد غادر للتو ذاهباً إلى المدرسة، وكان ريفوبيرتو ولوكريثيا لا يزالان بثياب النوم وينجذبان لتناول الفطور، حضر إلى البيت في حي بارانكو المحامي كلاوديو أرنبياس. كان يبدو كما لو أنه الناجي الوحيد من كارثة. وكانت حول عينيه دوائر زرقاء عميقية تشي بأرق طويل، ولحية نامية كأنه نسي حلقاتها خلال الأيام الثلاثة الأخيرة، وتكشف ملابسه عن إهمال مفاجئ فيه، هو الذي يخرج على الدوام جيد الملبس والهندام: ربطة العنق منحرفة، ياقه القميص مجعدة جداً، إحدى حمالتي البنطال مفلترة والحذاء غير ملمع. صافحهما، اعتذر لمجيئه المفاجئ، وفي هذا الوقت المبكر، ووافق على تناول فنجان قهوة. وفور جلوسه إلى المنضدة، كشف عن سبب مجئه:

- هل رأيتما آرميدا؟ هل تحدثتما معها؟ أتعرفان أين هي؟ إنني بحاجة إلى أن تكونا صريحين معي. من أجل مصلحتها ومصلحتكما بالذات.

كان دون ريفوبيرتو ودونيا لوكريثيا يحركان رأسيهما نافيين وينظران إليه بغمتين مفتوحين. انتبه الدكتور أرنبياس إلى أن أسئلته قد سببت الذهول لصاحبى البيت، وبدا أن ذلك قد زاده غماً.

- أرى أنكم في السحاب ولا تعرفان شيئاً، مثلـي - قال - أجل، لقد اختفت آرميدا.

- الضبعان... - تلعن ريفوبيرتو بشحوب. تخيل الأرملة المسكينة مخطوفة وربما مقتولة، وجثتها ملقاة في البحر لأسماك القرش، أو في مزبلة خارج المدينة كي تتولى أمرها نسور الرخمة والكلاب الشاردة.

- لا أحد يعرف أين هي - تهاوى الدكتور أرنبياس على الكرسي منهاـاً - لقد كنتما أملـي الأخير.

كانت آرميدا قد اختفت منذ أربع وعشرين ساعة، وبطريقة غريبة جداً. فبعد أن أمضت فترة الصباح كلها في مكتب الكاتب بالعدل نونيث، في مواجهة مع ميكى وإسكونبيتا ومحامي هذين الآخرين، إضافة إلى أرنبياس ومحاميين أو ثلاثة محامين من مكتبه. عُلق الاجتماع في الساعة الواحد، من أجل الغداء، وكان يجب أن يتجدد اللقاء في الرابعة مساء. رجعت آرميدا مع سائقها وحراسها الشخصيين الأربع إلى بيتها في سان إيسيدرو. قالت إنها لا تشعر برغبة في تناول الطعام؛ وإنها ستنام قليولة قصيرة كي تكون مسترية في لقاء المواجهة المسائي. انزوت في حجرتها، وفي الساعة الرابعة إلا ربعاً، حين طرقت العاملة المنزلية بابها ودخلت، كانت حجرة النوم خاوية. لم ير أحد خروجها من الحجرة ولا من البيت. كانت حجرة النوم لا تزال مرتبة تماماً - الفراش مرتب - ودون أي أثر للعنف. لم يرها أحد من الحراس الشخصيين الأربع، ولا كبير الخدم، ولا الخادمات اللتان كانتا في البيت، ولم يلحظوا كذلك وجود أي شخص غريب يجول في محيط المكان. بحث الدكتور أرنبياس فوراً عن التوءمين، مقتنعاً من أنهما سيكونان المسؤولين عن اختفائهما. ولكن ميكى وإسكونبيتا اللذين أخافهما الحدث، رفعا صوتيهما إلى عنان السماء باتهام أرنبياس بنصب شرك لهما. وفي النهاية توجه الثلاثة معاً لتقديم تقرير إلى الشرطة. وقد تدخل وزير الداخلية شخصياً، وأصدر تعليمات بأن يتم التزام الصمت حالياً. وعدم توجيه أي بيان إلى الصحافة قبل أن يتصل الخاطفون بالأسرة. كانت هنالك حالة تعبئة عامة، ولكن دون أدنى إشارة إلى آرميدا أو الخاطفين حتى الآن.

- إنهم هما، الضبعان - أكدت دونيا لوكريثيا -. لقد اشتريا الحراس الشخصيين والسائق والخدمتين. إنهم هما، طبعاً.

- هذا ما ظننته أنا في أول الأمر يا سيدتي، ولكنني لم أعد متأكداً من ذلك - أوضح الدكتور أرنيبياس -. من غير المناسب لهما بأي حال أن تختفي آرميدا، ولا سيما في هذا الوقت بالذات؛ فالمحادثات في مكتب الكاتب بالعدل نونيبيث لم تكن تعصي بصورة سيئة. كنا قد بدأنا بوضع مخطط اتفاق، وكان يمكن لها أن يتلقيا شيئاً إضافياً من التركة. وكل شيء يعتمد على آرميدا. كان إسماعيل قد ترك الأمور محكمة باتفاقه. فالكتلة الكبرى من الميراث محفوظة في أصول في الخارج، في أكثر الجنان الضرائية أمّا على كوكب الأرض. وإذا ما اختفت الأرملة فلن يتلقى أحد سنتاً واحداً من الثروة. لا الضبعين ولا الموظفين في البيت ولا أحد. بل لن أتمكن أنا نفسي من تقاضي أتعابي. وهكذا فإن الأمور قد تحولت إلى اللون الرمادي.

أبدى ملامح حزن وخذلان مضحكة لم يتمكن ريفوبيرتو معها من كبح ضحكته.

- أيمكنني أن أعرف ما الذي يضحكك يا ريفوبيرتو؟ - كانت دونيا لوكريثيا تنظر إليه باستثناء -. هل يبدو لك أن هنالك شيئاً كوميدياً في هذه المأساة؟

- أنا أعرف سبب ضحكك يا سيد ريفوبيرتو - قال الدكتور أرنيبياس -. لأنك تشعر بالتحرر. فالقضية المرفوعة ضد زواج إسماعيل لم تعد صالحة. ستكون ملغاً. وما كان ليكون لهذه القضية، على أي حال، أدنى تأثير على الميراث، لأن الأموال، كما قلتُ لك، ليست في متناول القضاء البيروي. وليس بالإمكان عمل أي شيء. إنها أموال آرميدا. وسوف تتقاسمها هي والخاطفون. أتلاحظون ذلك؟ إنه أمر مضحك طبعاً.

- بل الكلام الأدق، إن الأموال ستبقى بين أيدي بنوك سويسرا

وستغافورة - أضاف ريفوبيرتو مبدياً ملامح الجدّ - إنني أضحك من البلاهة التي ستكون عليها نهاية هذه القصة إذا ما جرت الأمور على هذا النحو يا دكتور أرنبياس.

- أيعني هذا أننا نحن قد تحررنا من هذا الكابوس؟ تساءلت دونيا لوكريثيا.

- بصورة مبدئية، أجل - وافق أرنبياس - اللهم إلا إذا كنتم أنتم من اختطفتم أو قتلتם الأرمدة المليارديره.

وسرعان ما ضحك هو نفسه أيضاً، بقهقهة هستيرية، مدوية، قهقهة خالية من أدنى قدر من السعادة. أخرج نظارته، مسحها بقطعة قماش قطنية، رتب هندامه قليلاً، ثم استعاد وقاره مجدداً ودمدم: «ضحك من أجل عدم البكاء، كما يقول المثل». نهض واقفاً وودعهما مع الوعد بأن يبقيهما على اطلاع. وإذا ما حصل على أي خبر - وهو لا يستبعد أن يتصل الخاطفون بهما - عليهما الاتصال به على هاتفه المحمول، في أي ساعة من النهار أو الليل. أما المفاوضات بشأن الفدية فسوف تتولاها «كونترول ريسك»، وهي شركة متخصصة مقرها نيويورك.

ما إن غادر الدكتور أرنبياس حتى انفجرت لوكريثيا بالبكاء. حاول ريفوبيرتو تهدئتها دون جدوى. كانت ترتعش منتحبة، والدموع تتدحرج على خديها، بينما هي تهمس: «يا للمسكينة، يا للمسكينة. لقد قتلها، لقد قتلها الوغدان، ومن سواهما. أو أنهما أرسلا من يختطفها كي يسرقا منها كل ما خلفه إسماعيل». جاءتها خوستينيانا بكأس ماء مع قطرة من إكسير مهدئ، هدا من روتها أخيراً. ظلت في الصالة ساكنة وصامتة. تأثر دون ريفوبيرتو وهو يرى امرأته في ذلك القنوط. إن لوكريثيا على حق. فمن المحتمل جداً أن يكون التوءمان وراء

هذه المسألة؛ لأنهما أكثر المتضررين، ولا بد أن جنوناً قد أصابهما من فكرة ضياع الميراث كله من أيديهما. رباه، يا للقصص التي تدبرها الحياة اليومية. ليست أعمالاً بارعة، بل أقرب إلى المسلسلات التلفزيونية الطويلة الفنزويلية والبرازيلية والكولومبية والمكسيكية التي تدين بأصولها إلى ثربانتس وتولستوي. ولكنها ليست بعيدة عن ألكسندر دوماس أو إميل زولا أو ديكنز أو بيريز غالدوس.

كان يشعر بالتشوش وانحطاط العنويات. من الجيد طبعاً أنه قد أزاح عن كاهله تلك الشكوى القضائية. وفور التأكد من ذلك، سوف يجدد تذاكر السفر إلى أوروبا. أجل. يجب وضع بحر محيط بينهم وبين هذه الميلودراما. والذهاب إلى حيث اللوحات، المتاحف، أعمال الأوبرا، الحفلات الموسيقية، المسرح رفيع المستوى، المطاعم الفاخرة. أجل. مسكينة آرميدا، بالفعل: كانت قد خرجمت من الجحيم، وعرفت بداية النعيم ثم عادت مجدداً إلى لهيب جهنم. إنها مخطوفة أو مقتولة. أمران كل منهما أسوأ من الآخر.

دخلت خوستينيانا إلى غرفة الطعام بملامح ضيق شديدة. بدت حائرة.

- ما الذي جرى؟ سألهما ريفوبيرتو. وبدت لوكريثيا كما لو أنها تستيقظ من نوم قرون، ففتحت عينيها المبللتين من البكاء على اتساعهما.

- ألا يكون نرسيس قد أصيب بالجنون؟ - قالت خوستينيانا وهي تضع إصبعاً على صدغها. إنه في حالة غريبة جداً. لا يريدني أن أذكر اسمه، ولكني تعرفت عليه. يبدو خائفاً جداً. يريد التكلم معك يا سيدى.

- حولي المكالمة إلى حجرة المكتب يا خوستينيانا.

خرج مسرعاً من غرفة الطعام باتجاه المكتب. كان واثقاً من أن هذه المكالمة تحمل له أخباراً سيئة.

- ألو، ألو - قال في سعادة الهاتف مهيناً نفسه للأسوأ.

- أنت تعرف مع من تتكلّم، أليس كذلك؟ - رد عليه صوتٌ تعرف عليه فوراً - لا تنطق أسمى، أرجوك.

- حسن، كما تشاء - قال ريفوبرتو - أيمكنني أن أعرف ما الذي جرى لك؟

- يجب أن أراك بصورة مستعجلة - قال نرسيس مرعوباً ونرقاً - متأسف لإزعاجك، ولكن الأمر مهم جداً يا سيدى.

- أجل، طبعاً، بكل تأكيد - كان يفكّر، بحثاً عن مكان اللقاء - هل تتذكرة أين تناولنا الغداء آخر مرة مع رب عملك؟

- أتذكرة ذلك جيداً. قال السائق بعد صمت قصير.

- انتظري هناك خلال ساعة بالضبط. سأمر لأخذك بالسيارة. إلى اللقاء.

حين رجع إلى غرفة الطعام ليخبر لوكريثيا بمكالمة نرسيس، وجد ريفوبرتو زوجته وخوستينيانا ملتصقتين بالتلفزيون. تستمعان وتنظران كالمنومتين إلى الصحفي النجم في قناة الأخبار ر.ب.ب. راؤول بارغاس الذي كان يقدم تفاصيل، ويخرج بافتراضات وتخمينات، حول الاختقاء الغامض يوم أمس للسيدة آرميدا دي كاريرو، أرملة رجل الأعمال المعروف، دون إسماعيل كاريرو المتوفى حديثاً. أوامر وزير الداخلية بعدم إذاعة الخبر لم تفدي شيئاً. لا بد أن البيرو بأسرها ستكون الآن، مثلهما، تتتابع هذا الخبر المستجد. وسيكون لدى أهالي ليما ما يتسلون به لبعض الوقت. وقف يستمع إلى راؤول بارغاس. كان يقول ما يعرفونه تقريباً: اختفت السيدة يوم أمس، عند العصر، بعد مثول في مكتب

الكاتب بالعدل نونيث لفتح وصية الزوج المتوفى. وكان من المقرر أن يُستكمل ذلك الاجتماع في المساء. اختفاء السيدة جرى خلال الاستراحة بين الاجتماعين، وقد احتجزت الشرطة جميع العاملين في البيت، وكذلك أربعة حراس شخصيين للأرملة، من أجل استجوابهم. لا يوجد أي إثبات بأن في الأمر عملية اختطاف، ولكن هذا هو المتوقع. وتقدم الشرطة رقم هاتف خاص، لكل من رأى السيدة أو لديه أخبار عن مكان وجودها. عرض صوراً لآرميدا ولجنازة إسماعيل، مذكراً بالفضيحة التي مثلها زواج رجل الأعمال الثري من خادمته المنزلي السابقة. وأعلن أن ابني المتوفى قد نشرنا بياناً يقولان فيه إنهم يعربان عن حزنهم لما حدث، ويأملان في أن تظهر السيدة سليمة ومعافاة. ويعرضان مكافأة لمن يساعد في العثور عليها.

- قطبيع الصحافة بأسره سيسعى الآن لإجراء مقابلات معى. قال ريفوبيرتو لاعناً.

- لقد بدؤوا - وجهت إليه خوستينيانا الطعنة - فقد اتصلوا من إذاعتين ومن جريدة حتى الآن.

- من الأفضل قطع الهاتف. أمرها ريفوبيرتو.

- ما الذي يريد نرسيس؟ سأله دونيا لوكريثيا.

- لا أدرى، لاحظت أنه خائف جداً بالفعل - قال موضحاً - لا بد أن الضبعين قد فعلا له شيئاً ما. سوف أذهب للقاء به الآن. لقد حددنا موعداً للقاء كما في الأفلام، دون أن نذكر اسم المكان. ربما لن نتمكن من اللقاء أبداً.

استحم ونزل مباشرة إلى المراقب. وحين انطلق في السيارة رأى أمام مدخل البناء، حيث بيته، صحفيين مرابطين ومعهم كاميرات فوتografية. وقبل أن يتوجه إلى مطعم «روسا ناوتيكا»، حيث تناول

الغداء آخر مرة مع إسماعيل كاريرا، قام بعدة جولات في شوارع حي ميرافلوريس كي يتأكد من أن أحداً لا يتبعه. ربما يكون نرسيس قد تعرض لمشاكل مالية. ولكن هذا ليس سبباً لأن يتخذ كل تلك الاحتياطات ويخفي شخصيته. أو ربما لديه سبب ما. حسن، سأعرف الآن ما الذي جرى له. دخل إلى مرآب المطعم، ورأى نرسيس يظهر من بين السيارات. فتح له الباب، فصعد الزنجي وجلس بجانبه: « صباح الخير يا دون ريفوبيرتو. اعذرني لما سببته لك من إزعاج».

- لا تقلق يا نرسيس. هلم بنا للقيام بجولة حول المكان وبهذا يمكننا أن نتحدث باطمئنان.

كان السائق يضع قبعة زرقاء غاطسة حتى عينيه، وبدا أنحف مما كان عليه منذ اللقاء به آخر مرة. توجه ريفوبيرتو عبر الشاطئ الأخضر باتجاه بارانكو وتشوريبيوس منضماً إلى رتل كثيف من السيارات.

- لابد أنك قد رأيت كيف أن مشاكل إسماعيل لا تتوقف حتى بعد موته - علق أخيراً -. ولا بد أنك علمت بأن آرميدا قد اختفت، أليس كذلك؟ يبدو أنها قد اختطفت.

ولأنه لم يلْقَ جواباً، ولم يسمع سوى تنفس السائق الجزء، فقد وجه نظره سريعة إليه. كان نرسيس ينظر إلى الأمام بضمور مزمن وفي حدقيه بريق فزع. وقد شبّك يديه وراح يشدهما بقوة.

- هذا بالضبط ما أريد التحدث معك عنه يا دون ريفوبيرتو - غمغم وهو يعاود النظر إليه ويزكيح عينيه عنه في الحال.

- أتعني عن اختفاء آرميدا؟ - التفت دون ريفوبيرتو إليه مرة أخرى. واصل سائق إسماعيل النظر إلى الأمام، ولكنه هز رأسه مؤكداً مرتين أو ثلاثة مرات.

- سأدخل إلى نادي ريفاتاس وأتوقف بالسيارة هناك كي نتحدث

بهدوء. وإنني سوف أتسبب في تصطدام - قال ريفوبيرتو.

دخل إلى النادي وتوقف في صف السيارات الأول مقابل البحر. كان صباحاً رمادياً وضبابياً، وكان هناك الكثير من النوارس والبط والقطرس تحلق في الهواء وتزعق. وفتاة نحيلة جداً ترتدي بيجامة رياضية وتمارس يوغا على الشاطئ المقرف.

- لا تقل لي إنك تعرف من هم الذين خطفوا آرميدا يا نرسيس. كان السائق هو الذي التفت الآن لينظر إلى عينيه ثم ابتسם فاتحاً فمه. بدأ بريق أسنانه ناصعة البياض.

- لم يختطفها أحد يا دون يغوبيرتو - قال مبدياً الجدّ - وهذا الموضوع بالذات هو الذي أريد أن أكلمك بشأنه، لأنني أشعر بشيء من العصبية. ما أردته هو تقديم معرفة لآرميدا وحسب، أعني السيدة آرميدا. لقد كنا صديقين جيدين حين كانت مجرد عاملة لدى إسماعيل. وكانت علاقتي بها على الدوام أفضل من علاقتي بالعاملين الآخرين. لم تكن متكبرة، بل بسيطة جداً. وإذا ما طلبت مني معرفة باسم صداقتنا القديمة، فكيف يمكن لي أن أرفض تلبية طلبها. أما كنت حضرتك ستفعل الشيء نفسه؟

- سأطلب منك أمراً يا نرسيس - قاطعه ريفوبيرتو - من الأفضل أن تخبرني بكل شيء، من البداية. دون أن تنسى أي تفصيل. أرجوك. ولكنني أريد أن أعرف شيئاً واحداً قبل ذلك. أهي حية إذا؟

- إنها حية مثلني ومثلك يا دون ريفوبيرتو. أو أنها كانت كذلك حتى يوم أمس على الأقل.

وعلى عكس ما طلب منه، لم يتوجه نرسيس إلى لب المسألة فوراً. فهو محظوظ للديbagات والمقدمات والاستطرادات الجانبية واللف والدوران والجمل الاعتراضية، أو أنه لا يستطيع تجنبها. فلم يكن من

السهل على دون ريفوبيرتو أن يعيده دوماً إلى التسلسل الزمني للوقائع وإلى صلب الموضوع. كان نرسيس يتبعه في تفاصيل وتعليقات عرضية. ومع ذلك، عرف ريفوبيرتو بطريقة مشوّشة وملتوية أنه في اليوم الذي رأى فيه إسماعيل آخر مرة في بيته بسان إيسيدرو، كان نرسيس هناك أيضاً في المساء، عند الغروب، إذ استدعاه إسماعيل كاريرا. وقد شكره كل من إسماعيل وأرميدا كثيراً على مساعدته لهما ووفائه، وكفأاه بسخاء. ولهذا، حين علم في اليوم التالي بموت رب عمله المفاجئ، هرع مسرعاً للتقديم تعزيزاته للسيدة. بل إنه حمل معه رسالة ليتركها لها لأنه كان شبه واثق من أنها لن تستطيع استقباله. غير أن أرميدا طلبت منه الدخول وتبادلته معه بعض الكلمات. لقد كانت المسكينة محطمة من تلك النكبة التي أصابها الله بها ليختبر صلابتها. وفي لحظة وداعها، فوجئ نرسيس بسؤالها له عما إذا كان لديه هاتف محمول يمكنها الاتصال به. فأعطتها الرقم متسللاً باستغراب عن السبب الذي يمكن لها أن تتصل به من أجله.

بعد يومين من ذلك، أي قبل أول أمس، اتصلت به السيدة أرميدا، في وقت متأخر من الليل، حين كان نرسيس قد انتهى من رؤية برنامج مجيالي ميديانا في التلفزيون، وذهب ليندرس في الفراش.  
- يا لها من مفاجأة، يا للمفاجأة. قال السائق حين تعرّف على صوتها.

- لقد كنت أكلّمها دون كلفة على الدوام - أوضح نرسيس بدون ريفوبيرتو -. ولكن منذ زواجها من دون إسماعيل، لم يعد بإمكانني فعل ذلك. غير أن كلمة حضرتك لم تكن تخرج معي. لذلك كنت أحاول التحدث إليها بصيغة الغائب، لا أدرى إن كنت تفهمي.  
- أفهمك تماماً يا نرسيس - ووجهه ريفوبيرتو -. تابع، تابع. ما

الذي كانت تريده منك آرميدا؟

- أريد منك أن تقدم لي معروفاً كبيراً يا نرسيس، جميلاً آخر كبيراً جداً. أطلبه منك مرة أخرى بسبب صداقتنا القديمة.

- طبعاً، طبعاً، بكل سرور - قال لها السائق - وما هو هذا الجميل؟

- أن توصلني إلى مكان معين، غداً مساء. دون أن يعلم أحد بالأمر.

هل أنت قادر على ذلك؟

- وإلى أين أرادت أن توصلها؟ - استعجله دون رигوبيرتو.

- إنه من أشد الأمور غرابة - انحرف نرسيس بالكلام مرة أخرى -

لا أدرى إن كنت تتذكرة، ولكن وراء الحديقة، بالقرب من غرفة العاملين، هنالك في بيت دون إسماعيل باب صغير للخدم يؤدي إلى الشارع، يكاد لا يستخدم مطلقاً. إنه يطل على زقاق ومنه يُخرجون القمامنة في الليل.

- أرجوك ألا تبتعد عما هو جوهرى يا نرسيس - ألح ريجوبيرتو - ألا

يمكنك أن تخبرنى بما كانت تريده منك آرميدا؟

- أرادت مني أن أنتظرا هنالك، بسيارتي القديمة، طيلة المساء. إلى

أن تظهر هي. دون أن يراني أحد. أمر غريب، أليس كذلك؟

بدا الأمر غريباً جداً لنرسيس. ولكنه فعل ما طلبته هي منه، دون مزيد من الأسئلة. ومع بداية مساء البارحة، أوقف سيارته في ذلك الزقاق قبالة باب الخدمة في بيت دون إسماعيل. انتظر نحو ساعتين وهو يكاد يموت من الضجر، وكان يغلبه النعاس للحظات، ويستمع إلى نكات من المذيع في لحظات أخرى، أو يتأمل الكلاب الشاردة وهي تنبش أكياس القمامنة، ويفسأل مرة بعد أخرى عما يعنيه كل ذلك. لماذا تتخذ آرميدا كل تلك الاحتياطات من أجل الخروج من البيت؟ لماذا لا تخرج من البوابة الكبيرة، بسيارتها الرسيدس بنز، ومع سائقها

الجديد ذي الزي الخاص وحراسها الشخصيين ذوي العضلات المفتولة؟  
لماذا تريد الخروج خفية في سيارة نرسيس العتيقة؟ وأخيراً انفتح الباب  
الصغير وظهرت آرميدا وبiederها حقيقة صغيرة.

- ما هذا، ما هذا، كنت قد بدأت أفكراً بالانصراف - قال لها نرسيس على سبيل التحية، وفتح لها باب سيارته المتمالكة.  
- انطلق بسرعة يا نرسيس، قبل أن يرانا أحد - أمرته - بل طِّبْ أنا

- كانت مستعجلة جداً يا سيدى - أوضح السائق . عندئذ بدأت أقلق. أيمكنني أن أعرف ما سبب كل هذه السرية يا آرميدا؟
- ما هذا، أراك عدت إلى مناداتي بآرميدا ورفع الكلفة معي - قالت ضاحكة . كما في الأزمنة القديمة. أحسنت صنعاً يا نرسيس.
- اعتذر ألف مرة - قال السائق . أعرف أنه علىَّ أن أكلمك باحترام بعد أن صرتِ الآن سيدة عالية المقام.

- دعك من البلاهات وحدثني بلا تكلف وحسب، لأنني مازلت أنا نفسى مثلما كنت على الدوام - قالت - لست سائقى ، بل أنت صديقى ورفيقى. أتدرى ما الذى كان يقوله إسماعيل عنك؟ «هذا الزنجي يساوى وزنه ذهباً». إنها الحقيقة الخالصة. إنك تساوى ذلك يا نرسيس.

- أخبريني على الأقل إلى أين تريدين أن أوصلك - سألهَا.
- إلى محطة حافلات كروث دي تصالبون؟ - قال ريفوييرتو مذهبواً
- أكانت تrepid السفر؟ أكانت آرميدا تrepid ركوب حافلة يا نرسيس؟
- لا أدرى إذا ما فعلت ذلك، ولكنني تركتها هناك - أكد السائق -
- في تلك المحطة. لقد قلت لك إنها كانت تحمل حقيبة صغيرة. يخيّل إلى أنها كانت مسافرة. طلبت مني لا أوجه إليها أسئلة، فلم أوجه أسئلة.

- من الأفضل أن تنسى هذا كله يا نرسيس - كررت آرميدا وهي تصافحه مودعة - من أجلي ومن أجلك أنت على السواء. هنالك أشرار يريدون إلحاق الأذى بي. أنت تعرف من هم. ويريدون الأذية لكل أصدقائي. أنت لم ترني، ولم تجني بي إلى هنا، ولا تعرف أي شيء عني. لا أستطيع أن أرد لك جميلاً هذا طيلة حياتي يا نرسيس.

- لم أستطع النوم طيلة هذه الليلة - أضاف السائق -. كانت الساعات تمر وأنا أزداد خوفاً، مثلما أقول لك، كنت أخاف أكثر فأكثر. بعد كل الرعب الذي سببه لي التوeman، يأتي الآن هذا الخوف. لهذا اتصلت بك يا دون ريفوبيرتو. وما إن أنهيت مكالتي معك حتى سمعت في تلفزيون ر.ب.ب. أن السيدة آرميدا قد اختفت، أنها قد اختطفت. لهذا ما زلت أرجف حتى الآن.

ربت دون ريفوبيرتو على كتفه.

- أنت طيب جداً يا نرسيس، ولهذا أنت خائف جداً. لقد أدخلت نفسك الآن مجدداً في ورطة كبيرة. أخشى أنه سيكون عليك أن تذهب إلى الشرطة وتروي لهم هذه القصة.

- لن أفعل ذلك ولو مت يا سيدي - أجابه السائق بتصميم -. لا أدرى أين ذهبت آرميدا ولا لماذا ذهبت. وإذا ما أصابها شيء سيبحثون عن مذنب. وأنا المذنب المناسب لهم تماماً، لاحظ ذلك. سائق سابق بدون إسماعيل، متواطئ مع السيدة. ومن أجل أن تكتمل القضية: زنجي. لست مجنوناً كي أذهب بنفسي إلى الشرطة.

«كلام دقيق»، فكر دون ريفوبيرتو. إذا لم تظهر آرميدا، سيكون على نرسيس أن يدفع ثمن الأطباق المكسرة.

- حسن، ربما تكون على حق - قال -. لا تخبر أحداً بما قلته لي. دعني أفكر. سأرى بماذا يمكنني أن أنصحك بعد أن أقوم بتقليل الأمر

والتمعن فيه. أضف إلى ذلك أنه يمكن لآرميدا أن تعود للظهور في أي لحظة. اتصل بي غداً، مثلما اتصلتاليوم، في موعدتناول الفطور. أوصل نرسيس إلى مرآب «روسا ناوتيكا» ورجع إلى بيته في بارانكو. دخل مباشرة إلى المرآب، كي يتتجنب الصحفيين الذين مازالوا يتجمعون أمام مدخل العماره. وقد صار عدهم ضعف ما كانوا عليه.

كانت دونيا لوكريثيا وخوستينيانا لا تزالان تتبعان التلفزيون، تستمعان إلى الأخبار بلامح ذاهلة. وقد استمعتا إلى روايته فاغرتي الفم.  
- أغنى امرأة في البيرو تهرب بحقيقة يدوية صغيرة، وفي حالة  
بائسة مثل أي صعلوك متشرد، بدون وجهة محددة - أنهى دون  
ريغوبيرتو روايته - المسلسل الطويل لا ينتهي، إنه يتواصل ويتعقد أكثر  
فاكثر كل يوم.

- أنا أفهمها جيداً - هتفت لوكريثيا - لقد كانت ضجرة من كل  
شيء، من المحامين، من الصحفيين، من الضبعين، من النمامين.  
أرادت أن تتوارى عن الأنظار. ولكن أين؟

- وأين سيكون إلا في بيورا - قالت خوستينيانا واثقة مما تقول -  
في بيورانية ولها أخت هناك تدعى خيرتروديس، على ما أظن.

## XVII

«لم تبكِ ولو مرة واحدة»، فكر فيليثيتو ياناكيه. بالفعل، ولا مرة واحدة. لكن خيرتروديس صارت بكماء. لم تعد إلى فتح فمها بكلمة واحدة، معه على الأقل، ومع ساتورنينا، الخادمة. ربما كانت تتكلم مع أختها آرميدا التي استقرت، منذ مجئها إلى بيورا، في الغرفة التي كان ينام فيها تيبورثيو وميغيل حين كانوا طفليين وشابين قبل أن يغادرا ليعيشَا وحدهما.

خيرتروديس وآرميدا ثمضيان ساعات طويلة هناك، ومن المحال إلا تكونا قد تبادلتا الكلام طوال ذلك الوقت. ولكن خيرتروديس أصيبت بالبكاء منذ مساء أول أمس، حين رجع فيليثيتو من عند التقية آديلايدا وأخبر زوجته بأن الشرطة قد اكتشفت أن عنكبوت الابتزاز هو ميغيل، وأن ابنها قد اعتُقل واعترف بكل شيء. لم تعد إلى فتح فمها أمامه. (لم يذكر لها فيليثيتو طبعاً أي شيء عن مابيل). لقد تأجّجت عينا خيرتروديس وسيطر عليهما الغم، أجل، وشابكت يديها كمن تصلّي. وبهذا الوضع كان يراها فيليثيتو كلما التقى معاً خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة. وبينما هو يختصر لها القصة التي أخبرته بها الشرطة، مخفياً عنها طيلة الوقت اسم مابيل، لم تسأله زوجته عن أي شيء، ولم تعلق بأي شيء، ولم تجب على الأسئلة القليلة التي وجهها إليها. ظلت جالسة هناك، في العتمة الظلليلة بحجرة التلفزيون، صامتة،

منطوية على نفسها مثل قطعة أخرى من قطع الأثاث، تنظر إليه بتينك العينين اللامعتين والمشككتين، وبعيدين متشابكتين، مثل معبد وثنى. بعد ذلك، حين نبهها فيليثيتو إلى أن الخبر سينتشر عما قريب، وسوف يتواجد الصحفيون كالذباب إلى البيت، وعليها ألا تفتح الباب ولا أن ترد في الهاتف على أسئلة أي صحيفة أو إذاعة أو تلفزيون، نهضت واقفة، دون أن تنطق بأي كلمة، وذهبت لتعتكم في حجرة أختها. لفت انتباه فيليثيتو أن خيرتروديس لم تحاول الذهاب فوراً لرؤيه ميغيل في مفوضية الشرطة أو السجن. وكذلك صمتها. هل إضراب الصمت هذا يقتصر عليه هو؟ لا بد أنها قد تحدثت مع آرميدا، لأن هذه بدت في الليل وخلال العشاء مطلعة على ما حدث.

- يؤسفني جداً مجئي لإزعاجكم في هذه اللحظات باللغة الصعوبة عليكم - قالت له السيدة الأنique التي كان يقاوم فكرة دعوتها بابنة حميء بينما هي تمد إليه يدها - لم يكن لدى مكان أذهب إليه. ستكون بضعة أيام فقط، أعدك بهذا. أطلب منك ألف معذرة لأنني داهمت بيتك بهذه الطريقة يا فيليثيتو.

لم يكن يصدق عينيه. أ تكون هذه السيدة البهية، فاخرة الملابس والمجوهرات، هي أخت خيرتروديس؟ إنها تبدو أكثر شباباً بكثير منها، كما أن ملابسها وحذاءها وخواتمها وقرطبيها وساعة يدها، كلها كتلك التي تستخدمنها أولئك السيدات الثريات اللاتي يعشن في بيوت كبيرة ذات حدائق ومساحات في التشيبة، وليس واحدة أخرى من أسرة صاحبة نُزل شجرة الخروب، ذلك النسيون التافه في إحدى ضواحي بيورا.

أثناء العشاء تلك الليلة، لم تتذوق خيرتروديس لقمة واحدة، ولم تتفوه بأية كلمة. رفعت ساتورنينا طبق حساء الشعيرية دون أن يمس،

وكذلك طبق الأرز مع الدجاج. وطوال فترة المساء وشطر لا بأس به من الليل توالى الطرق على باب البيت ورنين جرس الهاتف دون توقف، على الرغم من أن أحداً لم يكن يفتح الباب أو يرفع سماعة الهاتف. كان فيليثيتو يترصد بين حين وآخر من خلال ستائر النافذة: ما زال في الخارج أولئك الغربان المتلهفون للحصول على جيفة لآلات تصويرهم، يتجمعون على الرصيف وفي شارع اريكيبيا، منتظرین أن يخرج أحد من البيت لينقضوا عليه. ولكن لم يخرج أحد سوى ساتورنينا، لأنها خادمة بلا مبيت، وكان خروجها في وقت متأخر من الليل، وقد رأها فيليثيتو تدافع عن نفسها من الهجوم برفع ذراعيها، وأخفاء وجهها أمام وميض فلاشات المصورين، والانطلاق راكضة.

في الصالة الصغيرة فقط، شاهد فيليثيتو أخبار محطة التلفزيون المحلي واستمع إلى المذيع حيث يشيع انتشار الخبر. ظهر ميغيل على شاشة التلفاز، وكان عابساً، مشعر الشعر ومكبل اليدين، يرتدي بيجامة رياضية وحذاء كرة سلة، وكذلك مابيل، ولكنها لم تكن مقيدة اليدين، تنظر بهلع إلى وبيض آلات التصوير. وأحس فيليثيتو في أعماقه بالامتنان لأن خيرتوديس قد ذهبت لتلوذ بحجرتها ولم تر، وهي جالسة بجانبه، هذه الأخبار حيث يجري الكشف عن أن عشيقته، المدعوة مابيل، التي فتح لها بيتاً في حي كاستييا، قد خانته مع ابنه بالذات، ودبوا معاً مؤامرة لابتزازه بإرسالهما رسائل العنكبوت الشهيرة، وافت讓他們ا حريق مقر نارييهوا للنقل.

كان يرى ويسمع ذلك كله بقلب منقبض ويدين مبللتين بالعرق،  
ويشعر ببداية دوار آخر ممايل لذاك الذي أفقده الإحساس عند  
آديلايدا، ولكن مع الشعور المثير للفضول، في الوقت نفسه، بأن ذلك  
كله صار بعيداً جداً وغريباً عنه. ليست له أية علاقة به. حتى إنه لم

يشعر بأنه معني بالأمر حين ظهرت صورته بالذات على الشاشة، بينما المذيع يتكلم عن عشيقته مابيل (التي أطلق عليها تسمية «مساكينته»)، وعن ابنته ميفيل وعن شركته للنقل. بدا كما لو أنه قد انفصل عن نفسه، وكما لو أن فليثيتو ياناكى الذي يظهر في الصور التلفزيونية والأخبار الإذاعية هو شخص ينتحل اسمه ووجهه.

وحين أضطجع، دون أن يتمكن من النوم، أحس بخطوات خيرتروديس في غرفة النوم المجاورة. رأى الساعة: قرابة الواحدة بعد منتصف الليل. وزوجته، على ما يتذكر، لم تتأخر قط في السهر إلى مثل هذا الوقت. لم يستطع النوم، أمضى الليل مؤرقاً، كان يفكر للحظات، ولكنه يظل في معظم الوقت خالي الذهن، يصفي إلى نبضات قلبه. وفي موعد تناول الطعام، كانت خيرتروديس لا تزال صامتة؛ لم تتناول سوى فنجان شاي. بعد قليل من ذلك، وبطلب من فيليثيتو، جاءت خوسيفيتا لتطلعله على ما يحدث في المكتب، وليكلفها ببعض المهام، وبحرير بعض الرسائل. وقد حملت إليه كذلك رسالة من ابنته تيبورثيو الذي كان في تومبيس. وحين علم بالأخبار، اتصل عدة مرات، لكن أحداً لم يرد عليه. لقد كان يسوق حافلة ركاب على ذلك الخط، وفور وصوله إلى بيورا سيهرع إلى بيت أبيه. بدت سكرتيرته مشوشة من الأخبار إلى حدّ كاد معه فليثيتو ألا يتعرف عليها. فهي تتفادى النظر إلى عينيه والتعليق الوحيد الذي تفوحت به هو عن مدى سماحة أولئك الصحفيين، فقد سببوا لها الجنون يوم أمس في المكتب، وأحاطوا بها الآن لدى وصولها إلى البيت، دون أن يسمحوا لها بالاقتراب من الباب لوقت طويل، بالرغم من أنها كانت تصرخ بهم بأنه ليس لديها ما تقوله، وأنها لا تعرف شيئاً، وأنها سكرتيرة السيد ياناكىه وحسب. كانوا يوجهون إليها أسئلة شديدة الوقاحة، ولكنها لم تقل لهم،

بالطبع ، ولو كلمة واحدة. وعندما انصرفت خوسيفيتا ، رأى فيليثيتو من النافذة أنها تعرضت مرة أخرى لهجوم حفنة رجال ونساء يحملون آلات تسجيل وكاميرات ويترافقون على رصيف شارع اريكبيا.

في موعد الغداء ، جلست خيرتروديس إلى المائدة مع آرميدا ومعه ، ولكنها لم تأكل ولو لقمة واحدة ، ولم تتفوه بأية كلمة. كانت عيناهما كجموتين ، وكانت تشتد إحدى يديها على الأخرى. ما الذي تراه يدور في رأسها مشعر الشعر؟ خطر له أنها نائمة ، وأن الأخبار عن ميغيل قد حولتها إلى مسرنة.

- كم هو رهيب ، يا فيليثيتو ، هذا الذي يحدث لكم - اعتذر آرميدا بأسى مرة أخرى . - لو أني كنت أعلم هذا كله لما وقعت عليكم على هذا النحو المفاجئ قط. ولكن ، مثلما قلت لك أمس ، ليس لدى مكان أذهب إليه. وجدت نفسي في وضع صعب جداً وبحاجة إلى التواري عن الأنظار. سأشرح لك كل شيء ، بالتفصيل حين ترغب حضرتك. أعرف أن مشاكل أخرى أكثر أهمية تشغلك تفكيرك الآن.

ولكن صدق قولي هذا على الأقل : لن أبقى لأيام إضافية طويلة.

- أجل ، ستخبرينني بكل ما تريدين ، ومن الأفضل أن يكون ذلك فيما بعد - قال موافقاً . حين تمر قليلاً هذه العاصفة التي تجتاحنا. يا لسوء الحظ يا آرميدا. أن تأتي لتخبئي هنا بالذات ، حيث يتركز صحفيو بيورا جميعهم بعد هذه الفضيحة. أشعر أنني سجين في بيتي بسبب هذه الكاميرات والآلات التسجيل.

هزمت أخت خيرتروديس رأسها موافقة ، وبينصف ابتسامة متفهمة : - لقد مررت بمثل هذا وأعرف ما الذي يعنيه - سمعها تقول دون أن يفهم ما الذي تعنيه. ولكنه لم يطلب منها أن تفسر له ذلك.

وأخيراً ، عند العصر ، وبعد كثير من التفكير ، قرر فيليثيتو أن الوقت

قد حان. طلب من خيرتروديس أن تذهب إلى صالة التلفزيون الصغيرة: «علينا أن نتحدث أنت وأنا على انفراد»، قال لها. انسحبت آرميدا فوراً إلى حجرتها. بينما تبعدت خيرتروديس زوجها بكل وداعة إلى الحجرة المجاورة. جلست الآن على أريكة مقابله، تحت إضاءة خافتة، بهدوء وخمول وصمت. كانت تنظر إليه دون أن تراه كما يبدو.

- لم أكن أتصور أنه سيأتي يوم نتحدث فيه عما سنتحدث عنه الآن. بدأ فيليثيتو بنعومة بالغة. لاحظ، متفاجئاً، أن صوته يرتجف.

لم تتحرك خيرتروديس. كانت محشورة في الثوب عديم الهوية الذي يبدو هجينًا ما بين جلباب وعباءة، وتنظر إليه، كما لو أنه غير موجود هناك، بتينك الحدقتين اللامعتين ببريق هادئ في وجهها الملتئِ ذي الفم الكبير، إنما الخالي من التعبير. كانت تضع يديها في حضنها، مشدودتين بقوّة، كما لو أنها تعاني آلاماً رهيبة في المعدة.

- لقد خامرني الشك منذ اللحظة الأولى - واصل صاحب شركة النقل وهو يبذل جهداً للسيطرة على العصبية التي استحوذت عليه - لكنني لم أقل لك ذلك كيلاً أحرجك. وكنت سأحمل الأمر معي إلى القبر لو لم يحدث ما حدث.

أطلق زفراً، تنفس بعمق. لم تكن زوجته قد تحركت ميليمتراً واحداً، كما أنها لم ترمش ولو مرة واحدة. بدت متحجرة. بدأت حشرة غير مرئية تئز في مكان ما من الحجرة، وتصطدم بالسقف والجدران. كانت ساتورنينا تسقي الحديقة، وكان يُسمع صوت انسكاب ماء المرشة على النباتات.

- ما أعنيه - واصل الحديث شدداً على كل حرف - أنك أنت وأمك قد خدعتماني. في ذلك اليوم، هناك في نزل شجرة الخروب. لم يعد الأمر يهمني الآن. لقد مضت سنوات طويلة، ولا فرق لدى اليوم في

اكتشاف أنك أنت والأمرة قد أوقعتما بي. الشيء الوحيد الذي أريده،  
كي أموت مطمئناً، هو أن تؤكدي لي ذلك يا خيرتروديس.

صمت وانتظر. ظلت هي في الوضع نفسه، جامدة، لكن فيليثيتو  
لاحظ أن أحد الخفيفين اللذين في قدمي امرأته قد انزاح جانبًا ب بصورة  
ضئيلة. ثمة حياة هناك على الأقل. بعد لحظات، باعدت خيرتروديس  
ما بين شفتيها وأطلقت جملة أشبه بزمجرة:

- ماذا تريدين أن أؤكد لك يا فيليثيتو؟

- أن ميغيل ليس ابني ولم يكن كذلك قطّ - قال رافعًا صوته قليلاً -  
وأنكِ كنتِ حاملاً من آخر عندما جئتِ أنت والأمرة في ذلك الصباح، في  
نُزل شجرة الخروب، لتتكلما وجعلتمني أصدق أنتي أنا الأب. بعد أن  
تقدمنا بشكوى إلى الشرطة لإجباري على الزواج منكِ.

حين أنهى هذه الجملة أحس بالضيق والضجر، كما لو أنه أكل  
شيئاً غير قابل للهضم أو تناول إبريقاً شديداً التحمر من شراب  
التشيتشا.

- لقد ظننتُ أنك أنت الأب - قالت خيرتروديس بهدوء مطلق.  
كانت تتكلم دون غضب، بالاشمئاز الذي تشير به دوماً إلى أي شيء،  
باستثناء الأمور الدينية. ثم أضافت، بعد صمت طويل، بالطريقة  
المحايدة وغير المبالغة نفسها: - لم يكن في نيتها ولا في نية أمي أن  
نخدعك. لقد كنتُ متأكدة آنذاك من أنك أنت أبو الجنين الذي كان  
في بطني.

- ومتى انتبهت إلى أنه ليس مني؟ سألها فيليثيتو باندفاع آخر  
بالتحول إلى غضب.

- حين ولد ميغيليتو فقط - اعترفتْ خيرتروديس، دون أدنى تبدل في  
نبرة صوتها -. حين رأيته شديد البياض، بعينيه الزرقاء وشعر أقرب

إلى الأشقر. لا يمكن له أن يكون ابن خلاسي تشولو تشوليكانى مثلث. صفتت وواصلت النظر إلى عيني زوجها بالهدوء نفسه. فكر فيليثيتتو بأن خيرتروديس تبدو كمن تكلمه من تحت الماء أو من خلال زجاج سميك. كان يشعر بها منفصلة عنه بشيء غير مرئي ولا يمكن اجتيازه، بالرغم من أنها على مسافة متر واحد منه.

- إنه ابن سبعة آباء حقيقي، ليس من المستغرب أن يفعل بي ما فعله - دمدم بين أسنانه -. وهل عرفتِ عندئذ من هو والد ميفيل الحقيقي؟

تنهدت زوجته وهزت كتفيها بإيماءة يمكن لها أن تكون تعبيراً عن عدم الاهتمام أو التعب. وأنكرت بهز رأسها مرتين أو ثلاث مرات، وبرفع كتفيها.

- كم من الأشخاص صاجعتِ في ثُرل شجرة الخروب إذن، تشي غوا؟. كان فيليثيتتو يشعر بعقدة في حلقه وأنه يريد إنتهاء ذلك الموقف دفعة واحدة.

- جميع من كانت أمي تُدخلهم إلى فراشي - زمرة خيرتروديس ببطء واقتضاب. ثم تنهدت من جديد بمزاج إنهاء غير متناهٍ، وحددت: - كثيرون. وليسوا جميعهم من النزلاء. بل أشخاص يأتون من الشارع أحياناً.

- الآمرة هي من كانت تُدخلهم إليك؟ كان يجد صعوبة في التكلم ويشعر بأذى في رأسه.

طلت خيرتروديس ساكنة، بلا تبدل، كأنها شبح مسطح، وهي تشد إحدى يديها على الأخرى طوال الوقت. كانت تنظر إليه بثبات غائب، مضيئة وهادئة، مما يزيد من تشوش فيليثيانو كل لحظة.

- هي من كانت تختارهم وتتقاضى النقود منهم، وليس أنا - أضافت

أمرأته، بشيء من التبدل في نبرة صوتها. لم تعد تبدو الآن أنها تخبره وحسب، بل تتحدها أيضاً. من تراه يكون أبو ميغيل. لا أعرف. إنه أبيض ما، أحد أولئك الغرباء الذين كانوا يمرون من نزل شجرة الخروب. ربما واحد من اليوغسلافيين الذين جاؤوا للعمل في أنظمة ري نهر تشيرا. فقد كانوا يأتون إلى بيورا ليسكنوا في عطلة نهاية الأسبوع، ويمررون بالنزل.

نَدْ فِيلِيُثِيُو عَلَى فَتْحِ هَذَا الْحَوَارِ. هَلْ أَخْطَأْ بِإِخْرَاجِهِ إِلَى السُّطْحِ،  
هَذَا الْمَوْضُوعُ الَّذِي لَاحِقَهُ مُثْلُ ظَلَهُ طِيلَةُ حَيَاتِهِ؟ وَهَا هُوَ الآنْ هُنَاكَ،  
بَيْنَهُمَا، لَا يَدْرِي كَيْفَ يَزِيَّحُهُ عَنْ كَاهِلِهِ. كَانَ يَشْعُرُ بِهِ كَعَائِقَ رَهِيبٍ،  
كَمَوْضُوعٍ دَخِيلٍ لَنْ يَخْرُجْ أَبْدًا مِنْ هَذَا الْبَيْتِ.

- وكم عدد من أدخلتهم الآمرة إلى فراشك؟ - ز مجر. كان متأكداً من أنه سيصاب في أية لحظة باغماءة أخرى أو بنوبة تقيؤ - بيورا بأسرها؟  
- لم أحص عددهم - قالت خيرتوديس بلا مبالاة، مبدية تكشيرة ازدراء -. ولكن بما أنك مهم بمعرفة ذلك، أكرر لك بأنهم كانوا كثيرين. وكنت حريصة قدر ما أستطيع. لم أكن أعرف الكثير حول هذه الأمور آنذاك. وحقن الغسول التي كنت استخدمها يومياً كانت تنفعني، هذا ما كنت أظنه وما قالته لي أمي. لا بد أن شيئاً قد حدث بشأن ميغيل. ربما أكون قد تهاونت. لقد أردت الإجهاض عند قابلة أشبه بساحرة في الحي. كانوا يسمونها «الفراشة»، ربما تكون قد عرفتها. ولكن الآمرة لم تسمح لي بذلك. وهي من خرجت بفكرة الزواج. أنا لم أكن راغبة في الزواج منك أيضاً يا فيليثيو. لقد كنت أعرف أنني لن أكون سعيدة أبداً إلى جانبك. ولكن أمي هي التي أجبرتني.

لم يعد صاحب شركة النقل يدري ما يقول. ظل ساكناً، يفكر، قبالة أمراته، كم هو مضحك جلوسهما هناك، أحدهما مقابل الآخر،

مشلولين، صامتين عن ماضٍ شديد القبح ينبعث فجأةً ليضيف خزيًّا، وعارًا، وألمًا، وحقائق مريرةً على النكبة التي حلَّت به للتو من ابنه الزائف ومن مابيل.

- لقد كنت أدفع ثمن خطايدي طيلة هذه السنوات يا فيليثيتو - سمعَ خيرتوديس يقول، وهي تكاد لا تحرك شفتيها الغليظتين، ودون أن ترفع بصرها عنه ولو ثانيةً واحدةً، مع أنها لم تكن تراه، وتتكلم كما لو أنه غير موجود معها - لقد حملتُ صليبي بصمتٍ. وأنا أعرف جيداً أنه على المرء أن يدفع ثمن خطايده. ليس في الحياة الأخرى فقط، بل في هذه الحياة أيضاً. لقد تقبّلتُ ذلك. وندمت عن نفسي وعن أمي كذلك. لم أعد أشعر نحوها بالضفينة الكبيرة التي كنت أشعر بها في شبابي. ومازالت أدفع الثمن، وأرجو بعد كل هذه المعاناة أن يغفر لي السيد يسوع المسيح خطايدي الكثيرة.

كان فيليثيتو يريدها أن تصمت دفعة واحدة لينصرف. ولكنه لم يجد القوة للنهوض والخروج من الحجرة. كانت ساقاه ترتعشان بقوة. وفك: «أود لو أكون تلك الحشرة التي تنزع، وليس من أنا».

- أنت نفسك ساعدتني على دفع الثمن يا فيليثيتو - واصلت امرأته وقد خفضت صوتها قليلاً - وأناأشكرك على ذلك. ولهذا لم أقل لك أي شيءٍ قطًّا. ولهذا لم أواجهك بأي شجار بداعف الغيرة، ولم أوجه لك أسئلة يمكن لها أن تزعجك. ولهذا لم أبدِ قطًّا ما يشير إلى علمي بعلاقتك مع امرأة أخرى، وأن لك عشيقة، وهي مختلفة عني بأنها ليست عجوزاً ولا دمية، بل شابة وجميلة. ولهذا لم أتذمر قطًّا من وجود مابيل، ولم أوجه إليك أي تأنيب. لأن مابيل تساعدني أيضاً في دفع ثمن ذنبي.

صمتت متنكرةً أن يقول صاحب شركة النقل شيئاً، ولأن هذا لم

يفتح فمه، أضافت:

- أنا أيضاً لم أكن أعتقد مطلقاً بأننا سنفتح هذا الحديث يا فيليثيتو.  
أنت من أردته وليس أنا.

توقفت مرة أخرى في صمت طويل وتمتمت وهي ترسم إشارة الصليب  
في الهواء بأصابعها ذات العقد:

- والآن، هذا الذي فعله بك ميغيل هو الكفارة التي عليك أنت أن  
تدفعها. وأنا أيضاً.

ومع الكلمة الأخيرة، نهضت خيرتروديس وخرجت من الغرفة  
 مجرجة قد미ها. ظل هو جالساً في حجرة التلفزيون الصغيرة، دون أن  
يسمع الضجيج، والأصوات، والأبواق في شارع اريكيبيا، ولا أصوات  
محركات الموتوكسي. ظل غارقاً في حالة سبات كثيف، في يأس وحزن  
لا يسمحان له بالتفكير ويحرمانه من أدنى قدر من الطاقة التي تتيح له  
النهوض. كان يريد فعل ذلك، يريد الخروج من هذا البيت، على الرغم  
من أن الصحفيين سيتقضون عليه فور وصوله الشارع، بأسئلتهم  
المتمادية، وكل سؤال منها أكثر بلاهة من الآخر، وأن يذهب إلى  
كورنيش إغويغورين ويجلس هناك ليشاهد جريان مياه النهر البنية  
والرمادية، ويتأمل بفضول سُحب السماء، ويتنفس هواء الظهيرة  
الساخن، ويستمع إلى صفير العصافير. لكنه لم يحاول التحرك لأن  
ساقيه لن تطاووه أو لأن الدوار سيطرحه أرضاً على السجادة. كان  
يرعبه التفكير في أن أباء قد سمع، من الحياة الأخرى، الحوار الذي  
جرى للتو بينه وبين امرأته.

لم يدرك من الوقت ظل على تلك الحال من التهويم اللزج، شاعراً  
بمرور الوقت، خجلًا من نفسه ومشفقاً عليها، وعلى خيرتروديس،  
وعلى مابيل، وميغيل، والعالم بأسره. وبين لحظة وأخرى، كمثل شعاع  
349

نور واضح، يطل من رأسه وجه أبيه فتخفف عنه هذه الصورة العابرة لهنيةة. «لو أنك كنت حياً وعلمتَ بهذا كله لكونت متّ مرة أخرى»، هذا ما فكر به.

وفجأة، لاحظ أن تيبورثيو قد دخل إلى الغرفة دون أن يكون قد انتبه إليه. كان جائياً إلى جانبه، يمسكه بذراعيه وينظر إليه بخوف.

- إنني بخير، لا تقلق - طمأنه. لقد غفوت لحظات وحسب.

- أتريد أن أستدعي طبيباً؟ - كان ابنه بالأفرهول الأزرق والقبعة الخاصة بسائقي الشركة؛ وعلى واقيتها يُقرأ: «ناريهوala للنقل». وكان يحمل في يده قفازي الجلد الخام اللذين يلبسهما عندما يقود الحافلات - إنك شاحب جداً يا أبي.

- أنت عائد للتو من تومبيس؟ - رد عليه -. هل كانت الرحلة جيدة؟

- كانت الحافلة ممثلة تقريباً، والحمولة كانت كبيرة - أكد تيبورثيو. وكان الذعر لا يزال بادياً على وجهه وهو يتفحصه، كما لو أنه يحاول انتزاع سرّ منه. بدا واضحاً أنه يرغب في توجيه أسئلة كثيرة إليه، لكنه لم يجرؤ على ذلك. وقد أشفع فيليثيتو عليه بدوره.

- سمعتُ خبر ميغيل من المذيع وأنا هناك في تومبيس - قال تيبورثيو مضطرباً -. لم أستطع تصديق ذلك. اتصلت ألف مرة بهذا البيت ولكن أحداً لم يرد على الهاتف. لا أدرى كيف استطعت قيادة الحافلة حتى هنا. أتعتقد أن ما تقوله الشرطة عن أخي صحيح؟

كان فيليثيتو على وشك أن يقاطعه ليقول له «هو ليس أخوك»، ولكنه كبح نفسه. أولم يكن ميغيل وتيبورثيو أخوين؟ لقد كانوا كذلك، ولو أنهم نصف أخوين.

- قد تكون أكذوبة، أنا أظن أنها أكاذيب - قال تيبورثيو الآن

بهياج، دون أن ينهض عن الأرض، وهو ما يزال يمسك أبيه بين ذراعيه -. يمكن أن تكون الشرطة قد انتزعت منه اعترافاً زائفاً، بتهميشه ضرباً.. بتعذيبه. من المعروف أنهم يفعلون هذه الأشياء.

- لا يا تيبورثيو. إنها الحقيقة - قال فيليثيتو - لقد كان هو نفسه العنكبوت. هو من حاك هذا الأمر كله. لقد اعترف لأنها هي، شريكته، قد وشت به. سأطلب منك الآن معرفةً كبيراً يا بني. لا أريد أن نتحدث في هذا الموضوع. إلى الأبد. لا عن ميفيل، ولا عن العنكبوت. الأمر بالنسبة لي كما لو أن أخاك لم يعد له وجود. أو بكلمة أدق، كما لو أنه لم يوجد قط. لا أريد ذكر اسمه في بيتي. إلى الأبد. أنت تستطيع أن تفعل ما تشاء. أن تذهب لرؤيته إذا شئت ذلك. أن تأخذ له طعاماً، أن تحصل له على محام، أو أي شيء تريده. لا يهمني ذلك. لست أدرى ما الذي ستفعله أملك. لا تخبراني بأي شيء. لا أريد أن أعرف شيئاً. لا تذكره أبداً أمامي. إنني أعن اسمه وانتهى الأمر. والآن، ساعدني على النهوض يا تيبورثيو. لا أدرى السبب، ولكن كما لو أن ساقّي لم تعودا تستجيبان لي فجأة.

نهض تيبورثيو واقفاً، وأمسكه من ذراعيه وأنهضه دون جهد.

- سأطلب منك أن ترافقني إلى المكتب - قال فيليثيتو -. الحياة يجب أن تستمر. لابد من متابعة العمل، علينا النهوض بالشركة التي أهملت. فليس الأسرة وحدها هي التي تعاني من هذا الوضع يا بني؛ بل ناريهولا للنقل أيضاً. يجب أن نضعها على السكة من جديد.

- الشارع يغص بصحفيين - نبهه تيبورثيو -. لقد انقضوا على كبقعة زيت عند مجئي ولم يسمحوا لي بالمرور. كنت على وشك أن أبدأ بتوجيه الكلمات لواحد منهم.

- ستساعدني أنت على التملص من هؤلاء الثقلاء يا تيبورثيو - نظر

إلى عيني ابنه، ثم أضفى عذوبة على صوته وهو يبدي إيماءة حنان خرقاء على وجهه: - أشكرك لأنك لم تأت على ذكر مابيل يا بني. ولأنك لم تسألي عن تلك المرأة. أنت ابن طيب.

أمسك بذراع الفتى وتقدم معه باتجاه المخرج. ما إن انفتح الباب المؤدى إلى الشارع حتى انفجر صخب مدو، واضطر أن يرمي أمام وميض فلاشات التصوير. «ليس لدى ما أصرح به أيها السادة، أشكركم جزيل الشكر»، كرر ذلك مرتين، ثلث مرات، عشر مرات، بينما هو متصل بذراع تيبورثيو ويتقدم بصعوبة عبر شارع اريكيبيا، محاصراً، مدفوعاً، مزعزاً وسط حشد الصحفيين الذين ينتزع أحدهم الكلمة من الآخر ويدسون في وجهه الميكروفونات والكاميرات ودفاتر الملاحظات والأقلام. يوجهون إليه أسئلة لا يمكن من فهمها. بينما هو يكرر بين لحظة وأخرى، كما في لازمة ثابتة: «ليس لدى ما أصرح به أيها السادة، أشكركم جزيل الشكر». رافقوه حتى ناريهوالا للنقل، لكنهم لم يدخلوا إلى مقر الشركة لأن الحراس أغلق الباب في وجوهم. حين جلس وراء اللوح الخشبي الموضوع فوق برميلين، والذي صار منضدة مكتبه، قدم إليه تيبورثيو كأس ماء.

- وتلك السيدة الأنيقة المدعوة آرميدا، هل كنت تعرفها يا أبي؟ - سأله - هل كنت تعرف أن هناك أختاً لأمي تقيم في ليما؟ لم تخبرنا نحن بذلك قط.

نفى بحركة من رأسه ورفع إصبعاً إلى فمه:

- هناك سر كبير يا تيبورثيو. لقد جاءت لتخبئ هنا لأن هناك من يطاردها في ليما، بل إنهم يريدون قتلها. من الأفضل أن تنساها ولا تخبر أحداً بأنك رأيتها. لدينا ما يكفي من المشاكل ولسنا بحاجة لأن نرث كذلك مشاكل أخت زوجتي.

وبذل جهد هائل بدأ العمل. راح يراجع الحسابات، والكمبياليات، والسنادات، والنفقات الجارية، والمدخل، والفواتير، والرواتب، والمدفوعات لمعهدي التموين. وفي الوقت نفسه، في أعماق عقله، كان يضع خطة عمل للأيام التالية. وبعد وقت قصير بدأ يشعر بالتحسن، وبأن بالإمكان كسب تلك المعركة الشاقة. وفجأة، دخلته رغبة هائلة في الاستماع إلى صوت سيسليا باراسا المرتعش والعذب. من المؤسف أنه لا يملك في المكتب بعض أسطواناتها، يجب توافر أغنيات مثل «شوك ورماد»، «حب بريء»، «حنين جميل» أو «ثور قاتل» في المكتب، وجهاز للاستماع إليها. سيشتري هذا الجهاز فور تحسن الأحوال. وفي الأمسيات أو الليالي التي يظل يعمل فيها في المكتب، بعد إعادة تأهيلية من أضرار الحرائق، يستطيع في لحظات مثل هذه أن يضع في الجهاز مجموعة أسطوانات لمغنيته المفضلة. سينسى عنده كل شيء، ويشعر بالسعادة... أو الحزن، ويكون متاثراً على الدوام بذلك الصوت القادر على سحبة لرقة فالس، أو مارينيراس، أو بولكاس، أو بريغونيس، جميع أنواع الموسيقى الكريوليه وأشد المشاعر الدفينة في أعماقه حساسية.

عندما غادر مقر ناريهوala للنقل كان ظلام الليل مطبقاً. لم يكن هناك صحفيون في الشارع: قال له الحراس إنهم تعبوا من انتظاره، فتفرقوا وغادروا منذ وقت طويل. وكان تيبورثيو قد غادر أيضاً، إلى شؤونه الخاصة، منذ أكثر من ساعة. سلك شارع اريكيبيا، وكان فيه أناس قليلون الآن، دون أن ينظر إلى أحد، باحثاً عن الظلال كيلا يتعرف عليه أحد. ولحسن الحظ لم يوقفه أحد ويدخل معه في حديث خلال الطريق. وفي بيته، كانت آرميدا وخيرتروديس قد نامتا، أو على الأقل لم يشعر بوجودهما. ذهب إلى صالة التلفاز الصغيرة ووضع بعض

الأسطوانات المدمجة، بصوت خافت. وظل قرابة الساعتين جالساً في الظلام، ساهياً ومتأنراً، غير متحرر تماماً من القلق، ولكنه متخفف منه بعض الشيء بفضل الأغانيات التي تقدمها إليه سيسيليا باراسا في جلسته الحميمة تلك. كان صوتها بلسماء، ماء بارداً وشفافاً يغرق فيه بجسده وروحه، ويتطهر، يستعيد السكينة، يستمتع، وينبعث من أعمق أعماقه شيء صحي، عذب، متفائل. حاول ألا يفكر ببابيل، وألا يتذكر أشد اللحظات التي أمضها معها زخماً وسعادة خلال تلك السنوات الثمانية، بل تذكر فقط أنها قد خانته، وأنها نامت مع ميفيل وتواطأت معه، وأرسلت له رسائل العنكبوت، وتظاهرت بأنها مختطفة، وأحرقت مكتبه. هذا هو ما عليه أن يتذكره فقط، كيلا تكون شديدة المرارة عليه فكرة أنه لن يعود إلى رؤيتها أبداً.

في صباح اليوم التالي، استيقظ في وقت مبكر جداً، قام بتمارين الكي جونغ، متذكراً البقال لاو مثلما يحدث له عادة خلال هذا الروتين الإجباري عند الاستيقاظ، تناول فطوره، وخرج إلى مكتبه قبل أن يصل الصحفيون النؤمن إلى باب بيته ليواصلوا مطاردته. كانت خوسيفيتا قد حضرت قبله وابتسمت كثيراً لرؤيتها.

- كم هي رائعة عودتك إلى المكتب يا دون فيليثيتو - قالت له مصفقة  
- لقد صرت أفتقدك هنا.

- لا يمكنني موافلة أخذ الإجازات - أجابها وهو يخلع القبعة والسترة ويستقر وراء منضدة الدف الخشبي المرتجلة - كفانا فضائح وحماقات يا خوسيفيتا. إلى العمل فقط ابتداء من اليوم. هذا هو ما يروق لي، وما قمت به طوال حياتي وما سأفعله منذ الآن.

انتبه إلى أن سكريترته تريد أن تقول له شيئاً، لكنها لم تجد الحماسة لذلك. ماذا جرى لخوسيفيتا؟ إنها مختلفة. أكثر أناقة وتبرجاً

من العادة، ترتدي ملابس مبهргة ولطيفة. تظهر على محياتها بين حين وآخر بعض الابتسامات وحمرة خجل لعوبة. وبدا له أنها، عند المشي، تهز مؤخرتها أكثر قليلاً مما كانت عليه من قبل.

- إذا كنتِ راغبة في أن تخبريني بسر، فإبني أؤكد لك أنني قبر أسرار يا خوسيفيتا. وإذا كان في الأمر أحزان حب فسأكون سعيداً بأن أتحول إلى منديل لدموعك.

- لا أدرى ماذا على أن أفعل يا دون فيليثيتو - خفضت صوتها وقد كستها حمرة الخجل من رأسها حتى قدميها. أدنى رأسها من رئيسها، وهمست له وهي ترمي بعينيها كطفلة بريئة: - لاحظ أن نقيب الشرطة ذاك يواصل الاتصال بي هاتفياً. لماذا يا ترى؟ كي يدعوني للخروج معه طبعاً!

- النقيب سيلفا؟ - أبدى صاحب شركة النقل الذهول - لقد كنت أشعر بأنك قد فتنته. تشي غوا، يا خوسيفيتا!

- هذا ما يبدو لي يا دون فيليثيتو - أضافت سكرتيرته بخفر متغنج - إنه يوجه إلي كل أنواع الزهور حين يتصل بي هاتفياً، لا يمكن لحضرتك أن تتصور الأشياء التي يقولها لي. يا له من رجل بارد! إنه يسبب لي خجلاً شديداً. أجل، أجل، يريد دعوتي للخروج معه. وأنا لا أدرى ماذا أفعل. بماذا تنصحني حضرتك؟

- لا أدرى ماذا أقول لك يا خوسيفيتا. لا يفاجئني بكل تأكيد أنك فتنته. أنت امرأة شديدة الجاذبية.

- ولكنني سمينة بعض الشيء يا دون فيليثيتو - تذمرت مبدية تكشيرة زائفة - مع أن هذا الأمر ليس مشكلة، حسب ما قاله لي النقيب سيلفا. أكَد لي أنه لا يحب أولئك المقصوصات سيئات التغذية من فتيات الإعلانات، وأنه يفضل النساء ممتلئات التقاطيع... مثلني.

- انفجر فيليثيتو ياناكيه ضاحكاً وجارتة هي أيضاً. كانت المرة الأولى التي يضحك فيها صاحب شركة النقل منذ علم بالأخبار السيئة.

- هل تحرستِ، على الأقل، إذا ما كان النقيب متزوجاً يا خوسيفيتا؟

- لقد أكذ لي أنه عازب وغير مرتبط. ولكن من يدري كيف وضعه فالرجال يقضون الحياة وهم يولفون الحكايات لنا نحن النساء.

- سأحاول التحري عن ذلك، دعي الأمر لي - عرض عليها فيليثيتو

- وفي أثناء ذلك استمعتني واستخلصي عصارة الحياة، فأنت تستحقين ذلك حقاً. أتمنى لك السعادة يا خوسيفيتا.

كان يراقب انطلاق الفنانات والحافلات والشاحنات، وإرسال الطلبيات الموصى عليها، وعند الضحى، ذهب إلى الموعد المحدد له مع الدكتور هيلبراندو كاسترو بوسو، في مكتبه الضيق والمزدحم بشارع ليما. إنه محامي شركة النقل، وهو يتولى كافة شؤون فيليثيتو ياناكيه القانونية منذ عدة سنوات. شرح له بالتفصيل ما يدور في رأسه، بينما راح الدكتور كاسترو بوسو يسجل ملاحظات عما ي قوله له في دفتر ملاحظاته الصغير المعهود، والذي يكتب فيه بقلم رصاص صغير مثله. كان رجلاً ضئيلاً، يرتدي صداراً وربطة عنق، شديد التأنق، ستينياً، حيوياً، نشيطاً، لطيفاً، محدثاً، ومهنياً متواضعاً ولكنه فعال، وليس غالياً بأي حال. كان أبوه مناضلاً اجتماعياً مشهوراً، يدافع عن الفلاحين، وقد تعرض للسجن والمنفى، وهو مؤلف كتاب عن القبائل الهندية جعله مشهوراً. وكان عضواً في مجلس الشيوخ. عندما انتهى فيليثيتو من شرح ما أراد شرحة، تفحصه الدكتور كاسترو بوسو برضى:

- الأمر ممكن بالطبع يا دون فيليثيتو - هتف وهو يتلاعب بقلمه الرصاص الصغير -. ولكن دعني أدرس القضية بهدوء وأقلبها من كافة

النواحي القانونية، كي نتمكن من التقدم بخطوات واثقة. سيتطلب الأمر مني يومين على أبعد تقدير. أتعرف؟ هذا الذي ت يريد عمله يؤكّد تماماً الفكرة التي كونتها عنك دوماً.

- وما هي فكرتك عنني يا دكتور كاسترو بوسو؟

- أن حضرتك رجل أخلاقي يا دون فيليثيتو. أخلاقي حتى طرف أظفار قدميك. أحد الأخلاقيين القلائل الذين عرفتهم في الحقيقة.

أصاب فليثيتو الذهول، ما الذي يعنيه قوله هذا عن «رجل أخلاقي»؟<sup>(1)</sup> وقال فيليثيتو لنفسه إنه عليه أن يشتري معجماً في أحد هذه الأيام. فهو يسمع طيلة الوقت كلمات يجهل معناها. ويخرج من أن يسأل الناس عما تعنيه تلك الكلمات. ذهب إلى بيته لتناول الغداء. ومع أنه وجد الصحفيين مرابطين هناك، إلا أنه لم يتوقف ولو لمجرد أن يقول لهم إنه لن يعطي مقابلات صحفية. من بجانبهم محبياً إياهم بحركة من رأسه، دون أن يرد على الأسئلة التي يوجهونها متزاحمين. بعد تناول الغداء، طلبت منه آرميدا أن تتحدث معه على انفراد للحظات. ولكن فيليثيتو فوجئ عندما توجه مع أخت زوجته إلى صالة التلفاز، أن خيرتروديس، المعتكفة في الصمت مجدداً، قد لحقت بهما. جلست على أحد المقاعد وطلت هناك طيلة الوقت الذي دامه الحديث الطويل بين آرميدا وصاحب شركة النقل، وكانت تستمع دون أن تقاطعهما ولو مرة واحدة.

- سيبدو لك غريباً أنني منذ مجئي مازلت بالثوب نفسه. بادرت القول لزوج أختها بأكثر الطرق تلقائية.

- إذا أردت أن تكون صريحاً يا آرميدا، فإن كل شيء يبدو لي غريباً

<sup>(1)</sup> استخدم المحامي مصطلح علم الأخلاق الفلسفية etica ومن هناك جاء ذهول فيليثيتو ضئيل التعليم والثقافة.

في هذه القضية، وليس عدم استبدالك الثوب فقط. ففجأة، تظهرين هنا... هكذا فجأة. أنا وخيرتروديس متزوجان منذ لا أدرى كم من السنوات، وإلى ما قبل أيام قليلة، لم تحدثني قطًّا على ما أظن عن وجود حضرتك. أتريدين ما هو أشد غرابة من هذا؟

- لا أبدل ثوبي لأنه ليس لدى غيره أرتديه - واصلت أخت زوجته كما لو أنها لم تسمعه -. خرجت من ليما بما كنت ألبسه، حاولت تجريب أحد أنواب خيرتروديس، ولكنها واسعة جداً علىـ. باختصار، عليـ أن أبدأ هذه القصة من البداية.

- أوضحـ لي أمراً واحداً علىـ الأقل - طلب منها فيليثيتـ - لماذا تظل خيرتروديس صامتة، كما ترينـ، ولا تفسـرـ ليـ ذلكـ. هلـ أنتـما أختـانـ منـ الأبـ والأـمـ نفسـيـهماـ؟

تحركـتـ آرمـيدـاـ فيـ المـقـعـدـ مـرـتـبـكـةـ دونـ أنـ تـدـريـ بماـذاـ تـجيـبـهـ. نـظرـتـ إلىـ خـيرـتـروـدـيـسـ بـحـثـاـ عـنـ عـونـ،ـ وـلـكـنـ أـخـتـهاـ وـاـصـلـتـ صـمـتهاـ،ـ مـنـكـمـشـةـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ مـثـلـ أـحـدـ تـلـكـ الرـخـوـيـاتـ ذـاتـ الـأـسـمـاءـ الغـرـيـبـةـ التـيـ تـعـرـضـهاـ بـائـعـاتـ السـمـكـ فيـ السـوقـ المـرـكـزـيـ.ـ كـانـتـ مـلـامـحـهاـ تـشـيرـ إـلـىـ خـمـولـ كـامـلـ،ـ كـامـلـ،ـ كـماـ لـوـ أـنـهـ لـاـ عـلـاقـةـ لـهـ بـأـيـ شـيءـ مـاـ تـسـمعـهـ.ـ بـالـرـغـمـ مـنـ أـنـهـ لـمـ تـكـنـ تـزـيـحـ بـصـرـهـاـ عـنـهـمـاـ.

- لاـ نـعـرـفـ ذـلـكـ - قـالـتـ أـخـيـراـ آرمـيدـاـ مـشـيـرـةـ بـذـقـنـهاـ إـلـىـ أـخـتـهاـ -.ـ لـقـدـ تـحـدـثـنـاـ كـثـيـراـ حـولـ هـذـاـ الـأـمـ خـلـالـ الـأـيـامـ الـثـلـاثـةـ الـمـاضـيـةـ.

- آـهـ،ـ هـذـاـ يـعـنـيـ أـنـ خـيرـتـروـدـيـسـ تـتـكـلـمـ حـينـ تـكـوـنـ مـعـكـ.ـ أـنـتـ مـحـظـوظـةـ أـكـثـرـ مـنـيـ.

- نـحنـ أـخـتـانـ مـنـ الـأـمـ نـفـسـهـاـ،ـ هـذـاـ هـوـ الشـيءـ الـوـحـيدـ الـمـبـثـ -ـ أـكـدـتـ آرمـيدـاـ وـهـيـ تـسـتـعـيـدـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ نـفـسـهـاـ -.ـ إـنـهـ تـكـبـرـنـيـ بـبـعـضـ سـنـوـاتـ.ـ وـلـكـنـ أـيـاـ مـنـاـ لـاـ تـتـذـكـرـ شـيـئـاـ عـنـ أـبـيـنـاـ.ـ رـبـماـ يـكـونـ

الشخص نفسه. وربما لا. لم يعد هنالك من يمكن الاستفسار منه يا فيليثيتو. فعندما بدأنا، كلتنا، نمتلك ذكريات، لم يكن هنالك زوج للأمرة. هكذا كانوا يسمون أمي، ألا تذكرة؟

- هل كنتِ أنتِ أيضاً تعيشين في نُزل «شجرة الخروب»؟

- إلى أن بلغت الخامسة عشرة من عمري - أكدت آرميدا -. لم يعد آنذاك نُرلاً، وإنما تحول إلى مجرد خان للبغاليين، وسط الأرينا. في الخامسة عشرة من عمري ذهبت إلى ليما للبحث عن عمل. لم يكن ذلك سهلاً على الإطلاق. مررت بمصاعب كثيرة، أسوأ من كل ما يمكن تصوره. ولكننا أنا وخيرتروديس لم نقطع تواصلنا أبداً. كنت أكتب إليها بين حين وآخر، بالرغم من أنها لم تكن ترد على رسائلي إلا نادراً. فهي لا تهوى كتابة الرسائل. لأن خيرتروديس لم تذهب إلى المدرسة إلا سنتين أو ثلاثة سنوات. أنا كنت محظوظة أكثر منها، إذ أنهيت مرحلة المدرسة الابتدائية كلها. لقد اهتمت الآمرة بمسألة ذهابي إلى المدرسة. أما خيرتروديس بالمقابل فجعلتها تعمل في النزل منذ وقت مبكر جداً.

التفت فيليثيتو إلى امرأته.

- لا أدرى لماذا لم تخبريني بأن لك اختاً. قال لها.

ولكنها واصلت النظر إليه كما لو أنها تنظر من خلال ماء، دون أن تجيبه.

- أنا سأخبرك بذلك يا فيليثيتو - تدخلت آرميدا -. كانت خيرتروديس تخجل من أن تخبرك بأن اختها تعمل خادمة في ليما. ولا سيما بعد أن تزوجت منك وتحولت إلى شخصية محترمة.

- هل كنتِ أنتِ عاملة منزلية؟ استغرب صاحب شركة النقل وهو ينظر إلى ثوب اخت زوجته.

- طوال حياتي يا فيليثيتو. باستثناء فترة قصيرة عملتُ خلالها عاملة في مصنع نسيج بمدينة بيبارتي - وأضافت مبتسمة -. أرى أنك تستغرب ارتدائِي ثوباً فاخراً وحذاً جيداً، وساعة يد مثل هذه. كلها أشياء إيطالية ، تصور.

- أجل يا آرميدا، يبدو لي الأمر غريباً جداً - أكد فيليثيتو - فأنت ذات مظهر يمكن أن يكون أي شيء باستثناء خادمة.

- ما حدث أنني تزوجت من السيد صاحب البيت الذي كنت أعمل فيه - أوضحت آرميدا وقد احمرت خجلاً -. سيد مهم، ومن مكانة جيدة.

- آه، طبعاً، فهمت، إنه زواج بدل حياتك - قال فيليثيتو - هذا يعني أنك كسبتِ اليانصيب.

- أجل، أنت حق بطريقة ما، ولكنني لستُ كذلك من ناحية أخرى - صحت له آرميدا - لأن السيد كاريرا، أعني إسماعيل، زوجي، كان أرمل. وله ابنان من زواجه الأول. وهما يكرهانني منذ تزوجت من أبيهما. حاولا إبطال الزواج، وقديما شكوى ضدِي للشرطة، واتهما أبيهما أمام القاضي بأنه عجوز خرف. وأنني عملت له سحراً، وأنني أعطيته أعشاباً ولا أدرِي أية أعمال سحر أخرى.

رأى فيليثيتو أن تبدلاً قد طرأ على وجه آرميدا. لم تعد هادئة مثلاً كانت. وبدا في ملامحها شيء من الحزن والغضب.

- أخذني إسماعيل في شهر عسل إلى إيطاليا - وأضافت وهي تضفي عذوبة على صوتها وتبتسم -. كانت أسابيع جميلة جداً. لم أتصور قط أنني سأعرف أشياء بكل ذلك البهاء، وكل ذلك الاختلاف. حتى إننا رأينا البابا في شرفته، من ساحة القديس بطرس. لقد كانت تلك الرحلة أشبه بحكايات الجنبيات. كان زوجي طيلة الوقت في لقاءات عمل،

وكنت أقضى أوقاتاً طويلة وحدي أمارس السياحة. هنا يظهر تفسير هذا الثوب وهذه المجوهرات وهذه الساعة وهذا الحذاء، فكر فيليثيتو «شهر عسل في إيطاليا! تزوجت من ثري! زواج الفقيرة من غني!».

- هناك، في إيطاليا، باع زوجي شركة تأمين كان يملكها في ليمـا - واصلت آرميدا الشرح - كيلا تقع في أيدي ابنيه اللذين كانا ينتظران اللحظة التي يستوليان عليها، بالرغم من أنه كان قد أعطاهم مسبقاً حصتها من الميراث وهو حـي. إنـهما وـغـدان، كـسـولـان من أـسـوـأـ مـسـتـوـيـ. كان إـسـمـاعـيلـ غـاضـبـاـ مـنـهـماـ وـلـهـذاـ باـعـ الشـرـكـةـ. لقدـ كـنـتـ أحـاـوـلـ فـهـمـ تـلـكـ التـشـابـكـاتـ، وـلـكـنـنـيـ كـنـتـ أـضـيـعـ فيـ شـرـوـحـهـ القـانـوـنـيـةـ. وأـخـيـراـ رـجـعـناـ إـلـىـ لـيـماـ، وـمـاـ كـدـنـاـ نـصـلـ حـتـىـ أـصـيـبـ زـوـجـيـ بـسـكـتـةـ قـلـبـيـةـ أـودـتـ بـهـ.

- مـتأـسـفـ جـداـ. تـلـعـمـ فيـلـيـثـيـتوـ، وـصـمـتـ آـرـمـيدـاـ وـهـيـ تـخـفـضـ بـصـرـهاـ. بـيـنـمـاـ ظـلـلـتـ خـيـرـتـرـوـدـيـسـ سـاـكـنـةـ وـغـيـرـ مـتـأـثـرـةـ.

- أوـ أـنـهـاـ قـتـلـاهـ - أـضـافـتـ آـرـمـيدـاـ - لاـ أـدـريـ. كانـ يـقـولـ لـيـ انـ لـدـيـ اـبـنـيـهـ رـغـبةـ كـبـيرـةـ فـيـ أـنـ يـمـوتـ كـيـ يـسـتحـوـذـ عـلـىـ أـمـوالـهـ، حتـىـ إنـهـماـ لـنـ يـتـورـعـاـ عـنـ إـرـسـالـ مـنـ يـقـتـلـهـ. لـقـدـ مـاتـ بـيـنـ عـشـيـةـ وـضـحـاـهـاـ وـأـنـاـ لـأـسـتـطـعـ أـنـ بـعـدـ عـنـيـ فـكـرـةـ أـنـ التـوـءـمـيـنـ - اـبـنـاهـ توـءـمـانـ - قدـ تـسـبـيـاـ بـطـرـيـقـةـ مـاـ بـالـأـزـمـةـ الـقـلـبـيـةـ التـيـ قـتـلـتـهـ. هـذـاـ إـذـاـ كـانـ سـكـتـةـ قـلـبـيـةـ وـلـيـسـ سـُـمـّـاـ. لـسـتـ أـدـريـ.

- الآـنـ صـرـتـ أـفـهـمـ سـبـبـ هـرـوبـكـ إـلـىـ بـيـورـاـ وـسـعـيـكـ لـلـاخـتـبـاءـ، وـعـدـمـ خـرـوجـكـ إـلـىـ الشـارـعـ - قـالـ فيـلـيـثـيـتوـ - هلـ تـظـنـنـ حـتـىـ أـنـ يـمـكـنـ لـابـنـيـ زـوـجـكـ أـنـ...؟

- لاـ أـدـريـ إـنـ كـانـ ذـلـكـ يـدـورـ فـيـ رـأـيـهـماـ أـمـ لـاـ، وـلـكـنـ إـسـمـاعـيلـ كـانـ

يقول إنهم لا يتورعان عن عمل أي شيء، بما في ذلك التسبب في قتله - كانت آرميدا قد انفعلت وصارت تتكلم باندفاع - لقد بدأت أشعر بعدم الأمان، وبخوف شديد يا فيليثيتو. جرى لقاء معهما، عند المحامي. كانا يكلمانني وينظران إليّ بطريقة فكرت معها بأنهما قد يتسببان بقتلي أنا أيضاً. كان زوجي يقول إنه يجري الآن في ليما التعاقد مع قاتل مأجور ليقتل أي شخص مقابل بضعة سولات. فلماذا لا يفعلان ذلك من أجل الاستحواذ على كامل ميراث السيد كاريرا؟

توقفت قليلاً ونظرت إلى عيني فيليثيتو.

- لهذا قررت الهرب. فكرت في أنه لن يخطر ببال أحد المجرم للبحث عنني هنا، في بيورا. هذه هي القصة التي كنت أود إخبارك بها يا فيليثيتو.

- حسن، حسن - قال هذا الأخير - إنني أفهمك، أجل. الشيء الوحيد الذي ظهر لك هو سوء الحظ. لقد جاء بك القدر إلى فم الذئب. انظري كيف هي الأمور. هذا ما يقال عنه القفز من المقلة إلى النار يا آرميدا.

- قلت لك إنني سأبقى يومين أو ثلاثة أيام، وأؤكد لك أنني سأفي بوعدي - قالت آرميدا - إنني بحاجة إلى أن أتكلم مع شخص يعيش في ليما. إنه الشخص الوحيد الذي كان زوجي يثق به ثقة مطلقة. وكان شاهداً على زواجنا. هل تساعدنني على الاتصال به؟ لدى رقم هاتفه. هل تقدم لي هذا الجميل؟

- اتصل بي به أنت بنفسك من هنا. قال صاحب شركة النقل.

- ليس من الحكمة أن أتصل به أنا - قالت آرميدا، وأشارت إلى الهاتف: - وماذا لو كان الخط مراقباً؟ كان زوجي يظن أنهم يتنصتون على كل هواتفنا. من الأفضل الاتصال من الشارع، أو من مكتبك، أو من

هاتفك الخلوي الذي يبدو أنه من الصعب التنصل عليه. أنا لا  
أستطيع الخروج من هذا البيت. ولهذا ألجأ إليك.

- أعطني الرقم والرسالة التي عليّ أن أوجهها - قال فيليثيتو -.  
سأقوم بالاتصال من المكتب، هذا المساء. وبكل سرور يا آرميدا.

في المساء، بعد أن اجتاز مرة أخرى، وسط التدافع، حاجز  
الصحفيين، وبينما هو يمشي في شارع اريكيبيا متوجهاً إلى مكتبه، قال  
فيليثيتو ياناكيه لنفسه إن قصة آرميدا تبدو خارجة من أحد أفلام  
المغامرات تلك التي تررق له مشاهدتها في المرات النادرة التي يذهب  
فيها إلى السينما. وهو الذي كان يظن أن تلك الأحداث شديدة القسوة  
ليس لها أية علاقة بالحياة الواقعية. غير أن قصة آرميدا، وقصته هو  
نفسه منذ تلقيه رسالة العنكبوت الأولى، ليست أكثر ولا أقل من فلمين  
من أفلام الأكشن.

في مقر نارييهوالا للنقل، انسحب نحو ركن هادئ ليتصل بالهاتف  
دون أن تسمعه خوسيفيتا. وعلى الفور رد عليه صوت رجل بدا مضطرباً  
حين سأله عن السيد دون ريفوبيرتو. «من يريد؟؟؟»، سأله. بعد صمت  
قصير، رد عليه فيليثيتو: «بطلب من صديقة». فقال الآخر: «أجل،  
أجل، إنني أنا. عن أي صديقة تكلمني؟».

- صديقة لك، تفضل عدم ذكر اسمها، لأسباب تتفهمها حضرتك -  
قال فيليثيتو -. أظنك تعرف من هي المعنية.

- أجل، أظن ذلك - قال السيد ريفوبيرتو -. هل هي بحالة جيدة؟  
- أجل، جيدة جداً وترسل إليك تحياتها. تريد التحدث مع  
حضرتك. شخصياً إن كان ذلك ممكناً.

- طبعاً، ممكن بالطبع - قال السيد فوراً دون تردد -. يسعدني ذلك  
جداً. كيف نفعل؟

- أيمكن السفر إلى المنطقة التي هي فيها؟. سأله فيليثيتو.
- ـ ساد صمت طويل، مع نحننات أخرى مصطنعة.
- يمكنني ذلك، إذا كان الأمر ضرورياً - قال أخيراً - متى سيكون السفر؟
- عندما تشاء - رد فيليثيتو - وكلما كان ذلك أسع يكون أفضل.
- أتفهم الوضع - قال السيد ريفوبيرتو - سأتأول شراء تذاكر السفر فوراً. هذا المساء بالذات.
- وأنا سأحجز لك الفندق - قال فيليثيتو - أيمكنك الاتصال بي على هذا الهاتف الخلوي عندما تحدد موعد سفرك؟ إنه هاتف لا يستخدمه أحد سواي.
- حسن جداً، اتفقنا - قال له السيد ريفوبيرتو مودعاً - تشرفت بك، وإلى اللقاء أيها السيد.

عمل فيليثيتو ياناكيه طوال المساء في نارييهولا للنقل. وبين وقت وآخر كانت قصة آرميدا تعود إلى رأسه ويتساءل كم فيها من الحقيقة وكم من المبالغة. أمن المكن لسيد ثري، يملك شركة كبيرة، أن يتزوج خادمته؟ يكاد رأسه لا يتسع لهذا الأمر. ولكن هل هذا أشد غرابة من ابن ينتزع عشيقة أبيه، ويتفق معها على ابتزازه من أجل القضاء عليه؟ الجشع يحول البشر إلى مجانين، إنه أمر معروف. عند الغروب، جاء إلى المكتب الدكتور هيلدبراندو كاسترو بوسو ومعه حزمة أوراق كبيرة محشورة في مغلف أخضر ليموني.

- هاؤنت ترى أن الموضوع لم يتطلب مني وقتاً طويلاً يا دون فيليثيتو

- قال له وهو يسلمه المغلف - هذه هي الوثائق التي عليك أن تجعله يقع عليها، حيث وضعت إشارة X. سيوقع عليها سعيداً ما لم يكن مجنوناً.

راجعتها فيليثيتو بدقة. وجه بعض الأسئلة، وأجابه عليها المحامي، فأبدى رضاه. فكر في أنه قد اتخذ قراراً جيداً، وحتى لو كان هذا القرار لا يحل كل المشاكل التي تحيط به، إلا أنه سيزيح على الأقل عبئاً ثقيلاً عن كاهله. كما أن قلق الشك الذي كان يحمله منذ سنوات طويلة سوف يتبخّر إلى الأبد.

حين غادر المكتب، بدلاً من أن يتوجه مباشرة إلى البيت، قام بالاتفاق كي يمر على مفوضية الشرطة في جادة سانتشيث سيرُو. لم يكن النقيب سيلفا موجوداً، ولكن الرقيب ليتوما استقبله. وقد فوجئ بعض الشيء بطلبه.

- أريد مقابلة ميغيل بأسرع ما يمكن - كرر فيليثيتو ياناكى -. لا يهمني أن تكون أنت أو النقيب سيلفا حاضرين في المقابلة.

- حسن يا دون فيليثيتو، يخيل إلي أنه لن تكون ثمة مشكلة - قال الرقيب -. سأكلم النقيب في الأمر غداً صباحاً.

- أشكرك - ودعه فيليثيتو -. سلم لي على النقيب سيلفا وقل له سكريتيري السيدة خوسيفيتا ترسل إليه تحياتها.



## XVIII

وصل دون ريفوبيرتو ودونيا لوكريثيا وفونتشيتو إلى بيورا في الضحى بطائرة شركة لان بيرو، وأوصلتهم سيارة أجرة من المطار إلى فندق لوس بورتاليس، في ساحة السلاح. الحجز الذي أنجزه فيليثيتو ياناكيه - غرفة مزدوجة وغرفة عادية متجاورتان - يتواافق تماماً مع رغبتهما. ما كادوا يتسلّمون غرفتيهما حتى خرّجوا ثلاثتهم للمشي. قاما بجولة على ساحة السلاح المظللة بأشجار تمر هندي عالية وقديمة ولملونة بلطخات أزهار شديدة الحمرة.

لم يكن الحر شديداً. توقفوا قليلاً لتأمل النصب المركزي، «لا بولا». إنه تمثال من المرمر لسيدة محاربة تمثل الحرية، مهدى من الرئيس خوسيه بلاتا في العام 1870؛ وألقوا نظرة سريعة على الكاتدرائية الكثيبة. ثم جلسوا في كافيتريا إلتشالون لتناول شراب مرطب. كان ريفوبيرتو ولوكريثيا يرصدان محيط المكان، الناس المجهولين، بتكتم وبشىء من الريبة. هل سيتحقق فعلاً اللقاء البرمج مع آرميدا؟ إنهم يتعلّمان ذلك بكل تأكيد، غير أن كل اللف والدوران الذي أحاط بهذه الرحلة يحول دون أن يأخذوا الأمر على محمل الجد تماماً. كان يبدو لهما أحياناً بأنهما يلعبان واحدة من تلك الألعاب التي يلعبها المسنون كي يبدوا شباناً.

- لا، لا يمكن أن يكون الأمر مزاحاً أو كميناً - أكد دون ريفوبيرتو

مرة أخرى وهو يحاول إقناع نفسه -. السيد الذي تكلمت معه بالهاتف أثار فيّ انطباعاً جيداً، لقد أخبرتُك بهذا. إنه رجل بائس دون شك، ريفي، خجول بعض الشيء، ولكنه طيب النوايا. إنه شخص طيب، وأنا واثق من ذلك. وليس لدى أي قدر من الشك بأنه كان يتكلم باسم آرميدا حقاً.

- لا يبدو لك أننا نعيش حالة على شيء من عدم الواقعية؟ - ردت عليه دونيا لوكريثيا مع ضحكة عصبية. كانت تحمل في يدها مروحة يدوية من الصدف، تحرك بها الهواء أمام وجهها دون توقف -. أجد صعوبة في تصديق الأمور التي تحدث لنا يا رينغوبيرتو. مجيئنا إلى بيورا قائلين للجميع إننا بحاجة إلى الراحة. لم يصدق أحد ذلك بالطبع.

بدا أن فونتشيتو لا يسمعهما. كان يتناول رشقات متباude من عصير ثمار اللوكما المثلج، بينما عيناه مصوّبتان إلى نقطة من المنضدة، غير عابئ مطلقاً بما يقوله أبوه وزوجته، كما لو أنه مستغرق في قلق خفي. إنه على هذه الحال منذ لقائه الأخير مع إديليبيرتو تورييس، وقد كان هذا هو السبب الذي جعل دون رينغوبيرتو يصر على إحضاره معهما إلى بيورا، على الرغم من أنه سيُضيع أياماً من المدرسة بسبب هذه الرحلة.

- إديليبيرتو تورييس؟ - طفر في مقعد مكتبه -. أهو مرة أخرى؟ وكان

يتكلم عن الكتاب المقدس؟

- إنني أنا نفسي يا فونتشيتو -. قال إديليبيرتو تورييس -. لا تقل لي إنك قد نسيتني. لا أظنك جاهداً إلى هذا الحد.

- لقد قدمت اعترافي للتو وأنا أنجز الكفارنة التي حددتها لي الكاهن -. تلعم فونتشيتو وهو يشعر بالملائكة أكثر من شعوره بالذعر -. لا يمكنني التحدث معك الآن أيها السيد، متأسف جداً.

- في كنيسة فاطمة؟ - كرر دون رينغوبيرتو غير مصدق، وهو يتلفت

كم من أصيب فجأة بداء هنتفتون، موقعاً إلى الأرض كتاباً عن فن التانتريك كان يقرأ فيه -. هل كان هناك، هو نفسه؟ في الكنيسة؟

- أتفهمك وأعتذر منك -. قال إديلبيرتو توريس خافضاً صوته ومشيراً إلى مذبح الكنيسة بإصبعه السبابية -. صل، صل يا فونتشيتو، فالصلة تُشعرك بالتحسن. سنتحدث في ما بعد. أنا أيضاً سأصل.

- أجل، في كنيسة فاطمة - أكد فونتشيتو وهو شاحب الوجه ونظراته شاردة بعض الشيء -. ذهبت أنا وأصدقائي، جماعة قراءة الكتاب المقدس، ذهينا للاعتراف. كان أصدقائي قد غادروا، وكنت أنا الأخير في الدخول إلى حجرة الاعتراف. ولم يكن قد بقي أناس كثيرون في الكنيسة. وفجأة انتبهتُ إلى أنه هناك، لا أدرى متى. أجل، كان هناك، جالساً إلى جانبي. يا للخوف الذي شعرتُ به يا بابا. أعرف أنك لن تصدقني، أعرف أنك ستقول إنني أختلف هذا اللقاء، في هذه المرة. كان الحديث عن الكتاب المقدس، أجل.

- حسنٌ حسن - تنازل دون ريفوبيرتو -. من الأفضل الآن أن نعود إلى الفندق. نتناول الغداء هناك. فالسيد ياناكيه قال لي إنه سيتصل بي في لحظة من لحظات بعد الظهر. هذا إن كان ذلك هو اسمه الحقيقي. إنه اسم غريب جداً، يبدو كالأسوء المستعارة لغنى الروك الذين تغطي الوشوم أجسادهم، أليس كذلك؟

- يبدو لي أنه اسم ينتمي إلى بيورا جداً - أبدت دونيا لوكريشيا رأيها - ربما هو آت من حضارة التالانين القديمة.

دفع الحساب وخرج الثلاثة من الكافيتيريا. ولدى اجتياز ساحة السلاح، اضطر ريفوبيرتو إلى إبعاد ماسحي الأحذية وبائعي اليانصيب الذين يعرضون عليه خدماتهم. لقد بدأ الحر يشتد الآن بالفعل. وكانت تظهر في السماء الصافية شمسٌ بيضاء، وبدا كل ما حولهم من أشجار

ومقاعد وخزف وأناس وكلاب وسيارات كأنه يشتعل.

- متآسف يا بابا - همس فونتشيتو بأصي - أعرف أن ما قلته لك كان خبراً سيئاً، وأعرف أن هذه اللحظات صعبة جداً عليك، بعد موت السيد كاريرا واختفاء آرميدا. أعرف أنه من القذارة أن أفعل هذا. ولكنك أنت من طلبت مني أن أخبرك بكل شيء، وأن أقول لك الحقيقة. أليس هذا ما تريده يا بابا؟

- لقد تعرضت لمشاكل مالية مثل الناس جمِيعاً في هذه الأوقات، وقد بدأت صحتي تخذلني - قال السيد إديلبيرتو توريس بوهن وغم - صرت أخرج قليلاً في الأونة الأخيرة. وهذا هو السبب في أنك لم ترني منذ أسبوع عديد يا فونتشيتو.

- هل جئت إلى هذه الكنيسة لأنك تعرف أنني سأكون هنا أنا وأصدقائي الذين نقرأ الكتاب المقدس؟

- لقد جئت من أجل التأمل، من أجل طمأنينة نفسي، كي أرى الأمور بهدوء وروية أكبر - أوضح إديلبيرتو توريس، ولكنه لم يكن يبدو هادئاً وإنما مرتجفاً، وكمن يعيش قلقاً عظيمًا - كثيراً ما أفعل هذا. إنني أعرف نصف كنائس ليما، وربما أكثر. أشعر بالتحسن في أجواء العزلة والصمت والصلادة هذه. بل تروقني رؤية الراهبات ورائحة البخور وربما رائحة القدم والعرقة أيضاً، بكل شرف. أنا أصلي أيضاً وأقرأ الكتاب المقدس يا فونتشيتو، حتى لو كنت تستغرب هذا. وهو دليل آخر على أنني لست الشيطان، مثلما يظن أبوك.

- سوف يستاء أبي حين يعلم أنني التقيت بك - قال الفتى - هو يعتقد أنه لا وجود لك، وأنني أنا من اختلت وجودك. وكذلك زوجة أبي. يظننان ذلك حقاً. ولهذا تحمس أبي حين قلت حضرتك بأنه يمكنك أن تساعده في المشاكل القضائية التي هو متورط فيها. كان يريد

رؤيتك ، اللقاء بحضورتك . ولكنك اختفيت.

- لم يفت الوقت لهذا الأمر - أكد السيد توريس -. ويسعدني اللقاء بدون ريفوبيرتو وطمأنته من الهواجس التي يشعر بها تجاهي . يسعدني أن أكون صديقاً له . فنحن في السن نفسها حسب تقديراتي . والحقيقة أنه لا أصدقاء لي ، وإنما معارف فقط . إنني متأكد من أننا ، هو وأنا ، سنتفهم جيداً :

- أنا أريد طبق سيكو دي تشابيلو - طلب دون ريفوبيرتو من النادل . إنه الطبق التقليدي في بيورا ، أليس كذلك ؟

دونيا لوكريشيا طلبت سمكة غراب بحر مشوية مع سلطة مشكلة . واكتفى فونتشيتو بطبق سيفتشي . كان مطعم فندق لوس بورتاليس شبه مقفر ، وكانت هناك مراوح بطيئة تحافظ على برودة الجو . وكان ثلاثة يتناولون ليموناده مع كثير من الثلج .

- أريد أن أصدقك ، أنا أعرف أنك لا تكذب عليّ ، وأنك فتى نظيف وطيب المشاعر - أكد دون ريفوبيرتو بملامح ضجرة -. ولكن هذا الشخص تحول إلى ثقالة في حياتي وحياة لوكريشيا . يبدو أننا لن نتحرر منه أبداً ، وأنه سيلحق بنا حتى القبر . ما الذي يريده الآن ؟

- أن نخوض حديثاً حول أشياء عميقة ، حوار أصدقاء - أوضح إديلبيرتو توريس -. الرب ، الحياة الأخرى ، عالم الروح ، التسامي . مثل أساطير الكتاب المقدس ، أعرف أن هذه الأمور تهمك الآن يا فونتشيتو . أعرف كذلك أن تشعر بشيء من خيبة الأمل في قراءتك للعهد القديم . وأنك كنت تنتظر شيئاً آخر .

- وكيف تعرف هذا أيها السيد ؟

- لقد أخبرتني به عصفورة - ابتسם إديلبيرتو توريس ، ولكن لم يكن في ابتسامته أدنى قدر من السعادة ، وإنما ذلك الحذر الخفي دوماً -. لا

تأخذ كلامي على محمل الجد، إنني أمنح الشيء الوحيد الذي أريد أن أقوله لك هو أن هذا يحدث لكل من يبدؤون قراءة العهد القديم. واصل، واصل، لا تفقد الحماسة. وسوف ترى كيف أن انتطاعك سيكون مختلفاً.

- كيف عرف أنك كنت تشعر بخيبة الأمل من تلك القراءة التوراتية؟  
- انقبض دون ريفوبيرتو من جديد في غرفة مكتبه -. هل هذا صحيح يا فونتشيتو؟ هل تشعر بخيبة الأمل؟

- لست أدرى إن كنت أشعر بالخيبة - وافق فونتشيتو بشيء من الارتباك -. المسألة هي أن كل شيء في الكتاب المقدس عنيف جداً. ابتداء من الرب نفسه، يهوه. لم أتصوره قط بمثل هذه الشراسة، يطلق الكثير من اللعنة، يطلب رجم السيدات الزانيات، يأمر بقتل من يخالف الطقوس. يطالب بقطع غلقة أعداء العبرانيين. أنا لم أكن أعرف ما تعنيه غلقة إلى أن قرأت التوراة يا بابا.

- لقد كانت أزمنة بربيرية يا فونتشيتو - طمأنه إديلبيرتو توري، وكان يتكلم مع وقفات صمت كثيرة، ودون أن يتخلى عن طريقته في الكلام المقتضب -. كل ذلك كان يحدث منذ آلاف السنين، في الأزمنة الوثنية وأزمنة أكل لحوم البشر. عالم كان فيه الطغيان والتعصب يسودان في كل مكان. أضف إلى ذلك أنه يجب عدم أخذ ما تقوله التوراة بحرفيته. فكثير مما يرد فيه رمزي وشعري ومباليغ به. وعندما اختفى يهوه الرهيب وظهر يسوع المسيح صار الرب وديعاً، رحيمًا ومتفهماً، وسوف ترى ذلك. ولكن لتتعرف هذا يجب أن تصل إلى العهد الجديد. عليك بالصبر والمثابرة يا فونتشيتو.

- عاد للقول لي إنه يريد اللقاء بك يا بابا. أينما كان وفي أي وقت. يحب أن تصبحا صديقين، لاسيما أنكمما في السن نفسها.

- هذه النغمة سمعتها في المرة الأخيرة التي تجسد لك فيها هذا الشبح، في تلك الحافلة - قال دون رينغوبيرتو ساخراً - ألا يريد أن يساعدني في حل مشاكل القانونية؟ وماذا حدث؟ أتراء تبخر! سيفعل الشيء نفسه هذه المرة أيضاً. باختصار، أنا لا أفهمك يا بني. هل تعجبك أم أنها لا تعجبك هذه القراءات في الكتاب المقدس التي أدخلت نفسك فيها؟

- لا أدرى إذا كنا نفعل ذلك بصورة جيدة - تهرب الصغير من الإجابة - فمع أنها تعجبنا كثيراً في بعض الأحيان، إلا أنها تبدو في أحيان أخرى معقدة ومشوّشة، كما هي تلك الشعوب التي تحارب اليهود في الصحراء. من المستحيل تذكر تلك الأسماء الغريبة جداً. أكثر ما يروق لنا هي القصص التي ثروى. ولا تبدو أنها أمور دينية، مثل مغامرات ألف ليلة وليلة. بيكتش شيريدان هو واحد من أصدقائي، قال قبل أيام إن هذه الطريقة في قراءة الكتاب المقدس ليست جيدة، وإننا لا نستفيد منه. وإنه من الأفضل أن نتخذ لنا دليلاً. أن نطلب مساعدة كاهن على سبيل المثال. ما رأيك أنت أيها السيد؟

- لذيد جداً - قال دون رينغوبيرتو وهو يتذوق لقمة من طبقة السيكودي تشابيلو - . يعجبني كثيراً هذا التشفليس... هذه هي التسمية التي يطلقونها هنا على الموز المقلي والمفروم. ولكنني أخشى أن يكون عسير الهضم بعض الشيء في مثل هذا الحر الشديد.

بعد أن أكلوا أطباق طعامهم طلبوا مثلجات، وحين كانوا على وشك البدء بتناول التحلية، لمحوا سيدة تدخل إلى المطعم. وقبل أن تتجاوز قدمها الباب، تفحصت المكان باحثة. لم تكن شابة، إلا أنه كان فيها شيء طازج وبهيج، بقية شبابية في وجهها المتلئ والحالم، وفي عينيها المتقاشرتين وفمها بشفتيه العريضتين كثيرتي الطلاء. تتباهى دون ظرافـة

بأهداب اصطناعية ترمش، وبقرطين مستديرين يتآرجحان، وترتدي ثوباً أبيض ضيقاً جداً ومطبعاً برسوم ورود. وركاها السخيان لا يسمحان لها برشاشة الحركة. بعد أن ألقت نظرة على الموائد الثلاث أو الأربع المشغولة، توجهت بتصميم إلى المنضدة التي يجلس إليها الثلاثة.

«السيد ريفوبيرتو، أليس كذلك؟»، سالتُ باسمة. مدت يدها لمصافحة كل واحد منهم، وجلست على الكرسي الشاغر.

- أسمى خوسيفيتا، وأنا سكرتيرة السيد فيليثيتو ياناكيه - قدمت نفسها - أهلاً بكم في مدينة رقصة التونديرو والتشي غوا. هل هي المرة الأولى التي تزورون فيها بيورا؟

لم تكن تتكلم بفمه فقط، وإنما كذلك بعينيها العبرتين، كثيرتي الحركة والخضراوين، وكانت تحرك يديها دون توقف.

- إنها المرة الأولى، ولكنها لن تكون الأخيرة - قال دون ريفوبيرتو بلطف - ألم يستطع السيد ياناكيه المجيء؟

- فضل لا يفعل ذلك، لأن السيد فيليثيتو، كما تعلمون، لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة في شوارع بيورا دون أن يلحق به سرب من الصحفيين.

- صحفيون؟ - دُعْر فاتحأ عينيه على اتساعهما دون ريفوبيرتو - وهل يمكننا أن نعرف لماذا يلاحقونه يا سيدة خوسيفيتا؟

- أنا آنسة - صحت له، ثم أضافت بحياء - مع أن هناك الآن متعدد يتقارب مني، وهو نقيب في الحرس الأهلي.

- ألف اعتذار يا آنسة خوسيفيتا - اعتذر ريفوبيرتو وهو ينحني لها - أيمكنك أن تفسري لي لماذا يلاحق الصحفيون السيد ياناكيه؟

توقفت خوسيفيتا عن الابتسام. نظرت إليهم متراجئة وبشيء من الشفقة. وكان فونتشيتو قد خرج من غيبوبته وبدأ مهتماً أيضاً بما تقوله من وصلت للتو.

- ألا تعلمون أن دون فيليثيتو ياناكيه أوسع شهرة الآن من رئيس الجمهورية نفسه؟ - هتفت مذهولة، مُظهرة نقطة من لسانها -. منذ أيام طويلة وأخباره في الإذاعات والصحف والتلفزيون. ولكن لأسباب خبيثة بكل أسف.

وكلما تكلمت أكثر كان وجها دون ريفوبيرتو وزوجته يبديان دهشة متزايدة، بحيث لم تجد خوسيفيتا بداً من أن تشرح لهما سبب تحول مالك شركة ناريهمولا للنقل من شخص غير معروف إلى شخصية واسعة الشعبية. بدا واضحًا أن هؤلاء القادمين من ليما لا يعرفون شيئاً عن قصة العنكبوت والفضائح التي تلتها.

- هذه فكرة عظيمة يا فونتشيتو - وافق السيد إديلبيرتو توريس - من أجل الإبحار بانسيابية في بحر الكتاب المقدس، لا بد من الاستعانة ببحار مجبوب. يمكن له أن يكون رجل دين مثل الأب أودونوفان، بكل تأكيد. ولكن يمكن الاستعانة بشخص علماني كذلك، شخص يكون قد كرس سنوات طويلة لدراسة العهدين القديم والجديد. أنا شخصياً على سبيل المثال. لا تظن أنني متبرج، فقد أمضيت في الحقيقة شطراً لا بأس به من حياتي في دراسة الكتاب المقدس. أرى في عينيك أنك لا تصدقني.

- إنه متحرش ومغرر بالقاصرين، ويريد الظهور الآن بمظهر اللاهوتي والخبير في دراسة الكتاب المقدس - قال دون ريفوبيرتو ساخطاً -. أنت لا تدرى كم أنا متلهف لرؤيتها وجهه يا فونتشيتو. سيقول لك في أية لحظة أنه هو نفسه كاهن.

- هذا ما قاله لي يا بابا - قاطعه فونتشيتو -. لم يقل إنه كاهن، بل إنه كان كاهناً. وإنه نزع عنه مسوح المدرسة الدينية قبل أن يُرَسَّم. لأنه لا يستطيع تحمل العفة، كما قال لي.

- ما كان علىَ أن أحدهُك في هذه الأمور، فأنت ماتزال صغيراً على هذا - أضاف السيد إديليبيرتو تورييس وقد شحب وجهه قليلاً وارتعش صوته - ولكن هذا هو ما حدث. كنتُ أستمني طوال الوقت، حتى مرتين في اليوم. وهو أمر يحزنني ويشوشني. لأنه كان لدى، أؤكد لك، ميل قوي لخدمة الرب. ومنذ كنت طفلاً، مثلك. المشكلة فقط في أنني لم أتمكن قطًّا من هزيمة شيطان الجنس اللعين. وجاء وقت ظننت فيه أنني أصبت بالجنون بسبب الغوايات التي كانت تحاصرني في الليل والنهار. عندئذ لم يعد هنالك مفر، واضطررت إلى مغادرة المدرسة الدينية.

- هل حدث في هذه الأمور؟ - انزعج دون ريفوبيرتو - حدث عن العادة السرية وعن الاستمناء؟

- وهل تزوجت عندئذ أيها السيد؟ سأله الصبي بخجل.  
- لا، لا، مازلت عازباً حتى الآن - ضحك السيد تورييس كمن يفعل ذلك بشيء من الإكراه - الزواج غير ضروري من أجل أن تكون لأحدنا حياة جنسية يا فونتشيتو.

- ولكنه ضروري في الديانة الكاثوليكية. أكد الصغير.  
- صحيح، لأن الديانة الكاثوليكية متشددة ومتزمتة في موضوع الجنس - أوضح ذلك الرجل - هناك ديانات أخرى أكثر تسامحاً. أضف إلى ذلك أن هناك كثير من التسامح في هذه الأزمنة، حتى روما نفسها آخذة بتقبل التحديث، وإن كانت تجد صعوبة في ذلك.

- أجل، أجل، الآن تذكرت - قاطعت السيدة لوكريشيا كلام خوسيفيتا - أجل بالطبع، لقد قرأتُ عن ذلك في مكان ما أو أنني رأيته في التلفزيون. هل السيد ياناكيه هو ذاك الذي كان ابنه وعشيقته يريдан اختطافه من أجل سرقة أمواله كلها؟

- حسن، حسن، هذا يكسر كافة حدود ما هو معقول - كان دون ريبوبرتو قد ضجر من الأمور التي يسمعها -. هذا يعني أننا نحن من جئنا لندرس أنفسنا في فم الذئب. إذا كنتُ أفهم جيداً، فإن مكتب رئيسك وبنته محاطان بالصحفيين نهاراً وليلًا. أليس كذلك؟

- في الليل لا - حاولت خوسيفيتا، بابتسامة ظافرة، تشجيع ذلك السيد ذي الأذنين الكبيرتين الذي بدأ يبدي تكشیرات تبدو مخادعة - في البدء أجل، كان الصحفيون في الأيام الأولى لا يكلون. كانوا يحيطون بيته ومكتبه طوال أربع وعشرين ساعة في اليوم. ولكنهم تعبوا، وصاروا الآن ينصرفون في الليل ليناموا أو ليسكرروا، لأن جميع الصحفيين هنا من البوهيميين والرومانسيين. خطة السيد ياناكيه ستسير على ما يرام، لا تقلق.

- وما هي هذه الخطة؟ سألها ريبوبرتو. وكان قد ترك المثلجات بعد أن تناول نصفها، وهو يحمل في يده الآن كأس الليمونادة التي انتهى للتو من إفراغها بجرعة واحدة.

الخطة بسيطة جداً. من الأفضل أن يظلوا في الفندق، أو أن يذهبوا إلى إحدى صالات السينما؛ توجد منها صالات كثيرة الآن، في المراكز التجارية الجديدة، وهي توصيهم بالمركز التجاري «أوبن بلازا»، في حي كاستيليا، غير بعيد، إنه ملاصق لجسر آندريس أبيلينو كاثيريس. من غير المناسب أن يظهروا في شوارع المدينة. وفي الليل، عندما ينصرف الصحفيون جميعهم من شارع اريكيبيا، سوف تأتي إليهم خوسيفيتا نفسها وتوصلهم إلى بيت السيد ياناكيه. إنه قريب، على بعد شارعين.

- يا لسو، حظ المسكينة آرميدا - تحسرت دونيا لوكريثيا فور انصراف خوسيفيتا -. هي من جاءت حقاً لتقع في فخ أسوأ من الذي أرادت الهرب منه. لا أجد تفسيراً لمسألة كيف لم يتمكن الصحفيون أو

الشرط من الإمساك بها حتى الآن.

- لا أريد استثارة استنكارك يا فونتشيشيو ببوجي بأسراري - اعتذر  
إديلبيرو تو تورييس بندم وهو يخفض صوته وبصره - ولكن عذابي بسبب  
شيطان الجنس اللعين دفعني للذهاب إلى المواخير والدفع للموسمات.  
أمور فظيعة تجعلني أشعر بالقرف من نفسي. أرجو ألا تستسلم لهذه  
الإغواءات المقرفة مثلما جرى لي.

- أعرف جيداً إلى أين يريد الوصول بك ذلك المنحرف بحديثه لك عن ملامسات خبيئة وعاهرات - تتحنن دون رغوبيرتو مختنقًا . - كان عليك أن تذهب فوراً ولا تجاريه بالاستماع إليه. ألم تلاحظ أنَّ بوحه المزعوم ما هو إلا استراتيجية لإيقاعك في شباكه يا فونتشيتو؟

- أنت مخطئ يا بابا - رد عليه - أؤكد لك أن السيد توريس كان صريحاً، ولم تكن له نوايا أخرى. كنت أراه حزيناً، يكاد يموت حزناً لأنّه فعل تلك الأمور. لقد احمررت عيناه فجأة، وانقطع صوته وبدأ يبكي من جديد. رؤيته على تلك الحال تمزق الروح.

- لحسن الحظ أتني أحضرت معي شيئاً جيداً للقراءة - علق دون ريفوبيرتو -. لأنه ما زال هنالك وقت طويل بانتظار حلول الليل. لا أظن أنكما ترغبان في دخول صالة سينما في مثل هذا الحر.

- ولم لا يا بابا؟ - اعترض فونتشيتو -. لقد قالت خوسيفيتا إن صلات السينما مزودة بأجهزة تبريد، وإنها صلات حديثة جداً.

- فلنر قليلاً من التقدم، ألا يقولون إن بيورا هي واحدة من أكثر مدن البيرو اندفاعاً في التقدم؟ - ساندته دونيا لوكيثيا -. فونتشيتو على حق.
- فلنقم بجولة في ذلك المركز التجاري، وربما يكون هنالك فيلم جيد. ففي ليما لا نذهب أبداً إلى السينما معاً كأسرة. هيا، تشجع يا ريفوبيرتو.
- أشعر بخجل شديد لقادامي على تلك الأشياء الخبيثة والقدرة،

حتى إنني أفرض على نفسي بنفسي عقوبات التكبير. وفي بعض الأحيان أجلد نفسي، كعقاب، حتى يسيل الدم - اعترف إديلبيرتو توريس بصوت مُحزن يمزق القلب وبعينين محمرتين.

– أولم يطلب منك عندئذ أن تجلده أنت؟ – انفجر دون رигوبيرتو .  
سافتتش السماء والأرض بحثاً عن هذا المنحرف، ولن أتوقف حتى أجده  
وأسدد معه الحساب، إنني أنبهك. سيدذهب إلى السجن أو سأطلق عليه  
رصاصة إذا ما حاول فعل شيء معاك. قل له هذا على لساني إذا ما  
ظهر لك مرة أخرى.

- وعندي داهمته نوبة بكاء أشد ولم يعد قادرًا على مواصلة الكلام يا بابا - هدأ فونتشيتو أبيه - لا شيء مما تفكّر فيه، أقسم لك أن لا. لأنه... تصور، وهو وسط ذلك البكاء، نهض فجأة وخرج راكضاً من الكنيسة، دون وداع ودون أي شيء. بدا يائساً، كمن هو ذاهب للانتحار. إنه غير منحرف، وإنما هو رجل يعاني كثيراً. وهو يستحق الشفقة وليس الخوف منه، أقسم لك.

وبينما هما في هذا الحديث، قاطعتهما طرقات عصبية خفيفة على باب غرفة المكتب. فُتح أحد مصرعي الباب وأطل وجه خوستينيانا قلقاً.

- لماذا تظنين أنني أغلقت الباب؟ - أوقفها ريفوبيرتو، وهو يرفع يدًا مؤنبة، دون أن يتاح لها أن تتكلّم . - لا ترين أنا أنا وفونتشيتو مشغولان.
- إنهم هنا يا سيدى - قالت الفتاة . - لقد بقيا واقفين أمام الباب بالرغم من أنني قلت لهم إنك مشغول، إنهم ي يريدان الدخول.

- هما؟ - قال دون ريفوبيرتو متفاجئاً - التوءمان؟  
- لم أدر ماذا يمكنني أن أقول لهما، ولا ماذا أفعل - وافقته  
خوستينيانا بقلق شديد، وكانت تتكلّم بصوت خافت وإيماءات - إنها

يقدمان لك ألف اعتذار. يقولان إن الأمر مستعجل جداً، ولن يأخذنا من وقتك سوى بعض دقائق. ماذا أفعل يا سيدي؟

ـ لا بأس، أدخلهما إلى الصالون - استسلم ريفوبيرتو - وكوني متيقظة أنت ولوكريثيا، يجب استدعاء الشرطة إذا ما حدث أي شيء. عندما انسحبت خوستينيانا، أمسك دون ريفوبيرتو ذراع فونتشيتو ونظر مطولاً إلى عينيه. كان يتأمله بمحبة، ولكن بجزع أيضاً يتبدى في كلامه غير الواقع والمتضرع:

ـ فونتشو، فونتشيتو، ابني الحبيب، أرجوك، أتوسل إليك بأعز ما لديك. قل لي إن كل ما روته لي ليس صحيحاً. وأنك أنت من اختلقته. وأنه لم يحدث. قل لي إن إديلبيرتو توريس لا وجود له وستجعلني بذلك أسعد إنسان على الأرض.  
رأي وجه الطفل يعكس وهناً في المعنويات، وأنه بعض شفتيه إلى أن تحولتا بنفسجيتين.

ـ حسنٌ يا بابا - سمعه يقول بنبرة لم تعد نبرة طفل وإنما شخص بالغ - لا وجود لإديلبيرتو توريس. أنا من اخترعته. لن أحدهك أبداً بعد اليوم عنه. أيمكنني الانصراف الآن؟  
أوما ريفوبيرتو موافقاً. رأى خروج فونتشيتو من المكتب ولاحظ أن يديه ترتعشان. كان قلبه قد تجمد. إنه يحب ابنته كثيراً، ولكنه فكر أنه لن يتمكن من فهمه أبداً على الرغم من كل جهوده، سيظل بالنسبة إليه على الدوام سراً غامضاً لا يسبر أعمقه. وقبل أن يواجه الضبعين، ذهب إلى الحمام وبلل وجهه بماء بارد. لن يخرج أبداً من هذه المتابة، ففي كل مرة مزيد من الكوابيس، مزيد من الأقبية، مزيد من اللف والدوران. أهذه هي الحياة، مجرد متابهة ستوصلك، مهما فعلت، إلى براهن السكلوب؟

وفي الصالون، كان ابنا إسماعيل كارييرا ينتظرانه واقفين. كلاهما كان يرتدي بدلة مع صدار وربطة عنق، كالعادة، ولكن خلافاً لما كان يظنه ريفوبيرتو، لم يكن مجئهما بهدف قتالي. أكان حقيقةً مظهر الهزيمة والضحية الذي يبديانه، أم أنه تكتيك جديد؟ ما الذي يخفيانه؟ حيّاً كلاهما بتودد، وبتربيت على الظهور وبذل الجهد لإظهار الحزن. وكان إسکوبیتا هو الأول في الاعتذار.

- لقد أسلتُ التصرفَ جداً معك في آخر مرة كنا هنا يا عماه - دمدم بأسف وهو يفرك يديه - فقدتُ صبري، توفهت ببلهات، وشتمتك. لقد كنتُ مصدوماً وشبه مجنون. أطلب منك ألف مغذرة. إنني أختنق، لا أعرف النوم منذ أسابيع، أتناول أقراصاً لتهذئة الأعصاب. تحولت حياتي إلى كارثة أيها العم ريفوبيرتو. أقسم لك إننا لن نعود أبداً إلى إساءة احترامك.

- جمیعننا نشعر بالاختناق، وهذا أقل ما يمكن في هذه الأحوال - اعترف دون ريفوبيرتو - فالآمور التي تحدث تُخرجنا عن طورنا. لا أشعر بأية ضغينة تجاهكم. اجلسا ولنتحدث. ما سبب هذه الزيارة؟

- لم نعد قادرين على تحمل المزيد يا عماه - بادر ميكى. وكان يبدو دوماً أكثر الاثنين جديةً وحكمة، على الأقل حين يتكلم - لقد صارت حياتنا لا تطاق. أتوقع أنك تعرف هذا. الشرطة تظن أننا اختطفنا أو قتلنا آرميدا. إنهم يستجوبوننا، يوجهون لنا أشد أنواع الأسئلة استفزازاً، يلاحقنا مخبرون طيلة الليل والنهار. يطلبون منا رشوة، وإذا لم نقدمها لهم يدخلون ويعيثون خراباً في بيوتنا في أي وقت. كما لو أننا مجرمون، كيف يبدو لك هذا.

- وهناك الصحف والتلفزيون يا عماه! - قاطعه إسکوبیتا - هلرأيت القذارات التي يوجهونها إلينا؟ كل نهار وكل ليلة، في كل

نشرات الأخبار ما رأيك. يقولون إننا مغتصباً بنا، مدمداً مخدرات، وأنه يمكن لنا، بمثل هذه السوابق، أن نكون المذنبين في اختفاء خلاصية البراز تلك. أي ظلم هذا يا عماه!

- إذا ما بدأتما بشتم آرميدا، وهي زوجة أبيكم سوء شئتم أم لا، فإنكم تبدآن بدبة سيئة يا إسکوبیتا. أنبه دون ریغوبیرتو.

- معك حق، آسف، ولكنني من فعل - اعتذر إسکوبیتا. وفي أثناء ذلك كان ميكي قد عاد إلى عادته القديمة بقبض أظفاره؛ إنه يفعل ذلك دون توقف، إصبعاً فإصبعاً، وبضراوة - أنت لا تعرف كم صارت فظيعة قراءة الصحف، وسماع المذيع، والتلفزيون. يفترون علينا طيلة النهار والليل، يسموننا منحليين، كسولين، مدمون كوكائين ولا أدرى كم من الأشياء المشينة الأخرى. في أي بلاد نعيش يا عماه!

- ولا فائدة ترجى من الذهاب إلى المحاكم، وطلب الحماية، لأنهم يقولون إن في ذلك اعتداء على حرية الصحافة - قال ميكي متذمراً. وابتسم دون أي مبرر، وعاد إلى إبداء مظهر الجد - ما علينا، نحن نعلم أن الصحافة تعيش على الفضائح. الأسوأ هو ما تفعله الشرطة. ألا يبدو لك أمراً م شيئاً أنهم، فوق كل ما فعله أبي معنا، يريدون جعلنا الآن مسؤولين عن اختفاء هذه المرأة؟ أصدروا بحقنا أمر إقامة جبرية مادامت التحقيقات متواصلة. حتى إنه لا يمكن لنا مغادرة البلاد، ولا سيما الآن حيث يبدأ «الأوبن ميامي».

- ما هو هذا الأوبن؟ قاطعه دون ریغوبیرتو مستغرباً.

- بطولة التنس، سوني أريكسون أوبن - أوضح له إسکوبیتا - ألا تعرف أن ميكي أحد الأوائل في لعبة التنس يا عماه؟ نال كومة من الجوائز. لقد عرضنا مكافأة لمن يساعد في الكشف عن مكان آرميدا. ولكننا، وهذا كلام بيننا، لا نملك ما ندفعه. هذا هو الوضع الحقيقي.

إننا مفلسان. لم يبق لدى ميكى ولا لدى أنا أي شيء من النقود العاهرة. لدينا ديون وحسب. وقد تحولنا إلى موبوئين، لا وجود لمصرف، ولا دائن، ولا صديق يوافق على إقراضنا سنتاً واحداً.

- لم يعد لدينا شيء، نبيعه أو نرهنه أيها العم ريفوبيرتو - قال ميكى. وكان صوته يرتعش كثيراً، مع توقفات صمت طويلة، وعيناه ترمشان بلا توقف -. بلا فلس واحد، وبلا اعتماد، وكما لو أن هذا كله قليل، فإنهم يشتبهون بنا في عملية اختطاف أو جريمة قتل. لهذا جئنا للقائك.

- أنت خشبة نجاتنا الأخيرة - أمسك إسکوبیتا يده وشدّ عليها بقوّة مؤكداً وفي عينيه دموع - لا تخذلنا، أرجوك يا عماه.

لم يستطع دون ريفوبيرتو أن يصدق ما يراه ويسمعه. لقد فقد التوءمان العجرفة والأمان اللذين كانا يميّزانهما، إنهم يبدوان أعزليين، مرعوبين، متسللين إشفاقة عليهما. كيف تبدل الأحوال بمثل ذلك الوقت القصير!

- يؤسفني جداً كل ما جرى لكما يا بئي أخي - قال مطلقاً عليهما هذه الصفة بلا سخرية لأول مرة -. أعرف أن ضرر كثرين يشكل عزاء للحمقى. ولكنني أفكر، على الأقل، بأن كل ما يلحق بهما من أذى، يصيب المسكينة آرميدا أكثر منه بكثير. أليس صحيحاً؟ سواء أكانوا قد قتلوها أم مازالوا يحتفظون بها مخطوفة، يا لنكتتها، ألا تريان ذلك؟ ومن جهة أخرى، أنا نفسي كنت ضحية أيضاً لظام كثيرة، على ما أعتقد. اتهاماتكما لي، على سبيل المثال، بالتوافق في عملية الخداع المزعومة التي كان إسماعيل ضحية لها بزواجه من آرميدا. أتدريان كم مرة كان عليّ أن أذهب للإدلاء بأقوالي لدى الشرطة وقاضي التحقيق؟ أتدريان كم هي أجور المحامين التي دفعتها؟ أتدريان أني اضطررت

منذ شهور إلى إلغاء رحلتي مع لوكريثيا إلى أوروبا بعد أن كنا قد دفعنا تكاليفها؟ وأنني مازلت غير قادر على البدء بتناقضِي راتبي التقاعدي من شركة التأمين، لأنكما عرقلتما الإجراءات. وأخيراً، إذا كانت المسألة تعداد النكبات، فإننا ثلاثة نعانيها.

استمعوا إليه مطربين، صامتين، متأثرين ومضطربين. سمع دون ريفوبيرتو موسيقى غريبة هناك في الخارج، من جهة كورنيش بارانكو البحري. وهو صفير محلخ السكاكين العجوز مرة أخرى؟ يبدو أن هذين الاثنين يحاكيانه. كان ميكى يقضم أظفاره، بينما إسكوبيتا يؤرجم قدمه اليسرى بحركة رتيبة. أجل، إنها موسيقى محلخ. سمعها يسعده.

- لقد تقدمنا بتلك الشكوى لأننا كنا يائسين أيها العم، فزوج أبي جعلنا نفقد عقلنا - قال إسكوبيتا - أقسم لك إننا نأسف أشد الأسف على كل الإساءات التي تسبينا بها لك. ومسألة تقاعده ستخرج الآن سريعاً جداً كما أتصور. فكما تعرف، لم يعد لنا أية علاقة بالشركة. لقد باعها أبي لشركة إيطالية. حتى إنه لم يطلعنا على الخبر.

- والشكوى ضدك سنسحبها عندما تطلبُ منا ذلك يا عماه - أضاف ميكى -. فهذا بالتحديد أحد الأمور التي نريد التحدث معك عنها.

- شكراً جزيلاً، ولكن تأخر الوقت قليلاً على ذلك - قال ريفوبيرتو -. فقد أوضح لي الدكتور أرنبياس أن المحاكمة التي شرعاً بها ضدي تصبح ملغاً بموت إسماعيل.

- من مثلك يا عماه - قال إسكوبيتا وهو يُظهر، كما فكر ريفوبيرتو، غباءً أكبر مما هو متوقع عقلانياً من كل ما يفعله أو يقوله -. يمكنني القول بكلمة عابرة إن الدكتور أرنبياس، هذا المخت بحمالتي بنطاله كمهرج، هو أسوأ خائن ولد في بيرو. لقد عاش على محسن ثديي أبي

طوال حياته، وصار الآن عدونا المُعلن. إنه خادمٌ مباع جسداً وروحًا لآرميدا، ولأولئك الإيطاليين المافياويين الذين اشتروا الشركة من أبي بسур بحس.

- لقد جثنا لتسوية الأموروها أنت تزيدها تعقيداً - أنبه أخيه ميكي، ثم التفت إلى دون ريفوبيرتو بحزن - نريد أن نسمع منك يا عماه. فعلى الرغم من أن مساعدتك لأبينا في ذلك الزواج ستؤلمنا دوماً، إلا أننا نثق بك. مدّ لنا يد المساعدة، قدم لنا نصيحة. فقد سمعت في أية محن نحن، ولا ندرى ماذا نفعل. ما الذي تقترح علينا عمله؟ فأنت تمتلك خبرة كبيرة.

- هذا أفضل بكثير مما هو متوقع - هتفت دونيا لوكريثيا - متاجر لشركات ساغا فالابيبيا، وتوتوس، وباساريلا، وديجافو، كما في أفضل محلات الشوبينغ في العاصمة.

- وستُ صالات سينما! جميعها مجهزة بأجهزة التكييف - صفق فونتشيتتو - لا يمكنك أن تتذمر يا بابا.

- حسن - استسلم دون ريفوبيرتو - اختارا أقل الأفلام سوءاً قدر الإمكان، ولندخل إلى إحدى صالات السينما وننتهي.

ولأن الوقت كان لا يزال بداية العصر والحر شديد في الخارج، فإن تواجد الناس كان قليلاً جداً في أجنبة مركز أوين بلازا التجاري الأنيقة. أما هنا في الداخل، فكان الهواء المبرد نعمة مباركة، وبينما راحت دونيا لوكريثيا تلقى نظرة على بعض الواجهات التجارية، واستغرق فونتشيتتو في دراسة قائمة الأفلام التي تُعرض، انجذب دون ريفوبيرتو إلى تأمل المناطق الرملية الصفراء التي تحيط بحرم جامعة بيورا الوطنية الفسيح، وأشجار الخروب المتفرقة الموزعة على تلك الألسنة الأرضية الذهبية، حيث العظام السريعة التي لا يراها، لكنه

يستطيع تخيلها، ترصد محيط المكان برؤوسها الصغيرة المثلثة وعيونها الغماء بحثاً عن حشرات. يا لغرابة قصة آرميدا! ففي هربها من فضيحة المحامين وابني زوجها الغاضبين، جاءت إلى بيت شخص هو بطل فضيحة أخرى عظيمة، فيها عناصر تشويق أشهى للصحافة الصفراء: زنا، ابتزاز، رسائل مغفلة تحمل توقيع عنكبوت، عمليات اختطاف واحتطافات زائفة، وحتى زنا محارم على ما يبدو. إنه يتلهف الآن فعلاً للتعرف على فيليثيتو ياناكيه، واللقاء بآرميدا وإخبارها بحديثه الأخير مع ميكى وإسكوبيتا.

ويبنما هو في هذه الأفكار، اقتربت منه دونيا لوكريثيا ومعها فونتشيتو. كان لديهما اقتراحان سينمائيان: قراصنة الكاريبي (الجزء الثاني)، وهو الفيلم الذي اختاره ابنه، و«غرام قاتل» اختارته امرأته. فوقع اختياره على فيلم القرصنة، مفكراً في أنه سيكون تهويدة مناسبة إذا ما توصل إلى إغفاءة قيلولة، وأفضل من ميلودrama الدموع التي يوحى بها عنوان الفيلم الآخر. منذ كم من الشهور لم يدخل صالة سينما؟

- ولدى الخروج يمكننا المجيء إلى محل الحلويات هذا - قال

فونتشيتو - يا لحلوا الرائعة !

«يبدو سعيداً ومستشاراً بهذه الرحلة»، فكر دون ريفوبيرتو. منذ وقت طويل لم ير ابنه مبتهاجاً ومتھماً بهذا الشكل. فمنذ ظهور إديلبيرتو توريس المسؤول تحول فونتشيتو إلى شخص متحفظ، سوداوي، وساهم. أما الآن، في بيورا، فيبدو من جديد ذلك الفتى المرح، والفضولي والمحمس الذي كانه من قبل. داخل صالة السينما الحديثة لم يكن يوجد أكثر من ستة أشخاص.

استنشق دون ريفوبيرتو هواء، ثم أطلقه ووجه خطبته:

- لدى نصيحة واحدة فقط أقدمها لكما - كان يتكلم بوقار - توصلا

إلى سلام مع آرميدا. تقبلا زواجهما من إسماعيل، تقبلوها باعتبارها زوجة أبيكم. انسيا حماقة أنكم تريдан إبطال الزواج. تفاوضا معها على تعويض مادي. لا تخدعا نفسكما، لن تستطعوا أبداً أن تنتزعوا منها كل ما ورثته. أبوهما كان يعرف ما الذي يفعله، وقد أحكم ترتيب الأمور جيداً. إذا ما أصرتتما على السير في هذه القضية القضائية، فسوف ينتهي بكم الأمر إلى قطع كل الجسور ولن تحصلا على سنٍ واحد. تفاوضا ودياً، توافقا على مبلغ، حتى لو لم يكن مثلما ترغبان، يمكن له أن يكون كافياً لتعيشا حياة جيدة، بلا عمل وباستمتاع، وبلعب التنفس، طوال حياتيكما.

- وماذا لو كان الخاطفون قد قتلوها يا عماه؟ - كانت عبارة إسكونبيتا مؤثرة جداً إلى حد أصيّب معه ريفوبيرتو باختلاجة. وبالفعل: ماذا لو أنهم قد قتلوها؟ ماذا سيكون مصير تلك الثروة؟ هل ستبقى بين أيدي المصرفيين والوكلاء والمحاسبين ومكاتب المحاماة الدولية التي تمتلكها الآن، ولن تكون بمنأى عن يد هذين الشيطانين البائسين وحسب، وإنما كذلك عن أيدي جباة الضرائب في العالم بأسره؟

- من السهل عليك أن تطلب منا مصالحة تلك المرأة التي سرقت منا أبانا يا عماه - قال ميكى مبدياً الحزن أكثر من الغضب -. وقد استحوذت فوق ذلك على كل ما كانت تملكه الأسرة، بما في ذلك الأثاث وملابس أمي ومجوهراتها. لقد كنا نحب أبانا كثيراً. ويؤلمنا جداً وقوعه في شيخوخته ضحية هذه المؤامرة الدينية.

نظر دون ريفوبيرتو إلى عيني ميكى وحدق به. عديم الحياة الصغير هذا الذي ملأ بالماراة سنوات إسماعيل الأخيرة، واستيقاه هو نفسه ومعه لوكريثيا معلقين منذ شهور ومحتجزين في ليما ومحتنيفين في مواعيد قضائية، يمنح نفسه الآن ترف إظهار النوايا الطيبة.

- لم تكن هناك أية مؤامرة يا ميكى - قال بتمهل، محاولاً عدم إظهار الغضب في كلماته -. أبوك تزوج لأنه كان يشعر بعاطفة نحو آرميدا. ربما لم يكن حباً، ولكنها عاطفة كبيرة. فقد كانت طيبة معه، وواسته حين ماتت أمك. وقد كانت تلك مرحلة صعبة جداً، أحس فيها إسماعيل أنه وحيد.

- وللمواسة التي قدمتها إليه باندساسها في سرير العجوز المسكين - قال إسکوبیتا. وصمت حين رفع ميكى يده بحدة مشيراً له أن يطبق فمه. - ولكن، وقبل كل شيء، تزوج إسماعيل منها لخيبة أمله الرهيبة فيكما - واصل دون رغوبيرتو كما لو أن لسانه، ودون مشيئته، قد انفلت من تلقاء نفسه -. أجل، أجل، أعرف جيداً ما أقوله لكم يا بئي أخي، أعرف ما الذي أتكلم عنه. وستعرفانه أنتما الآن أيضاً إذا ما استمعتنا إلى دون مزيد من المقاطعة.

كان قد بدأ برفع صوته، وكان التوءمان الآن هادئين ومتنهدين، وقد فوجئا بالصرامة التي يكلمها بها.

- أتريдан أن أقول لكم لماذا كان يشعر بخيبة الأمل فيكما؟ ليس لأنكما كسولان ومحتالان وسكيران ومدخنا ماريجوانا وتعاطيان الكوكائين كمن يتناول السكاكر. لا، لا، فكل هذا كان قادراً على تفهمه، بل وغفرانه أيضاً. على الرغم من أنه كان يرغب، بالطبع، أن يكون ابنيا مختلفين جداً عما هما عليه.

- لم نأت هنا كي تهيننا يا عماه. احتج ميكى وقد احمر وجهه. - لقد كان محبطاً منكما لأنه علم أنكما تنتظران بفارغ الصبر أن يموت كي ترثاه. كيف عرفت ذلك؟ لأنه هو نفسه أخبرني به. يمكنني أن أقول لكم أين، وفي أي يوم وأية ساعة. وأن أخبركم بالكلمات التي قالها لي حرفياً.

وخلال بضع دقائق، أخبرهما ريفوبيرتو، بكل هدوء، بتلك المحادثة التي جرت قبل شهور قليلة، أثناء ذلك الغداء في مطعم روساناوتيكا، حين أطلعه رئيسه في العمل وصديقه على قراره بالزواج من آرميدا وطلب منه أن يكون شاهداً على ذلك الزواج.

- لقد سمعكما، في مستشفى سان فيليبي، تتفوهان بتلك الأمور البلياء والخبيثة، بجوار سرير احتضاره - أنتما من سرعتما زواج إسماعيل وآرميدا لأنكم عديمي الإحساس وقاسيين. أو بعبارة أدق، لأنكم أحمقين. كان عليكم أن تخفيما مشاعركما على الأقل في تلك اللحظات، وأن تتركا أبيكما يموت بسلام، معتقداً أن ابنيه حزينين لما يحدث له. وليس البدء بالاحتفال بموته وهو لا يزال حياً ويسمعكما. لقد قال لي إسماعيل إن سماعه لكم تتفوهان بتلك الأمور الرهيبة منحه القوة للبقاء حياً، وللصراع ضد الموت. أنتما من تسببتما في بعثه حياً وليس الأطباء. حسن، ها أنتما تعرفان الآن. هذا هو السبب الذي جعل أباكم يتزوج من آرميدا. وكيلا تكونا أبداً الوريثين الوحدين لثرؤته.

- نحن لم نقل قطّ هذا الذي تقول إنه قال لك إننا قلناه - ذهل إسكوبيتا، وتحولت كلماته إلى لعثمات - لقد حلم أبي بذلك، بسبب الأدوية القوية التي أعطوه إليها لإخراجه من حالة الغيبوبة. هذا إن كنت تقول الحقيقة ولم تختلق هذه القصة كلها كي تخوزقنا أكثر مما نحن فيه.

بدا أنه يريد أن يضيف شيئاً آخر. ميكى لم يقل أي شيء، وواصل قضم أظفاره بإصرار. تعكرت ملامحه وبدا قاطعاً. وكان احتقان وجهه قد تفاقم.

- من المحتمل أن تكون قد قلنا ذلك وأنه سمعنا - صحق لأخيه بفظاظة - لقد قلنا ذلك مرات كثيرة، هذه هي الحقيقة يا عماه. لم نكن

نحبه لأنّه هو أيضًا لم يحبنا قطّ. فأنّا لا أذكر أنّي سمعته يوجه إلينا كلمة محبة. لم يلعب معنا قطّ، لم يأخذنا إلى السينما أو إلى السيرك، مثلما يفعل آباء أصدقائنا جميعاً. وأظنّ أنه لم يجلس معنا قط لتبادل الحديث. لم يكن يكاد يكلمنا. لأنّه ما كان يحب أحداً سوى شركته وعمله. أتدرى؟ لا أشعر بأيّ أسف لأنّه علم أنّنا نكرهه. لأنّ هذه هي الحقيقة المجردة.

- اصمت يا ميكى، الغضب يجعلك تتلفظ بحمقات - اعتراض إسکوبیتا - لا أدرى لماذا رویت لنا هذا كله يا عماه؟

- لسبب بسيط جداً يابن أخي. من أجل أن تنزعوا من رأسيكما، إلى الأبد، تلك الفكرة السخيفه عن أن أبيكما قد تزوج من آرميدا لأنّه مخبول، مصاب بحرف الشيخوخة، ولأنّهم قدموا إليه أشربة أو مارسوا عليه فنون السحر الأسود. لقد تزوج لأنّه علم أنّكما تريдан له أن يموت بأسرع ما يمكن كي تستحوذا على ثروته وتبددانها. هذه هي الحقيقة الخالصة والمحزنة.

- من الأفضل أن نذهب من هنا يا ميكى - قال إسکوبیتا وهو ينهض عن المبعد - أترى لماذا لم أكن راغباً في المجيء للقيام بهذه الزيارة؟ لقد قلتُ لك إن الأمر سينتهي بهذا الشخص إلى إهانتنا بدل أن يساعدنا، مثلما فعل في المرة السابقة. من الأفضل أن نغادر قبل أن يشتد غضبي من جديد وأحطم وجه هذا المفترى القذر.

- لا أدرى ما هو رأيكما، أما أنا فقد أعجبني الفيلم كثيراً - قالت السيدة لوكريثيا - على الرغم من أنه فيلم أحمق، إلا أنّي استمتعت بمشاهدته.

- إنه فيلم خيالي أكثر مما هو فيلم مغامرات - أيدها فونتشيتتو - أفضل ما رأيته فيه هم المسوخ والجماجم. ولا تقل لي إن الفيلم لم يرق

لك يا أبي. لقد كنت أراقبك ورأيتك مستغرقاً بتركيز على الشاشة.  
- حسن، الحقيقة أنني لمأشعر بأي ملل - وافق دون ريفوبيرتو -  
فلنأخذ سيارة أجرة كي نعود إلى الفندق. لقد بدأ الليل بالحلول  
واللحظة الحاسمة تقترب.

رجعوا إلى الفندق، واستحم دون ريفوبيرتو طويلاً تحت تدفق  
الدوش. فالآن، ومع اقتراب لحظة اللقاء بآرميدا، بدا له أن كل هذا  
الذي عاشه هو بالفعل، مثلما قالت لوكريثيا، لا واقعية مسلية وغير  
معقوله مثل الفيلم الذي شاهدوه للتو، ليس لها أدنى علاقة بالواقع  
المعيش. ولكن قشعريرة باردة جمدت ظهره فجأة. ربما أن عصابة قتلة،  
من مجرمين دوليين، عارفين بالثروة الكبيرة التي خلفها إسماعيل  
كاريرا، يقومون الآن بالذات بتعذيب آرميدا. بانتزاع أظفارها، وقطع  
إصبعها أو صلم أذنها، أو انتزاع إحدى عينيها، من أجل إجبارها على  
التنازل عن الملايين التي يطلبونها منها. أو ربما يكونون قد تجاوزوا  
الحد في تعذيبها وهي الآن ميتة ومدفونة. استحمت لوكريثيا أيضاً، ثم  
ارتدت ملابسها ونزلت إلى البار لتناول كأس شراب. أما فونتشيتو فظل  
في غرفته يشاهد التلفاز. قال إنه لا يريد تناول طعام؛ سيمكتفي بطلب  
سندوتش وينام.

كان البار ممتلئاً بالرداد، ولكن بدا أن لا أحد يوليهما أدنى اهتمام.  
جلسا إلى منضدة منزوية جداً وطلبا كأسين ويسكي مع صودا وثلج.  
- مازلت غير مصدقة أننا سوف نرى آرميدا - قالت دونيا لوكريثيا -  
أيكون الأمر حقيقة؟

- إنه إحساس غريب - أجابها ريفوبيرتو - الإحساس بأننا نعيش  
خيالاً، حلماً يمكن له أن يتحول إلى كابوس.  
- خوسيفيتا، يا لهذا الاسم الذي تحمله، ويا لهيئتها - علقت

لوكريثيا .. الحقيقة أن أعصابي متوتة. وماذا لو كان هذا كله فخاً من بعض الأوغاد من أجل ابتزاز نقود منك يا ريفوبيرتو؟

ـ سيمبابون بخيبة أمل عظيمة ـ قال ضاحكاً ـ لأن محفظتي فارغة. ولكن المدعوة خوسيفيتا لها هيئة يمكن لها أن تكون أي شيء باستثناء كونها مجرمة. أليس كذلك؟ والشيء نفسه ينطبق على السيد ياناكيه؛ فقد بدا لي خلال مكالته الهاتفية أنه أشد كائنات هذه الدنيا بعدها عن العدوانية.

أنهيا تناول ال威سكي، وطلبا كأساً أخرى لكل منهما، ثم انتقلا بعد ذلك إلى المطعم. ولكن أيهما لم يكن يشعر برغبة في الأكل، وهكذا، بدل أن يجلسا إلى منضدة ذهبا للجلوس في صالة المدخل الصغيرة. ظلا هناك حوالي الساعة، يتآكلهما الفلق، دون أن يزيحَا أعينهما عن الناس الذين يدخلون إلى الفندق ويخرجون منه.

وأخيراً جاءت خوسيفيتا، بعينيها المتتفاوتين، وقرطيها الكبيرين، وردفيها الفخمين. كانت تلبس كما في الصباح. جاءت بملامح جدية جداً وإيماءات تأميرة. اقتربت منها بعد أن استطاعت بعينيها المتحركتين محيط المكان حولهما، دون أن تفتح فمها ولو لتقول لهم مساء الخير، أو مأذ إليهما بأن يتبعاهما. خرجا في إثرها إلى ساحة السلاح. دون ريفوبيرتو الذي يكاد لا يشرب مطلقاً، تسبب له كأساً ال威سكي بدوره خفيف، وأصابه هواء الشارع بشيء من التشوش الإضافي. جعلتهما خوسيفيتا يدوران حول الساحة ويمران بمحاذة الكاتدرائية، ثم ينعطفان بعد ذلك إلى شارع اريكيبيا. كانت التجار قد أغلقت، بينما ظلت واجهاتها مضاءة ومحمية بشباك معدنية، ولم يكن هناك عابري سبيل كثيرون على الرصيفين. عند الوصول إلى كتلة الأبنية الثانية، أشارت لهما خوسيفيتا إلى البوابة الكبيرة لبيت قديم، نوافذه

مسدلة الستائر، ودون أن تقول ولو كلمة واحدة، أومأت لها بيدها مودعة. رآياها تبتعد مسرعة، متباخرة، دون أن تلتفت. اقترب دون ريفوبيرتو دونيا لوكريشيا من البوابة الضخمة المزينة بمسامير حديدية كبيرة، ولكن البوابة انفتحت قبل أن يطرقها عليها، ودمدم صوت ذكوري باحترام شديد: «تفضلاً، ادخلوا من فضلكم».

دخلوا. وفي بهو سيئ الإضاءة، فيه مصباح وحيد يهتز هواء الشارع، استقبلهما رجل ضئيل ونحيل، محشور في بدلة محكمة مع صدار. انحنى لها انحناءة كبيرة وهو يمد إليهما في الوقت نفسه يد طفل: - أشرف بالترحيب بكم في بيتي.. فيليثيتو ياناكيه في خدمتكما. تفضلاً، تفضلاً.

أغلق الباب الخارجي وقادهما عبر البهو شبه المظلم باتجاه صالة ظليلة أيضاً، حيث يوجد جهاز تلفاز ورف صغير عليه أسطوانات مدمرة. رأى دون ريفوبيرتو شيئاً أنتوياً ينهض منتصباً عن أحد المقاعد. تعرّف على آرميدا. وقبل أن يتمكن من تحيتها سبقته إليها دونيا لوكريشيا، ورأى امرأته تعانق أرملة إسماعيل كاريلا بقوة. انفجرت المرأةان كلتاهم بالبكاء، كما لو أنها صديقتان قد يمتنان تلتقيان بعد سنوات طويلة من الغياب. وعندما جاء دوره لتحيتها، قربت له آرميدا خدها ليقبله. وقد فعل ذلك مدمداً: «يا للسعادة بروبيتك سلية ومعافاة يا آرميدا». وشكرته هي لمجيئه، فليكافئك الله، وإسماعيل أيضاً سيسكرك من هناك، حيث هو الآن.

- يا لها من مغامرة يا آرميدا - قال ريفوبيرتو -. أظنك تعرفين أنك المرأة التي يبحث عنها الجميع في بيرو. والمرأة الأوسع شهرة أيضاً. تظهررين في التلفزيون صباح مساء، والجميع يظنون أنك مختطفة.

- لا أجد الكلمات الكافية لشكركم على تحملكم مشقة المجيء إلى

بيورا - قالت وهي تمسح دموعها - إنني بحاجة إلى مساعدتكم. لم يعد بإمكانني البقاء لزید من الوقت في ليما. فتلك المواجهات مع المحامين، ومع الكتاب بالعدل، واللقاءات مع ابني إسماعيل، بدأت تسبب لي الجنون. كنت بحاجة إلى قليل من الهدوء كي أتمكن من التفكير. لست أدرى ما الذي كنت سأفعله من دون خيرتروديس وفيليسيتو. هذه أختي وفيليسيتو صهري.

ووسط ظلال الحجرة ظهرت هيئة غائمة. ومدّت المرأة الملتفة بجلباب يدها التخينة المترعرعة وصاحتها مع انحناء من رأسها، دون أن تتقوّه بكلمة واحدة. وإلى جانبها، وقف الرجل الضئيل الذي يبدو أنه زوجها، بدا أكثر ضالّة، أشبه بعفريت قزم. وكان يحمل بكلتا يديه صينية فيها كؤوس وقوارير شراب غازي :

- لقد جهزتُ لكما بعض المرطبات. تفضلوا، رجاء.
- لدينا حديث كثير معك يا آرميدا - قال دون ريفوبيرتو -، ولا أعرف من أين أبدأ.
- من الأفضل البدء من البداية - قالت آرميدا - ولكن، اجلسا، اجلسا. إنكم جائعان. لقد حضرنا أنا وخيرتروديس شيئاً لتأكلاه أيضاً.

## XIX

عندما فتح فيليثيتو ماناكيه عينيه كان الوقت فجراً، ولم تكن العصافير قد بدأت تغرد بعد. فكر: «هذا هو اليوم». كان الموعد مقرراً في الساعة العاشرة صباحاً، مازال لديه نحو خمس ساعات. لم يكن يشعر بالعصبية؛ فهو يعرف كيف يحافظ على التحكم بنفسه، لن يسمح للغضب بأن يسيطر عليه، وسيحدثه بكل هدوء. فالقضية التي أرقته طيلة حياته ستُسوى اليوم وإلى الأبد؛ وستأخذ ذكرها بالتلاشي شيئاً فشيئاً إلى أن تختفي من ذاكرته.

نهض، أزاح الستائر، وبينما هو حافي القدمين، وبجامته ذات المقاس الطفلي، مارس لمدة نصف ساعة تمارين الكي جونغ بالبطء والتركيز اللذين علمه إياهما الصيني لاو. فمن أجل التوصل إلى الكمال في كل حركة من حركاته، كان يتبع للجهد أن يستحوذ على وعيه بالكامل. وفكر: «كنت على وشك إضاعة المركز ولم أتوصل بعد إلى استعادته». ناضل كيلا يتغلب عليه وهن العزيمة مرة أخرى. ليس غريباً فقدانه التركيز مع التوتر الذي يعيشه منذ تلقيه رسالة العنكبوت الأولى. من بين كافة الشروح التي قدمها إليه البقال لاو حول الكي جونغ - هذا الفن، الرياضة، الديانة أو أية تسمية أخرى، الذي علمه إياه وصار منذ ذلك الحين جزءاً من حياته - الشيء الوحيد الذي فهمه بكمال أبعاده هو «العثور على المركز». كان لاو يكرر ذلك في كل مرة يضع فيها يديه

على رأسه أو على معدته. وأخيراً فهم فيليثيو: «المركز» الذي لا بد من العثور عليه، ولا بد من تحميته بحركة دائيرية براحتي اليدين على البطن، حتى الإحساس بأن قوة غير مرئية تخرج من هناك وتمنحه شعوراً بالطفو، لم يكن ذلك مركز جسده وحسب، بل شيء أشد تعقيداً، إنه رمز لنظام وسكينة، سُرّة للروح، إذا ما تمكن المرأة من تحديده جيداً والسيطرة عليه، فسوف يطبع حياته بمغزى واضح وتنظيم متناسق. ولقد سيطر عليه في هذه الفترة الأخيرة الإحساس - اليقين - بأن مركزه قد ضاع وأن حياته آخذت تغرق في الفوضى.

يا للصيني لاو المسكين. لم يكونا صديقين بكل معنى الكلمة، لأن علاقة الصداقة تتطلب التفاهم كلامياً، ولو لم يتعلم الإسبانية قطّ، بالرغم من أنه كان يفهم كل شيء تقريباً. لكنه يتكلم لغة إيماءات وحركات محاكاة يمكن من خلالها فهم ثلاثة أرباع ما يقوله. أما الصينية التي تعيش معه وتساعده في الدكان؛ فهي تفهم كما يبدو ما يقوله الزبائن، ولكنها نادراً ما تتجروا على التوجّه إليهم بالكلام، مدركة أن ما تقوله ليس سوى أصوات مختلطة، يصعب فهمها أكثر من صعوبة فهم إيماءات لاو. لقد كان فيليثيو يظن، لوقت طويل، أنهما زوج وزوجة، ولكن في أحد الأيام، حين كان الاثنان قد نسجاً علاقة تشبه الصداقة، ولكنها ليست كذلك، تمكن لاو من إدراكه أن تلك المرأة الصينية، في الحقيقة، هي اخته.

كان دكان لاو عند تخوم بيورا آنذاك، حيث تلتقي المدينة بالأراضي الرملية، من جهة التشبيه. ما كان يمكن للمكان أن يكون أشد بؤساً: كوخ من عيدان أشجار الخروب مع سقف من التوتية مثبت بأحجار، مقسم إلى قسمين، قسم للدكان، وهو حجرة صغيرة فيها منضدة كونتوار وخزانة جدارية مرتجلة، والقسم الآخر هو الذي يعيش فيه الأخوان،

ويأكلان وينامان. وكان لديهما بعض الدجاج والماعز، وقد امتلكا في إحدى المرات خنزيراً أيضاً، ولكنه سُرق منها. وهما يعيشان بفضل سائق الشاحنات الذين يمرون من المكان أثناء توجههم إلى سويانا أو بايتا، ويتوقفون هناك لشراء سجائر أو مياه غازية أو بسكويت أو لتناول زجاجة بيرة. وكان فيليثيتو يعيش في الجوار، في ثُرل تملّكه أرملا، قبل سنوات من انتقاله إلى بنسيون «شجرة الخروب». المرة الأولى التي اقترب فيها من دكان لاو - حدث ذلك في ساعة مبكرة جداً من الصباح - وجده يقف منتصباً وسط الرمال، لا يرتدي شيئاً سوى البنطال، بينما صدره بارز العظام عار، ويقوم بممارسة تمارين غريبة بحركة كاميلا بطيئة. لسعه الفضول، ووجه إليه أسئلة، فحاول الصيني بإسبانيته الكاريكاتورية أن يشرح له ما الذي يفعله بتحريك ذراعيه ببطء والتوقف أحياناً دون حراك مثل تمثال، وبعينين مغمضتين، كما لو أنه يحبس أنفاسه. منذ ذلك الحين، صار سائق الشاحنة يستغل أوقات فراغة ليذهب مسرعاً إلى ذلك الدكان كي تبادل الحديث مع لاو، إن كان يمكن تسمية ذلك الذي يفعله تبادلاً للحديث، إذ كانا يتواصلان بإشارات وإيماءات يحاولان أن يكملوا بها الكلمات، وهي إيماءات تدفعهما أحياناً، عند أي عدم تفahم، إلى الانفجار في الضحك.

لماذا لم يكن لاو وأخته يلتقيان بصيني البيرو الآخرين؟ هناك عدد لا يأس به منهم، بينهم أصحاب مطاعم وحانات ومتاجر، وبعضهم مزدهرين جداً. ربما لأنهم جميعهم في وضع أفضل بكثير من وضع لاو، وهم لا يريدون الإساءة لسمعتهم بالاختلاط مع هذا الفقير الذي يعيش كمتوحش بدائي، دون أن يستبدل أبداً البنطال المزليت كثير الثقوب وقمصيه الوحيدتين اللذين يرتديهما مفتوحين على الدوام تقريباً، كاشفاً بذلك عن عظام صدره. وقد كانت أخته هيكلأً عظيماً صامتاً كذلك.

ولكنها هيكل عظمي نشيط جداً، فهي من تقدم العلف للحيوانات، وتذهب لشراء الماء والمؤن من الموزعين في أماكنة قريبة. لم يستطع فيليثيو قط أن يتحرى أي شيء في حياتهما، كيف ولماذا جاء إلى البيرو من بلادهم النائية، ولماذا لم يستطعوا، خلافاً للصينيين الآخرين في المدينة، من التقدم قُدماً وظلا غارقين في البؤس.

كانت واسطة تواصلهم الحقيقة هي رياضة الكي جونغ. في البدء، راح فيليثيو يحاكي حركات لاو كمن يلعب، غير أن لاو لم يأخذ الأمر على محمل المزاح، بل حثه على المثابرة، وتحول إلى معلم. معلم صبور، لطيف، متفهم، يرافق بأسلوبه البدائي كل حركة من حركاته وأوضاعه، بشرح يفهمها فيليثيو بصعوبة. ولكن، شيئاً فشيئاً، سمح للعدوى بنموذج لاو أن تنتقل إليه، وبدأ يمارس طقوس الكي جونغ، ليس لدى زيارته الدكان وحسب، وإنما كذلك في نزل الأرمدة، وفي الأماكنة التي يأوي إليها للراحة خلال سفرياته. لقد أعجبه ذلك. وأحس بأنه مفيد له. يجعله يهدأ حين يكون عصبياً، ويعطيه طاقة وقدرة على التحكم بالتبديلات اليومية. وساعدته على اكتشاف مركزه.

في إحدى الليالي، أيقظت صاحبة النزل فيليثيو قائلة له إن امرأة الدكان الصينية شبه المجنونة تقف عند الباب مطلقة الصرخات، وليس هناك من يفهم ما تقوله. خرج فيليثيو بسرواله الداخلي. كانت أخت لاو مشعة الشعر، تومئ مشيرة إلى الدكان وهي تطلق صرخات هستيرية. ركض وراءها ووجد هناك صاحب الدكان عارياً، يتلوى من الألم على حصیر، مع حرارة مرتفعة جداً. تكلف مشقة في العثور على سيارة تنقل لاو إلى أقرب مركز إسعاف عمومي. وهناك قال له الممرض المناوب إنه يجب نقله إلى المستشفى، لأن مركز الإسعاف لا يقدم سوى إسعافات خفيفة، وهذه الحالة تبدو حرجة. تطلب الأمر أكثر

من نصف ساعة للعثور على سيارة أجرة تحمل لاو إلى قسم الطوارئ في المستشفى العمالي، حيث تركوا البقال مطروحاً على مقعد خشبي حتى الصباح التالي، لأنه لا وجود لأسرة شاغرة. وفي اليوم التالي، حين رأه طبيب في نهاية المطاف، كان لا يحتضر. وقد مات بعد ساعات قليلة. لم يكن هناك من يدفع نفقات دفنه - كان فيليثيتو يكسب ما يكفي لطعامه فقط - فدفنه في قبر جماعي، بعد تلقي وثيقة توضح أن سبب وفاته تعفن معوي.

المثير للفضول في الأمر أن أخت لاو قد اختفت في ليلة موت البقال نفسها. لم يعد فيليثيتو إلى رؤيتها أو سماع أي خبر عنها قط. أما الدكان فتم السطو عليه ونهبه في ذلك الصباح بالذات، وبعد بعض الوقت أخذوا صفائح التوتية والعوارض الحديدية، بحيث لم يبق بعد أسبابه قليلة أي أثر من الأخوين. وعندما ابتلع الزمن والصحراء آخر آثار الكوخ، أقيمت في المكان ساحة لصراع الديوك، لكنها لم تلق نجاحاً كبيراً. أما الآن، فتحول المكان إلى جزء من مدينة إلتشيببيه، وصار فيه عمران، وشوارع وكهرباء، وماء وصرف صحي، وبيوت أسر مزدهرة من الطبقة الوسطى.

بقيت ذكري البقال لاو حية في ذاكرة فيليثيتو. تتجدد في كل صباح، بعد ثلاثين عاماً، في كل مرة يمارس فيها تمارين الكي جونغ. لقد انقضى زمن طويل ومازال يتساءل أحياناً عن مغامرة لاو وشقيقته، عن سبب مغادرتها الصين، وأية ظروف عانياها واضطررتهما إلى البقاء في بيوتاً محكومين بتلك الحياة الحزينة والمتحدة. كان لا يكرر بكثرة أنه لا بد من العثور على المركز، وهو أمر، على ما يبدو، لم يستطع التوصل إليه قط. لقد قال فيليثيتو لنفسه إنه ربما سيتمكن اليوم، حين يفعل ما هو ذاذهب لفعله، من استعادة مركزه المفقود.

أحس ببعض التعب عند الانتهاء، وكان قلبه ينبض بسرعة أكبر قليلاً. استحم بهدوء، لع حذاءه، ارتدى قميصاً نظيفاً وتوجه إلى المطبخ ليُعد فطوره المعهود، المكون من حليب الماعز والقهوة وشريحة خبز أسود سخنها في آلة التحميص، وطلالها بالزبد وعسل تشانكاكا. كانت الساعة السادسة والنصف صباحاً حين خرج إلى شارع اريكبيا. وكان لوثيندو الأعمى قد اتّخذ مكانه عند الناصية، كما لو أنه ينتظره. وضع قطعة عملة من فئة سول في علبة الأعمى المعدنية وتعرف عليه الأعمى في الحال:

- صباح الخير يا دون فيليثيتو. إنك تخرج اليوم في وقت أبكر من المعاد.

- هذا يوم مهم بالنسبة لي، ولدي عمل كثير. تمنى لي أن يحالوني الحظ يا لوثيندو.

أناس قليلون كانوا في الشارع. فكان المشي ممتعاً على الرصيف دون أن يكون المرء محاصراً بالصحفيين. والأكثر متعة هو معرفة أن هزيمة كبرى محققة قد ألمحت بأولئك الصحفيين: لم يتمكن أولئك التعساء من اكتشاف أن آرميدا، المخطفة المزعومة، وأكثر شخصية كان البحث جار عنها من قبل صحفة البيرو، وقد أمضت أسبوعاً كاملاً - سبعة أيام بلياليها! - مختبئة في بيته، تحت أنوفهم، دون أن يخطر لهم ذلك. المؤسف فقط أنهم لن يعلموا أبداً بأنهم قد خسروا بذلك خبطة القرن الصحفية. لأن آرميدا، في مؤتمرها الصحفى الحاشد الذى عقدته في ليمما، محاطة بوزير الداخلية وقائد الشرطة، لم تكشف للصحافة عن أنها التجأت إلى بيورا، عند اختها خيرتروديس. اكتفت بالإشارة بصورة غائمة إلى أنها كانت في بيت بعض الأصدقاء كي تهرب من ملاحقة الصحافة التي أوصلتها إلى حافة أزمة عصبية. تابع

فيليثيتو وزوجته عبر التلفاز ذلك المؤتمر الصحفي الذي غص بالصحفيين، ووميض الفلاشات والكاميرات. وقد دُهل صاحب شركة النقل للطلاقة التي تردد بها أخت زوجته على الأسئلة، دون أن تتورط في الكلام، ودون أن تبكي، بل كانت تتكلم بهدوء وبكلام جميل. فتواضعها وبساطتها، كما سيقول الجميع في ما بعد، أكسباها تعاطف الرأي العام الذي صار أقل استعداداً، منذ الاستماع إليها، لتصديق صورة الانتهازية الجشعة الساعية للزواج من ثري التي أشاعها عنها ابنا إسماعيل كاريلا.

خروج آرميدا من مدينة بيورا، بصورة سرية، في منتصف الليل، في واحدة من سيارات ناريهوا للنقل، يقودها ابنه تيبورثيو، كان عملية خطط لها ونفذت باتفاق، دون أن ينتبه أحد إليها، ابتداء من الشرطة وانتهاء بالصحفيين. في البدء، كانت آرميدا ت يريد أن يأتي من ليما ليأخذها شخص يدعى نرسيس، السائق السابق لزوجها المتوفى والذي تثق به كثيراً، إلا أن فيليثيتو وخيرتروديس أقنعاها بأن يتولى قيادة السيارة تيبورثيو الذي يثقان به ثقة عمiale. إنه سائق رائع، وشخص متكتم، وهو ابن أختها فوق ذلك كلّه. كما أن السيد دون ريفوبيرتو شجعها كثيراً على العودة إلى ليما بأسرع ما يمكن، والخروج إلى العلن من أجل تبديد ظنون آرميدا.

تم كل شيء مثلما خططوا له. فقد رجع دون ريفوبيرتو وزوجته وأبنه إلى ليما بالطائرة. وبعد يومين من ذلك، حضر تيبورثيو إلى البيت في شارع اريكيبيا في الموعد المتفق عليه، بعد منتصف الليل، وكان قد وافق بطبيب خاطر على التعاون في الخطة. ودعّتهم آرميدا بقبلات ودموع والامتنان. وبعد اثنين عشرة ساعة من سفر بلا عقبات، وصلت إلى بيتها في سان إيسيدرو بالعاصمة ليما، حيث كان بانتظارها محاموها

وحراسها الشخصيون والسلطات، وكانوا جميعهم سعداء لإعلان أن أرملة إسماعيل كاريرا قد عادت للظهور سالمة ومعافاة، بعد ثمانية أيام من الاختفاء الغامض.

حين وصل فيليثيتو إلى مكتبه في جادة سانتشيث سيرو، كانت أول الحافلات والشاحنات والفنانات جاهزة للانطلاق إلى كافة مناطق محافظة بيورا وإلى إقليمي تومبيس ولاميكي المجاورين. وكانت نارييهولا للنقل قد بدأت تستعيد شيئاً فشيئاً زياتها كما في أزمنتها الجيدة. فالناس الذين أداروا ظهورهم للشركة بسبب واقعة العنكبوت، لخوفهم من الواقع ضحية عمل عنف من جانب الخاطفين المزعومين، راحوا ينسون الموضوع ويعودون إلى الاعتماد على الخدمات الجيدة التي يوفرها سائقو الشركة. كما تم التوصل أخيراً إلى اتفاق مع شركة التأمين على أن تدفع مناصفة معه تكاليف إعادة إصلاح الأضرار التي أحدها الحريق. وسرعان ما بدأت أعمال الإصلاح. وعادت المصارف إلى تقديم قروض له، وإن يكن بالتنقيط. وأخذت الأمور تستتب يوماً بعد يوم. تنفس فيليثيتو الصعداء: سيضع اليوم نقطة النهاية لتلك القضية المشوّمة.

عمل طيلة الصباح في المسائل اليومية العادية، تحدث مع ميكانيكيين وسائقين، ودفع بعض الفواتير، قام بعملية إيداع، أملى رسائل على خوسيفيتا، تناول فنجاني قهوة، وفي الساعة التاسعة والنصف صباحاً، تناول الملف الذي أعده المحامي الدكتور هيلديبراندو كاسترو بوسو، وتوجه إلى مركز الشرطة ليأخذ معه الرقيب ليتما. كان هذا الأخير ينتظره عند مدخل المفوضية. نقلتهما سيارة أجرة إلى سجن الرجال في ريو سيكو، خارج أسوار المدينة.

- هل تشعر بالعصبية من هذه المهمة يا دون فيليثيتو؟ سأله الرقيب

- لا أظن أنني كذلك - ردّ عليه متربداً - لا يمكن لأحد أن يعرف. سوف نرى حين يكون واقفاً أمامي.

أدخلوهما في السجن إلى غرفة التدابير الاحتياطية. وتولى بعض الحراس تفتيش ملابس فيليثيو للتأكد من أنه لا يحمل سلاحاً. ثم قام مدير السجن شخصياً، وهو رجل منحن وكثيف يرتدي قميصاً قصير الكميين ويجرجر صوته وقدميه، باقتيادهما إلى حجرة صغيرة محمية، فضلاً عن الباب الخشبي السميك، بحاجز قضبان حديدية. كانت جدرانها مغطاة بكتابات ورسوم وكلمات بدئية. وفور اجتياز العتبة، تعرف فيليثيو على ميغيل الواقف في منتصف الغرفة.

لم يكن قد رآه منذ أسبوعين قليلة، ولكن تحولاً كبيراً كان قد طرأ على الشاب. فهو لا يبدو فقط أنه صار أشد نحوً وأكثر تقدماً في السن، ربما بسبب نمو شعره الأشقر وتشعثه ونمو شعر ذقنه الذي يلوث الآن وجهه، بل إن تبلاً قد طرأ كذلك على ملامحه التي كانت شبابية وحالة، وهي الآن ملامح صامتة، مستنفدة، ملامح شخص فقد الاندفاع، وحتى الرغبة في الحياة، لأنه يعرف أنه مهزوم. ولكن ربما كان التبدل الأكبر هو الذي يبدو على ملابسه. فهو الذي اعتاد أن يلبس ويتهنم بتغنج دون جوان الحارة، على العكس من تيبورثيو الذي يظل نهاراً وليلًا ببنطال الجينز وسترات الغوايات ببراء خاصة بالسائلين والميكانيكيين؛ كان يرتدي الآن قميصاً مفتوح الصدر تنقصه أزراره كلها، وبنطال مجعد وملوث بلطخات وبقع، وينتعل حذاء متتسحاً وبلا رباط. ولم يكن يلبس جوربين.

نظر فيليثيو إلى عينيه بثبات ولم يتحمل ميغيل نظرته تلك لأكثر من بضع ثوانٍ؛ ثم بدأ يرمش، فخفض بصره ووجهه إلى الأرض. في هذه

اللحظة فقط انتبه فيليثيتو إلى أن طول قامته يكاد لا يصل إلى مستوى كتف ميفيل، وأن قامة هذا الأخير تزيد عنه أكثر من حجم رأس. أما الرقيب ليتوما فظل يقف ملتصقاً بالجدار، صامتاً تماماً، متوتراً، كما لو أنه يرغب في أن يكون غير مرئي. وعلى الرغم من وجود كرسيين معدنيين في الحجرة، فقد ظل الثلاثة واقفين. كانت هناك حيوط عنكبوت تتدلى على الجدران حيث الرسوم البذيئة لفروج وصدور نسائية. ويعقب المكان برأحة بول. لم يكن العجرم مقيد اليدين.

- لم آت لأسئلتك عما إذا كنتَ نادماً عما فعلته - قال فيليثيتو أخيراً وهو ينظر إلى تشنع الشعر الأشقر والمتنسخ الذي على بُعد متر عنه، ويشعر بالرضا عن أنه يتكلم بحزم، دون إبداء أي أثر من ذلك الحنق الذي يكبحه في أعماقه -. هذا أمر لك أن تتدبره هناك في الأعلى عندما تموت.

توقف عن الكلام كي يتنفس بعمق. لقد تكلم بصوت خافت، وحين واصل الكلام رفع من نبرة صوته :

- لقد جئت من أجل موضوع أهم بكثير بالنسبة لي. أكثر أهمية من رسائل العنكبوت، ومن ابتزازاتك للحصول على المال مني، ومن عملية الاختطاف المزيفة التي دبرتها مع مابيل، وأكثر من الحريق في مكتبي -. ظل ميفيل جاماً دون حراك، ورأسه إلى أسفل طيلة الوقت، ولم يتحرك الرقيب ليتوما كذلك من مكانه -. لقد جئت لأقول لك إنني سعيد لما حدث. لما خططت له وما فعلته. بفضله استطعت أن أتوصل إلى توضيح شُكْ ساورني طيلة حياتي. أنت تدري ما هو، أليس كذلك؟ لا بد أن يكون قد خطر في بالك، في كل مرة ترى فيها وجهك في المرأة، أن تتساءل عن السبب في امتلاكه بشرة بيضاء في حين أننا، أنا وأمك، خلاسيين. أنا أيضاً أمضيت حياتي أسأل نفسى هذا السؤال. ولقد

ابتلعت الأمر حتى الآن، دون أن أحاول التحرى، كيلاً أجرح مشاعرك ومشاعر خيرتوديس. أما الآن فلم يعد لدى مبرر للحفاظ على تقديرِ لمشاعرك. لقد وجدت حلّ هذا السر. وللهذا السبب جئت إليك. جئت لأقول لك شيئاً سيروق لك جداً مثلما يروق لي. أنت لست ابني يا ميغيل. ولم تكن ابني قطّ. أمك والأمّرة، أم أمك، جدتك، حين اكتشفنا أن خيرتوديس حبلٍ، جعلتاني أصدق أنني أنا الأب من أجل إجباري على الزواج منها. لقد خدعتاني. لم أكن أنا الأب. تزوجت من خيرتوديس لمجرد أنني رجل طيب. لقد اتضحت الشك الآن. وقد كانت أمك صريحة واعترفت لي بكل شيء. إنها سعادة عظيمة يا ميغيل. كان يمكن لي أن أموت غمماً لو أن ابناً لي، تجري في عروقه دمائي، هو من فعل بي ما فعلته أنت. إنني مطمئن الآن، بل إنني سعيد. لم يكن ابني من فعل ذلك كله، وإنما ابن السبعة آباء. يا للراحة العظيمة التي أشعر بها لمعرفتي أنها ليست دمائي، ليست دماء أبي النقية، هي التي تسرى في عروقك. هنالك أمر آخر يا ميغيل. حتى أمك نفسها لا تعرف من الذي حبلت منه لتولد أنت. فهي تقول إنه ربما يكون واحداً من أولئك اليوغسلافيين الذين جاؤوا من أجل إقامة أنظمة الري على نهر تشيرا. لكنها غير متأكدة. أو ربما هو واحد من ذوي البشرة البيضاء الميتين جوحاً الذين كانوا يأتون إلى تُزل «شجرة الخروب» ويمررون كذلك على فراشها. سجل ملاحظة يا ميغيل. أنا لست أباًك، وأمك نفسها لا تعرف من هو الحليب الذي أنجبك. أنت إذاً واحد من أبناء السبعة آباء الذين في ببورا، واحد من أولئك الذين تولدهن الغسالات أو راعيات الماعز اللاتي «يقوصهن» الجنود في أيام سُكّرهم. ابن سبعة آباء يا ميغيل، هذه هي حقيقتك بالضبط. ولا أستغرب إقدامك على فعل ما فعلته بكل هذه الدماء المختلطة في عروقك.

صمت لأن رأس الشعر الأشقر المشعث ارتفع بعنف. رأى العينين الزرقاويين محتقنين بالدم والحدق. «أتراه سينقض عليّ، ويحاول خنقني»، فكر. ولا بد أن الرقيب ليتوما قد فكر في ذلك أيضاً، لأنه تقدم خطوة إلى الأمام ويده على قراب المسدس، ووقف إلى جانب صاحب شركة النقل لحمايته. إلا أن ميغيل بدا مقيداً، عاجزاً عن القيام برد فعل والتحرك. كانت الدموع تسيل على خديه، مع ارتعاش في يديه وفمه. كان شاحباً. يريد أن يقول شيئاً لكن الكلمات لا تخرج منه، وبين حين وآخر تصدر عن جسده ضجة بطنية، على شكل تجشؤ أو غثيان.

عاد فيليثيتو ياناكيه لمواصلة الكلام، بالبرود المكبوح نفسه الذي ألقى به ذلك الخطاب الطويل:

- لم أنته بعد. قليل من الصبر. هذه آخر مرة نلتقي فيها، لحسن حظك وحظي. سأترك لك هذا الملف. اقرأ بتأن كل كلمة أعدّها لك محاميُّ الخاص. الدكتور هيلديبراندو كاسترو بُوسو الذي تعرفه جيداً. وإذا كنت توافق عليها، ضع توقيعك على كل ورقة، حيث توجد إشارة X. وسيرسل المحامي من يأخذ هذه الأوراق غالباً، وسوف يتولى بنفسه مواصلة الإجراءات أمام القضاء. المسألة التي في الأوراق بسيطة جداً. تغيير الهوية الشخصية، هكذا يسمونها. سوف تتخلى عن لقب ياناكيه، وهو لقب لا تنتهي إليه على كل حال. يمكنك الاحتفاظ بلقب أمك، أو أن تخترع الاسم الذي يروق لك. ومقابل عملك هذا، سوف أسحب جميع الشكاوى التي رفعتها ضد الفاعل في مسألة رسائل العنكبوت، وضد المتسبب بالحريق في ناريهوala للنقل وعملية اختطاف مابيل الزائفة. من المحتمل، بفضل ذلك، أن تخلص من سنوات السجن التي سُيحكم بها عليك وتخرج إلى الشارع. ولكن، فور

نيلك الحرية، ستترك بيورا. ولا تعود لوضع قدميك على أرضها، حيث الجميع يعرفون أنك مجرم. أضف إلى ذلك أن أحداً لن يمنحك فرصة عمل محترم هنا. لا أريد العودة للقاء بك في الطريق. لديك وقت للتفكير في الأمر حتى يوم غد. إذا لم تشاً توقيع الأوراق، فهذا شأنك. سوف تتواصل المحاكمة وسوف أبذل المستحيل كي يكون الحكم عليك بأطول ما يمكن من سنوات السجن. القرار لك. هنالك أمر آخر. أملك لم تأت لزيارتكم لأنها لا تزيد العودة لرؤيتك إلى الأبد. أنا لم أطلب منها ذلك، بل هو قرارها. هذا كل ما لدى. يمكننا الانصراف الآن أيها الرقيب. فليسامحك الرب يا ميغيل. أما أنا فلن أسامحك أبداً.

ألقى الملف بما فيه من أوراق عند قدمي ميغيل واستدار باتجاه الباب يتبعه الرقيب ليتوما. ظل ميغيل ثابتاً في مكانه، بعينين ممتلئتين بالحقد والدموع، يحرك فمه دون أن يصدر عنه أي صوت، كما لو أن صاعقة أصابته وحرمته من الحركة، والكلام، والرشد، بينما الملف الأخضر عند قدميه. «هذه هي صورته الأخيرة التي ستبقى في ذاكرتي»، فكر فيليثيتوا. وكان يتقدم مع الرقيب نحو مخرج السجن، حيث كانت سيارة الأجرة بانتظارهما. وبينما السيارة العتيقة تتقدم مهتزة خارج بيورا، وتتجه إلى مفوضية الشرطة في جادة سانتشيث سيرو لإيصال ليتوما، ظل هذا الأخير وصاحب شركة النقل صامتين. وعندما صاروا في المدينة، كان الشرطي هو من تكلم أولاً:

– أيمكن لي أن أقول لك أمراً يا دون فيليثيتوا؟

– قل ما تريد أيها الرقيب.

– لم أتخيل قط أنه يمكن قول مثل هذه الكلمات الفظيعة التي قلتها لابنك هناك في السجن. لقد تجمد دمي، أقسم لك.

- إنه ليس ابني. رفع صاحب شركة النقل يده.  
- ألف اعتذار، أعرف ذلك - اعتذر الرقيب -. لديك الحق بالطبع ،  
فما فعله ميفيل لا توجد تسمية له. ولكن ، حتى في هذه الحال. لا  
تتضائق مني ، إنها أقسى الكلمات التي سمعتُ شخصاً يوجهها الآخر  
في حياتي ، يا دون فيليثيتو. ولم أتوقع قط أن تصدر عن شخص شديد  
الطيبية مثلك. لا أستطيع أن أدرك كيف أن الشاب لم ينقض عليك.  
ظننتُ أنه سيفعل ، وقد أفلَتُ لهذا السبب زر قراب المدس. وأقول لك  
إنني كنت على وشك سحب المدس.

- لم يتجرأ لأنني تفوقت عليه أخلاقياً - رد فيليثيتو -. ربما هي  
كلمات قاسية ، ولكن ، أتراني كذبت أو بالغت أيها الرقيب؟ قد أكون  
قاسيًا ، ولكنني لم أقل سوى الحقيقة الصارمة .

- الحقيقة الرهيبة التي أقسم لك إنني لن أبوح بها لأحد. لن أبوح  
بها حتى للتفبيب سيلفا. هذا وعد يا دون فيليثيتو. ولكنك من جهة  
أخرى كنت بالغ الكرم معه. إذا ما سحبت جميع الدعاوى الموجهة  
إليه ، فسوف يخرج حراً. أمر إضافي آخر ، لتبغيير الموضوع. تلك الكلمة ،  
«قص». كنت أسمعها وأنا صبي صغير ، ولكنني نسيتها. لم يعد أحد  
يستخدمها الآن في بيورا ، هكذا يبدو لي.

- المسألة أنه لم يعد هنالك «مقوصون» كثيرون كما في الزمن الغابر -.  
تدخل السائق ضاحكاً بشيء من الحنين - حين كنت صغيراً كان ذلك  
شائعاً بكثرة. لم يعد الجنود الآن يذهبون إلى النهر أو إلى البحار  
لضرب الخلاسيات. فالرقابة عليهم الآن أكبر في الثكنات ، وهم  
يعاقبونهم إذا ما أقدموا على «التقويض». حتى إنهم يجبرونهم على  
الزواج ، تشي غوا.

تبادلًا تحيات الوداع عند باب المفوضية ، وأمر صاحب شركة النقل

السائق بأن يوصله إلى مكتبه، ولكنه غير رأيه حين كانت السيارة على وشك التوقف أمام ناريهوala للنقل. طلب من السائق الرجوع به إلى حي كاستيبيا وأن يتركه في أقرب مكان ممكן من الجسر المعلق. حين مرّ من ساحة السلاح رأى الشاعر خواكين راموس، يرتدي السواد، بنظارة المونوكل وملامحه الحالية، يمشي بصلف في منتصف الشارع وهو يجر عنزته كالعادة. فكانت السيارات تتجنبه، وبدلًا من شتمه كان السائقون يحيونه بأيديهم.

الشارع الصغير المؤدي إلى بيت مابيل كان يغص، كالعادة، بصبية بثياب رثة وبلا أحذية، وكلا布 ضامرة جرباء، ووسط أصوات الموسيقى وإعلانات الدعاية الآتية من أجهزة المذياع الملعلة بأعلى صوت، يُسمع نباح كلاب وقوقة دجاج، وصياح ببغاء يردد كلمة «كاكاتوا، كاكاتوا». سُحب غبار تشوش الهواء. الآن أجل، بعد أن شعر بالثقة الشديدة بنفسه خلال المقابلة مع ميفيل، راح فيليثيتو يشعر بأنه سريع العطب وأعزل وهو يفكّر باللقاء مجددًا مع مابيل. كان يؤجل هذا اللقاء منذ خروجهما من السجن بإفراج مؤقت عنها. لقد فكر ذات مرة بأنه من الأفضل له تجنب ذلك اللقاء، واستخدام الدكتور كاسترو بوسو لإنجاز الشؤون الأخيرة معها. ومع ذلك، انتهى إلى الجسم بأنه لا يمكن لأحد أن يحل محله في هذه المهمة. إذا كان عليه البدء بحياة أخرى، فلا بد له من تصفية آخر الحسابات مع مابيل، مثلما فعل للتو مع ميفيل. كانت يداه تتعرقان عندما ضغط على الجرس. لم يرَ أحد. وبعد ثوان من الانتظار، أخرج مفتاحه وفتح الباب. أحس بضيق في الدم والتنفس لدى تعرفه على الأشياء والصور، ومنحوتة اللاما، والعلم الصغير، والمربعات الصغيرة، وأزهار الشمع، ولوحة قلب يسوع التي تتصرّد الصالة. كل شيء واضح ومرتب ونظيف كما في السابق. جلس في الصالة

الصغيرة ينتظر مابيل دون أن يخلع الجاكيت أو الصدار، وإنما القبعة فقط. كان يشعر بقشعريرة. ماذا سيفعل إذا ما رجعت إلى البيت يرافقها رجل يتأنط ذراعها أو يطوق بخصرها؟

لكن مابيل جاءت وحدها، بعد بعض الوقت، عندما كان فيليثيتو ياناكيه، بفعل التوتر العصبي للانتظار، قد بدأ يشعر، وسط التثاؤب، بنعاس شديد. حين سمع فتح الباب الخارجي انتفض متاهباً. أحس بجفاف في فمه، وكأنه قد تحول إلى ورق صفراء، أو كمن شرب خمرة التشيشا. رأى الوجه المرتعب وسمع صرخة مابيل ((آي، رباء!)) حين اكتشفت وجوده في الصالة. رآها تستدير لتخرج راكضة.

- لا تخافي يا مابيل - طمأنها بهدوء لم يكن يشعر به -. لقد جئت بنية سلام.

توقفت واستدارت. ظلت تنظر إليه، بفم مفتوح وعينين قلقتين، دون أن تقول شيئاً. كانت أشد نحواً. بلا مكياج، وبمنديل عادي يثبت شعرها، ترتدي ذلك الثوب البيتي وتنتعل صندلاً قديماً. بدت له أقل جاذبية بكثير من مابيل التي في ذاكرته.

- اجلس لنتحدث قليلاً - أشار إلى أحد الملاعق - لم آت لتوجيهي أي لوم إليك، ولا لمحاسبتك. لن آخذ الكثير من وقتك. هناك أمور لا بد لنا من تسويتها كما تعلمين.

كانت شاحبة. تطبق فمها بقوة كبيرة مما شكل تكشيرة على وجهها. رآها تؤمن برأسها موافقة وتجلس على حافة المهد، وذراعها متقطعان فوق بطنها، كمن تحمي نفسها. وكان في عينيها انعدام طمأنينة وذعر.

- توجد أمور عملية يمكننا أن نحلها أنا وأنت مباشرة - أضاف صاحب شركة النقل - فلنبدأ بالأهم. هذا البيت. الاتفاق مع المالك ينص

على دفع الإيجار له كل ستة شهور. وهو مدفوع حتى شهر كانون الأول/ديسمبر. ابتداء من شهر كانون الثاني/يناير ستتولين أنت الحساب. العقد باسمك، وهكذا يمكنك أن تري ماذا ستفعلين. يمكنك تجديد العقد أو الانتقال إلى مكان آخر. أنت من ستقررين.

- حسن - دمدمت بصوت يكاد لا يُسمع - لقد فهمت.

- حسابك في بنك الاعتماد - واصل الكلام؛ وقد صار يشعر بثقة أكبر وهو يرى هشاشة مأبيل وذعرها - إنه حساب باسمك، ولكنه بكفالتي. ولأسباب واضحة، لا يمكنني موافقة تقديم كفالتي لك. سوف أسحبها، لكنني لا أظن أنهم سيفلّقون لك الحساب لهذا السبب.

- لقد فعلوا ذلك. قالت. ثم صمتت، وبعد قليل أوضحت: وجدت الإشعار هنا، لدى خروجي من السجن. ويقول الإشعار إنه بسبب الظروف المستجدة، يجد المصرف نفسه مضطراً لإلغاء الحساب. لأنه لا يقبل إلا زبائن شرفاء، بلا سوابق شرطية. ويطلبون مني أن أمر على البنك كي أسحب رصيدي.

- وهل فعلت ذلك؟

نفت مأبيل بحركة من رأسها.

- أشعر بالخجل - أجبت وهي تنظر إلى الأرض - الجميع يعرفونني في هذا الفرع. سيكون عليّ أن أذهب في أحد هذه الأيام، عندما ينفذ ما معي من نقود. فمن أجل النفقات اليومية، مازال لدى بعض النقود في علبة الكوميدينو.

- سيفتحون لك حساباً في أي بنك آخر، بسوابق أم من دونها - قال فيليثيتو بجهاء - لا أظن أنك ستواجهين مشاكل في هذا الشأن.

- حسن - قالت - أفهم جيداً. ماذا بعد؟

- إنني آت من زيارة لميفيل - قال بكثير من الضيق والاشمئزاز،

فتيبيست مابيل -. قدمتُ إليه اقتراحاً. إذا وافق على تبديل لقب ياناكيه من اسمه أمام كاتب بالعدل، فسوف أسحب كافة الدعاوى القضائية، ولن أكون شاهد إثبات لدى المدعي العام.

- أتعني أنه سيخرج حراً؟ سأنته مابيل. ولم تعد الآن مذعورة، بل مرتعبة.

- أجل، إذا قبل باقتراحي. هو وأنت ستخلان حريرتكما ما لم تكن هناك اتهامات أخرى من الحق العام. أو ستحصلان على أحكام مخففة. هذا ما قاله لي المحامي على الأقل.

رفعت مابيل في هذه الأثناء يدها إلى فمه:

- سوف ينتقم، لن يغفر لي قطًّا أنتي وشيت به للشرطة - دمدمت - سوف يقتلني.

- لا أظن أنه سيكون راغباً في العودة إلى السجن بجريمة قتل - قال فيليثيو بجفاء - ثم إن شرطي الثاني له، حين يخرج من السجن، أن يغادر بيورا ولا يعود إلى وضع قدميه في هذه المدينة. ولهذا أشكُ في أنه سيسبب لك أي أذى. ويمكنك على أي حال أن تطلبني حماية الشرطة. بما أنك تعاونت معهم، فسوف يوفرون لك الحماية.

انخرطت مابيل في البكاء. بللت الدموع عينيها، وكانت الجهود التي تبذلها لکبح بكائها تضفي على وجهها ملامح مشوهة، ومضحكة إلى حد ما. لقد تكورت على نفسها، كمن تشعر بالبرد.

- حتى لو لم تصدقني، إنني أكرهه من أعماق روحي - سمعها تقول بعد لحظات - لأنه حطم حياتي إلى الأبد.

أفلتت نحيباً وغطت وجهها بكلتا يديها. لم يشعر فيليثيو بالتأثير. كان يفكر: «ثراها حقيقة أم مجرد تمثيل؟». لم يكن مهتماً بمعرفة ذلك، فالأمر سيان لديه أكانت الحال هذه أو تلك. منذ أن حدث كل

ذلك، وعلى الرغم من الغضب والحدق، كانت تمر بعض اللحظات، أحياناً، يتذكر فيها مابيل بمحبة، وحتى بشوق. ولكنه في هذه اللحظة بالذات لم يكن يشعر بشيء من ذلك. ولم يكن يشعر بالرغبة أيضاً، ولو أنه امتلكها عارية بين ذراعيه، لما استطاع ممارسة الحب معها. بدا كما لو أن المشاعر المتراكمة خلال السنوات الثمان الماضية والتي أوحت بها مابيل له، قد انخسفت كلها أخيراً.

- ما كان لشيء من هذا كله أن يحدث لو أنه أخبرتني بالأمر منذ بدأ ميغيل يتودد إليك - راوده مرة أخرى ذلك الإحساس بأن شيئاً من ذلك كله قد حدث، وأنه ليس في هذا البيت، ومابيل أيضاً ليست موجودة هناك، بجانبه، تبكي أو تتصرّع البكاء، ولم يكن هو نفسه يقول ما يقوله - وكنا وفرنا على نفسينا الكثير من أوجاع الرأس يا مابيل.

- أعرف ذلك ، أعرفه ، لقد كنتُ جبانة وغبية - سمعها تقول -. أوتظن أنني لم أندم؟ كنت أخافه ، ولا أعرف كيف أتخلص منه. ألسنُ أدفع ثمن ذلك الآن؟ أنت لا تدري كيف هو سجن النساء في سوينانا. مع أنني لم أبق هناك سوى أيام قليلة ، إلا أنني أعرف أنني سوف أظل أجرجر ذكرها مدى الحياة.

- مدى الحياة وقت طويل - سخر فيليثيتوا ، موصلاً التكلم بهدوء -. أنت مازلت شابة ولديك ما يكفي من الوقت لإعادة ترميم حياتك. وهذه ليست حالتي بكل تأكيد.

- أنا لم أتوقف عن حبك قطّ يا فيليثيتوا - سمعها تقول -. حتى لو لم تصدق ذلك.

أفلت فيليثيتوا ضحكة ساخرة.

- إذا كنت تحببني وفعلت بي هذا الذي نعرفه، فما الذي كان يمكن لك أن تفعله لو أنك تكرهيني يا مابيل.

وبينما هو يسمع نفسه يقول ذلك، فكر في أنه يمكن لهذه الكلمات أن تكون مناسبة لواحدة من أغنيات سيسليا باراسا التي تروق له كثيراً.

- أرغب في أن أشرح لك الأمر يا فيليثيتو - قالت متضرعة، وهي تخفي طيلة الوقت وجهها بين يديها - ليس لكي تغفر لي، وليس لكي يعود كل شيء مثلما كان في السابق. وإنما لتعرف فقط أن الأمر لم تكن مثلما تظن، وإنما هو مختلف جداً.

- لست مضطرة لأن تشرحي لي أي شيء يا مابيل - قال، وكان يتكلم الآن بطريقة مستسلمة، تكاد تكون ودية - لقد حدث ما كان يجب أن يحدث. وكنت أعرف على الدوام أنه سيحدث، عاجلاً أو آجلاً. وأنك ستذهبين للزواج من رجل يكبرك بسنوات عديدة، وستعشقين شاباً. هذا هو قانون الحياة.

تعلملت في مقعدها.

- أقسم لك بأمي إن الأمور ليست كما تظن - تبأكت - دعني أوضح لك، دعني أخبرك على الأقل كيف جرى كل شيء.

- ما لم أكن أتخيله أن يكون ذلك الشاب الذي ستعشقينه هو ميفيل أضاف صاحب شركة النقل متنهنحاً - ولم أكن لأتخيل رسائل العنكيوت بالطبع. ولكن ذلك قد حدث. وأفضل ما أفعله هو أن أنصرف دفعة واحدة. لقد ربنا الأمور العملية كلها ولم يبق شيء معلق. لا أريد لهذا الأمر أن ينتهي بشجار. أترك لك هنا مفتاح البيت.

وضع المفتاح على منضدة الصالة، إلى جانب منحوتة اللاما الخشبية وعلم البيرو، ونهض واقفاً. ظلت هي تغطي وجهها بيديها وتبكي.

سمعها تقول:

- فلنبق أصدقاء على الأقل.

- أنت وأنا لا يمكن لنا أن نكون أصدقاء، وأنت تعرفين هذا جيداً -

أجابها دون أن ينظر إليها - حظاً سعيداً يا مابيل.

توجه نحو الباب، فتحه، ثم أغلقه وراءه بتمهل. جعله وهج الشمس يرمش. تقدم وسط زوابع الغبار، وصخب أجهزة الراديو، والصبية ذوي الأسماك والكلاب الجرياء، وكان يفكر في أنه لن يعود أبداً لطرق هذه الأزقة المتربة في حي كاستييا كما أنه لن يعود، بلا شك، إلى رؤية مابيل. وإذا شاءت المصادفات أن يلتقي بها ذات يوم في أحد شوارع مركز المدينة، فسوف يتظاهر بأنه لم يرها، وستفعل هي الشيء نفسه. سيمران كأي غريبين. وفكرا أيضاً، بلا حزن ولا مرارة، بأنه على الرغم من عدم بلوغه سن الشيخوخة المتقدمة، فمن المحتل ألا يعود أبداً إلى ممارسة الحب مع امرأة. فهو لم يعد في وارد البحث عن عشيقة أخرى، ولا الذهاب إلى الماخور في الليالي لضاجعة موسمات. وفكرة العودة إلى ممارسة الحب مع خيرتروديس بعد كل تلك السنوات لم تمر مجرد مرور في ذهنه. ربما سيكون عليه ممارسة العادة السرية بين حين وآخر، مثل غلام فتي. وأياً تكون وجهة مستقبله، فإن هنالك أمراً مؤكداً: لن يكون لديه متسع للمنتعة أو الحب. وهو لن يأسف لذلك، ولن يبيئس. فهكذا هي الحياة، وقد تعلم، مذ كان صبياً بلا حذاء في تشولوكاناس وياباتيرا، أن يتقبلها مثلما تأتيه.

وبلا شعور، راحت قدماه تقودانه نحو دكان الأعشاب ولوازم الخياطة، وصور القديسين والمسيح والعذراء التي تملكتها صديقته آديلايدا. وقد كانت التقى هناك، فمشوقة القامة، وافرة المؤخرة،

حافية القدمين، محشورة في الجلباب الخام الذي يصل حتى كاحليها، رأته قادماً وهي عند باب بيتها، بعينيها الواسعتين الثاقبتين.

- أهلاً فيليثيتو، يا لسعد العينين اللتين تريانك - حيث ملوحة تلویحة وداع - بدأت أظن أنك قد نسيتني.

- أنت تعرفين جيداً يا آديلايدا أنك صديقتي المفضلة التي لا يمكنني نسيانها أبداً - مد لها يده مصافحاً وربت على ظهرها بمودة - لقد واجهتني مشاكل كثيرة في الفترة الأخيرة، لا بد أنك علمت بها. ولكن، ها إنذا معك هنا. أيناسبني أن أتناول الآن كأساً من ذلك الماء المقطر شديد النقاء والبرودة الذي لديك؟ أكاد أموت عطشاً.

- تفضل، ادخل واجلس يا فيليثيتو. سأريك بكأس الماء فوراً، أجل بالطبع.

وخلالاً للحر الشديد في الخارج، كان دكان آديلايدا في الداخل غارقاً في العتمة الظلية والسكون المعهودين، تسوده البرودة. وبينما هو جالس على الكرسي الهزاز ذي القش المجدول، تأمل نسيج العناكب، والرفوف، والمناضد التي عليها مسامير، وأزرار، وبراغ، وبذور، وباقات أعشاب، وإبر، وصور، ومسابح، وتماثيل من الجبس ومن الخشب للعذراء وللمسيح بمختلف الأحجام، بينما هو ينتظر عودة التقية. هل هناك زبائن آديلايدا؟ ففي كل المرات التي جاء إليها، وهي مرات كثيرة، لم ير قط أحداً يشتري أي شيء. فهذا المكان يبدو مصلى أكثر من كونه متجرًا. لا ينقصه سوى المذبح. في كل مرة يجيء إلى المكان، يشعر بهذا الإحساس بالأمان الذي كان يشعر به في ما مضى - وهو ماض بعيد جداً - في الكنائس، حين كانت خيرتروديس، وهما حديثاً الزواج، تسحبه معها إلى القدس في أيام الآحاد.

شرب بتلذذ ماء حجر التقطير الذي قدمته إليه آديلايدا.  
- يا للمشكلة التي تورطت فيها يا فيليثيتو - قالت التقية متأثرة مع نظرة حانية - عشيقتك وابنك يتوطأن لنتف ريشك. رياه، يا للقباحات التي تُرى في هذا العالم! لحسن الحظ أنهم حبسوا هذا الثنائي.

- لقد انقضى ذلك كله، لم يعد الأمر يهمني - هز كتفيه وأبدى تكشيره ازدراه - لقد صار ذلك كله خلفي، وقد بدأت أنساه. لا أريد السماح لهم بتسليم حياتي. والآن، سأنكب جسداً وروحأً للتقدم قُدماً بناريهموala للنقل. فبسبب تلك الفضائح أهملت الشركة التي توفر لي الطعام. وسوف تغرق إذا لم أهتم بها.

- هذا يعجبني يا فيليثيتو، فما مضى قد مضى - صفت التقية - وإلى العمل! لقد كنت على الدوام رجلاً لا يعرف الاستسلام، ومن يناضلون حتى النهاية.

- أتعلمين يا آديلايدا؟ - قاطعها فيليثيتو - ذلك الوحي الذي جاءك في آخر مرة زرتك فيها، قد تحقق. لقد حدث شيء استثنائي، مثلما قلت أنت. لا يمكنني أن أخبرك بال المزيد الآن، ولكنني سأفعل فور تمكنني من ذلك.

- لا أريدك أن تخبرني بشيء - بدت التقية حزينة جداً وغشت عينيها ظلال لبرهة - لا يهمني ذلك يا فيليثيتو. أنت تعرف جيداً أن مجيء تلك الإيحاءات لي لا يروقني أبداً. لسوء الحظ أن الوحي يأتيني دوماً حين يتعلق الأمر بك. يبدو لي أنك أنت من تستثير مجئه، تشي غوا.

- آمل ألا تستثير فيك أي وحي آخر يا آديلايدا - ابتسم فيليثيتو - لم أعد قادراً على تحمل المزيد من المفاجآت. ابتداء من الآن أريد أن

أعيش حياة هادئة وعادية، مكرساً نفسي للعمل.  
ظلا صامتين لبعض الوقت، يستمعان إلى ضجة الشارع. كانت  
أبواق السيارات والشاحنات ومحركاتها، ونداءات الباعة المتجولين،  
وأصوات وحركة عابري السبيل تصل إليهما مخففة في هدوء هذا  
المكان. وكان فيليثيتو يفكر بأنه على الرغم من معرفته آديلايدا منذ  
سنوات طويلة، إلا أن التقى مازالت لغزاً كبيراً غامضاً بالنسبة إليه.  
هل لها أسرة؟ هل كان لديها شريك في حياتها ذات يوم؟ ربما تكون  
قد خرجت من دار الأيتام، وأنها واحدة من أولئك الطفالات اللاتي  
يُهجرن، منن يُلقطن ويربين على نفقة الإحسان العام، ثم عاشت  
وحيدة على الدوام بعد ذلك، مثل نبتة فطر، بلا أبوين ولا إخوة، ولا  
زوج ولا أبناء. لم يسمع آديلايدا تتكلم قطّ عن أي قريب لها، ولا  
حتى عن صداقات. وربما يكون فيليثيتو هو الشخص الوحيد في بيورا  
الذي يمكن للتقى أن تدعوه صديقاً.

- أخبريني أمراً يا آديلايدا - سألهما - هل عشت ذات يوم في  
هوانكابامبا؟ هل ترعرعت هناك بالصدفة؟  
وبدلاً من الرد على سؤاله، أطلقت الخلاسية قهقهة مدوية وهي  
تفتح فمها الكبير بشفتيه الغليظتين على اتساعه، كاشفة عن أسنان  
كبيرة ومنتظمة.

- أعرف لماذا تسألني هذا السؤال يا فيليثيتو - هتفت وسط ضحكاتها  
- إنك تسأل بسبب سحرة هوارينغاس، أليس كذلك؟

- لا تظني أنني أفكّر، بأي حال، أنك ساحرة - أكّد لها - كل ما  
هناك أن تتمتعي... لا أدرى كيف أسمى ذلك... بتلك القدرة، الهبة -  
أو أية تسمية تشاءين - على التكهن بأمور ستحدث، وهو ما جعلني  
أفكّر دوماً. هذا مستحيل، تشي غوا. في كل مرة يأتيك الوحي، يحدث

ما تكوني قد توقعته. إننا نعرف أحدها الآخر منذ سنوات، أليس كذلك؟ وكلما تنبئ لي بشيء، يحدث بحذافيره. لست مثل الآخرين، مثل البشر العاديين، فيك شيء لا يمتلكه أحد سواك يا آديلايدا. لو أنك رغبت لأصبحت ثرية بتحولك إلى منجمة محترفة.

بينما هو يتكلم، اتخذت هي هيئة جدية جداً.

- هذا الأمر تكبة أكثر من كونه موهبة. إنه نكبة ألقى بها الرب على كاهلي يا فيليثيتتو - قالت متنهدة - لقد قلت لك هذا مرات كثيرة. لا يروق لي أن تداهمني فجأة تلك الإيحاءات. لا أدرى من أين تخرج، ولا لماذا، وهي تكون مرتبطة بأشخاص معينين، مثلك. الأمر أحجية غامضة بالنسبة لي أيضاً. فأنا لم أتلقي أي وحي خاص بي مثلاً. لم أعرف قطّ ما الذي سيحدث لي غداً أو بعد غد. حسن، من أجل الرد على سؤالك. أجل، لقد كنت في هوانكابامبا، مرة واحدة فقط. دعني أقول لك شيئاً. إنني أشعر بالحزن على أولئك الناس الذين يصعدون إلى هناك، منفقين ما يملكونه وما لا يملكونه، يرهنون حتى أنفسهم، من أجل أن يشفوهم المعلمون، كما يسمونهم. إنهم جماعة من المحتالين، معظمهم على الأقل. من يمررون قوارض الكوي على أجساد المرضى، من يحموهم بماء البحيرة المثلج. ويتسببون بموتهم أحياناً بذات الرئة بدلاً من شفائهم.

- ليس دوماً يا آديلايدا. هنالك صديق لي، سائق في ناريها ولا للنقل، يدعى أندريس نوفوا، كان مصاباً بالحمى المالطية ولم يستطع أطباء المستشفى العمالي علاجه. تخلوا عنه كحالة ميؤوس منها. ذهب إلى هوانكابامبا وهو شبه ميت، فأخذه أحد السحراء إلى بحيرات هوارينغاس، وجعله يستحم في مياه البحيرة، وقدم إليه شراباً لا أدرى ما هو. فرجع من هناك معافي. لقد رأيته بعيني

هاتين، أقسم لك يا آديلايدا.

- ربما يوجد استثناء ما - وافقت معه -. ولكن في مقابل كل مداوٍ حقيقي هنالك عشرة محatalin يا فيليثيتو.

تبادلـا الحديث لوقت طويـل. وراحت المحادـة تـنتقل من سـحـرة هـونـكـابـامـبا وـمـعـلـمـيـها وـمـعـالـجـيـها وـتـشـامـانـاتـها الـشـهـورـينـ الـذـينـ يـتوـافـدـ إـلـيـهـمـ النـاسـ مـنـ كـلـ أـنـحـاءـ الـبـيـرـوـ لـاستـشـارـتـهـمـ بـشـأنـ أـمـرـاـضـهـمـ،ـ إـلـىـ الحـدـيـثـ عـنـ مـرـتـلـاتـ الـأـدـعـيـةـ وـالـتـقـيـاتـ فـيـ بـيـورـاـ،ـ أـولـئـكـ النـسـوةـ الـبـائـسـاتـ عـمـومـاـ،ـ وـالـمـسـنـاتـ الـلـاتـيـ يـلـبـسـنـ كـالـرـاهـبـاتـ،ـ وـيـتـنـقـلـنـ مـنـ بـيـتـ لـبـيـتـ لـتـلـاوـةـ الـأـدـعـيـةـ بـجـانـبـ فـرـاشـ الـمـرـضـىـ.ـ وـيـرـضـيـنـ بـبـضـعـ سـنـتـاتـ قـلـيـلـةـ كـمـكـافـأـةـ أـوـ بـمـجـرـدـ الـحـصـولـ عـلـىـ طـبـقـ طـعـامـ مـقـابـلـ أـدـعـيـتـهـمـ الـتـيـ يـؤـمـنـ أـنـاسـ كـثـيـرـونـ بـأـنـهاـ تـكـمـلـ مـهـمـةـ الـأـطـبـاءـ فـيـ الـمـسـاعـدـةـ عـلـىـ شـفـاءـ الـمـرـضـىـ.ـ وـكـانـتـ مـفـاجـأـةـ فـيلـيـثـيـتوـ فـيـ أـنـ آـدـيـلاـيدـاـ لـاـ تـؤـمـنـ بـشـيءـ مـنـ ذـلـكـ أـيـضاـ.ـ فـمـرـتـلـاتـ الـمـدـيـنـةـ وـالـتـقـيـاتـ الـمـدـاـوـيـاتـ بـالـأـدـعـيـةـ وـالـتـرـاتـيـلـ يـبـدـوـنـ لـهـاـ مـحـتـالـاتـ كـذـكـ.ـ وـقـدـ أـبـدـىـ اـسـتـغـرـابـةـ مـنـ أـنـ اـمـرـأـ مـثـلـهـاـ،ـ لـدـيـهـاـ تـلـكـ الـمـوـهـبـةـ وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ اـسـتـشـرـافـ مـسـتـقـبـلـ بـعـضـ الـرـجـالـ وـالـنـسـاءـ،ـ تـنـكـرـ إـلـىـ هـذـاـ حـدـقـرـاتـ بـعـضـ الـأـشـخـاصـ الـعـلـاجـيـةـ.ـ رـبـماـ هـيـ عـلـىـ حـقـ،ـ فـهـنـالـكـ الـكـثـيـرـ مـنـ الـمـدـعـيـنـ وـالـمـدـعـيـاتـ بـيـنـ مـنـ يـتـبـاهـونـ بـاـمـتـلـاكـ قـدـرـاتـ عـلـىـ شـفـاءـ الـمـرـضـىـ.ـ وـقـدـ فـوـجـئـ فـلـوـرـيـنـيـثـيـتوـ حـيـنـ سـمـعـ آـدـيـلاـيدـاـ تـقـولـ إـنـهـ،ـ فـيـ مـاضـ قـرـيبـ،ـ كـانـتـ هـنـالـكـ فـيـ بـيـورـاـ نـسـاءـ غـامـضـاتـ يـسـمـيـنـ نـازـعـاتـ الـأـحـزـانـ،ـ تـسـتـدـعـيـهـنـ بـعـضـ الـعـائـلـاتـ إـلـىـ الـبـيـوتـ كـيـ يـسـاعـدـنـ الـمـحـتـضـرـينـ عـلـىـ الـمـوـتـ،ـ وـهـوـ مـاـ كـنـ يـفـعـلـنـهـ،ـ وـسـطـ تـرـدـيـدـ الـأـدـعـيـةـ وـالـصـلـوـاتـ،ـ بـقـطـعـ الـوـرـيدـ الـعـنـقـيـ بـظـفـرـ طـوـيـلـ يـتـرـكـنـهـ يـنـموـ وـيـكـبرـ فـيـ الـإـصـبـعـ السـبـابـةـ لـهـذـاـ الـعـرـضـ بـالـذـاتـ.

وقد فوجئ فيليثيتو كثيراً، بالمقابل، حين عرف أن آديلايدا، تؤمن بإيماناً مطلقاً بالأسطورة القائلة إن تمثال السيد الكاوتيفو في كنيسة آياباكا قد نحته عدد من الإكوادوريين الذين تبين أنهم ملائكة.

- أتؤمنين أنت بهذه الشعوذة يا آديلايدا؟

- أؤمن بها لأنني سمعت القصة من الناس هناك. فهم ينقلونها من الآباء للأبناء منذ حدوثها، وإذا كانت قد استمرت طيلة هذا الوقت كله، فلا بد من أن تكون صحيحة.

لقد سمع فيليثيتو مرات عديدة قصة تلك العجزة، ولكنه لم يأخذها قط على محمل الجد. تقول القصة إنه منذ سنوات طويلة، قامت لجنة من أعيان آياباكا البارزين بحملة جمع أموال من أجل نحت تمثال للمسيح. وقد اجتازوا الحدود إلى الإكوادور، ووجدوا هناك ثلاثة سادة يرتدون ثياباً بيضاء، وتبين لهم أنهم نحاتون. فتعاقدوا معهم على الفور كي ينتقلوا إلى آياباكا وينحذوا التمثال. وقد فعلوا ذلك، ولكنهم اختفوا قبل أن يتلقوا الأجر المتفق عليه. رجعت اللجنة نفسها إلى الإكوادور بحثاً عنهم، ولكن أحداً هناك لم يكن قد سمع بهم أو علم بوجودهم. وبكلمات أخرى: كانوا ملائكة. من الطبيعي أن تؤمن خيرتروديس بذلك، ولكن المفاجأة هي في تصديق آديلايدا ذلك أيضاً وابتلاعها قصة العجزة.

بعد وقت لا بأس به من تبادل الحديث، أحس فيليثيتو أنه أحسن حالاً مما كان عليه عند وصوله. لم يكن قد نسي لقائه مع ميغيل ومابيل؛ وربما لن ينساهمما أبداً، غير أن الساعة التي أمضاها هنا ساعدته على تبريد ذكري ذينك اللقائين وعدم إثقالهما عليه كصليب. شكر آديلايدا على الماء المقطر والحديث معها، وبالرغم من رفضها،

أجبرها على قبول ورقة الخمسين سولاً التي دسها في يدها عند الوداع. حين خرج إلى الشارع، بدا له أن حدة الشمس لا تزال قوية. مشى ببطء باتجاه بيته، ولم يقترب منه خلال الطريق كله سوى شخصين فقط، لا يعرفهما، ليسلما عليه. وفكر براحة أن كونه مشهوراً ومعروفاً سيبدأ بالتللاشي شيئاً فشيئاً. سوف ينسى الناس قصة العنكبوت وسيتوقفون فجأة عن الإشارة إليه والاقتراب منه. وربما لن يكون بعيداً اليوم الذي يتمكن فيه من العودة للتجوال في شوارع المدينة مثل أي عابر سبيل مجهول.

حين وصل إلى بيته في شارع اريكيبيا، كان الغداء جاهزاً. فقد أعدت ساتورنينا حساء خضار وأويوكيتو مع التشاركي والرز<sup>(1)</sup>. بينما كانت خيرتروديس قد جهزت إبريق ليموناده مع كثير من الثلج. جلسا لتناول الطعام بصمت، وعند الانتهاء من تناول ملعقة الحساء الأخيرة، أخبر فيليثيتو زوجته بأنه ذهب لزيارة ميغيل في الصباح، وأنه عرض عليه سحب الاتهام الموجه إليه إذا ما وافق على تغيير لقبه. استمعت زوجته إليه صامتة، ولم تتفوه بأي تعليق بعد أن انتهى.

- من المؤكد أنه سيوافق على العرض وسيخرج طليقاً - أضاف فيليثيتو  
- وسوف يغادر بيورا، مثلما طلبت منه. لأنه، بسجل سوابقه، لن يجد عملاً هنا بأي حال.

هزت رأسها دون أن تتلفظ ولو بكلمة واحدة.

- ألن تذهب إلى زيارته؟ سألها فيليثيتو.  
نفت ذلك بحركة من رأسها.

- أنا أيضاً لا أريد رؤيته إلى الأبد - أكدت، وواصلت تناول الحساء،

<sup>(1)</sup> طبق تقليدي بيروي مكون من قطع أويوكيتو، وهو نبات درني شبيه بالبطاطا، ولا يوجد إلا في جبال الأنديز، والشاركي وهو لحم اللاما مقدداً، ويقدم الأرز إلى جانبها، في الطبق نفسه.

برشفات ملاعق بطيئة -. ما عدت قادرة على رؤيته بعد الذي فعله معك.  
وأصلا تناول الطعام بصمت، وبعد وقت لا يأس به، حين رفعت  
ساتورنينا الأطباق. دمم فيليثيتو:

- لقد ذهبت إلى حي كاستيا أيضاً، إلى حيث تخيلين. ذهبت من  
أجل إنهاء تلك العلاقة.

وأخيراً سمع فيليثيتو خيرترووديس تسأله :

- أتريد قهوة أم متن البابونج؟ -



عندما استيقظ دون ريفوبيرتو، وكان الظلام لا يزال مخيماً، سمع صخب البحر وفكّر: «لقد حل النهار أخيراً». باغته إحساس بالراحة والإثارة. أهذه هي السعادة؟ وإلى جانبه، كانت لوكريثيا تنام بهدوء. لا بد أنها متعبة جداً، فقد ظلت في اليوم السابق، حتى وقت متأخر، ترتب الحقائب. ظلَّ لبعض الوقت يصغي إلى حركة البحر - إنها موسيقى لا تُسمع أبداً في بارانكو خلال النهار، وإنما في الليل وعند الفجر فقط، حين ينطفئ صخب الشوارع - نهض بعد ذلك، وذهب وهو بالبيجاما والخفَّ إلى حجرة المكتب. بحث ووجد، في رفٍّ للشعر، كتاب فراري لويس دي ليون. وعلى ضوء مصباح المنضدة، قرأ القصيدة المكرسة للموسيقي الأعمى فرانثيسكو دي ساليناس. لقد كان يحاول تذكرها في اليوم السابق، وهو بين النوم واليقظة، ثم حلم بها بعد ذلك. لقد قرأها من قبل مرات كثيرة؛ وحين أعاد قراءتها الآن، وهو يحرك شفتيه ببطء، أكَد لنفسه مرة أخرى: إنها أجمل تكرييم مكرس للموسيقى يعرفه، وهذه القصيدة، في الوقت الذي تفسر فيه ذلك الواقع العصي على التفسير الذي هو الموسيقى، تشكل هي بحد ذاتها موسيقى. موسيقى بأفكار واستعارات. إنها رمزية ذكية لرجل إيمان، تضمخ القارئ بأحساسٍ يعجز عنها الوصف، وتكشف له الجوهر السري المتسامي، والسامي الذي يعيش في ركن ما من

الحيوان البشري، ويُطلّ على الوعي فقط بالانسجام المتقن لسيمفونية بدعة، لقصيدة زخمة، لأوبرا عظيمة، لعرض فني فائق التميز. وهو إحساس بالنسبة لفراري لويس، المؤمن، يختلط بالنعمة الربانية والغيبوبة الصوفية. كيف هي موسيقى أرغن الأعمى تلك التي صاغ فراري لويس دي ليون من أجلها هذا المديح الشعري الشامخ؟ إنه لم يسمعها قط. سيجدها، لقد صارت لديه الآن مهمة عليه إنجازها خلال وجوده في مدريد: الحصول على قرص سي.دي لمؤلفات فرانثيسكو ساليناس الموسيقية. لا بد لإحدى المجموعات المهمة بالموسيقى القديمة - فرقة جوردي سافال على سبيل المثال - أن تكون قد كرست أسطوانة لمن أوحى بمثل تلك القصيدة الرائعة.

أغمض عينيه، وفكر أنه سيقوم هو ولوكريثيا فونتشيتتو، بعد ساعات قليلة، باجتياز الأجواء، مخلفين وراءهم غيوم ليما الكثيفة، وبادئين بالرحلة المؤجلة إلى أوروبا. أخيراً! سيصلون في أوج الخريف. تخيل الأشجار الذهبية والشوارع المبلطة وقد وشيت بأوراق أفللت بفعل البرد. بدا له ذلك أشبه بالكذب. أربعة أسابيع. واحد منها في مدريد، وآخر في باريس، وآخر في لندن، والأسبوع الأخير ما بين فلورنسا وروما. لقد خطط لتلك الأيام الإحدى والثلاثين بطريقة لا يتسبب التعب فيها بإفساد المتعة، ويتجنب ما أمكن تلك الحالات الطارئة المزعجة التي تُدمر الرحلات. فرحلات تنقلهم بالطائرات محجوزة، وبطاقات الدخول إلى الحفلات الموسيقية وعروض الأوبرا والمعارض الفنية مشتراء، وأجور الفنادق والنزل مدفوعة سلفاً. ستكون المرة الأولى التي يطأ فيها فونتشيتتو قارة رامبو، أوروبا الشرفات القديمة. ستكون متعة كبيرة أن يُري ابنه، في هذه الرحلة، متاحف البرادو واللوفر والناشيونال غاليري ومتحف أوفيزي، وساحة القديس بطرس، وكنيسة السيستين. هل

سينسي ابنه، وسط كل تلك الأشياء البدعة، هذه الفترة المشؤومة الأخيرة وحالات الظهور الشبحي لإديلبيرتو توريس، ذلك الروح الشريرة - الإنكوبو أو السوكوبو<sup>(1)</sup> (ما هو الفرق بينهما؟) - الذي سبب له وللوكريثيا الكثير من المراة في حياتيهما؟ آمل ذلك. سيكون هذا الشهر حمام تطهر: ستغلق الأسرة أسوأ مرحلة في حياتها. وسيرجع ثلاثتهم إلى ليما متجددين كمن ولدوا من جديد.

تذكر آخر حديث له مع فونتشيتو في مكتبه، قبل يومين، وواقحة ابنه المفاجئة:

- إذا كانت أوروبا تعجبك إلى هذا الحدّ، وتحلم بها ليلاً ونهاراً، فلماذا عشت حياتك كلها في البيرو يا أبي؟  
أربكه السؤال ولم يدر بماذا يرد عليه للحظات. كان يشعر بالذنب لشيء ما، لكنه يجهل ما هو.

- حسن، أظن لو أنني ذهبت للعيش هناك، لما كنت سأستمتع كثيراً بالأشياء الجميلة التي تضمها القارة العجوز - حاول التهرب من الورطة - كنت سأعتاد كثيراً عليها بحيث لا ألحظ وجودها، مثلما يحدث لملايين الأوروبيين. وباختصار، لم يخطر لي قط الانتقال إلى هناك، لقد فكرتُ على الدوام بأنه عليّ أن أعيش هنا. أن أقبل قدرى، إذا كان هذا ما ترمي إليه.

- كل الكتب التي تقرأها هي لمؤلفين الأوروبيين - ألح ابنه -. وأظن أن معظم الأسطوانات والرسوم وصور اللوحات التي لديك هي كذلك أيضاً. لإيطاليين، وإنكليزيين، وفرنسيين، وإسبان وألمان وبعض الأمريكيين.

<sup>(1)</sup> الإنكوبو incubo أو السوكوبو sucubo: شيطان في خرافات أوروبا الوسطى، الأول شيطان نكر يقع فوق ضمحته الأنثى النائمة لمضاجعتها، أما السوكوبو فهو شيطان يتخذ هيئة امرأة جذابة لغواية الذكور، وبصورة خاصة الرهبان، بالدخول إلى أحلامهم وتخيلاتهم.

ولكن، هل هنالك شيء يروق لك في البيرو يا بابا؟  
كان دون ريفوبيرتو على وشك الاعتراض، والقول إن هنالك أشياء  
كثيرة، ولكنه اختار أن يبدي ملامح الشك وأن يشير بإيماءة ارتياهية:  
ـ ثلاثة أشياء يا فونتشيتو. قال متচنعاً التكلم بتخفيه متور مدعٍ:  
رسوم فرناندو سزسلو. وأشعار سيسار مورو بالفرنسية. وقريديس نهر  
ماخيس بالطبع.

ـ لا يمكن الحديث معك بجد يا بابا - احتاج ابنه - أظن أنك  
أخذت، ما سألك عنه، على محمل المزاح لأنك لا تجرؤ على قول  
الحقيقة لي.

ـ «هذا الصبي أكثر تيقظاً من سنجاب، ويفتن حين يجعل أبواه يمر  
بلحظات حرجة»، فكر ريفوبيرتو. «هل كنت أنا هكذا أيضاً في  
صبابي؟». إنه لا يتذكر.

ظل يراجع أوراقاً، ألقى نظرةأخيرة على حقيقته اليدوية ليتأكد من  
أنه لم ينس شيئاً. طلع الفجر بعد قليل وسمع حركة في المطبخ. أترام  
يجهزون طعام الفطور؟ حين رجع إلى غرفة النوم، رأى الحقائب  
الثلاث جاهزة في المر، وقد وضعت عليها لوكريثيا البطاقات الازمة.  
ذهب إلى الحمام، حلق ذقنه، واستحم، وحين رجع إلى غرفة النوم،  
كانت لوكريثيا قد نهضت وذهبت لإيقاظ فونتشيتو. وأعلنت خوستينيانا  
عندئذ أن الفطور بانتظارهم في غرفة الطعام.

ـ أكاد لا أصدق أن هذا اليوم قد جاء - قال للوكريثيا بينما هو يتذوق  
كأسه من عصير البرتقال، وقهوجته بالحليب، وخبزه المحمص مع الزبد  
والمربي - لقد وصل بي الأمر في هذا الشهر إلى التفكير بأننا سنظل  
عالقين لسنوات وسنوات في تلك التعقيدات القضائية التي أدخلني فيها  
الضبعان، وأننا لن نعود أبداً إلى أوروبا.

- لو أخبرتك بأكثر ما يثير فضولي في هذه الرحلة، فسوف تضحك - ردت عليه لوكريثيا التي كانت تتناول فطوراً يقتصر على فنجان شاي فقط - أتدري ماذا؟ إنها دعوة آرميديا. كيف ستكون تلك الوجبة؟ من ستدعوا معنا؟ مازلت غير مصدقة أن خادمة إسماعيل السابقة ستقيم لنا مأدبة في بيتها بروما. إنني أموت فضولاً. كيف تراها تعيش، كيف تستضيف الآخرين، من هم أصدقاؤها. هل تعلمت الإيطالية؟ أظن أنها تملك قصراً صغيراً هناك.

- حسن، أجل، بكل تأكيد - قال ريفوبيرتو، بشيء من خيبة الأمل -. إنها تملك من الأموال ما يكفي لأن تعيش كملكة بالطبع. وعسى أن تمتلك كذلك الذوق والحساسية ل تستغل مثل تلك الثروة بأفضل طريقة. ولم لا تكون كذلك في نهاية المطاف. فقد أثبتت أنها أكثر فطنة منا جمیعنا معاً. لقد حقق مرادها،وها هي هناك الآن، تعيش في إيطالية، وثروة إسماعيل كلها صارت في جيبيها. بينما هُزم التوeman هزيمة ساحقة. الحقيقة أنني سعيد من أجلها.

- لا تتكلم بالسوء عن آرميدا، لا تسخر - قالت لوكريثيا وهي تضع يدها على فمهما - فهي ليست ولم تكن قطَّ مثلما يظنه الناس.

- أجل، أجل، أعرف أن الحديث الذي تبادرلته معها في بيورا قد أقنعتك - ابتسم ريفوبيرتو - وماذا لو أن ما روتة لك مجرد حكاية يا لوكريثيا؟

- لقد قالت لي الحقيقة - أكدت لوكريثيا بصورة حاسمة -. إنني مستعدة لأن أدس يدي في النار لتأكيد أن ما قالته لي هو ما جرى حقاً. دون زيادة أو نقصان. فأنا لدى غريرة لا تخطئ في هذه الأمور. لا أصدقك. لهذا ما جرى حقاً؟

- حقاً - خفضت آرميدا بصرها بشيء من الخجل -. لم يكن قد نظر إلى قط من قبل ، ولم يوجه لي أية كلمة غزل. ولا حتى شيئاً من تلك العبارات اللطيفة التي يقولها ، أحياناً ، أصحاب البيوت لمجرد قول شيء لعاملاهن المنزليات. أقسم لك بأقدس ما لدى يا سيدة لوكريثيا.

- كم مرة يجب أن أطلب منك أن تكلميوني دون كلفة يا آرميدا؟ -

أنبتها لوكريثيا -. أجد صعوبة في تصديق ما تقولينه. هل حقاً لم تلحظي أبداً ، من قبل ، أنك تعجبين إسماعيل ولو قليلاً؟

- أقسم لك بما هو أكثر قداسة - وقبلت آرميدا إصبعيها المتصالبين -. لم يحدث ذلك مطلقاً، وليعاقبني الرب عقاباً أبداً إن كنتُ أكذب. لا شيء. أبداً. على الإطلاق. ولهذا كانت المفاجأة شديدة إلى حدّ أنه أغضى عليّ تقريباً. ولكن ، أي شيء هذا الذي تقوله لي حضرتك! هل أصابك الجنون يا دون إسماعيل؟ أم أنني أنا من أصبت بالجنون؟ ما هذا الذي يحدث هنا؟

- لا أنت مجنونة ولا أنا مجنون يا آرميدا -. قال السيد كاريرا مبتسمًا لها ، متكلماً بلطف لم تعرفه منه أبداً من قبل ، ولكن دون أن يقترب منها -. أنت سمعت جيداً بالطبع ما قلته لك. وأعود لأسألك من جديد. أتوافقين على الزواج مني؟ أقول لك هذا بجد. فقد صرت عجوزاً على مغازلتك وعششك على الطريقة الشائعة. إنني أعرض عليك مودتي واحترامي. وأنا واثق من أن الحب سيأتي فيما بعد. حبي لك وحبك لي.

- قال لي إنه يشعر بالوحدة ، وإنني أبدو له طيبة ، وأعرف عاداته ، وأعرف ما يعجبه ، وما يزعجه ، إضافة إلى أنه متتأكد من أنني سأعرف كيف أعتني به. كان رأسي يلف أيتها السيدة لوكريثيا. لم أستطع أن أصدق أنه كان يقول ما سمعته. لكن هذا ما حدث ، مثلما أرويه لك. هكذا ، فجأة ومن دون مواربة ولا مقدمات. هذه هي الحقيقة ولا شيء

آخر سواها. أقسم لك.

- إنك تذهليني يا آرميدا - كانت لوكريثيا تتفحصها بذهول -. ولكن، أجل، ولم لا. لقد قال لك الحقيقة في نهاية المطاف، وبكل بساطة. كان يشعر بالوحدة، ويحتاج لن يرافقه، وأنت تعرفيه أفضل من الجميع. وهل وافقت عندئذ على طلبه، هكذا فجأة؟

- لست مضطرة إلى أن تردي عليّ الآن يا آرميدا - أضاف السيد، دون أن يتقدم خطوة واحدة نحوها، دون أدنى محاولة للمسها، لإمساك يدها، ذراعها -. فكري في الأمر. عرضي لكِ جديًّا تماماً. نتزوج ونذهب في شهر عسل إلى أوروبا. سوف أحاول إسعادك. فكري في الأمر. أرجوك.

- لقد كان لي حبيب يا سيدة لوكريثيا. يدعى بانتشيتا. شخص طيب. يعمل في بلدية لينشي، في مكتب التسجيل. فكان لا بد لي من قطع العلاقة معه. الحقيقة أنني لم أفك في الموضوع كثيراً. بدا لي الأمر أشبه بحكاية سندريلا. لكنني ظللت حتى اللحظة الأخيرة أشك في أن السيد كاريرا قد كلمني بجد. ولكن أجل، أجل، كان يتكلم بجد تام، وقدرأيت حضرتك كل ما جرى بعد ذلك.

- لست أدرى ما الذي أشعر به وأنا أتوجه إليك بهذا السؤال يا آرميدا - قالت لوكريثيا وهي تخفض صوتها كثيراً -. ولكنني لا أستطيع كبح نفسي. الفضول يقتلني. أتعنين أنه لم يكن هناكك أي شيء بينما قبل الزواج؟

انفجرت آرميدا في الضحك وهي ترفع يديها إلى وجهها.

- بعد أن وافقت، أجل، جرت بيننا أشياء - قالت بخجل وهي تضحك -. لقد جرت أشياء بالطبع. فالسيد إسماعيل كان لا يزال رجلاً كامل الرجولة، على الرغم من عمره.

انفجرت لوكريثيا في الضحك أيضاً.

- لا أحتاج إلى أن تخبريني بأكثر من هذا يا آرميدا - قالت وهي تعانقها -. آي ، كم هو مضحك حدوث الأمور على هذا النحو. من المؤسف أنه مات سريعاً.

- لم أقنع بعد بأن الضبعين قد فقدا أنيابهما - قال ريفوبيرتو -. وأنهما قد صارا وديعين جداً.

- وأنا لا أصدق ذلك، فهما لم يعودا إلى إحداث الضجيج لأنهما يخططان لمكائد أخرى - أجابت لوكريثيا -. هل شرح لك الدكتور أرنبيا مضمون اتفاق آرميدا معهما؟

أنكر ريفوبيرتو بحركة من رأسه.

- ولم أسأله عن ذلك أيضاً - أجابها وهو يهز كتفيه -. ولكن لا شك في أنها قد استسلما. فلولا ذلك لما سحبا كل المطالب والدعوى المرفوعة. لا بد أنها قدمت لهما مبلغاً جيداً لتروضهما. وربما لا. ربما توصل الأحمقان إلى الاقتناع بأنهما إذا ما واصلا الصراع، فسوف يموتان بفعل الشيخوخة دون أن يحصلوا على قرش واحد من الميراث. والحقيقة أن هذا الأمر لا يهمني بأي حال. لا أريد أن نتحدث عن هذين الوغدين طيلة هذا الشهر يا لوكريثيا. فليكن كل شيء خلال هذه الأسابيع الأربع نظيفاً، جميلاً، لطيفاً، مشجعاً. والضبعان لا يتوقفان بأي حال مع شيء من هذه المتطلبات.

- أعدك بأنني لن أعود إلى ذكر اسميهما - ضحكت لوكريثيا -. سؤالأخير فقط. أتعرف ما الذي جرى لهما؟

- سيكونان قد ذهبوا إلى ميامي لينفقا، في السهر والصخب، النقود التي حصلوا عليها من آرميدا، ولا أين سيذهبان - قال دونريفوبيرتو -. آه، ولكنهما لا يستطيعان في الحقيقة الذهاب إلى ميامي، لأن ميكي

صدم أحدهم هناك ثم هرب. مع أنه يمكن لتلك التهمة أن تكون قد سقطت بالتقادم. الآن أجل، لقد احتفى التوْهُمان، تلاشيا، لم يوجد أبداً. أهلاً يا فونتشيتو! قط. لن نعود إلى الحديث عنهما أبداً. كان الفتى قد ارتدى ملابسه من أجل السفر، حتى إنه قد اعتمر بقعة.

- يا لأناقتك، رياه - استقبلته دونيا لوكريثيا مقبلة -. فطورك جاهز هنا. سأترككما، لأن الوقت بدأ ينفد، يجب أن أسرع إذا كنتما تريدان الخروج في التاسعة تماماً.

- هل تستثير مخيلتك هذه الرحلة؟ - سأل دون ريفوبيرتو ابنه حين ظلا وحدهما.

- كثيراً يا بابا. لقد سمعتكم تتكلّم عن أوروبا كثيراً مذ وعيتُ على الدنيا، فصرت أحلم منذ سنوات بالذهاب إلى هناك.

- ستكون تجربة بدعة، وسوف ترى ذلك بنفسك - قال دون ريفوبيرتو -. لقد خطّطتُ لكل شيء بدقة كبيرة، كي ترى أفضل ما في قارة أوروبا العجوز، مع تجنب ما هو قبيح. ستكون هذه الرحلة، بطريقة ما، هي عملي البارع. العمل الذي لم أرسمه، ولم أنظمه، ولم أكتبها يا فونتشيتو. أما أنت فسوف تعيشه.

- لم يفت الوقت بعد يا أبي - رد الصبي -. مازال أمامك متسع من الوقت، يمكنك أن تكرس وقتك لما تحبه حقاً. أنت الآن متّاعد ولديك كل ما في العالم من الحرية كي تفعل ما تحبه.

ملحظة أخرى غير مريحة، ولا يدري كيف يتخلص منها. فنهض بحجة أنه يريد القيام بالقاء نظرة مراجعة أخيرة على حقيبة يده.

حضر نرسيس في الساعة التاسعة صباحاً بالضبط، مثلاًما طلب منه دون ريفوبيرتو. جاء يقود سيارته ذات الدفع الرباعي، ماركة تيوتا آخر

موديل، لونها أزرق بحري، وقد علق سائق إسماعيل كاريلا السابق بمرأتها العاكسة دمية صغيرة ملونة تمثل الطوباوية ميلتشوريتا. كان لا بد لهم من الانتظار لوقت لا بأس به طبعاً، ريثما تخرج دونيا لوكريثيا. الوداع بينها وبين خوستينيانا جرى بمعانقات وقبلات لا تنتهي، وقد انتبه ريفوبيرتو بذهول إلى أن شفاههما قد تلامست. ولكن أياً من فونتشيتو ونرسيس لم يلحظ ذلك. حين نزلت سيارة الدفع الرباعي معر كيبرادا دي ارمينداريس واتخذت طريقها عبر كوستا بيردي باتجاه المطار، سأل دون ريفوبيرتو نرسيس كيف هي الحال في عمله الجديد في شركة التأمين.

- على أحسن ما يرام - أظهر أسنانه البيضاء وهو يبتسم ابتسامة تمتد من إحدى أذنيه حتى الأخرى -. ظننت أن توصية السيدة آرميدا لن تنفع شيئاً لدى أصحاب الشركة الجدد، ولكنني كنت مخطئاً. لقد عاملوني معاملة أكثر من جيدة. استقبلبني المدير شخصياً، تصور حضرتك. سيد إيطالي معطر جداً. ولكنني لم أكن على أحسن حال، لا أدرى ماذا أصابني وأنا أرى أنه قد احتل مكتبك يا دون ريفوبيرتو.

- أن يحتله هو أفضل من أن يحتله إسكونبيتا وميكى، ألا ترى ذلك؟ وأطلق دون ريفوبيرتو قهقهة.

- هذا أمر لا شك فيه. بالطبع !

- وما العمل الذي تقوم به يا نرسيس؟ أأنت سائق المدير؟  
- بالضبط. وحين لا يكون بحاجة لي، أوصل وأحضر أناساً من الشركة، أعني من المسؤولين - كان السائق يبدو سعيداً، وواثقاً من نفسه -. وهو يرسلني أحياناً إلى الجمارك، وإلى البريد، وإلى المصارف. عمل شاق، ولكن لا يمكنني أن أندمر، فهم يدفعون لي جيداً. وبفضل السيدة

آرميدا، صار لدى الآن سيارة خاصة. وهو ما لم أكن أفكّر بالحصول عليه في الحقيقة.

- لقد قدمت لك هدية جميلة يا نرسيس - علقت دونيا لوكريثيا - سيارتكم بديعة.

- كانت على الدوام ذات قلب من ذهب - أكد السائق - أعني السيدة آرميدا.

- هذا أقل ما يمكنها عمله معك - شدّ دون ريفوبيرتو - فقد تصرفت على أحسن وجه معها ومع إسماعيل. فأنت لم تتوافق فقط على أن تكون شاهداً على زواجهما، مع أنك كنت تعلم ما الذي تعرض نفسك له. والأهم أنك لم ترضخ لتخويف الضبعين ومحاولتهم شرائرك. من العدل جداً أن تقدم لك هذه الهدية.

- هذه السيارة ليست هدية، بل هي أعظم من هدية يا دون. كان مطار خورخي تشافيس يغص بالناس، رتل المنتظرين عند شركة إيبريا طويلاً جداً. لكن ريفوبيرتو لم يفقد صبره. لقد مرّ بحالات ضيق كثيرة خلال الشهور الأخيرة من الاستدعاءات الشرطية والقضائية، وتعطيل إجراءات تقاعده، وأوجاع الرأس التي سببها له فونتشيتو بقصة إديليبيرتو تورييس، بحيث لم يعد يهمه الوقوف في صف انتظار لربع ساعة، أو نصف ساعة أو مهما يكن من وقت، طالما أنه قد خلف تلك الأمور كلها وراء ظهره، وسيكون يوم غد عند الظهر في مدريد مع زوجته وأبنه. شبّ ذراعيه باندفاع بذراعي لوكريثيا وفونتشيتو، وقال لهما بحماسة متدفقة :

- غداً في الليل سوف نذهب لنأكل في أفضل وألطف مطعم في مدريد. «كاسا لوثيريو»! الجامبون عنده، والبيض مع البطاطا المقلية وجبة لا تضاهي.

- بيبض مع بطاطا مقلية وجبة لا تضاهى يا بابا؟ - قال فونتشيتو ساخراً.

- اضحك كما تشاء، لكنني أؤكد لك، مهما بدا هذا الطبق بسيطاً، بأنهم قد حولوه، في كاسا لوثيو، إلى عمل فني، إلى شيء لذيذ تمص أصابعك معه.

وفي تلك اللحظة بالذات، لمح، على بعد أمتار قليلة، زوجين مثيرين للفضول بدا له أنه يعرفهما. لا يمكن لهما أن يكونا أكثر تماثلاً وخروجاً عن المألوف. فهي امرأة صلبة وضخمة، ذات خدين منتفخين، غاطسة في ما يشبه جلباباً فاتح اللون يصل حتى كاحليها ومتدرعة بكنزة صوفية مفتوحة الصدر، سميكية ضاربة إلى الخضراء. لكن الأكثر غرابة هي القبعة العبنية المسطحة وذات الخمار التي تضعها على رأسها وتمنحها مظهراً كاريكاتورياً. أما الرجل بالمقابل، ففضيل، قصير، وتحيل، يبدو معلباً في بدلة ضيقة جداً، ذات لون رمادي لؤلؤي، مع صدار أحضر مبهج لافت للنظر. ويضع بدوره قبعة، غاطسة حتى منصف جبهته. لهما هيئةريفية، يبدوان تائهيدين ومشوشين وسط الزحام في المطار، ينظران إلى كل شيء بتمعن وارتياب. يخيل لمن يراهما بأنهما هاربان من واحدة من تلك اللوحات التعبيرية التي تغص بناس ذاهلين وغير متناسقين، في برلين سنوات العشرينات التي كان يرسمها أوتو ديكس وجورج غرووز.

- آي، أتراهما - سمع لوكريثيا تقول مشيرة إلى ذلك الثنائي -. يبدو أنها مسافران إلى إسبانيا أيضاً. وفي الدرجة الأولى، ما رأيك؟

- أظن أنني أعرفهما، ولكنني لا أتذكر أين - قال ريفوبيرتو، ثم سألهما: - من يكونان؟

- بني - ردت لوكريثيا -، الزوجان اللذان من بيورا، كيف لا تتمكن

من التعرف عليهما.

- إنهم أخذ آرميدا وصهرها، طبعاً - تعرف إليهما دون ريفوبيرتو -  
معك حق، إنهم مسافران أيضاً إلى إسبانيا، يا للمصادفة.  
أحس باستياء غريب وغير مفهوم، بقلق مبهم، كما لو أن توافق  
رحلته في طائرة إيبريا إلى مدريد مع هذين الزوجين البيورانيين يشكل  
تهديداً ما لبرنامج نشاطاته الذي وضع مخططه بدقة تامة من أجل  
الشهر الأوروبي. «يا للحماقة»، فكر «يا لهذيان الملاحة». بأي طريقة  
يمكن لهذين الزوجين المبهرجين أن يفسدا رحلتهم. ظل يراقبهم البعض  
الوقت بينما هما يقومان بالإجراءات عند منضدة شركة إيبريا ويزنان  
الحقيقة الضخمة المثبتة بأحزنة ثخينة ويسجلانها كأمتعة. لاحظ أنهما  
أشبه بضائعين ومذعوريين، كما لو أنها المرة الأولى في حياتهما التي  
سيركبان فيها الطائرة. عندما انتهيا من فهم تعليمات مضيفة شركة  
إيبريا، أمسك كل منهما بذراع الآخر، كما لو أنهما يحتميان من أمر  
مفاجئ، وابتعدا باتجاه الجمارك. ما الذي سيفعله في إسبانيا فيليثيو  
ياناكيه وزوجته خيرتروديس؟ آه، طبعاً، لا شك أنهما ذاهبان لنسيان  
تلك الفضيحة التي كانا بطيلاها، هناك في بيورا، فضيحة رافقتها  
عمليات اختطاف وزنا محارم وعاهرات. أتراهما يسافران ضمن رحلة  
سياحية منتظمة، ينفقان فيها مدخلات حياتهما. ليس للأمر أدنى  
أهمية. لقد صار خلال هذه الشهور الأخيرة كثير الوساوس،  
والحساسية، وشبه هذيانبي. بعيداً عن متناول يد هذين الزوجين لن  
يلحق به أدنى ضرر في إجازته الرائعة.

- أتدرى أنني أشعر، دون أن أعرف السبب، بوخزة شؤم من لقائي  
بهذين البيورانيين يا ريفوبيرتو؟ - سمع لوكريثيا تقول ذلك، فاجتاحته  
قشعريرة. لقد كان في صوت زوجته شيء من الغم.

- وخزة تشاوم؟ - قال مدارياً مشاعره - أي بعع هذا يا لوكريثيا، لا مسوغ لذلك. ستكون هذه الرحلة أفضل من رحلة شهر عسلنا، هذا وعد.

بعد أن أنهوا الإجراءات، صعدوا إلى الطابق الثاني في المطار، حيث كان هناك رتل طويل من أجل أن تختم الشرطة جوازات السفر. وعندما أصبحوا أخيراً في صالة التوجه إلى الطائرة، كان لا يزال لديهم متسع من الوقت قبل الانطلاق. قررت دونيا لوكريثيا الذهاب لإلقاء نظرة على متاجر السوق الحرة، ورفقاها فونتشيتو. فقال لهاما ريفوبيرتو الذي يمقت التسوق، إنه سينتظراهما في الكافيتيريا. وفي طريقه اشتري مجلة الإيكonomist، ووجد أن المناضد كلها مشغولة في المطعم الصغير. كان يتأنب للذهاب والجلوس عند باب صالة المغادرة، حين اكتشف وجود السيد ياناكيه وزوجته يجلسان إلى إحدى المناضد. كانوا جديين جداً وساكينين جداً، أمامهما على المنضدة زجاجاتي شراب غازي وطبق بسكويت. فاستجاب ريفوبيرتو لدافع مفاجئ واقترب منها.

- لا أدرى إن كنتما تتذكرياني - قال لهاما محيياً وهو يمدّ يده - . لقد كنا في بيتكما في بيورا قبل بضعة شهور. ويا لمفاجأة اللقاء بكم هنا. إنكم ذاهبان في رحلة إذاً.

كان البيورانيان قد نهضا واقفين، وقد فوجئا للوهلة الأولى، ثم ابتسما. تصافحوا بالأيدي باندفاع.

- يا للمفاجأة يا دون ريفوبيرتو، حضرتك هنا. كيف يمكن ألا نتذكر مؤامرتنا السرية المشتركة.

- تفضل بالجلوس أيها السيد - قالت السيدة خيرتروديس - . امنحنا هذه السعادة.

- حسن، أجل، بكل سرور - شكرهما دون ريفوبيرتو - . زوجتي

وابني يُلقيان نظرة على المتاجر. إننا مسافرون إلى مدريد.  
- إلى مدريد؟ - فتح فيليثيتو ياناكيه عينيه على اتساعهما - مثلنا، يا للمصادفة.

- ماذا ت يريد أن تتناول أيها السيد؟ سألته السيدة خيرترووديس بلهف شديد.

بدت متغيرة، فقد صارت تواصليه ولطيفة، وهي تبتسم الآن. إنه يتذكرها، خلال تلك الأيام في بيورا، دائمة التجمّم وغير قادرة على إفلات كلمة واحدة.

- قهوة مع قليل من الحليب - أمر النادل - أنتما ذاهبان إلى مدريد إذاً، سنكون رفاق سفر.

جلسوا، ابتسموا، تبادلوا انطباعات حول الرحلة - هل ستخرج الطائرة في موعدها أم ستتأخر؟ - والسيدة خيرترووديس التي كان ريفوبيرتو متأكداً من أنه لم يسمع صوتها خلال الاجتماعات في بيورا، صارت تتكلم الآن دون توقف. عسى ألا تهتز هذه الطائرة مثلما اهتزت طائرة شركة «لان بيرو» التي جاءت بهما من بيورا يوم أمس. لقد ترقصت الطائرة في الجو كثيراً، حتى إن دموعها انسابت من عينيها لاعتقادها أنها ستتفجر. وهي تأمل ألا تضيع لهما شركة إيبريا الحقيقة، لأنها إذا ضاعت، ماذا سيلبسان في مدريد، حيث سيمضيان ثلاثة أيام وثلاث ليال، وحيث البرد شديد كما يبدو.

- الخريف هو أفضل فصول السنة في أوروبا كلها - طعأنها ريفوبيرتو وأجملها، أؤكد لك. لا برد فيه، وإنما بعض البرودة اللطيفة جداً. هل أنتما ذهبان إلى مدريد للتتنزه؟

- الحقيقة أننا ذهبان إلى روما - قال فيليثيتو ياناكيه - ولكن آرميدا أصرت أن نبقى بضعة أيام في مدريد، للتعرف عليها.

- أختي تريدنا أن نذهب إلى الأندلس أيضاً - قال خيرتروديس -. ولكن هذا يعني أن نبقى وقتاً طويلاً، ولدى فيليثيتو في بيورا عمل كثير، في حافلات الشركة وشاحناتها. إنه يعيد تنظيم الشركة من القدمين حتى الرأس.

- ناريهولا للنقل آخذة بالتقدم قدماً، على الرغم من أنها تسبب لي في بعض الأحيان أوجاع رأس - قال السيد ياناكيه مبتسمًا -. لقد حل محلني ابني تيبورثيو. وهو يعرف الشركة جيداً، فقد عمل فيها منذ صباه. أنا واثق من أنه سيقوم بالعمل على أحسن وجه. ولكن، مثلما تعرف حضرتك، لا بد لأحدنا من أن يظل على رأس عمله في كل شأن، وإلا ستبدأ الأمور بالتراجع.

- آرميدا هي من دعتنا إلى هذه الرحلة - قالت السيدة خيرتروديس، ببرقة فخر في صوتها -. لقد دفعت لنا كافة النفقات. لاحظكم هي كريمة. تذاكر السفر، الفنادق، وكل شيء. وفي روما سوف ننزل في بيتها.

- لقد كانت شديدة اللطف إلى حد لا يمكننا معه أن نرفض منها شيئاً كهذا - أوضح السيد ياناكيه -. تصور كم ستتكلفها هذه الدعوة. ثروة! آرميدا تقول إنها ممتنة جداً لأننا استقبلناها في بيتنا. كما لو أن ذلك قد سبب لنا أدنى إزعاج. بل كان شرفاً كبيراً لنا في الحقيقة.

- حسن، لقد تصرفتما جيداً معها خلال تلك الأيام باللغة الصعوبة -. علق رينغوبيرتو -. منحتهما الحنان والدعم والمعنويات. لقد كانت بحاجة إلى أن تشعر أنها قريبة من أسرتها. وهي الآن في مكانة عظيمة، ولهذا أجد أنها أحسنت صنعاً بدعوتكم. سوف تفتقدما روما، وستريان.

نهضت السيدة خيرتروديس لتذهب إلى الحمام. فأشار فيليثيتو ياناكيه إلى امرأته، وخفض صوته، معترضاً لدون رينغوبيرتو:

- زوجتى تموت تحرقاً لرؤية البابا. إنه حلم حياتها، لأن خيرتروديس متعلقة جداً بالدين. لقد وعدتها آرميدا بأن تأخذها إلى ساحة القديس بطرس حين يخرج البابا إلى الشرفة. وربما تتمكن من التوصل إلى أن يوفروا لها مكاناً بين الحجاج الذين يلتقي بهم الأب المقدس في أحد أيام اجتماعه بهم. ستكون رؤية البابا، ووطأً أرض الفاتيكان، هي أعظم سعادة في حياتها. أتعرف حضرتك أنها تحولت إلى كاثوليكية جداً بعد زواجنا. لم تكن كذلك من قبل. لهذا السبب تشجعت على قبول هذه الدعوة. من أجلها. لقد كانت امرأة طيبة على الدوام. وقد ضحت كثيراً في الأزمنة الصعبة. لو لا خيرتروديس لما قمت بهذه الرحلة. أتعرف أمراً؟ لم آخذ إجازة في حياتي من قبل قط. لا أشعر بأنني على ما يرام إذا لم أفعل شيئاً. لأن أكثر ما يرور لي هو العمل.

وفجأة، وبلا مرحلة انتقالية، بدأ فيليثيتو ياناكىه يروي لدون ريفوبيرتو أشياء عن أبيه. إنه ياناكونى، من ياباتира، تشولوكاني بائس، لم يتلق تعليماً، ولم يلبس أحذية، هجرته امرأته، واستغل في أعمال تقصم الظهر، وربى فيليثيتو يجعله يدرس، ويتعلم مهنة، كي يخرج قدماً. لقد كان رجلاً يمثل الاستقامة مجسدة.

- حسن، كم أنت محظوظ بأنه كان لك أب من هذا النوع يا دون فيليثيتو - قال دون ريفوبيرتو، ونهض واقفاً - لن تندم على هذه الرحلة، أؤكد لك. مدريد وروما مدینتان مليئتان بأشياء مثيرة للاهتمام، وسوف ترى.

- أجل، أتمنى لك الأفضل دوماً - أيده الآخر وهو ينهض أيضاً - سلم على زوجتك.

ولكن بدا ريفوبيرتو أنه غير مقتنع، وأن الرحلة لا تشكل أي حلم

له، وأنه يضحي بالفعل من أجل زوجته. سأله عما إذا كانت المشاكل التي تعرض لها قد حلّتْ، لكنه ندم على الفور حين رأى لمحّة من القلق أو الحزن تظهر على وجه الرجل الضئيل الذي أمامه.

- لقد جرى حلها لحسن الحظ - دمم - آمل أن تؤدي هذه الرحلة إلى جعل البيورانيين ينسونني. لا يمكن لحضرتك أن تعرف كم هو رهيب تحول المرأة إلى شخصية معروفة، أن يظهر في الصحف وفي التلفزيون، ويشير إليه الناس في الشارع.

- إنني أصدقك... أصدقك - قال دون ريفوبيرتو وهو يربت على كتفه. ثم استدعي النادل وأصر أن يدفع الحساب - حسن، سنتلقي في الطائرة. إنني أرى زوجتي وابني هناك يبحثان عنّي. إلى اللقاء قريباً. تقدموا حتى بوابة الخروج، ولم يكن صعود الركاب إلى الطائرة قد بدأ بعد. روى ريفوبيرتو للوكريثيا وفونتشيتا أن الزوجين ياناكيه يسافران إلى أوروبا بدعوة من آرميدا. فأبدت زوجته تأثيرها بكرم أرملة إسماعيل كاريلا.

- هذه أشياء لم تعد تُرى في هذه الأزمنة - قالت - سوف أقترب منها في الطائرة وأسلم عليهما. لقد استقبلها بضعة أيام في بيتهما، ولم يكن يخطر في بالهما أنهما بسبب ذلك العمل الطيب سيحصلان على جائزة يانصيب.

كانت قد اشتترت من السوق الحرة عدة سلاسل فضية بيروية لتقديمهما كذكرى للأشخاص اللطفاء الذين سيتعرفون عليهم خلال الرحلة، واشترى فونتشيتا قرص دي.في.دي لجاستن بيبير، وهذا مغنٌ كندي يبعث الجنون الآن بشباب العالم بأسره، وهو ينوي مشاهدته في الطائرة على جهاز كمبيوتره. بدأ ريفوبيرتو بتصفح مجلة الإيكonomست ولكنه تذكر، في تلك اللحظة بالذات، أنه من الأفضل أن يحمل في يده

الكتاب الذي اختاره للقراءة خلال الرحلة. فتح حقيبته اليدوية وأخرج منها نسخته القديمة – كان قد اشتراها من كشك على ضفاف السين – من دراسة أندرية مارلو حول غويما: «ساتورن». فمنذ سنوات طويلة، يختار بحذر ما يقرأه في الطائرة. وقد أثبتت له التجربة أنه من غير الممكن قراءة أي شيء خلال رحلة طيران. يجب أن تكون القراءة مثيرة، تشد انتباذه بطريقة تعطل معها تماماً ذلك القلق الدفين الذي يُفاجأ به كلما حلق طائراً، والذي يُذكره بأنه على ارتفاع عشرة آلاف متر - عشرة كيلومترات -، وينزلق في الفضاء بسرعة تسعين أو ألف كيلومتر في الساعة، وأن درجات الحرارة، هناك في الخارج، تصل إلى خمسين أو ستين درجة مئوية تحت الصفر. لم يكن ما يشعر به حين يطير هو الخوف بالضبط، وإنما شيء أشد زخماً من الخوف، إنه اليقين بأن ذلك الوضع قد يكون النهاية في أية لحظة، تفكك الجسد خلال جزء من الثانية، وربما الكشف عن السر الكبير الغامض، بمعرفة أن هنالك ما هو بعد الموت، إذا كان ثمة شيء. هناك احتمال، انطلاقاً من لأدريته القديمة التي لم تكن تخفف منها السنون، يميل أكثر إلى استبعاده. ولكن بعض القراءات تتوصل إلى سدّ الطريق أمام ذلك الإحساس الهاجسي المشؤوم، إنها قراءات تتمكن من امتصاص ذلك الهاجس بطريقة يستفرق معها في ما يقرأه، وينسى تماماً كل ما سواه. لقد حدث له ذلك وهو يقرأ رواية لداشبيل هاميت، ودراسة إيتالو كالفينو «ست مقترفات للألفية القارمة»، و«الدانوب» لكلاوديو ماغريس، وإعادته قراءة «دورعة اللوليب» لهنري جيمس. هذه المرة اختار دراسة أندرية مارلو لأنه مازال يتذكر التأثر الذي أحس به حين قرأها أول مرة، والجزع الذي أيقظته فيه رؤيته بصورة حية، وليس في استنساخات الكتب، لوحات الفريسكو في كينتا دل سوردو، وأعمال

الحفر «كوارث الحرب» و«الفنزوات». في كل مرة ذهب في إلى متحف البرادو كان يبقى طويلاً في صالة أعمال غويا. وإعادة قراءة دراسة مارلو ستكون مقدمة جيدة لتلك المتعة.

عظيم جداً أن تلك القصة المزعجة قد حلّت أخيراً. ولديه قرار حاسم الآن بعدم السماح لشيء أن يُفسد عليه هذه الأسبوع. فكل شيء خلالها يجب أن يكون بهيجاً، جميلاً، ممتعاً. وعدم رؤية شيء أو أحد يمكن له أن يكون باعثاً على الاكتئاب أو النزق أو القبح، تنظيم كافة التنقلات بطريقة تكون فيها السعادة الدائمة، خلال الشهر كله، أمراً ممكناً، يسهم فيها كل ما يفعله ويسمعه ويراه، بل وكل ما يشهه أيضاً (وهذا الأمر الأخير لن يكون سهلاً بالطبع).

كان غارقاً في هذا الحلم المشرق حين أحس بضربات من مرفق لوكريثيا تشير إليه إلى أن الصعود إلى الطائرة قد بدأ. رأيا، من بعيد، دون فيليثيتو ودونيا خيرتروديس يمران في أول رتل ركاب درجة رجال الأعمال. وكان صف ركاب الدرجة الاقتصادية طويل جداً، مما يعني، طبعاً، أن الطائرة ستكون ممتلئة. كان ريفوبيرتو يشعر بالاطمئنان على أية حال؛ إذ كان قد توصل إلى جعل وكالة السفر تحجز له مقاعد الصف العاشر الثلاثة، بجانب باب الطوارئ، حيث توجد فسحة أكبر لذ الأرجل، مما يجعل إزعاج الرحلة أقل وطأة.

حين دخلوا إلى الطائرة، مدّت لوكريثيا يدها إلى الزوجين البيورانيين وصافحت الثنائي بمودة كبيرة. وقد وجدوا بالفعل أنهم سيشغلون المقاعد الثلاثة في الصف العاشر، بجانب باب الطوارئ، حيث تتوافر مساحة أكثر اتساعاً لذ الأرجل. جلس ريفوبيرتو بجانب النافذة، ولوكريثيا في جهة الممر، وفونتشيتو في المقعد الأوسط.

تنهد دون ريفوبيرتو. كان يسمع، دون إصغاء، التعليمات التي

يقدمها أحد أفراد طاقم الطائرة حول الرحلة. وحين بدأت الطائرة تخرج على الدرج باتجاه نقطة الانطلاق، كان قد تمكّن من الاندماج بمقالة افتتاحية في الإيكonomist حول إذا ما كان اليورو، العملة الأوروبيّة، سيتجاوز الأزمة التي تهزّ أوروبا، وإذا ما كان الاتحاد الأوروبي سيحافظ على وجوده عند اختفاء اليورو. حين اندفعت الطائرة وسط زمرة محرّكاتها الأربع، وبسرعة تتزايد في كلّ ثانية، أحسّ فجأة بأنّ يد فونتشيتو تضطّع على ذراعه الأيمن. رفع بصره عن المجلة والتفت نحو ابنه: كان الصبي ينظر إليه مذهولاً، وعلى وجهه ملامح لا يمكن تفسيرها.

- لا تخف يابني - قال متفاجئاً، لكنه سكت لأنّ فونتشيتو كان ينفي بحركة من رأسه، كما لو أنه يقول «ليست هذه هي المسألة، ليس هذا هو السبب».

انفصلت الطائرة في تلك اللحظة عن الأرض، وكانت يد الصغير تنغرس في ذراع الأب كما لو أنها تريد أن تؤذيه.

- ماذا حدث يا فونتشيتو؟ سأله وهو يلقي نظرة ذعر باتجاه لوكريثيا، إلا أنها لم تسمعهما بسبب ضجيج المحرّكات. كانت زوجته قد أغضبت عينيها وبدت كما لو أنها نائمة أو تصلي.

كان فونتشيتو يحاول أن يقول له شيئاً، لكنه يحرك فمه دون أن تصدر عن شفتيه أية كلمة. لقد كان شاحباً جداً.

هاجس رهيب دفع دون ريفوييرتو إلى الانحناء نحو ابنه والهمس في أذنه: - لن نسمح لإديلبيرتو تورييس أن يفسد علينا رحلتنا، أليس كذلك يا فونتشيتو؟

- إنه هنا يا بابا، هنا في الطائرة، يجلس وراءك. أجل، أجل، السيد إديلبيرتو تورييس.

أحس ريفوبيرتو بتشنج في رقبته، وبدا له أنه أصيب برض\*\* وتمزق. لم يستطع تحريك رأسه، والالتفات للنظر إلى المهد الذي خلفه. كانت رقبته تؤله ألاً رهيباً وبدأ رأسه يغلي ويغور. خطرت له الفكرة البلياء بأن دخاناً ينبعث من شعره كأنه موقد. أ يكون ممكناً أن ابن العاهرة ذاك موجود هنا، في هذه الطائرة، ويصافر معهم إلى مدريد؟ كان الغضب يتتصاعد في بدنـه مثل كتلة حمـم لا تقاومـ، ورغبة ضاربة في النهوض والانقضاض على إديلبيرتو توريـسـ، لضرـبهـ وشـتمـهـ دون رحـمةـ، إلى أنـ يـشعرـ باـستـنـفـادـ قـواـهـ. وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ الـأـلـمـ الحـادـ فيـ حلـقـهـ، تـمـكـنـ أـخـيـراـ مـنـ الـالـفـاتـ بـنـصـفـ جـسـدهـ. وـلـكـنـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ فـيـ المـقـدـ الذيـ خـلـفـهـ أيـ رـجـلـ، وـإـنـماـ اـمـرـأـتـانـ مـتـقـدـمـتـانـ فـيـ السـنـ فـقـطـ، وـطـفـلـةـ تـلـعـقـ مـصـاصـةـ حـلـوـيـ. فـاسـتـدـارـ مشـوشـاـ لـيـنـظـرـ إـلـىـ فـونـشـيـتوـ، وـانتـبـهـ عـنـدـئـذـ إـلـىـ مـفـاجـأـةـ أـنـ عـيـنيـ اـبـنـهـ تـلـمعـانـ بـوـمـيـضـ سـخـرـيـةـ وـسـعـادـةـ. وـأـنـهـ أـطـلـقـ فـيـ تـلـكـ اللـحظـةـ قـهـقـةـ مـدوـيـةـ.

- لقد صدقتَ الأمر يا بابا - راح يقول وهو يختنق بضحكـةـ صحـيةـ، خـبـيـثـةـ، نـظـيفـةـ، طـفـوليـةـ. - أـلـيـسـ صـحـيـحاـ أـنـكـ قدـ صـدـقـتـ الـأـمـرـ؟ـ لوـ أـنـكـ تـرـىـ كـيـفـ صـارـ وجـهـكـ ياـ بـابـاـ !ـ

حركـ رـيفـوبـيرـتوـ الآـنـ رـأـسـهـ بـراـحةـ، اـبـتـسـمـ، وـراحـ يـضـحـكـ أـيـضاـ، مـتـصالـحـاـ مـعـ اـبـنـهـ، وـمـعـ الـحـيـاةـ. كـانـواـ قدـ تـجاـوزـاـ طـبـقـةـ الـفـيـوـمـ وـكـانـتـ هـنـاكـ شـمـسـ سـاطـعـةـ تـضـيـءـ الطـائـرـةـ كـلـهاـ مـنـ الدـاخـلـ.



كان صوتها بلسماء، ماء بارداً وشفافاً يغرق فيه بجسده وروحه، وينتظره، يستعيد السكينة، يستمتع، وينبعث من أعمق أعماقه شيء صحي، عذب، متفائل. حاول ألا يفكر بما يليل، وألا يتذكر أشد اللحظات التي أمضها معها زخماً وسعادة خلال تلك السنوات الثمانية، بل تذكر فقط أنها قد خانته، وأنها نامت مع ميغيل وتواطأت معه، وأرسلت له رسائل العنكبوت، وتناظرت بأنها مختطفة، وأحرقت مكتبه. هذا هو ما عليه أن يتذكره فقط، كيلا تكون شديدة المراارة عليه فكرة أنه لن يعود إلى رؤيتها أبداً.

\*\*\*

ماذا جرى نخسيفيتا؟ إنها مختلفة. أكثر أناقة وترجأ من العادة، ترتدي ملابس مبهجة ولطيفة. تظهر على محياناها بين حين وآخر بعض الابتسامات وحمرة خجل لعوبة. ويدا لها أنها، عند المشي، تهز مؤخرتها أكثر قليلاً مما كانت عليه من قبل.

- إذا كنتِ راغبة في أن تخبريني بسرِّ، فإنني أؤكد لك أنني قبر أسرار يا خسيفيتا. وإذا كان في الأمر أحزان حب فساكون سعيداً بأن أتحول إلى منديل لمدوعك.

- لا أدري ماذا عليَّ أن أفعل يا دون فيليثيتو. خفضت صوتها وقد كستها حمرة الخجل من رأسها حتى قدميها. أدننت رأسها من رئيسها، وهمست له وهي ترمش بعينيها كطفلة بريئة: لاحظ أن نقيب الشرطة ذاك يواصل الاتصال بي هانفياً. لماذا يا ترى؟ كي يدعوني للخروج معه طبعاً !

لم يكن ما يشعر به حين يطير هو الخوف بالضبط ، وإنما شيء أشد زخماً من الخوف، إنه اليقين بأن ذلك الوضع قد يكون النهاية في آية لحظة: تفكك الجسد خلال جزء من الثانية، وربما الكشف عن السر الكبير الغامض، بمعرفة أن هنالك ما هو بعد الموت، ثمة احتمال، انطلاقاً من لا أدريته القديمة التي لم تكن تخف منها السنون، يميل أكثر إلى استبعاده. ولكن بعض القراءات تتوصل إلى سد الطريق أمام ذلك الإحساس الهاجسي المشئوم، إنها قراءات تتمكن من امتصاص ذلك الهاجس بطريقة يستغرق معها في ما يقرأه، وينسى تماماً كل ما سواه.

